كِتابُ الرَّسائِل

Письмовник

رواية

ميخائيل شيشكين

Михаил Шишкин

ترجمها عن الروسية:

د. فؤاد المرعي



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.



Письмовник

رواية

ميخائيل شيشكين

Михаил Шишкин

ترجمها عن الروسية:

د. فؤاد المرعي

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

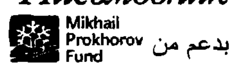
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L


كتاب الرسائل
Письмовник



يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الروسي

Письмовник

بدعم من 

حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من

OKNO Literary Agency

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

الطبعة الأولى

1434 هـ - 2013 م

ردمك 978-614-01-0702-1

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (+961-1)
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان
فاكس: 786230 (+961-1) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

●

فتحت عدد البارحة من "موسكو المساء" فوجدت فيها كتابة عني وعنك. يقولون: من جديد ستكون في البدء الكلمة، ولكنهم ما زالوا في المدارس يكررون على أسماعنا، كما في الزمن القديم، أن انفجاراً ضخماً كان في البدء فتناثرت اليابسة كلها.

ويزعمون، مع ذلك، أن كل شيء كان موجوداً قبل الانفجار ـ الكلمات التي لم تُلفظ بعد، وكذلك المجرّات المرئية وغير المرئية. هكذا، كان يعيش في الرمل الزجاج الذي سيكون، وحبيبات الرمل ـ بذور هذه النافذة التي مرق خلفها صبي يحمل كرة أخفاها تحت قميصه الرياضي. كان ذلك كتلة كثيفة من الدفء والنور.

يقول العلماء: ذلك كان بهواً بحجم كرة القدم لا نوافذ له ولا أبواب، ممتلئاً بالناس. أو لعله كان بطيخة. ونحن كنا فيها بذوراً. هناك نضج كل شيء، وحين تضخّم انفجر في الداخل.

وانشقّت البطيخة الأولى.

تناثرت البذور وأفرعت.

بذرة منها أنبتت رشيماً ثم صارت شجرتنا التي يزحف ظِلّ أغصانها الآن على حافة النافذة.

بذرة أخرى صارت ذكرى عن طفلة أرادت أن تكون صبياً، ـ حين كانت صغيرة ألبسوها في حفل تنكّري ثوب «القط ذي الحذاء العالي»، وحاول الجميع من حولها شدّ ذيله ثم قطعوه في نهاية الأمر، فاضطرت إلى التجول حاملة ذيلها بيدها.

بذرة ثالثة تفتقت منذ أعوام كثيرة خلت، فصارت فتى كان يحب كثيراً أن أحكّ له ظهره، ويكره الكذب لاسيما حين كانوا يؤكدون من فوق

المنابر كلها أن لا وجود للموت، وأن كلمات الكتاب شيء يشبه حافلات الترامواي التي تقود إلى الخلود.

لقد كان ذلك موركوفكا بحسب كتاب نبوءات الدرويديين.

كانت آخر عبارة كتبها، قبل أن يحرق مذكراته ومخطوطاته كلها، مضحكة إلى حدّ فظيع «لقد هجرني الكلام» ـ، استطعتُ أن أقرأ تلك العبارة قبل أن تنزع من يدي ذلك الدفتر.

كنا نقف عند النار، نقي وجوهنا من الحرارة براحات كفوفنا، ونتأمل عظام أصابعنا التي شفّت من خلال الأنسجة الحمراء المحيطة بها. وإلى الأعلى كانت تتطاير كتل ساخنة من رماد الصفحات المحترقة.

هِهْ، كدت أنسى أن أقول لك أنّ كل الوجود سيتجمّع من جديد فيما بعد في نقطة واحدة.

فوفكا ـ موركوفكا، أين أنت الآن؟

ما هذا الذي يحدث لنا؟ جوليا ـ الحمقاء تبذل الجهد وترسل له الرسائل، وحضرة سان ـ بري القاسي القلب يكتفي بإرسال دعابات قصيرة، يصوغها أشعاراً أحياناً غير متطابقة القوافي مجانساً فيها بين «السمكات المالحات» و»السويديات المليحات»، أو بين «التجهيز» و»التصعيد»، أو «النظارة الرديئة» و»ابتسامة الجوكندة المضيئة» (بالمناسبة، هل فهمت أنت لماذا تبتسم الجوكندة؟ ـ أنا، أعتقد، أني فهمت)، أو بين «الكرش» و»ربّ العرش».

حبيبي!

لماذا فعلت ذلك؟

■

ما تبقى لي هو فقط أن أختار الحرب. من الواضح أن هذا الأمر لا يتطلّب جهداً. ففي هذا الوطن الذي لم توهنه الضربات يتوفر هذا الشيء

في كل الأحوال، أكثر مما يتوفر الخبز. فما إن تقلّب صفحات الجريدة حتى تشرع الممالك الصديقة في اصطياد الأطفال بالحراب وفي اغتصاب العجائز. ولسبب ما، يصبح محزناً جداً مصرع أمير صغير بريء يرتدي قميصاً بحرياً. مصرع النساء والشيوخ والأطفال أخبار لا تلامس الأذن، أما هنا، فثمة قميص بحري.

ويصرخ قارع طبل مثل عنزة متقاعدة، بصوت منفرد يعلو فوق ضجيج النواقيس، الوطن ـ الأم يناديكم.

استُدعيت إلى مركز التجنيد: كل فرد يطالب بأوسترليتز خاصة به!

إنه يحتاج ذلك فعلاً.

في مقر اللجنة الطبية نظر الطبيب العسكري إلى عيني باهتمام. وقال:

ـ أنت تحتقر الجميع. أتدري، أنا أيضاً كنت مثلك. كنت في مثل عمرك حين مارست أول تدريب عملي في المستشفى. وذات يوم جاؤونا بعجوز متشرد صدمته سيارة. ظلّ حياً، ولكن إصابته كانت شديدة جداً. لم نهتم به كثيراً. كان واضحاً أن هذا العجوز لا يحتاجه أحد، وأن أحداً لن يأتي باحثاً عنه. رائحة كريهة، قذارة، قمل، قيح. الخلاصة، وضعناه في ركن بعيد، كي لا يلوّث شيئاً. سيبلغ نهايته دون مساعدة. ولكن، عليّ بعد ذلك أن أنظّف المكان ثم أغسل الجثة وأرسلها إلى المشرحة. ذهب الجميع وتركوني وحيدا. خرجتُ كي أدخن سيجارة. وفكّرت ـ ما حاجتي إلى هذا كله؟ ماذا يعني لي هذا العجوز؟ ما الذي يُلزمني به؟ في أثناء تدخيني مات الرجل. وهأنذا أمسح الدم والقيح ـ كيفما اتفق، كي أرسله سريعاً إلى برّاد المشفى. وفجأة خطر في بالي أنه قد يكون أباً لأحد. أحضرت طستاً من الماء الساخن ورحت أغسله. الجسد هرم، مهمَل، ضئيل. لم يمسّده أحد منذ أعوام. هأنذا أغسل قدميه، الأصابع معوجّة، متقلصة بشعة، والأظافر متآكلة تكاد لا تُرى ـ التهمتها الفطور.

أمسح بالإسفنجة جراحه وتشققات جسده وأحادثه بصوت خفيض: ما بك، يا أبتي! عشتَ حياة قاسية؟ صعب جداً ألاّ يحبك أحد. وكيف يمكن لمن في مثل سنك أن يعيش في الشارع ككلب مشرّد؟ ولكنّ كل شيء انتهى الآن. استرحْ! كل شيء حسن الآن. لا شيء يؤلمك، ولا أحد يطاردك. هكذا رحت أغسله وأتحدث إليه. لست أدري، هل ساعده ذلك في الموت، لكنه ساعدني كثيراً على أن أحيا.

ساشينكا يا حبيبتي.

●

فولودينكا!

أتأمل الغروب. وأفكر: ألا يمكن أن تكون أنت الآن، في هذه اللحظة نفسها، تنظر أيضاً إلى هذا الغروب؟ إن هذا يعني أننا معاً.

يا لهذا السكون المحيط بي.

ما أروع السماء!

ها هي ذي شجيرة بيلسان ـ هي أيضاً تحسّ بالعالم.

يبدو لي في دقائق كهذه أن الأشجار تدرك كل شيء ولكنها لا تستطيع الكلام ـ إنها مثلنا تماماً.

وفجأة يتملكني إحساس حاد جداً بأن الأفكار والكلمات مصنوعة، في الواقع، من الماهية ذاتها التي صُنع منها هذا الشفق، أو ذاك الشفق، المنعكس في هذه الحفرة الممتلئة بالماء، أو تلك التي انعكست فيها صورة يدي ذات الإصبع المضمّد. كم أود لو أنك ترى الآن كل هذا!

تصوّر! أخذت سكين المطبخ، وجرحت بغباء إصبعي حتى الظُفر. ضمدته كيفما اتفق، ثم رسمت على الضماد عينين وأنفاً. تكوّن معي "الطفل الإصبع". وهأنذي أتحدث معه عنك طول المساء.

أعدت قراءة البطاقة الأولى التي أرسلتها إليّ. صحيح! صحيح!

صحيح! الأمر كذلك بالضبط! للأشياء كلها ما يقابلها ويتجانس معها! انظر حولك! كل الأشياء متقابلة ومتجانسة! هذا العالم مرئي، وهو ـ إذا أغمضت عيني ـ غير مرئي. عقارب الساعة هذه يقابلها ويجانسها عقب سيجارة، في عالم صار كله منفضة سجائر. ها هي ذي شجرة سرو تخيط بإبرها قبة السماء ـ وعلى الرف عشبة طبية تفيد في التخلص من الغازات. وإصبعي المضمد هذا ـ أظن أن جرحه سيترك ندبة تبقى إلى الأبد ـ يقابله ويجانسه إصبعي نفسه، ولكنه إصبعي الذي كان قبل أن أولد، أو سيكون بعد زوالي من الوجود، الأمر سيّان على ما أعتقد. كل شيء في الوجود متقابل ومتجانس مع كل شيء فيه. إن هذه التقابلات تربط العالم بعضه ببعض، تنغرس فيه، كالدبابيس المغروسة في قبعة، كيلا يتفتت.

وأشدّ ما يُدهش هو أن هذه التقابلات كانت ـ منذ الأزل ولا أحد يستطيع اختلاقها، كما لا يستطيع أحد ابتكار بعوضة غاية في البساطة، أو هذه الغيمة من فئة الغيوم ذات المدى البعيد في الطيران. أتفهم؟! إن أي خيال لا يكفي كي نبتكر أبسط الأشياء!

من ذاك الذي قال: إن الناس متعطشون للسعادة؟ ما أجمل هذا القول! أنا نفسي ـ متعطشة للسعادة.

بالمناسبة، صرت ألاحظ أنني أكرر حركاتك. أستخدم في حديثي كلماتك. أنظر بعينيك، أفكر مثلما تفكر، أكتب مثلما تكتب.

أتذكّر صيفنا طول الوقت.

رسومنا بالزبدة على قطع الخبز المحمص في الصباحات.

أتذكر طاولتنا في ظل شجيرة السيرين، الطاولة المغطاة بقطعة من المشمّع انطبع عليها مثلث رمادي اللون ـ أثر تركته المكواة المحماة؟

هاك أمراً لا تستطيع تذكّره، إنه يخصني وحدي: أنت تمشي فوق العشب صباحاً تاركاً في ضوء الشمس ما يشبه درب تزلجٍ لامعاً.

والروائح التي تنبعث من الحديقة! روائح قوية، كثيفة معلّقة في

الهـواء كغمامة. روائـح تتمنى لو تصبّها فـي الكأس بدلاً مـن مغليّ أوراق الشاي.

كانت خاطرة واحدة تهيمن على كل ما حولنا ـ كل نبتة، سـواء مشينا في الحقل أو في الغابة، تسـارع إلى تلقيحنا بغبار الطلـع والبذور. جواربنا كلها تحمّلت بالبذور.

ولعلـك تذكر كيـف وجدنا في الحقـل أرنبـاً تقطّعت قوائمـه بضربة منجل لقطع الحشيش؟

والبقرات الشهلاوات العيون.

وبعر الماعز في الدرب الضيق.

وبِركتنا المسـتنقع ـ فـي القاع كـدر وطيـن، وعلى السـطح طحالب أنبتت زهوراً وامتـلأت ببيض الضفادع. والضفادع تناطح السـماء بجباهها السميكة. نخرج من الماء وننفض الحشائش العالقة بنا.

أتمـدد لأتشـمّس، أغطـي وجهـي بقميصـي، والهـواء يرسـل حفيفاً كحفيف الملابس الداخلية المنشّـاة. وفجأة أحس بشـيء يدغدغ سُـرّتي ـ أفتح عيني، فإذا به أنت تهيل خيطاً رفيعاً من الرمل من قبضتك على بطني.

نعود إلى البيت والريح تمتحن قدرة الأشجار وقدرتنا على أن نكون أشرعة.

نجمع ثمـار التفـاح السـاقطة علـى الأرض ـ فجّة، حامضـة، تصلح لصنع منقوع الفواكه ـ ونتراشق بهذه الأعطيات.

الغابة في الليل مسننة.

يوقظني في الليل صوت اصطفاق فخّ مصيدة الفئران.

■

ساشينكا يا جميلتي!

لا بأس، سأرقّم رسائلي لكي تعرفي أية رسالة ضاعت.

اعذريني، إذا ما وجدت رسائلي قصيرة وغير وافية، ـ أنا لا أملك أي وقت للاهتمام بنفسي. ولا أشبع نوماً، أتمنى كثيراً أن أغمض عيني وأنام ولو واقفاً. لقد قتلَتْ ديكارت ضرورة الاستيقاظ فجراً، في الخامسة صباحاً، وإلقاء محاضرة في الفلسفة على الملكة السويدية كريستينا. أما أنا فماأزال صامداً.

كنت اليوم في الأركان، وفجأة أدهشني خيالي في المرآة وأنا في كامل لباسي العسكري. أحسست بغرابة المنظر، ما هذه المسخرة؟ اندهشت من نفسي، هل أنا عسكري حقا؟

أنت تدركين أن في هذا الأمر، مع ذلك، شيئاً ما ـ أن تحيا، مترادفاً مع عظام وجه الجندي الرابع في النسق.

سأحكي لك حكاية القبعة. هي حكاية قصيرة. سرقوها مني. أعني القبعة. والوقوف في الصف من دون قبعة ـ مخالفة للنظام، إنه، بإيجاز، جريمة.

رئيس رؤسائنا وقائد قادتنا دقّ الأرض بقدميه وتوعدني بأن أنظف المراحيض حتى آخر الزمان.

ـ ستلعق المرحاض بلسانك يا سافل!

هكذا قال.

لا بأس، في اللغة العسكرية شيء ما مثير للإلهام. لقد قرأتُ في مكانٍ ما، أن ستندال تعلّم الكتابة ببساطة ووضوح حين قرأ أوامر نابوليون الحربية.

والمرحاض هنا، يا صديقتي البعيدة ساشكا، قضية تحتاج إلى شرح. تخيّلي ثقوباً في أرضية ملطخة بالقذارة ـ كلاّ، الأفضل ألاّ تتخيّلي! ـ وكلّ واحد يحرص على ألاّ يصب كومة برازه في الثقب بل على أطرافه. وهكذا ينغمر المكان كله بالبراز. أما عمل معدة محسوبك فدعينا منه ـ إنه موضوع مستقل. لا أدري سبباً لمرض المعدة الدائم في هذا المكان

النائـي. ولا أفهمُ كيف يمكن أن يهب المرء نفسـه لدراسـة علـم الانتصار وهو يقرفص طول الوقت فوق الثقب الذي لا قرار له، تسيل منه القذارة؟

لن أطيل الحديث، قلت له:

ـ ومن أين آتي لحضرتكم بقبعة؟

فأجابني:

ـ لقد سرقوها منك، اذهب واسرق أنت أيضاً!

وهأنذا أذهب لأسـرق قبعة. ولكنْ ليس هذا بالأمر السـهل. والأدق أنه معقد جداً، لأن كل فرد يسعى إلى ذلك.

ذهبتُ هائماً على وجهي.

وفجأة سألتُ نفسي: من أنا؟ أين أنا؟

ثم ذهبت لأنظف المراحيض. فأحسسـت بانفراج يسـود العالم كله. لقد كان من الضروري أن أوجد هنا كي أتعلّم كيف أفهم الأشياء البسيطة. أتدرين؟! ليس في الخراء أي شيء قذر.

●

هأنذي أكتب لك ليلاً. لقد أكلت كعكة الآن وأنا في الفراش، فانتشر الفتات فوق الشرشف وراح يقرصني فيمنعني من النوم.

وفي النافذة فوق رأسي تكتظ النجوم.

درب التبانة يقسـم السـماء من أقصاها إلـى أقصاها. تخيّـل! إنّ هذا يشـبه كسـراً عادياً عملاقاً. في البسـط ـ نصف الكون وفي المقـام ـ نصفه الآخر. لقد كنت دائماً أكـره هذه الكسـور والأعداد ومربّعاتهـا ومكعّباتها ومـا يدعونـه بالجـذور. كلّ هذا لا جسـد لـه، ولا يمكـن تصـوّره، وليس فيه أبـداً ما يمكن الإمسـاك بـه. الجذر، من حيـث هو جـذر ـ موجود عند الشجرة. إنه قويّ، يزحف، يمسـك بالأرض ويلتهمها، إنه متشبثٌ، ماصٌ، جامحٌ، متعطشٌ، حيّ. أما هذا، فهراء، شخبطة يسمونها جذراً!

وكيف يمكن أن نفهم إشـارة "ناقص"؟ نافذة "ناقص" ـ كيف يمكن أن نفهم هذا؟ نافذة لا وجود لها في أي مكان. ولا وجود لما وراءها.

أو أنا "ناقص"؟

هذا أمر لا يمكن أن يكون.

أنا عموماً كلّي إنسان يمكن أن تتلمّسه كلّه.

وأن تشمّه.

بل الأرجـح أنه يُشـمّ. كما فـي الكتيب الـذي كان أبي يقـرؤه لي في طفولتي قبل النوم. الناس أنواع. ثمة أنـاس يصارعون اللقالق طول الوقت. وهناك أناس بساق واحدة يتنقلون بواسطتها بسرعة السهم، ولهم قدم كبيرة إلى حدّ يمكّنهم من أن يستظلّوا بظلّها الواسع من حرّ الشمس، ويستريحوا كما لو كانـوا في بيوتهـم. وهناك أناس آخـرون لا يعيشـون إلا على روائح الثمار. وحين يضطرون إلى القيام برحلة طويلة يحملون معهم هذه الثمار، أما إذا اشتمّوا رائحة كريهة فإنهم يموتون. أعني بهذا الكلام نفسي.

أتدري؟! كل ما هو حـي يحتاج أن تكـون له رائحة لكـي يعيش. أياً كانت تلك الرائحة. أما تلك الكسـور كلها، وعموماً، كل ما علمّونا إياه، ـ فلا رائحة له.

خلف النافذة، واحد من محبي الليل يتجوّل، ويدحرج بقدمه زجاجة فارغة، فيعلو صوت الزجاج الرنان فوق إسفلت الشارع المقفر.

انكسرت الزجاجة.

في مثل هذه الدقائق في الليل يشـعر الإنسـان بالوحدة ويودّ كثيراً أن يكون سبباً لحدوث شيء ما.

تتملكني رغبة جامحة في أن أكون معـك! أعانقك، أداعبك. أتعرف ما الـذي ينتج لـو أننا قسّـمنا هذا البسـط مـن النجـوم خلف النافـذة على المقام؟ نصف الكون على نصفه الآخر؟ الناتج سـيكون أنا. وأنت ستكون معي.

لقد رأيت اليوم طفلة وقعت عن دراجتها ـ انجرحت ركبتها، فجلست تبكي بمرارة، واتسخ بنطالها القصير الأبيض. حدث ذلك على الكورنيش، حيث تماثيل الأسود التي امتلأت أفواهها بالأوساخ وأوراق الصرّ والعصي الصغيرة ـ بقايا البوظة. وحين عدت إلى البيت وجدتُ نفسي، لسببٍ لا أدريه، أرى أن الكتب واللوحات العظيمة ليست أبداً عن الحب. هي تتظاهر بأنها عن الحب، لكي تكون قراءتها أكثر إمتاعاً. ولكنها، في الواقع، عن الموت. الحب في الكتب مجرد درع، أو هو، على نحو أدق، مجرد عصابة على العيون، تحجب الرؤية كي تخفف من فظاعة المشهد.

لست أدري أيّ رابط بين هذا وبين الطفلة التي سقطت عن الدراجة. لقد بكت بما فيه الكفاية، ولربما نسيَتْ ذلك الأمر الآن، ولكن ركبتها المجروحة ستبقى، لو دونت في كتاب، حتى ساعة موتها، وبعد ذلك أيضاً.

أظن أن الكتب كلها ليست عن الموت، بل عن الأبدية، ولكن الأبدية فيها ليست حقيقية ـ بل هي مِزْقة، لحظة ـ مثل ذبابة في حبة كهرمان. حطّت دقيقة لتحكّ أرجلها الخلفية فبقيت هكذا إلى الأبد. الكتب تنتقي طبعاً لحظات جميلة متنوعة، ولكن، أليس فظيعاً أن تبقى هكذا خالداً خزفياً مثل ذلك الراعي الذي ينحني أبداً محاولاً تقبيل الراعية؟

أنا لا أريد أي شيء خزفي. أريد أن يكون كل شيء حياً، أن يكون هنا والآن. أريدك أنت، دفئك، صوتك، جسدك، رائحتك.

أنت الآن بعيد إلى حدّ يجعلني لا أخاف أن أصارحك بأمر. أنت لا تعرف أني كنت آنذاك، في البيت الريفي، آتي إلى غرفتك في غيابك. أشمّ رائحة كل شيء. قطعة الصابون التي تستعملها، زجاجة عطرك، آلة الحلاقة. جوف حذائك. أفتح خزانتك، أشم كنزتك، وكمّ قميصك

وياقته. أقبّل زر القميص، وأنحني فوق سريرك، أقرّب أنفي من الوسادة. كنت سعيدة جداً في تلك الأيام. ولكن ذلك لم يكن كافياً! السعادة تحتاج إلى شهود. أنت لا تستطيع أن تشعر حقاً أنك سعيد، إلاّ إذا حصلت على من يؤكد ذلك، بنظرة أو لمسة أو وجود. أما إذا كان من أسعدك غائباً فمن خلال وسادة أو كمّ قميص أو أزرار. لقد كدت تضبطني ذات مرة ـ هربتُ بسرعة إلى الشرفة. وحين رأيتني رحت ترمي أشواكاً برية على شعري. يومها غضبت منك، أما الآن، فأنا مستعدة للتضحية بأي شيء مقابل أن ترمي، أنت، تلك الأشواك على شعري.

أتذكّرك، وقد انقسم العالم إلى ما قبل اللقاء الأول وما بعده.

كان موعدنا قرب التمثال.

قشّرت برتقالة ـ التصق كفي بكفك.

كنتَ عائداً لتوّك من المستوصف، وفي سنّك حشوة طازجة ـ رائحة العيادة السنّية تفوح من فمك. وقد سمحت لي أن ألمس الحشوة بإصبعي.

ها نحن نقوم بتبييض السقف في المنزل الريفي بعد أن غطينا الأثاث والأرض بالجرائد القديمة. كنا نمشي حفاة وأوراق الجرائد تعلق بأقدامنا. تلطخنا بالدهان من الرأس إلى القدم. فشرع كل منا يكشط الدهان الأبيض عن شعر الآخر، وقد اسودّ لسانانا وأسناننا من أكل البطم.

بعد ذلك علّقنا الستائر المصنوعة من التول، وتصادف أن كان كل منا في جهة من جهتي الستارة، فتمنيتُ بشدة أن تقبلني من وراء ذلك التول!

هأنتذا تشرب الشاي فتلسع لسانك. تنفخ فيه كي يبرد، وتشرب رشفات صغيرة محدثاً صوتاً عالياً عند ارتشافها، غير مكترث بكون ذلك عيباً حسبما علّموني في طفولتي. فأشرعُ بشرب الشاي بطريقتك. لأن الطفولة لم تعد موجودة. وكل شيء بات جائزاً.

ثم كانت البحيرة.

رحنا نهبط فوق منحدر حاد ونقترب من الضفة المستنقعية فنشعر تحت أقدامنا العارية بدرب لزج مرن.

انزلقنا نحو العمق الخالي من الأعشاب. الماء عكر، مشمس، بارد بفعل الينابيع التي كانت تندفع من أسفل.

حين ذاك، في الماء، تلامس جسدانا لأول مرة. على الشاطئ، كنت أخاف أن ألمسك. أما هنا فقد اندفعت نحوك وطوّقت خاصرتيك بساقيّ محاولةً إغراقك. هكذا كنت في طفولتي ألاعب أبي على شاطئ البحر. تحاول التملّص، تبذل جهداً كي تفك ذراعيّ المتشابكتين، فلا أستسلم. أبذل كل ما أستطيع كي أغطّس رأسك في الماء. التصقت رموشك بعضها ببعض، وابتلعت الكثير من الماء وأنت تضحك وتبصق الماء من فمك، وتجأر محاولاً الإفلات.

نجلس بعد ذلك تحت أشعة الشمس.

أنفك متسلخ، جلده يتساقط وريقات رقيقة صغيرة بفعل الشمس. ننظر إلى برج الأجراس على الضفة المقابلة وخياله المتأرجح في الماء.

أجلس أمامك عارية تقريباً، ولسبب ما، لا أشعر بالخجل إلا من قدمي، من أصابعهما، فأطمرها بالرمل.

أحرقُ بالسيجارة نملة، فتحاول الدفاع عنها.

نذهب مباشرة إلى البيت، عبر الحقل بين الأعشاب الطويلة الجافة تتقافز الزيزان ـ تلتصق بتنورتي.

في الشرفة، أجلستني على أريكة مجدولة من القش ورحت تنفض الرمل عن قدمي، مثلما كان يفعل أبي حين كنا نعود من الشاطئ. لقد كان يمسح لي قدمي أيضاً كي لا يبقى الرمل بين أصابعهما.

وفجأة صار كل شيء واضحاً جداً، وبسيطاً جداً، وحتمياً جداً ومنتظراً منذ زمن بعيد.

وقفت أمامك بلباس السباحة المبلل، مسبلة يدي، ناظرة إلى عينيك.

أما أنت فأمسكت بحمالات ثوب السباحة ونزعته عن جسدي.

كنت متهيئة لهذا منذ زمن بعيد، كنت أنتظره، ولكني كنت خائفة، وكنت، أنت، أكثر مني خوفاً. لقد كان من الممكن لهذا أن يحدث منذ فترة طويلة، آنذاك، في الربيع، ـ أتذكر؟ ـ أخذت يدك ووضعتها في حضني، ولكنك سحبتها. أما الآن فأنت تبدو مختلفاً تماماً.

أتعرف ما الذي كان يخيفني؟ الألم؟ لا. بل إن ذلك لم يكن مؤلماً قَط. ولم تكن هناك أية دماء. كنت أخاف أن تظنّ أنك لست الأول في حياتي. لم أتذكر إلا في المساء أنني نسيت أن أنشر ثوب السباحة ليجف. كان مرمياً، مهملاً، مبللاً، مكوّماً، بارداً، تفوح منه رائحة العفن.

التصقت بك وقبّلت أنفك المتسلخ. لم يكن في البيت أحد غيرنا، ولكننا، لسبب ما، كنا نتكلّم همساً. لقد صار من الممكن، لأول مرة، أن أنظر ـ دون أن أخاف شيئاً أو أخجل ـ إلى عينيك. إنهما عينان بندقيتان فيهما حبيبات كستنائية وخضراء فوق القزحية.

كل شيء تغيّر فجأة ـ صار ممكناً أن ألمس أي شيء كان وصولي إليه مستحيلاً، أي شيء لم يكن يخصني. ما كان غريباً قبل لحظة ـ أصبح لي الآن، وكأن جسدي تمدد ونما ملتحماً بجسدك. ما عدت أشعر الآن بنفسي إلا من خلالك. جلدي لا يملك القدرة على الإحساس إلا في تلك الأماكن التي لمستها منه.

أنت نمت في الليل، أما أنا فلم أستطع، رغبت كثيراً بالبكاء ولكني خشيت أن أوقظك. نهضت من الفراش وذهبت إلى الحمّام. هناك بكيت حتى شبعت.

انتابتني في الصباح أمام المغسلة موجة مفاجئة من السعادة حين رأيت فرشاتي أسناننا في كأس واحدة. كانتا واقفتين متصالبتي الساقين تنظر كل منهما إلى الأخرى.

إن أبسط الأشياء يمكن أن يقتلكَ سعادةً. أتذكر؟! حين كنّا في

المدينة ـ أغلقت على نفسك باب الحمام. وفي طريقي إلى المطبخ مررت بالقرب منه، فلم أتمالك نفسي. جلست قرب الباب ورحت أهمس في ثقب المفتاح:

ـ أنا أحبك!

همستُ بصوت خفيض جداً، ثم بصوت أعلى. غير أنك لم تفهم ما أهمس به، فأجبتني مدمدماً:

ـ لحظة، سأخرج سريعاً.

وكأني كنت بحاجة إلى الحمام.

ـ ما أحتاجه هو أنت، أنت!

هأنتذا تجلس أمام الفرن. في إحدى يديك ملعقة وفي الأخرى كتاب طبخ مفتوح. لست أدري ما الذي دفعك إلى ذلك. قلت أنك ستحضّر كل شيء بنفسك. وطلبت مني ألاّ أضايقك. أما أنا فتعمدت التردد على المطبخ زاعمة أني أبحث عن هذا الشيء أو ذاك، ولكني كنت أفعل ذلك فقط من أجل أن أراك. أتذكر؟ كنت تفرك اللحم المفروم، فلم أتمالك نفسي، غمست يدي معك في القدر ـ ما أروع أن نفرك هذا اللحم البقري الفوّاح معاً فتنفر قطعه الصغيرة من بين أصابعنا!

أنت لم تكن، عموماً، على علاقة جيدة بملاعق الطبخ والنزّالات وأواني القلي ـ كل شيء كان يُبعث حياً بين يديك فيحاول الإفلات والقفز والفرار.

أذكر كل شيء، كل شيء.

كنا متمددين جنباً إلى جنب لا يستطيع أي منا فصل نفسه عن الآخر ـ بعد ذلك رسمت أسناني نصف دائرة على كتفك.

تصالبت سيقاننا وتلاصقت أقدامنا وتلامست بحنان، وانزلقت أصابعنا المدهونة بالكريم فتداخلت.

في الحافلة الكهربائية انشدّت الأنظار إلينا ـ قبضة يدك تحت أنفي،

وأنا أقبل سلامية إصبعك التي ترمز لأيلول.

نصعد إلى شقتك، فيبدو لنا أن المصعد يزحف ببطء غير محتمل. حذاؤك تحت الكرسي وقد دسست فيه جواربك.

آنذاك قبّلتني في ذلك المكان لأول مرة، ولكني لم أتمكن من الاسترخاء بحال من الأحوال. تنهض وقد فهمت أن لمس ذلك المكان أمر غير جائز. الأولاد فقط هم من يظنون أن ثمة سرّاً بين سيقان الفتيات، ولكن، ليس هناك في حقيقة الأمر غير البلل واللزوجة والبكتيريا.

في الصباح لم أجد سراويلي الداخلية، ضاعت في مكان ما، فتّشت البيت كله ولم أجدها. أنا مازلت أعتقد حتى الآن أنك سرقتها وأخفيتها في مخبأ تعرفه. وهكذا خرجت من دون سراويل. كنت أسير في الشارع والريح تتسلل تحت تنورتي فيتملكني إحساس مدهش بأنك، أنت، موجود في كل مكان من حولي.

أنا أعرف أني موجودة، ولكني أحتاج طول الوقت إلى براهين، إلى ملامسات. أنا من دونك ـ ثوب نوم ملقى على الكرسي.

بسببك فقط صرت أحب يديّ وساقيّ وجسدي ـ جسدي أنت قبّلته، أنت تحبه.

أنظر إلى نفسي في المرآة فتراودني فكرة: هذه هي التي يحبها هو.

وأعجب بنفسي. من قبل لم أكن أعجب بنفسي أبداً.

أغمض عيني وأتخيل أنك، أنت، هنا.

أستطيع أن ألمسك، أن أضمك إلى صدري.

أقبّل عينيك ـ فتمتلك شفتاي القدرة على الإبصار.

كم أودّ أن أمرّ بطرف لساني، كما فعلت آنذاك، على ذلك الخط الرفيع الذي يمرّ في وسط صدرك ويمتد من أعلى إلى أسفل، من أول الجذع حتى آخره، وكأنك طفل عارٍ من نصفين تمّ لصقهما.

لقد قرأتُ في مكان ما أن الأجزاء ذوات الرائحة الأقوى هي الأقرب

إلى الروح.

أطفأت النور الآن، لكي أتكوّر أخيراً في كومة وأنام، أما السماء فقد تراكضت فيها الغيوم في أثناء كتابتي إليك. وكأن أحدهم مسح كل شيء عن لوح المدرسة بخرقة قذرة، فلم يبق غير لطخات بيضاء.

أشعر أن كل شيء سينتهي على خير. القدر يخيفنا فقط، ولكنه يحفظنا، ويدفع عنا البلاء الحقيقي.

■

ساشكا، يا قريبة روحي!

أنا أثرثر، أما في حقيقة الأمر، فلولاك، لولا رسائلك، لكنت فطست منذ زمن بعيد، أو لكففت أن أكون أنا ذاتي ـ لست أدري أي الحالين أسوأ.

سبق أن كتبت لك عن معذِّبنا، الذي أطلقت عليه لقب كومّود، فالتصق به هذا اللقب ـ أنت تدركين أن لا علاقة لهذا الأمر بابن مارك أفريلي. لقد حرص اليوم حرصاً شديداً على تعليمي ما هي الحياة. لا أريد أن أكتب لك عن ذلك، أودّ أن أنسى نفسي وأفكر بشيء ما لا ينتمي إلى هذا المكان، أن أفكر بذاك المارك أفريلي.

لا أفهم أي علاقة يمكن أن تكون بين مارك أفريلي الذي مات قبل مليون عام، والذي يعرفه الجميع، وبيني، أنا القابع هنا، الذي يرتدي سراويل حكومية خشنة، والذي لا يعرفه أحد.

ولكن ها هو ذا يكتب، من ناحية أخرى: ما من أحد يكون سعيداً ما لم يعدّ نفسه سعيداً.

أظن أن هذا ما يجمعني به. إنسانان سعيدان. ولا أرى فارقاً مهماً بين أن يكون هو قد مات في زمن ما وأنا مازلت حياً هنا. الموت بالقياس إلى سعادتنا يبدو تافهاً. لقد اجتازه نحوي كما يجتاز المرء عتبة الدار.

هـذا الإحسـاس بالسـعادة ينطلق مـن كوني أفهـم أن كل هـذا الذي حولي ـ ليس حقيقياً. الحقيقـي ـ هو ذاك، حين زرتـك لأول مرة ودخلت لأغسـل يدي في الحمّام فرأيت هناك إسـفنجة حمامك فتملكني إحساس حاد بأنها لامست نهديك.

ساشـينكا، يا أنت لي! لقد كنا معاً، ولكني لم أفهم ذلك فهماً حقيقياً إلا هنا.

الآن أتذكّر وأدهش كيف أني لم أدرك ذلك في حينه.

أتذكرين يـوم انطفـأ المصباح فـي بيتكم الريفـي؟ يومهـا أضأت لي شـمعة، ووقفت أنا على كرسـي أعالج الفاصـم الكهربائي. نظـرت إليك. كنت تبدين خارقة في المكان نصف المظلم، وضوء اللهب ينسـكب على وجهك! ووهج الشمعة ينعكس في عينيك.

أو يوم كنـا نتنزه فـي حديقتنا، فتركضيـن من فوق الدرب الإسـفلتي إلى المرج، تقطعين كومة من العشب وتحملينها إليّ لتريني هذه العشبة أو تلك، وتسألين:

ـ ما هذا؟ وماذا يسمون هذا؟

ها أنت ذي تسيرين وكعبا حذائك ملطخان بالوحل.

أحد أصابـع قدمـك مسـكين، أزرق ـ أزرق، داس فوقـه أحدهم في الحافلة وكنت تنتعلين صندلاً.

والبحيرة، إني أراها الآن.

الماء كثيف، تكاثرت فيه الطحالب والغيوم.

اقتربت مـن الحافة تماماً، رفعت تنورتك، غمسـت سـاقك في الماء فغمرها حتى البطة ـ كنت تجربينه ـ صرخت:

ـ الماء بارد!

سـحبت سـاقك ومررت بقدمك فوق سـطح الماء وكأنك تمسّـدين انحناءاتـه. أرى كل شـيء وكأنـه لـم يكـن فـي الماضـي بل يحـدث الآن

مباشرة.

خلعت ملابسك، وعقصت شعرك كي لا يتناثر. هأنتذي تلجين في الماء وأنت تتفقدين عقصة شعرك مرات عدة.

انقلبت على ظهرك ورحت تدقّين البحيرة بساقيك، فيلتمع كعباك الورديان في رشاش الماء.

تتمددين، بعد ذلك، نجمة، باسطة ذراعيك وساقيك، وقد انفرطت عقدة شعرك الطويل فانتشر في كل الاتجاهات.

فيما بعد، على الشاطئ، رحت أسترق إليك النظرات دون أن تشعري.

والآن، أرى غرفتك.

تخلعين حذاءك ـ تحنين أحد كتفيك، ثم تحنين الآخر.

أقبل راحتيك فتعترضين:

ـ لا تفعل، إنهما غير نظيفتين!

طوّقت رقبتي بيديك ورحت تقبلينني وتعضين شفتيّ.

ثم صرخت فجأة،

فانتابني الخوف.

ـ ماذا حدث؟

ـ أنت تضغط بكوعك شعري.

انحنيت فوقي ـ تلامسين بحلمة نهدك حاجبيّ ورموشي. ثم أرخيت شعرك ستاراً فوقنا، نحن الاثنين.

أنزع عنك سراويلك، سراويل طفلية بلون الكريم موشاة بريبانات صغيرة، فتساعدينني رافعة ركبتيك.

أقبلك في ذلك المكان حيث الجلد أكثر ليناً ورقة ـ بين الفخذين من الداخل.

أدس أنفي في الشعر الكثيف الدافئ.

السرير يئن يائساً، فننزاح عنه إلى الأرض.

تتأوهين تحتي وتتقوسين كجسر صغير.

نتمدد، وينساب تيار هواء لذيذ فوق سيقاننا المبتلة بالعرق.

على ظهرك احمرار لطيف وتطريزات طبعتها القضبان القاسية للحصيرة الصينية. أمرّر أصبعي فوق فقرات ظهرك النافرة.

آخذ القلم عن الطاولة، وأبدأ أربط بخطوط الحبر بين الشامات على ظهرك. يدغدك ذلك. تلفّين جذعك أمام المرآة وتنظرين من فوق كتفك إلى ما رسمته. أحاول مسحه ولكنك تقولين:

ـ دعه!

ـ هل ستبقين هكذا؟

ـ نعم.

قذفت بساقيك إلى الجدار، ورحت، فجأة ترسمين بهما خُطاً صغيرة على ورق الجدران، قوّست ظهرك، ثم غرست كوعيك في الحصيرة، وجمدت هكذا بساقين مرفوعتين. لم أتمالك نفسي، أردت أن أقبلك في ذلك المكان ـ فتجمعت فوراً وانهرت على الأرض.

هأنذا أغادر، فتخرجين إلى الباب لوداعي ـ عارية إلا من القميص الداخلي القصير، تشعرين بالخجل فتشدين ذيل القميص إلى أسفل.

في آخر ليلة لنا، استيقظتُ ورحتُ أصغي إلى صوت أنفاسك.

كنت معتادة على النوم متجمعة «كالدمية الصغيرة»، رأسك ملفوف باللحاف لا تبقين منه غير فتحة صغيرة للتنفس. تمددت ورحت أنظر من خلال تلك الفتحة. كم كنت مضحكة! ـ غفوت وتحت خدك حبة من الشوكولاتة، ومن فمك تسيل الشوكولا خيطاً رفيعاً.

كنت ممدداً أحرس تنفسك.

أصغي إلى إيقاع أنفاسك، وأحاول التنفس معك بالإيقاع نفسه. شهيق ـ زفير، شهيق ـ زفير، شهيق ـ زفير.

أبطأ، أبطأ،

نعم، هكذا.

شهيق.

زفير.

أعترف لك أني لم أشعر من قبل أبداً بمثل الانشراح والراحة اللذين شعرت بهما في تلك اللحظة. أنظر إليك: كم أنت جميلة، هادئة، غارقة في النوم! أتلمس شعرك المنفلت من تحت درعك اللحافي، فأشعر برغبة عارمة في حمايتك من هذه الليلة، ومن أصوات السكارى المجهولين التي تعلو في الليل وراء النافذة، ومن العالم كله.

ساشينكا، يا أنت لي! نامي! نامي في هدوء! أنا هنا أتنفس معك.

شهيق.

زفير.

شهيق.

زفير.

شهيق.

زفير.

●

ألقيت نظرة على صندوق البريد ـ يوم آخر بلا رسائل منك.

يجب أن أستعد لندوة الغد العلمية، ولكن رأسي فارغ. لا يهمّ. سأغلي قهوة، وأجلس على الأريكة طاوية ساقيّ، وأتحدث إليك. فاستمع إليّ الآن.

هل تتذكّر؟! لقد كان من الممتع جداً أن يحدّث أحدنا الآخر عن شيء ما في طفولته. ثمة أشياء كثيرة في طفولتي لم أحدثك عنها بعد.

والآن، أعضّ القلم ولا أعرف من أين أبدأ.

أتعرف لماذا سموني ساشا؟

لقد كنت في طفولتي أحب حباً جماً شتى العلب الكارتونية الجميلة وصناديق الزينة الصغيرة في الأدراج السفلية لخزانتنا، وكنت أقضي أوقاتاً طويلة في العبث بما تحتفظ به ماما فيها من أساور وبكلات وأوراق لعب وبطاقات بريدية ـ وأشياء كثيرة لا تحصى. فقد عثرت مرّة على صندلٍ طفليّ صغير جفّ جلده، كان صندلاً لدمية.

بالمصادفة، كان لي أخ أكبر مني. في الثالثة من عمره أصابه مرض فنقلوه إلى المستشفى. قالوا عنه عبارة فظيعة ـ عالجوه.

فقرر والداي في الحال إنجاب طفل آخر عوضاً عنه.

أنجبا بنتاً ـ هي أنا.

لم تستطع أمي احتضان المولودة، ورفضت إرضاعها، بل لم تكن تطيق رؤيتها ـ لقد حدثوني عن ذلك كله فيما بعد ـ فقام أبي برعايتي ورعاية أمي أيضاً.

كان سريري الصغير محاطاً بشبكة خشبية نزعت منها ثلاث عوارض فتشكلت فجوة أستطيع التسلل عبرها. لكن هذا كان سريره هو، سرير ذلك الطفل. لم يكن بمقدوري آنذاك أن أدرك أنها كانت بالنسبة إليه مخرجاً أيضاً. وأنه هو من كان يتسلل عبرها. كان التسلل من تلك الفجوة يعجبني، ولكني كنت، في واقع الأمر، أكرر ببساطة ما كان يفعله.

لقد ظل ذلك الطفل بالنسبة إلي يعيش قبل ولادتي حياة لا أستطيع تصورها، فهي، على الرغم من أنها كانت فعلاً، تنصهر مع أزمنة ما قبل ـ تاريخية، ولكنه كان، بالنسبة إلى أمي، موجوداً هنا، بجانبي، موجوداً لا يغيب.

ذات يوم سافرنا في القطار الكهربائي إلى بيتنا الريفي، وقد جلس قبالتنا طفل وجدّته. طفل كسائر الأطفال، حاد الصوت، عصبي المزاج، مزكوم الأنف، ألثغ. وكان باستمرار يطالب جدّته بشيء ما. أما هي فكانت

تزجره باستمرار:

ـ طيّب، اهدأ يا ولد!

أذكر الآن، كيف ارتجفت ماما وتوتر جسدها، حين قالت العجوز:

ـ ساشا! لننزل من القطار!

حين نزلنا من القطار، على الرصيف، أدارت ماما ظهرها لي وراحت تبحث يائسة عن شيء ما في حقيبتها، ورأيت الدموع تنفر من عينيها فشرعت في البكاء، حينذاك استدارت نحوي وراحت تقبلني بشفتيها المبللتين، وتحاول تهدئتي وإفهامي أن كل شيء على ما يرام، فكل ما في الأمر هو أن ذبابة صغيرة دخلت عينها.

ـ أما الآن فكل شيء على ما يرام!

تمخطت، ثم أصلحت كحل رموشها، وأغلقت علبة الزينة بقوة فأصدرت صوتاً. وانطلقنا نحو البيت الريفي.

أذكر أني حينذاك بالضبط بدأت أرى أن موت ذلك الطفل كان أمراً حسناً، وإلا فكيف كنت سأوجد؟ هكذا سرت مرددة في سري عبارة ماما: "أما الآن فكل شيء على ما يرام!"

لم يكن بمقدوري ألا أولد. فكل ما حولي، وكل ما كان، وما هو كائن، وما سيكون، بُرهان بسيط وكافٍ، حتى هذا الشرّاق الخشن الصوت، وهذه البقع التي رسمتها الشمس على أرض الغرفة، ورقاقات الحليب المتخثر الجعداء في هذا الكأس من القهوة، وكذلك هذه المرآة الصدئة التي تلاعب النافذة أيهما يثبّت نظره فترة أطول في نظر الآخر.

كنت، وأنا طفلة، أقضي ساعات أمام المرآة. أثبّت عيني في عيني خيالي. لماذا هاتان العينان؟ لماذا هذا الوجه؟ لماذا هذا الجسد؟

ماذا لو أن هذه ليست أنا؟ هذه العيون ليست لي، وهذا الوجه ليس وجهي، وهذا الجسد ليس جسدي.

وماذا لو أني كنت ـ بهاتين العينين، وهذا الوجه، وهذا الجسد الذي

ألمحه ـ مجرد ذكرى من ذكريات العجوز التي سأكونها ذات يوم.

كثيراً ما كنت في لهوي أفترض أني اثنتان حقاً، أختان توأم. أنا وهي. وكما في الحكايات: واحدة سيئة، وأخرى جيدة. أنا ـ مطيعة، وهي ـ انعزالية.

كان شعري طويلاً، وكانت أمي توبخني دائماً وتطالبني أن أسرّحه. أما هي فأخذت مقصاً وقصت لي ضفيرتي كي تغيظني.

قدّمنا في البيت الريفي مسرحية، فقامت، هي طبعاً، بالأدوار الرئيسية كلها، أما أنا فاقتصر دوري على فتح الستارة وإغلاقها. كانت أحداث المسرحية تقتضي أن تنتحر. تصوّر! نطقت آخر كلماتها والسكين في يدها، ثم ضربت رأسها بكل ما أوتيت من قوة، فانبثق دم حقيقي. هبّ الجميع مذعورين، أما هي فتمددت ميتة ـ بمقتضى المسرحية، وبسبب الحماسة التي غمرتها. وحدي أنا كنت أعرف أنها بشرت حبة شوندر، وأخذت بيضة دجاج، ثقبتها، وامتصت ما بداخلها، ثم ضخّت بحقنة طبية أخذتها من عند ماما عصير الشوندر في داخلها وخبأتها تحت الشعر المستعار. قفزت واقفة ملطخة بدم الشوندر وراحت تصرخ فرحة بكونها استطاعت أن تخدع الجميع.

ـ لقد صدّقنا، صدّقنا!

أنت، ببساطة، لا تستطيع أن تتصور ما معنى أن تكون تابعاً لها طول الوقت.

أنت لا تتصور ما معنى أن ترتدي طول العمر ملابسها القديمة. لقد كانوا دائماً يشترون لهذه "الأميرة بلا حبة بازلاء" الأشياء الجديدة الجميلة التي تؤول إليّ لأرتديها ولكن بعد أن تصبح قديمة ومقرفة. يزيّنونها للعودة إلى المدرسة بعد العطلة ـ حذاؤها جديد، أما أنا فعليّ أن أدسّ أنفي في المعطف المطري العتيق المثقّب الجيوب، ذي الياقة الملطخة.

لقد اضطهدَتْني في طفولتي كما تشاء. أذكر أني رسمت بالحوّار

على أرض غرفتنا حدوداً بيضاء تقسمها إلى نصفين. ولكنها مسحتها ورسمت خطاً لم يترك لي غير ممرّ ضيق من حافة السرير إلى الطاولة وآخر إلى الباب. لم تكن الشكوى إلى ماما مجدية، لأنها تبدو في حضرة ماما ملاكاً خالصاً، ولكنها كانت، حين نبقى وحيدتين، تعقصني وتشد شعري شداً مؤلماً كي لا أشي بها.

لن أنسى ما حييت يوم أهدوني دمية رائعة، ضخمة، ناطقة، تفتح عينيها وتغلقهما وتستطيع أن تمشي. يومها غفلت عن دميتي لحظة فإذا بمعذِّبتي تنزع عنها ملابسها وتتفحصها لترى ما فيها وما ليس فيها، وتلطخها بالرسوم والألوان. أجهشت بالبكاء، وهرعت إلى والديَّ ـ فاكتفيا بالضحك.

كان الاتفاق معها مستحيلاً! فما إن أقترح شيئاً حتى تدق الأرض بقدمها الصغيرة وتعلن:

ـ هنا سيكون ما أريده أنا، وإلا فلن يكون شيء!

تضيق عيناها، وتلتهب نظراتها، وترتجف شفتها العليا كاشفة عن أسنان حادة، فيخيل إليك أنها ستنقض عليك في الحال.

أذكر كم خفت ذات يوم، حين سألتني أمي مع من أتكلم. يومها كذبت وأجبتها:

ـ مع نفسي.

أنا أفهم أن هذا جرى وقت كنت بحاجة إلى أن أكون محبوبة. لقد كانت تظهر كلما شعرت بالحاجة إلى الكفاح من أجل حب الآخرين، أي أنها كانت تظهر دائماً تقريباً ـ حتى حين أكون وحيدة. ولكنها لم تكن تظهر أبداً في حضرة بابا. مع بابا كان كل شيء مختلفاً.

لقد أطلق علينا، أنا وماما، اسماً واحداً ـ أرنبتي الصغيرة. أظنه كان يشعر بالمتعة وهو ينادي:

ـ أرنبتي الصغيرة! فنرد كلتانا على النداء، واحدة من المطبخ،

والثانية من غرفة الأطفال.

حين يعود إلـى البيـت، كان يتوجب عليّ خشـية دخـول الغرباء، أن أسأل قبل أن أفتح الباب:

ـ من هناك؟

فيجيب:

ـ سويدي، حصّاد، عازف مزمار.

كان، حتى حين ينظف حذاءه فوق الممسـحة الصغيرة في المدخل، يبدو كمن يرقص.

وكان يحب أن يحمل إلى البيت هدايا غريبة، ويقول:

ـ احزري ما الذي جئتك به!

ولكن، كان من المسـتحيل تماماً أن أحزر ما الـذي يحمله، فهو تارة مروحة، وتـارة مبـرد، أو منظـار، أوصينيـة، أو زجاجـة عطر فارغـة أو آلة تصوير مكسـورة في تارة ثالثة. وقد جاءني مرة بقناع من أقنعة مسـرح النو الياباني. بـل إنه حمـل ذات يوم، مـن مكان ما، سـاق فيل محنطـة مجوّفة الداخـل لحفـظ المظـلات أو العـكازات. كان ذلـك يغضب أمـي، أما أنا فكانت هداياه تشـعرني بسـعادة غامرة. وكان بمقدوره أن يقـول أحياناً بلا مقدمات:

ـ دعيك من الدرس الآن!

فنقيم حفلة موسيقية. كنا نحب أن نسـتخدم الأمشاط كآلات للعزف بعد أن نغلّف أسـنانها بأوراق لفّ السـجائر، فيسـبب هذا حكة شديدة في شـفاهنا. وكانت علب الحلوى الفارغة تتحول عندنا إلـى طبلات. أما هو فكان يطوي طرف السجادة ويمضي في الرقص داقّاً الأرض بقدميه إلى أن يصعد الجيران ويشـرعوا في قرع باب بيتنا، أو يأخذ علبة الشطرنج فيهزها هزّاً موقَّعاً فيقرقع كل ما في داخلها.

كان يرغمني على لعب الشطرنج معه، فيفوز عليّ دائماً ويبتهج حين

يموت الملك عندي، ابتهاج طفل صغير.

وكان يعرف كل أنواع الرقصات في العالم، وقد علّمني الرقص، فأحببت جداً، دون سبب واضح، رقصة سكان هاواي. كنا نرقص معاً وأيدينا في جيوبنا.

وذات مرة، كنت جالسة إلى المائدة، فطلب مني أن أكفّ عن الشيطنة، وإلاّ دلق كأس اللبن على رأسي.

قلت له:

ـ لن تفعل!

وفجأة صرت كلّي ملطخة باللبن. تملّك الرعب ماما، أما أنا فتملكتني الحماسة.

لم أكن يوماً بحاجة للكفاح من أجل نيل حبه.

ولكن تلك، أنا الأخرى، كانت، في غياب بابا، تطاردني بلا هوادة.

كانت بشرتي تعذبني دائماً، أما هي فبشرتها ملساء نظيفة. الجلد ـ ليس كيساً يحتوي ما في داخلنا، إنه ذلك الشيء الذي يلامسنا العالم من خلاله. إنه مجسات العالم. ومرض البشرة هو، ببساطة، وسيلة حماية ذواتنا من الاحتكاكات. هكذا يجلس المرء متخفياً كما لو كان في شرنقة. لم تكن تلك، أنا الأخرى، تفهم شيئاً من ذلك. لم تكن تفهم أني أخاف كل شيء، وأن أكثر ما أخافه هو أن أكون مع الآخرين. لم تكن تفهم، كيف أستطيع، حين نكون في زيارة حيث الكل يمرحون، أن أدخل إلى المرحاض وأغلق بابه وأجلس هناك لمجرد الجلوس، حتى دون أن أنزع سراويلي. ولم تكن تفهم كيف يمكنني أن أحفظ برهان نظرية فيثاغورث عن ظهر قلب، ثم أقف أمام اللوح جامدة فاغرة الفم، وأترك جسدي يتلفت حولي وينظر إليّ كما لو كنت غريبة عنه، فيراني عاجزة، ضئيلة، خاوية. لم يبق في رأسي عن فيثاغورث سوى أن والديه أرياه، حين كان طفلاً، الأشكال الأساسية التي من خلالها يُظهر غير المرئي نفسه

للناس: الكرة، الموشور، والمكعب، النزّالات المصنوعة من الصوف، والتفاحات، والرقائق المدهونة بالعسل، والإبريق الصغير المملوء بالخمر، ـ وذكرا له أسماءها، غير أن فيثاغورث قلَبَ الطاولة بعد أن استمع إلى ما قدّماه من شروح.

أما موضوعات الإنشاء فكنت أكتبها دائماً وأنال عليها أسوأ العلامات. غير أن الأدهى من ذلك أن المعلمة كانت تقرأ موضوعاتي أمام الصف ثم تقول في حسرة:

ـ ستواجهين حياة قاسية يا ساشينكا.

والسبب في نيلي أسوأ العلامات هو أني كنت دائماً أكتب غير المطلوب. كانوا يطرحون علينا ثلاثة مواضيع ويطلبون منا أن نختار الأول منها أو الثاني أو الثالث ونكتب فيه ـ أما أنا فكنت أكتب في الموضوع الخامس أو العاشر. فالموضوع الخامس أو العاشر يبدو لي أكثر أهمية.

أنا كنت مشوّهة من فصيلة الكائنات ذوات الأكتاف والسيقان والغلاصم المجنحة والنمش. أما هي فمرحة كرقصة مانابيم، ولها عينان تشبهان بحيرتي يسيفون عند بوابة باترابيم. ومازلت أذكر حتى اليوم كم كانت تصعقني تلك النظرة التي كان يغمرها بها أستاذ الفيزياء في الصف.

ذات يوم لاحظت، وأنا أبدّل ملابسي بعد المدرسة، أن أحدهم يقف وراء الستارة في نافذة البيت المقابل ويسترق النظر إليّ بمنظاره، فجثوت مرعوبة تحت حافة نافذتي. أما هي، فعلى العكس مني، راحت تقدّم له عرضاً كاملاً.

في صغري، كانت تقول لي كي تخيفني في الليل، أنها غولة ولها سلطة على الناس، وتقدّم عينيها برهاناً على صحة ذلك ـ العين اليسرى ـ زرقاء، أما اليمنى ـ فبندقية اللون. وتزعم أنها كانت لها ثآليل، وأنها، حين بتنا ليلتنا في ضيافة بعض الأصدقاء، استخدمت إسفنجة الحمام في منزلهم فاختفت ثآليلها وظهرت الثآليل عند الصبي الذي كان يعيش هناك.

غير أن عينيهـا ظلتا، بالطبـع، حجتها الأساسـية. كانت تقول أنها تسـتطيع أن تصيب أي إنسـان بالعين. ولم تكن الفتيـات يَخَفنها تمامـاً، لكنهن كنّ يتحاشـينها، فلا أحد يدري مـا الذي يمكـن أن يحدث. لقد كانـت، فعلاً، تستطيع أن تسـحر الدم ـ تلعق الجرح، وتدمدم بتعويذة ما، فيتوقف سيلان الدم منه.

هـي مازالت تضايقنـي في حياتـي حتى اليـوم، ولا أحد يعـرف متى تظهر، قد تختفي شهوراً، ثم فجأة ـ هأنذي، ألم تنتظروا قدومي؟

إنها تسـخر مني لأنـي كنت فـي المكتبة ـ إشـفاقاً مني علـى الكتّاب الموتى الذين لا يحتاج إليهم أحد ـ أسـتعير الكتب المنسية تماماً وإلاّ فإن أحداً لن يتذكر أولئك الكتّاب، فتزعم أني مهملة سيئة الهندام ولكني أضع الخطوط بعناية تحـت الأفكار التي تعجبني بواسـطة المشـط. كانت تقف وقفة أستاذ وتعظني كأنما هي أختي الكبيرة: لا يجوز أن يعيش المرء حياة فوضوية بهذا الشـكل، يجـب أن تتعلمي كيـف تكونين أعلى من العشـب وأكثر صخباً من الماء! تذكّري يا أختي الصغيرة القاعدة السابعة عشرة من قواعد فاليس ميليتسكي: أن تستثير الحسد أفضل من أن تستدعي الشفقة!

وكم كانت تسخر منك!

أتذكر يوم جلسنا في الشـرفة نأكل التوت البري؟ ـ كان حامضاً وغير مستسـاغ. فرحنا نحلّيه بالسـكر. أما هي فابتكرت تحليته بالعسل. سكبت لنفسـها عسـلاً من القطرميز فـي صحن صغير وشـرعت تلعق العسـل عن الملعقـة، وهي تنظر إليك، ثم تتفحـص نظرتها في المرآة. أنـا أعرف جيداً تلك النظرة، حين يتملك الشرّ مرح العينين المختلفتين.

أتمت لحس الملعقة ثم أمسكت ذيلها بإصبعيها وقذفتها فجأة خلف ظهرها عبر شباك الغرفة المفتوح.

والتفتت إليك قائلة:

ـ أحضرها!

كم وددت أن أصرخ في وجهك: "قف! إياك أن تفعل ذلك!" ولكني لم أستطع أن أنطق بكلمة.

نهضت ومضيت تبحث عن الملعقة ـ هناك حيث الأشواك وشجيرات الكرز البري المتغوّلة. وعدت تملأ جلدك الخدوش وعلى ذراعيك حبيبات دم متخثر. وضعت الملعقة التي كساها التراب والقش في صمت على الطاولة ثم أدرت ظهرك وانصرفت.

أما هي فاكتفت بإلقاء نظرة اشمئزاز على الملعقة، ثم مضت تغمس التوت في العسل وتقضمه بأسنانها الدقيقة وكأن شيئاً لم يكن.

لم أتمالك نفسي، اندفعت وراءك، أمسكت يدك، أردت، مثلها، أن ألعق الخدوش، أن أسحر الدم، ولكنك دفعتني بعيداً.

ـ فلتذهبي إلى...! ـ ونظرت إليّ باحتقار شديد.

امتطيت دراجتك ورحلت.

كم كرهتك حينذاك!

بل كم كرهتها،

بل كم كرهتكما معاً!

وكم تمنيت أن يصيبك في الحال مكروه ما فظيع وشرير.

قلت لنفسي: لن أذهب إليه.

ولكني هرولت إليك في اليوم التالي.

كل ذلك أراه من جديد ويشعر به جلدي وكأنه يحدث الآن:

المطر الخفيف يتساقط منذ الصباح، وقد زحف الضباب على سور الحديقة وامتلأت الدروب كلها ببرك الماء. أمشي إليك حاملة مظلتي، وعلى الجسر الممتد فوق الجرف يشتد هطول المطر.

بين بيتينا الريفيين ـ غابة صغيرة، هناك أوحلت الدروب كلها، وامتدت الخضرة التي لا أعرف لها اسماً إلى كل مكان. أنت وحدك من كان يعطي النباتات أسماءها.

أمر بالقرب من بيت جيرانكم على زاوية الطريق، أنظر إلى الورود من فوق السور، وورود كبيرة وثقيلة، رؤوس من الورد، ازدادت عبقاً تحت المطر.

تهيّبت صعود درجات المدخل، طويت المظلة وتسللت حتى نوافذ الشرفة نفسها. وقفت على رؤوس أصابعي ورأيتك من وراء الزجاج الذي يلله المطر. كنت متمدداً على الأريكة مسنداً إلى ظهرها ساقك المضمدة، غارقاً في قراءة مجلد ضخم.

لقد تمنيت لك الشر فسقطت عن درّاجتك في الخندق. أنت تعرف الآن لماذا سقطت في ذلك المساء فالتوت قدمك ورقدت في السرير.

كنت أقف تحت المطر أنظر إليك. أحسست بذلك فرفعت رأسك ورأيتني فابتسمت.

■

نعم يا حبيبة صيفي ساشينكا، كم يبدو بعيداً ذلك الزمن، وكم هي مختلفة تلك الحياة البعيدة التي مضت.

لقد كان ممتعاً جداً أن يتمدد المرء ويدوّن في دفتر يومياته كل ما يخطر في باله، مصغياً إلى طقطقة المطر على السطح، وأزيز البعوض في الشرفة، ويرى، إذا أطل من النافذة، أشجار التفاح وقد اختفت سيقانها في الضباب، والملاقط على حبل الغسيل، وقد بللها المطر فتساقطت عنها حبات الماء.

الضوء خافت بسبب المطر، والقراءة صعبة ـ أضأت المصباح في قلب النهار.

وضعت مجلّد أعمال شكسبير الضخم على ركبتيّ ـ الكتابة تغدو مريحة إذا وضعت الدفتر فوقه.

واستخدمت غصينين طويلين من السرو المزدوج الإبر مؤشراً

لتحديد الصفحات.

أتعرفين عمّ كنت أكتب آنذاك؟ عن هاملت، بل عن نفسي، أبي أنا مات أيضاً، بل لعلّه لم يمت، وأمي تزوجت من رجل آخر، ليس آخر فقط، بل أعمى أيضاً، ولكني لا أفهم مطلقاً لماذا يجب على الجميع أن يسمّم بعضهم بعضاً وأن يطعن أحدهم الآخر بآلات حادة دون أن تتلوث خشبة المسرح بالدم. وماذا لو ماتوا كلهم من دون أية أعمال شريرة ومغامرات مختلقة، هكذا ببساطة، من تلقاء أنفسهم بعد أن تنقضي حياتهم ـ ألن يكون هاملت؟ ألن يكون ذلك أكثر فظاعة؟!

ما قيمة شبح الأب؟! فزّاعة أطفال.

وما قيمة السمّ المسكوب في الأذن؟!

ولماذا لا يبدأ كل شيء إلا عند عودته إلى حصن أبيه، لم يكن هاملتاً قبل ذلك؟ حتى قبل أن يحدث أي شيء، وقبل أن ترفع الستارة، وقبل أن يشرع بيرناندو وفرانتسيكو بتبادل النداء، على الرغم من أن التعليمات تقول كل شيء بوضوح، ـ إنه هاملت قبل ذلك كله.

أعتقد أن الأمر الأكثر أهمية هو ما الذي حدث له قبل كل هذه اللقاءات مع الأشباح، ودسّ السمّ، والحيل المسرحية الغبية كالاختباء وراء الستارة.

لقد عاش ـ هكذا، كما أعيش أنا من دون مونولوجات شعرية جنائزية.

يجب أن أكتب حياته السابقة، كيف كان مثلاً، يلعب في طفولته لعبة ساعي البريد ـ يأخذ رزمة من الصحف القديمة ويدسها في علب البريد. وكيف كان في المدرسة يختبئ في الفرصة في غرفة الملابس أو المكتبة وفي يده كتاب ـ يسخر منه أكثر زملائه جبناً وأكثرهم ضعفاً ـ ثأراً مما كانوا يعانونه على يد الآخرين. بالمناسبة، هل تعرفين متى كانت خيبة أملي الأولى في الأدب؟ قرأت كيف كان المهرجون القروسطيون

يطرحون على سادتهم أسئلة ماكرة، فيجيب عليها هؤلاء بحرص ولكنهم في كل مرة يقعون في الخطأ، وكذلك حاولت أنا أن أسأل معذّبي أسئلة لاذعة ـ طيبة النية، لكنهم لم يصغوا إليّ حتى النهاية، بل تلقيت منهم صفعة على أذنيّ!

أما بشأن هاملت، فمن الضروري أيضاً، أن أتحدث عن سباحته ذات يوم في البحيرة، حيث سبح أحد الرجال مقترباً منه وقال له: "أيها الفتى، سباحتك لا بأس بها، ولكن، في أسلوبك بعض الشوائب. تعال، كي أريك!" أمسك به معلم السباحة هذا من أسفل وراحت يده تنزلق عن البطن نحو الأدنى فالأدنى وكأن ذلك يحدث من دون قصد.

وللحمام حديث آخر. في الطفولة، حين كنا لا نزال نعيش في شقة قديمة، كان جارنا في الحوش المجاور يربي الحمام، وكان، وهو ينتظر عودة طيوره من تحليقها، لا ينظر إلى أعلى، بل إلى طست فيه ماء، معلّلاً ذلك بأن السماء تبدو فيه أكثر وضوحاً.

لقد كتبت أني أريد أن أكون ذاتي، فأنا لم أصبح أنا حتى الآن. لا يمكن أن يكون هذا هو أنا.

لقد أردت الإفلات من التقويم الزمني.

وهأنذا قد أفلتُّ.

من حسن الحظ أنك لا ترين أين أنا الآن، وماذا يحيط بي. أنا لا أصف هذا، وهو يبدو كما لو كان غير موجود مطلقاً.

أتذكرين، كانت عندك على الرف حصيّات جميلة جلبتها معك من البحر؟ لقد أمسكتِ ذات يوم حصاة مستديرة ووضعتها على عينك كما لو كانت عدسة. أخذتُ منك تلك الحصاة ووضعتها على حافة النافذة. كانت تنظر إليّ طول الوقت. وفجأة، أدركت أنها حدقة عين كائن ما. وأنه يراني، لا يراني وحدي، بل يرى عموماً ـ كل شيء. لأن كل شيء سيمرق أمام هذه الحصاة ويختفي ـ حتى قبل أن تطرِف رموشها ـ، أنا وهذه الغرفة

وهذه المدينة التي وراء النافذة. لقد أحسست في تلك اللحظة بتفاهة كل ما قرأته في كل الكتب، وكل الدفاتر التي ملأتها بالكتابة، وفقدت السيطرة على نفسي. تملّكني قلق شديد، إذ أدركت فجأة أن الأمر على العكس من ذلك، فهذه الحدقة ليس فقط لا ترى غرفتي ولا تراني، بل هي، في الواقع، لا تستطيع، مهما اشتدت رغبتها، أن تبصر عموماً، لأني، بالنسبة إليها، أمرق بسرعة كبيرة لا تستطيع معها أن تلحظ أي شيء. إنها ـ حقيقية وموجودة، ولكن هل أنا موجود بالنسبة إليها؟ بل هل أنا موجود بالنسبة إلى ذاتي؟

ما معنى أن تكون موجوداً؟ أن تعرف ما الذي كنته؟ أن تؤكد نفسك بالذكريات؟

ما الذي تعنيه لتلك الحدقة يداي وساقاي وشاماتي، وأمعائي التي تقرقع من أكل الجودار المسلوق، وأظافري التي قرضتها أسناني، وصفني؟ وتالاموس؟ وذكريات طفولتي؟ ذات مرة، في عيد رأس السنة، استيقظت في الصباح الباكر وركضت حافياً إلى شجرة الميلاد كي أرى الهدايا. ضيوف نائمون في كل مكان، ولا شيء تحت الشجرة ـ لقد اشتروا الهدايا، ولكنهم ببساطة، نسوا ـ بعد الشمبانيا المخلوطة بالفودكا ـ أن يضعوها في مكانها. ذهبت إلى المطبخ وظللت أبكي هناك حتى استيقظت ماما. أليس هذا غباء؟

أظن أن من الضروري لكي تكون حقيقياً، أن توجد، لا في وعيك أنت، وعيك الذي ليس أهلاً للثقة، والذي قد يكون عرضة للنوم مثلاً، حيث لا تعرف، أنت نفسك، أنك حيٌّ أو ميت، بل وعي إنسان آخر، ولكن ليس أي إنسان، بل الإنسان الذي يهمه وجودك. هأنذا أعرف يا ساشينكا الحبيبة أنك موجودة. وأنت تعرفين أني موجود. وهذا يجعلني حقيقياً هنا، حيث كل شيء في فوضى.

وفي طفولتي أيضاً حدث أن نجوت من الموت بمعجزة ـ ذهبت

ليلاً إلى المرحاض، وفي أثناء ذلك سقطت على سريري الصغير رفوف الكتب.

غير أن المرة الأولى التي فكرت فيها بالموت فعلاً كانت في المدرسة في حصة علم الحيوان. كان عندنا معلّم عجوز مريض طلب منا أن نضع في فمه حبة دواء نجدها في جيبه، إذا سقط فاقداً الوعي. وضعنا الحبة، ولكنها لم تسعفه.

كان دائماً يمسح نظارته بربطة عنقه.

دَرَّسنا في بداية العام علم النبات فأحببته كثيراً، حتى إني كنت أجمع نماذج مجففة من النبات باستمرار، ثم قررت أن أصبح مثله مختصاً بعلم الأحياء.

وكان يعبّر، بشكل مضحك جداً، عن سخطه لانقراض أنواع مختلفة من النباتات والطيور.

يقف أمام السبورة ويصرخ في وجوهنا وكأننا نحن المسؤولون عن ذلك:

ـ أين أشجار الظليل المبكر؟ أين الصفصاف الباكي؟ أين الكالديزيا؟ وزهرة الصيف البيضاء؟ وعنبر دبيان؟ لم تلزمون الصمت؟ والطيور! أين الطيور؟ أين الأرلان الأسود؟ أين الصقر الملتحي؟ أين الكروان؟ أنا أسألكم! وطائر أبو منجل الأحمر الساقين! وطائر الشرشير المرمري! وطائر التيوفيك! أين طائر التيوفيك؟

وكان، في أثناء ذلك، يتحول هو نفسه، إلى ما يشبه طائراً منفوش الريش. لكل معلّم لقب في مدرستنا، وكان لقبه تيوفيك.

هل تعرفين بماذا كنت أحلم؟ كنت أحلم أني سألتقي بأبي في يوم من الأيام عاجلاً أو آجلاً، وأنه سيقول لي:

ـ أرني كيف حال عضلاتك!

أثْني ذراعي وأشد عضلاته، فيمسك بابا عضلة زندي ثم يهز رأسه

مندهشاً، وكأنه يقول: عملك مدهش! أحسنت يا فتى!

أما بشأن العالم غير المرئي، فقد فهمت كل شيء عنه حين التحقت جدتي بالعمل صيفاً في معسكر ريفي للعميان وأخذتني معها.

كنت منذ طفولتي أعرف أن في بيتها أشياء عمياء متنوعة. فهي، مثلاً، كانت ترتب أوراقاً خاصة للتنجيم، عليها علامات فارقة في الزاوية العلوية اليمنى. وهي أهدتني في عيد ميلادي شطرنجاً متميزاً ـ أحجاره مختلفة الحجم ـ الأحجار البيضاء أكبر من الأحجار السوداء، وقالت لأمي همساً، ولكني سمعت ما قالته:

ـ إنهم هناك لا يلعبون الشطرنج على كل حال.

في البداية شعرت بالغرابة في ذلك المعسكر الريفي، ولكنه أعجبني فيما بعد ـ فقد شعرت فجأة أنه طاقية إخفاء.

ها هو ذا صبي يمشي حاملاً عصا في يده، متلمّساً بقدمه في رفق حافة الممشى، وأمرّ أنا بجانبه فلا يراني. غير أن ذلك ليس سوى ما خيّل إليّ. ففي حالات كثيرة كانوا ينادون:

ـ من هناك؟

إن الاختباء من الأعمى أمر صعب جداً.

كانوا يمارسون رياضة الصباح، ثم يقضون بقية النهار في الدرس والألعاب. في البداية، لم يكن من المألوف النظر إليهم وهم يذهبون لممارسة الرياضة الصباحية على شكل سلسلة، يمسك فيها كل واحد منهم بكتف الذي يتقدمه.

وكان في أرض الدار ثمة أقفاص تعيش فيها أرانب يقومون برعايتها. وقد حدثت تراجيديا كاملة حين بدت الأقفاص خالية ذات صباح، بعد أن سُرِقت الأرانب.

كان مدرّبوهم يغنّون بصحبتهم كثيراً. لست أدري لماذا يعتقد الناس أن لدى العميان مواهب موسيقية استثنائية، ولاسيما السمع المرهف،

وكأنهم جميعاً خلقوا موسيقيين. هذا هراء بالطبع.

كنا نمارس يومياً صناعة المجسمات من الطين. وقد صنعت طفلةٌ طائراً يجلس على غصن وكأنه إنسان يجلس على كرسي.

وكانت دروسهم تختلف تماماً عن الدروس عندنا في المدرسة العادية. أذكر أني دهشت جداً حين رأيت أن عليهم في أثناء الدرس أن يغطّسوا أيديهم في ماء حوض السمك كي يتلمّسوا الأسماك الصغيرة. وقد بدا لي ذلك أمراً رائعاً! ثم بعد ذلك، اقتربت حين خلت الغرفة، من حوض السمك وأغمضت عيني. طويت كمّ قميصي وغطّست يدي في الماء، فبدت لي السمكة الذهبية الجميلة، دودة لزجة من خلال اللمس. في هذه اللحظة بالضبط شعرت بالخوف ـ بخوف حقيقي من أن أصاب بالعمى في يوم من الأيام.

أما بالنسبة إليهم، هم العميان، فلم يكن الأمر مخيفاً. الأعمى يخاف من الصمم. إنه يخاف من الظلمة في أذنيه.

العمى، عموماً، أمر اختلقه المبصرون.

بالنسبة للأعمى، ما هو موجود ـ موجود، إنه يعايشه، وينطلق منه، لا مما ليس له وجود. إن التألم بسبب ما ليس موجوداً، أمر مازال علينا ان نتعلّمه. نحن لا نرى الألوان التي على يمين اللون البنفسجي، ولا نشعر بالألم، وإذا كنا نشعر بالشقاء، فليس سبب ذلك عدم رؤيتنا لتلك الألوان.

كانت جدتي تحنو على الجميع، وكانوا ينجذبون إليها. وقد بدا لي في بعض الأحيان أنها تحبهم أكثر مما تحبني. ذلك هراء بالطبع، ولكني كنت أحب أيضاً أن تربّت على رأسي وأن تضمّني إلى صدرها الواسع وتتنهد قائلة بحنان:

ـ آه، كم أحبك يا عصفوري الصغير!

لم تكن، أبداً، تضربهم بقضيب السرو، أما أنا فقد نالتني الضربات أحياناً.

لقد كنت أرغب دائماً في سؤالها عن أبي ولكني كنت، لسبب لا أدريه، أخشى ذلك.

أما جدتي، فكانت قليلة الكلام عموماً. وأنا لم أسمع منها سوى حكاية عائلية واحدة، وذلك بعد أن كبرتُ. قالت إن جدتها أنجبت طفلاً وهي عذراء وفي سن مبكرة جداً، وزعمت أن حملها لم يكن نتيجة إثم، غير أن أحداً لم يصدقها. آنذاك لم يكن أحد قد سمع بأمر المورّثات. حدث ذلك في فترة ذوبان الجليد. فذهبت ليلاً إلى النهر ووضعت طفلها الوليد فوق إحدى قطع الجليد.

أذكر أني بقيت زمناً طويلاً عاجزاً عن التخلص من تلك الصورة ـ ليل، وقطعة جليد عائمة، وطفل وليد يصرخ.

وبعد سنين كثيرة قرأت مارك أفريلي فسكنت نفسي.

لقد صاغ أفريلي المسألة على النحو التالي: ها هم يحملون الخنزير الصغير كي يقدموه قرباناً، أما هو فكان يصرخ ويحاول الإفلات. ولماذا يصرخ؟

حسناً، كل كائن حيّ وكل شيء، وفي كل لحظة، يصرخ ويحاول الإفلات. وما علينا إلا أن نسمع بكل جوارحنا صراخ الحياة هذا ـ في كل شجرة، وفي كل مارٍّ، وفي كل بركة ماء، وفي كل خشخشة.

●

أشتهي أن ألتصق بك وأحدثك عن شيء ما، غبيٍّ، غبيٍّ، وغالٍ، غالٍ.

أذكر كيف أخذني والداي لأول مرة إلى البحر ـ لعلّها لم تكن أول مرة، ولكنها، بالضبط، المرة الأولى، التي أذكر كيف احتواني فيها الموج الصاخب المندفع نحو الشاطئ، أخذني بقبضته، وهكذا حملني طول الصيف ـ في قبضته.

أذكـر بوضوح شـديد كيف رحنـا ننزل في الـدروب الضيقـة والبحر يرتفع أعلى فأعلى، وكأنه يزيح الأفق بذراعيه، وإبر الشمس تغزّ كل شيء، وأذكر كيـف نفخ البحـر في أنفـي الملح وحشـائش الماء والنفـط والعفن والفضاء الشاسع.

ركضت نحوالجسـر الصغير، فانفجـر بالموج المرتطم بـه ـ وتلقيت في الحال صفعة مبللة من البحر.

أرضية الممشى الخشـبية ـ ملساء لماعة بسـبب رذاذ الماء، والسماء تنعكس فيها ثقوباً وتنعكس على ألواحها خيالات النوارس.

سدّ أمواج أبيض. محدد بإشارة.

وحشائش بحرية ـ مِزَق.

وجذع شجرة سلخ البحر قشرته.

وشراع ينحني موازياً انحناء الموج.

في كل يوم نذهب إلى مسابح الشاطئ حيث يجفف الهواء الإبطين.

ما أكبر السـعادة التي يبعثها الركـض في المياه الضحلـة وإثارة غيوم الرذاذ التي تلتمع في ضوء الشمس!

الحصـى جمـرات ملتهبـة، والمـوج يغلي، الأمـواج تضـرب بطّات السيقان وتشدّ السـابحين معها إلى العمق، تمسـك بأرجلهم، تريد إسقاط الواقف منهم وسحبه.

الذباب الأسود الملحاح يتقافز فوق أكوام أعشاب البحر التي قذفتها العاصفة قبل زمن غير بعيد. وتتسلل الأمواج مواربة نحوالذبابات الصغيرة فتتطاير خائفة طول الوقت.

بقايا الزجاجات الفارغة ـ بللورات البحر ـ امتصها البحر ثم بصقها. أجمعها وأقدّمها ضيافة لوالديّ.

يشـاركني بابا فـي بنـاء قصر مـن الحصى والرمـل، نحفر فـي الرمل الرطـب ونبنـي الجـدران والأبـراج، يغرق فـي العمـل، تأخذه الحماسـة،

وأقـوم، أنـا، بتزييـن الأبـراج بأعـلام مـن أوراق لـفّ الشـوكولاته وقطع الصـدف المكسـور، فيصرخ بي أن أكـفّ عـن مضايقته. أزعل منـه ـ فهذا القصر قصري، هـو يبنيه لي! ثم تأتـي موجة فجأة فتهدم كل شـيء. أغرق في دموعي، وينزعج بابا أيضاً، فيشـرع في يأس بتدمير ما تبقى من القصر، وأشـاركه في ذلـك. نفقـز فوق بقايـا قصرنـا ثم نعـود نضحك مـن جديد في سـعادة. يغرفنـي بيديه ويجرّنـي إلـى البحر، نقع فـي المـوج المرتطم بالشاطئ. فيقوم بحركات مضحكة، يغطس، ضاماً كفيه أحدهما إلى الآخر قبل الغطسة، وكأنه يستعد للصلاة.

الماء شـفاف جداً، حتى أنـي أرى أظافـر أصابع قدمـي القانية اللون ـ صبغتها من (مانيكير) ماما. أسـد أنفي وأغطّس رأسـي تحـت الماء، بابا يمسكني وأنا أعوم، الماء يسدّ أذني، وتحتي عمق فيروزي سحيق، وهناك، في القاع، صخور غطتها طحالب تتمايل. أرفع رأسي فوق الماء فيحيط بي الضجيج من جديد.

نسـبح إلى جسـر القفز الخشـبي الصغير. العمـود الذي يرفعـه ربّى لنفسه في أثناء السنين البحرية الطويلة لحية من أعشاب البحر ـ يخيف بها الصغار.

يمر بالقرب مني ظهر عريض يغطيه الشعر.

أرغب دائماً أن أسـبح مبتعدة عن الشـاطئ، نحو المياه العميقة ـ بابا لا يتركني، أحاول إغراقه، أمسك بكتفيه، أشـد أذنيه، أشد شعره ـ يتملص مني، يمسـك بعمود الجسـر الزلق ويخرج رأسـه من تحت المـاء، ينفض رأسـه، تلتمع قطرات الماء على جفونـه، وهو يقهقه ضاحـكاً. نصعد فوق الجسر الخشـبي ونسـير على أرضية الممشـى محاولين ألا نخدش أقدامنا بألواحها الخشبية الخشنة التي خرّشـها الملح. نركض نحو ماما مرتجفين، نلفّ نفسينا بالمناشف وأسناننا يصطك بعضها ببعض.

بابا يسألني طول الوقت:

ـ كم الساعة؟

لقد أهداني ساعة يد صغيرة ـ ساعة أطفال، غير حقيقية، مرسوم عليها عقربان. أنظر إليهما وأجيبه باعتزاز:

ـ الثانية إلا عشر دقائق.

العقربان يشيران دائماً إلى الثانية إلا عشر دقائق.

كانت ماما تتشمس فوق منشفة عريضة، تنزل شيّالات ثوب السباحة عن كتفيها كي ينالا قسطاً متساوياً من أشعة الشمس. وتطلب من أبي أن يفك بكلة حمالة نهديها. ثمة رجل بالقرب منا له ساقا لاعب كرة قدم قويتان، يتمدد على الحصى مباشرة ويراقبها.

أمي تتظاهر بأنها لا تلحظ شيئاً مما حولها.

يرفع الرجل جذعه على مرفقيه كي ينظر إلى هناك، حيث تجعّدت المنشفة تحت ثدييها المكورين، الممتلئين، المتباعدين على صدرها الواسع.

لم أكن آنذاك أفهم شيئاً.

بل الأصح أني آنذاك فهمت كل شيء.

يلتقط أبي نظرات الرجل، وعيناه تعبّران عن رضا المالك الذي يطيب له أن يكون عنده شيء يحلم به الآخرون.

لقد رأينا عدة مرات على الشاطئ زوجاً غريباً جداً، شابين جميلين، عاشقين. ساقا الصبية مبتورتان حتى الركبة ـ أذكر كيف كانت تتشمس مباعدة بين ساقيها ـ كعقربي ساعة يشيران إلى الثانية إلا عشر دقائق. كل من على الشاطئ كان ينظر إليهما، حين كان الفتى يحملها على ذراعيه ويمضي بها إلى البحر. هناك كانا يتراشقان بالماء ويصرخان مرحاً ويسبحان بعيداً حتى آخر الحدود المسموح بها. وحين كانا يخرجان من الماء ويعودان، كانت الصبية تضحك وتتملص من بين ذراعيه، وهي تقفز على ساق واحدة إلى منشفتها. وكان الناس يجمدون وهم يتأملونهما

بنظرات تعبّر إما عن النفور وإما عن الحسد.

خرجتُ لتوّي من الماء وألقيت بنفسي فوق ماما، باردة جداً، ملطخة بالرمل المبلّل، ركبت فوقها ورحت أهتز بسروالي البارد فوق ظهرها الساخن. أخذت ماما تزعق، ثم رمتني عن ظهرها وراحت كعادتها حين تفعل أي شيء، تستعد للسباحة استعداداً دقيقاً: تزرّر بكلة حمالة نهديها دون استعجال، ثانيةً يديها وراء ظهرها، وتصلح وضع حمّالتي ثوب السباحة، ثم تعتمر قبعة مطاطية صغيرة بيضاء، وتدس شعرها في داخلها فيستغرق ذلك زمناً طويلاً. تنزل إلى الماء ببطء وكأنها تتفحص كل خطوة تخطوها. وأنا أتقافز حولها، أرشها بالماء، فتزعق وتصرخ كي أكفّ عن ذلك، وتحاول صفع مؤخرتي. وفجأة يبدو رأسها في قبعة السباحة الصغيرة، صغيراً جداً.

أذكر كيف جلست في الماء تجذف بيدين خاليتين من العظام ـ الأذرع والسيقان تبدو تحت الماء خالية من العظام ـ وفجأة رأيتها تتبول في الماء الشفاف. آنذاك بدا لي الأمر، لسبب لا أدريه، غريباً جداً. ولكن خفت فلم أقل شيئاً.

سبحت بعيداً جداً، وقبعتها المطاطية الصغيرة تترنح فوق الأمواج ككرة تنس الطاولة.

أنا وبابا جلسنا على الشاطئ نراقب ماما. كان كل شيء رائعاً! كنت أجلس وأصابعي تداعب الماء، والأمواج تباعد ساقيّ، الواحدة عن الأخرى. لم يكن حولي غير الناس السعداء والصيحات السعيدة والأمواج السعيدة والسيقان السعيدة.

فقط، فيما بعد، فهمت أن أبي لا يجيد السباحة عموماً. أما ماما فكانت تعوم طويلاً. وكنت، في كل مرة، أقلق عليها، ولكن بابا كان يكتفي بالابتسام قائلاً:

ـ أين ستختفي أرنبتنا ـ طباختنا! لو أغرقتها لما غرقت!

ها هي ذي ماما تخرج من الماء، تجفف جسمها ـ الرجل ذو الساقين القويتين كساقيّ لاعب كرة قدم، ينظر إليها وهي تجفف ثوب سباحتها بالمنشفة وتمسح بها الماء عن صدرها وبطنها وإبطيها وما بين ساقيها.

ثم تتمدد ماما من جديد على بطنها وتزيح شيالات حمّالة نهديها، وتشرع تقرأ كتاباً. أجلس بجانبها وأبدأ في تجديل شعرها.

ماء البحر يترك، وهو يجف، بللورات من الملح على جلدها.

وطيور النورس تحوّم فوق رؤوسنا، فيبدو لي أنها تجدل ضفائر للريح.

أتمدد، فيما بعد، قرب ماما، تحت خاصرتها، وأغمض عيني. حفيف الموج يبدو لي كما لو أن أحدهم يقلّب صفحات كتاب لا نهاية لها.

أرقد هكذا سعيدة.

يوقظني صوت الرعد. الظلام يحيط بي، وتعصف هبات حادة من ريح باردة.

قريباً، قريباً ستهب العاصفة. الجميع يركضون مبتعدين عن الشاطئ. وحبات المطر الأولى تضرب الأجساد العارية كأنها الحصى.

نجمع أشياءنا على عجل ونهرب. الريح تهب بقوة شديدة، فتقتلع المقاعد وتقلبها. والناس يتراكضون على الشاطئ أشباه عراة، يلتقطون المظلاّت والمناشف والتنانير التي تطايرت. البحر رمادي، متمرد، يسوق أمواجاً مضطربة. وصلنا إلى بيتنا بصعوبة لحظة انهمار المطر. أندس إلى جانب ماما تحت الدوش ـ تفكّ ضفائري كي تنظف شعري من الملح. فألتصق بجلدها البارد الذي تجمعت عليه حبيبات الماء.

أجلس بعد ذلك على الأريكة ملتفة باللحاف. وأنتظر بابا الذي وعدني أن يقرأ لي كتاباً. إنه الآن يستحم تحت الدوش ويغني لحناً

أوبراليّاً.

كان بابا حينذاك قائد فرقة موسيقية.

أما أنا فلم أجد في ذلك أي شيء مميز.

لقد روى لـي أن أبـاه، جـدّي، كان عازف كمـان، وكان يتـدرب في المنزل، أما بابا ـ الطفل فكان يحمل عصوين، يكرر بهما حركات أبيه وهو يعزف.

أذكر أن بابا، حين كنت طفلة صغيرة جداً تحب كثيراً الالتفاف حول نفسها وهي جالسـة فوق المقعد الدوّار، كان يشاركني العزف على البيانو: كانت أصوات البـاص الغليظة التي تصدرهـا أصابع الآلة تمثل السـحب، والأصوات الرفيعـة المتقطعة الصادرة عـن تلك الأصابع نـدف ثلج نادرة تذوب في الهواء. أما مطر الصيـف فكان يتجلى من خـلال حركة اليدين: إحـدى اليدين فـوق الأصابـع السـوداء والثانيـة فـوق الأصابـع البيضاء ـ واليدان تتواثبان سـريعاً ـ سـريعاً من نغمـة إلى نغمة ـ كانت يـده عريضة ـ تستطيع احتواء طبقة ونصف طبقة صوتية.

أتذكّـر أيضـاً كيف رفع غطـاء البيانـو وأراني هـذه الآلة مـن الداخل وقال:

ـ انظـري كم هـو غريب بنـاء هذه الآلـة ـ في كل شـيء معقـد وغير مفهوم، يوجد ما هو بسـيط ـ كل ما في الأمر هو أننا نقرع الأوتار بمطارق من اللباد.

أرغمني على العزف علـى البيانو فأدى بي ذلك، فـي نهاية المطاف، إلى كره البيانو (الرينش) الذي في بيتنا.

أتـدرب فـي البيـت، أعـزف عـدداً لا حصـر لـه مـن حـزم الألحان والأبريدجيو، أما هو فيقول لي:

ـ لا تعبسي!

فقد بدأت تظهر بيـن حاجبيَّ تقطيبة ـ كتلك التي بيـن حاجبيه تماماً،

وذلك بسبب ما كان ينتابني من توتر.

كنت أحتال، في أثناء غياب أبي، فأضع على الحامل فوق النوطة الموسيقية كتاباً أقرؤه وأنا أعزف من دون نوطة التمارين التي لا تنتهي. وقد ضبطني ذات يوم وأنا أمارس ذلك العمل، فغضب غضباً شديداً. راح يركض في أرجاء البيت ويصرخ قائلاً أن الفيل داس على أذني، وأنه يلقى عقاباً لا يستحقه، وأن الطبيعة ترتاح عند ولادة أبناء العباقرة فتهملهم. أما أنا فكنت أغص بدموعي نتيجة ذلك ويزداد عزفي رداءة. لم يسبق له قَط أن صرخ في وجهي بهذه الطريقة. لذا بدا لي أنهم استبدلوا بأبي شخصاً آخر، وأن هذا لا يمكن أن يكون هو. لم أستطع آنذاك أن أفهم. أما هو فقد اندمج في الدور ولم يعد قادراً على الخروج منه بأي حال من الأحوال.

كان في أثناء عزفي يجلس القرفصاء لكي يتأكد من أني لا أرفع راحة كفّي أكثر من اللازم، وكان عند وقوعي في الخطأ، يرتجف ويتأوّه كمن عضّ لسانه. وذات مرة، حين عزفت نغماً بالإصبعين الثاني والثالث بدلاً من الإصبعين الرابع والخامس الواجب استخدامهما، ظناً مني أنه لن يلحظ ذلك، خرج عن طوره وكاد يضربني بمجلّد أعمال تشيرني المهترئ.

أخيراً دخلت ماما الغرفة عاصبة رأسها بمنشفة مبللة وطلبت منّا الهدوء. لست أدري إن كانت مصابة فعلاً بصداع شقيقي، أو كانت، ببساطة، تحاول إنقاذي.

وأذكر كيف كان يعود في آخر المساء، حانقاً، يعطس ويشكو من أنه ظلّ طول زمن الحفلة الموسيقية يكافح الزكام. ويعاني من أن الفرقة عزفت غير اللحن المقرر ردّاً على تحية الجمهور. حتى سترته الطويلة (الفراك) التي علّقتها ماما على حبل في الشرفة كي يبدد الهواء ما علق بها من الرائحة ويجففها لم تهدأ، ولم تتوقف عن أداء حركات قائد الجوقة.

أذكر أيضاً كيف كان يتدرب في البيت لا يرتدي شيئاً فوق سراويله الداخلية، يضع في الحاكي أسطوانة مسجلة لإحدى السيمفونيات. كنت

أراقبه من شق في الباب وهو يقود بعصا قائد الفرقة الكراسي والطاولة ورفوف الكتب والنافذة. الخزانة ـ آلات إيقاع، والسجادة المعلقة على الجدار ـ أبواق والكؤوس والأواني التي بقيت على الطاولة بعد الإفطار ـ آلات كمان. يخز الأريكة بعصاه فتستجيب له في الحال أنغام (الباص). يلوّح بأصابعه نحو مصباح المكتب ـ فينطلق صوت البوق المعقوف وكأنه يأتي من بعيد. كان يحرك يديه بحدة، ويتحرك بسرعة جيئة وذهاباً، فيتصبب عرقاً وتتطاير قطرات العرق عن أنفه.

نظرت إليه ماما وقالت: لو أنه أصلح المصباح المحروق في الثريّا المعلقة في السقف لكان ذلك أفضل. أما بابا فدارت عيناه في محجريهما دون أن يتوقف عن هزّ رأسه، ثم أغلق الباب في وجهها.

في خاتمة السمفونية حبس الأنغام كلها في قبضته وهو يقف بالضبط تحت الثريا، ثم أخمدها.

وحين غادر المنزل أخذتُ من دون استئذان العلبة التي يضع فيها عصا قيادة الفرقة، وشغّلت الأسطوانة بأعلى صوت، وشرعت أقود الفرقة مثله. خرجت إلى الشرفة فقُدتُ باحة بيتنا، وبيوت الجيران، والأشجار، وبرك الماء، والكلب الذي وقف إلى جانب شجرة رافعاً ساقه، والغيوم. ولكن أكثر ما أعجبني هو أن أخنق موسيقا الخاتمة في قبضة يدي.

ثم جلست إلى البيانو من جديد أتدرب على مقطوعة ميندلسون "أغنية بلا كلمات"، وأرتكب الأخطاء نفسها في المواضع نفسها.

فيما بعد صار أبي طياراً قطبياً، وهذا أعجبني أكثر من عمله السابق.

ما أروع رائحة جلد معطفه الأسود الطويل!

بزّته المصنوعة من الفرو، وحذاؤه الطويل الساق المصنوع من اللباد وخوذته، كل ذلك يجعله إنساناً مختلفاً على نحو ما. أخذت حذاءه اللبادي ودسست ساقيّ في فردة واحدة، ثم رحت أقفز هكذا في الشقة ـ كأولئك الناس ذوي الساق الواحدة الذين قرأ لي قصتهم.

لقد جلب معه مجسّمات منحوتة من أنياب فرس البحر، وعقوداً وأساور من أسنانه المنضّدة في خيوط، وسمكاً معلباً، وجلد وعل.

رافقني إلى سريري وروى لي كيف حلم في طفولته أن يصبح طياراً ـ رأى ذات يوم كيف قامت طائرة بهبوط اضطراري في الحقول القريبة من قريته.

لم يكن من السهل عليه، وهو الفتى القروي البسيط، أن يصل إلى مبتغاه ـ كان عليه أن يدرس كثيراً. ولم تكن الحياة في معهد الطيران ـ الذي كان يسميه (درس خانة)ـ هنيئة دائماً. فقد كان في المنطقة معهد للمشاة أيضاً. وفي أوقات الإجازة كانت تنشب في المعسكر معارك قاسية بين طلاب المعهدين. كانوا يتقاتلون بالأحزمة، وكاد بابا أن يفقد عينه ـ أراني ندبة على جبينه فأشفقت عليه ومسّدت بإصبعي ذلك الانتفاخ المائل إلى البياض.

ذات يوم عاقبوه بالسجن في الدرس خانة. أما السبب فهو أنه كُلِّف شتاء بالحراسة، وكان عليه ان يقف في حراسة الطائرات حاملاً سلاحه القتالي. دار حول الهنغار، فبدا له أن أحِدهم يتحرك في الظلام. لكنه لا يرى أحداً، ظلام، وثلج يذوب، وكل ما يحيط به يقطر ماء، ويتنفس. وضع يده على الزناد، ونظر بحذر من وراء إحدى زوايا البناء، فتلقى على الفور، ضربة ثقيلة على رأسه، فانطلق الرصاص تلقائياً، وعلا الضجيج وسادت الفوضى. الرئاسة التي أيقظها الصوت هرعت إلى المكان ـ وتبين أن الثلج الرخو الذي يغطي سطح الهنغار قد ذاب، وفي اللحظة التي مدّ فيها بابا رأسه انهالت فوقه كتلة ثلجية.

أخذ يعلّمني الطيران ـ كنا نلعب، ولكن خيّل إليّ أن كل ذلك حقيقي، وأننا لسنا جالسين على الأريكة، بل في قمرة الطائرة. التقني يمسك بشفرة المروحة ويديرها بقوة.

ـ مارش! ـ يصيح وهو يقفز مبتعداً عن المحرك.

فأجيب بحماسة:

ـ حاضر، مارش!

يعطس المحرك بضع مرات مطلقاً كتلة من الدخان المائل إلى الزرقة، ويشرع في الدوران. تُرفع الحواجز من أمام العجلات فنقود الطائرة نحو المدرج. تلويح من علم الانطلاق الأبيض. بابا يضغط بدالة الوقود إلى الحد الأقصى. ترتجف الطائرة من شدة تيار الهواء الذي تحدثه المروحة، وتتحرك من مكانها، تندفع سريعة كالسهم، ثم أسرع، فأسرع. وعلى أرض المدرج غير المستوية يتمايل جناحاها كأنهما يدا سائر على الحبال يستعيد توازنه.

يشد بابا مقبض القيادة إليه بحركة انسيابية، فينفصل الذيل عن الأرض وتتوازن الطائرة. يشد المقبض إليه بقوة أكبر ـ فترتفع الطائرة في الهواء، وأُحس بكل جوارحي بارتفاعنا أعلى فأعلى. الأرض تنزلق من تحت أقدامنا، وإحساس بالبرودة يسري في الصدر.

أرى كيف يلاحقنا في الأسفل ظل الطائرة. ويلين هدير المحرك، وتتضاءل الهنغارات ومواقف السيارات على الأرض تحتنا، فتصير كأنها مكعبات منثورة على أرض الغرفة وبيوت دمى صغيرة أخرجتها من صندوق ألعابي.

يضغط بابا على البدالة ويحرك مقبض القيادة تارة إلى اليمين، وتارة إلى اليسار فتبدأ الطائرة الدوران في الحال، فتميل مرة على جنبها اليمين، ومرة على جنبها اليسار. ويبدو لي أن ما يدور ليس الطائرة، بل الأرض والسماء هما اللتان تدوران حول الطائرة.

نرتفع إلى ما فوق الغيوم ونطير تحت الشمس اللامعة، ظلّنا يكاد لا يلحق بنا ونحن نغوص في وديان من الغيوم.

أنظر إلى بابا كيف ينقّل بصره بتركيز من مؤشر إلى مؤشر، وكيف يقود بثقة طائرتنا في الشقوق بين كتل الغيوم التي لا أشكال ثابتة لها،

وأدرك أنـي أحبه أكثر من كل شـيء فـي الكون، أكثـر من مامـا، وأكثر من نفسي أيضاً.

ويحدثني بابا عن رفيقيه اللذين قتلا.

يقول لي:

ـ الـكل يريـدون البقاء علـى قيد الحيـاة، ولكـن الذين يعـودون بعد رحلة جوية ليس الكل.

توقّف محـرك طائرة صديقيـه عند محاولـة الدوران للهبـوط. وحلّ ذلك الهدوء الذي يخافه الطيارون خوفاً شـديداً. واختفى لمعان المروحة أمام أعينهم. وجمدت شفراتها الثلاث كالعصي.

لم تكـن الطائرة قـادرة علـى التحليق حتـى المطار، فشـرع الطياران يبحثان عن مكان مناسب للهبوط. وسأل الطيار مساعده:

ـ أتظن، يا صاحبي، أننا نصل؟

فيجيبه المساعد:

ـ يجب أن نصل! وإلا ضاعت مني تذكرتا المسرح.

لم يجدا مكاناً للهبوط، فكان لا بدّ من القفـز بالمظلة. غير أن القرى تنتشر في المكان، وفيها يعيش بشـر. الطياران يستطيعان النجاة، ولكن أين ستقع الآلة المتروكة وما الذي ستحدثه؟

أمـر القبطـان مسـاعده بالقفـز، فرفـض هـذا الأخيـر أن يتخلـى عن صديقه. لم يقفزا من الطائرة، بل حاولا أخذها بعيداً عن البيوت.

لم يجـدوا الطائرة وطاقمها الميـت إلا في اليوم التالـي. قطع معدنية متناثرة، وجناحان مشوّهان، ومروحة تقوست شـفراتها وذيل شاخص إلى السـماء. يبدو أن خللاً ما أصـاب مقود الارتفاع، فأمسـك الاثنـان به بقوة محاولين عبثاً تصحيح مسار الطائرة.

أخذني بابا إلى المقبرة. هناك انتشـرت قبور كثيرة نُصبت فوقها بدلاً من الصلبان مـراوح طائرات، تطـلّ من الصـور التي علّقت بين شـفراتها،

وجوه فتيّة جميلة.

ذات يـوم، تلقّى والـدي مهمـة خاصة ـ مهمة إسـعاف عاجلـة. كان عليه أن يأخذ من محطةٍ قصيّة لرصد الطقس، امـرأةً تنتظرها ولادة معقدة، ويوصلها إلى المشـفى. هبّت عاصفـة، واضطر إلى الهبوط القسـري على جليـد النهـر المتجمـد. وممـا زاد الطيـن بلـة أن إحـدى زلاجتـي الطائرة تحطمـت. وقد جسّـد لـي بابا بيديـه كيف هبـط بزلاجـة واحـدة: انزلقت الطائـرة علـى الجليـد وكأنهـا تقـوم بحركة السـنونوة فـي سـاحة للتزلج. وأخذت تفقد سرعتها فتزداد قيادتها صعوبة، وغاص الجناح الذي لم يكن تحته ما يدعمه، في الجليد يغرف منه، فـدارت الطائرة بحدة وكأنها إحدى ساقي فرجار، ثم جمدت في مكانها. وشـرعت العاصفة تطمرهما بالثلج، فصنع بابا تحـت الجناح ما يشـبه الكهـف أقاما فيـه يومين قبـل أن يعثروا عليهما. كانت المرأة تصرخ طول الوقت، ثم بدأت تلد فاضطر والدي إلى استقبال مولودها.

كان والـدي في كل مـرة يطيـر فيها، يـدس في جيبـه فردة مـن كفيّ القديمين المنسوجين من الصوف، وكان يعدّها حجاباً يحميه. لقد قال لي أن ما أنقذه يومذاك، في تلك الرحلة، حين راحا ينتظران النجدة فوق النهر من دون أن يكونا واثقين من قدومها، هو فردة الكف تلك.

كان يطيـر، وكنـت، إذا رأيـت طائرة في السـماء، أظـن دائمـاً أنه قد يكون هو، فألـوح له بيدي. أما الطائـرة فتظل معلّقة عالياً في السـماء كأنها عنكبوت صغير في شبكة عنكبوتية غير مرئية.

لم أكن أخـاف عليه أبداً ـ ولمـاذا أخاف ما دامت معـه فردة الكف؟ إنها ستنقذه وتحميه.

كان يحدّثني أحاديث ممتعة جداً عن حياة الإيفينتيين. كانوا يسـمون أنفسـهم «تشافشـيفيين» ـ البشـر الوعليين. وقد حدث بضع مـرات أن زار يارانغات حقيقية، فأثار دهشته أن أهل الوعول هؤلاء يستطيعون في دقائق

قليلة أن يبنوا في أي مكان بيتاً دافئاً مريحاً من أضلاع الحيتان وجلد الوعول.

أذكر ما رواه أبي عن اضطراره إلى النوم في التوندرا في إحدى هذه اليارانغات، وكيف أنهم اقترحوا عليه كضيافة مميزة أن يقضم عظم وعل ويأكل نخاعه، فأطلت عليه ماما من المطبخ وسألته إن كان صحيحاً ما يقال عن هؤلاء الناس الوعليين، إذ يُزعم أن من قواعد الضيافة عندهم أن يقدم صاحب البيت زوجته للضيف لتقضي الليل معه. وقد بدا لي من نغمة صوتها الغريبة أنها تشكّ في صدق حكاياته فأحزنني ذلك حزناً شديداً. أما بابا فقال وهو يضحك أن صاحب البيت قدّم له، بالطبع، زوجته، ولكنها كانت عجوزاً أنهكتها الأمراض، لها شعر مكبوس كقطعة اللباد وممتلئ بالطفيليات، الأمر الذي لا يبدو مفاجئاً لأن الناس الوعليين لا يستحمون أبداً طول حياتهم من المهد إلى اللحد.

كان بابا يطير أحياناً في رحلات طويلة، ولكنه كان حين يمكث في البيت يقرأ لي شيئاً ما في كل مساء، قبل النوم. وكانت لديّ كتب صغيرة أحبها ـ عن بلدان مختلفة مدهشة، أما أحَب هذه الكتب إلى نفسي فكان الكتاب الذي يتحدث عن مملكة القس إيفان، وكنت أستطيع الاستماع إلى هذه القصة مرات كثيرة.

كان حين يقرأ يتغير وكأنه لا يقرأ في كتاب مطبوع، بل مخطوطات على سعف النخل أو ألواح كتفِ الأغنام. يلفّ قميصي على رأسه كالعمامة، ويجلس على الطريقة التركية، ويتحدث بصوت غريب:

ـ هذا أنا، الأب إيفان، سيّد السادات، قيصر الحكماء، حاكم جميع الحكام. أعيش، أنا، في عاصمة العواصم كلها، المدينة الأهم في كل الأصقاع المسكونة وغير المسكونة، وقصري ـ أعلى القصور، حيث يصعد المنجمون إلى سطحه كي يكتشفوا المستقبل. أتجول، أنا، في أملاكي في هودج على ظهر فيلة. والأنهار هنا تجري نهاراً في اتجاه،

وليلاً في اتجاه آخر.

لم يكن بحاجة إلى الكتاب فقد حفظ كل شيء عن ظهر قلب، بل كان يختلق الكلام من عنده في أغلب الأحيان ـ وكنت في كل مرة أستمع إلى هذه الكلمات المدهشة الغريبة، حابسة الأنفاس.

ـ في بلادي تولد وتعيش الجمال ذوات السنامين، والجمال ذوات السنام الواحد، وأفراس النهر، والتماسيح، والميتاغاليناري، والزرافات، والفهود، وحمير الوحش، والأسود البيضاء والذهبية، وزيزان الحصاد الخرساء، والأسود المجنحة، والوعول الجبلية. وهنا أيضاً يولد البشر الخالدون، والوحش وحيد القرن، وشجرة الأبانوس، والقرفة، والفلفل، والخيزران الفواح... وعندي أيضاً ابنة هي قيصرة القيصرات، حاكمة الحياة، ومملكتي هي مملكتها.

حين كان يلفظ هذه الكلمات يتحول كل شيء من حولي ـ غرفتنا، والثريا ذات المصباح المحروق منذ الأزل، ورزمة الجرائد على حافة النافذة، والمدينة الصاخبة خلفها ـ كل ذلك يصبح غير حقيقي، أما بلاد الأب إيفان فتصبح حقيقية، والأب إيفان نفسه يصبح حقيقياً. إنه لا يجلس على حافة سريري الصغير، بل في هودج على ظهر فيلة، يطوف ببصره القيصري على أملاكه.

وتمتد من حولي، فعلاً، وعلى قدر ما يمتد البصر، مملكة القس إيفان التي يعيش فيها الناس الخالدون وزيزان الحصاد الخرساء.

■

ساشينكا يا أنت لي!

لا تغضبي ـ لم يكن لديّ أبداً وقت للكتابة.

وأخيراً، لا أحد يحتاجني في شيء، وثمة دقيقة أقضيها معك.

حسناً، لماذا يحتفظون بالقبلة دائماً حتى آخر الرسالة؟

سأقبلك فوراً، سأقبل كل مكان فيك، كل مكان!

طيب، سأتمالك نفسي.

البارحة كان عندنا تدريب على الرمي، أنت لا تستطيعين حتى أن تتخيلي كيف تقلص وجه كومّودنا دهشة حين أظهر الملوحون بالرايات أن ثلاث رصاصات من أصل خمس أطلقتُها أصابت الدريئة في الرأس عن بعد أربعمئة خطوة!

كيف يستطيع المرء في هذه الحالة ألاّ يفكّر بالمصادفة!

كل شيء في العالم مصادفة. لماذا ولدنا في هذا القرن، وليس في القرن الرابع والثلاثين مثلاً؟ ولماذا في أحسن العوالم، وليس، مثلاً، في أسوئها؟

أليس من المحتمل أن يكون أحدهم، في هذه الساعة بالضبط، في هذه اللحظة عينها، جالساً في مكان ما يقرأ كتاباً عن قرع الأجراس؟ لماذا لم تطر الرصاصات إلى الماضي أو المستقبل، بل اخترقت رأس الدريئة المسكينة المثقب تخيّلي لو أن...

ها هم يا ساشينكا الغالية، لا يتركونني أكمل الكتابة إليك، أسارع الآن فأخبرك بأني لم أعد نكرة! عليك أن تعرفي جماعتك! ستهترئ الآن سراويلي من كثرة الجلوس في ديوان القيادة لكتابة الأوامر والنعوات. لقد فاجأني القائد. دعاني إليه وعيّنني كاتباً في الديوان لأني متعلم أتقن الكتابة. أقف باستعداد، كمّ السترة ملطخ بالغبار منذ مسائنا معاً، وأطراف الأصابع تلامس قفل الحزام:

ـ يا صاحب السيادة!

ـ ماذا بك؟

ـ لن أنجح في هذا العمل. خطّي لا يُقرأ.

فيجيب:

ـ ليس المهم، يا بني، أن تكتب بخط مقروء، بل أن تكتب بإخلاص!

هل كل شيء مفهوم؟

يصب كأسين.

يمد يده إليّ بالكأس.

ـ نخب التعيين!

أشربه دفعة واحدة.

قدّم لي على شطيرة من الخبز الأسود سمكاً مملحاً وبصلاً.

ـ هاك أنا، يا بني، كنت في مثل سنك ـ وفجأة أدركت كل شيء. بعد ذلك قضيت العمر كله وأنا أحاول أن أفهم ما الذي أدركته آنذاك.

كُلْ من هذا الدهن المقدد، دهن عظيم! وتذكّر: الكلمة، كل كلمة، أذكى من ريشة القلم. أما فيما يخص النعوات ـ فلا تحزن. الكاتب الذي كان قبلك كان يحزن دائماً. وكان، حين يشرب كثيراً يتهالك على كتفي ويبكي كطفل صغير:

"اغفر لي أني لم أُقتل، فأنا طول الحرب كلها، لم أكن، لو لمرة واحدة، في الخطوط الأمامية..." كان يطلب مني الغفران، ولكنه كان على ما يبدو يخاطب كل أولئك الذين شاءت المصادفة أن يكتب نعواتهم.

●

احزر أين أنا الآن؟

في حوض الاستحمام.

أتذكُر كيف أن الملك داود، جاء إلى غرفة الاستحمام واكتشف فجأة أنه عارٍ لا يستره شيء؟

هأنذي عارية أيضاً لا يسترني شيء.

أتمدد وأراقب سُرّتي.

يا له من عمل رائع!

أذكر أن سُرّتك على شكل عقدة.

أما أنا، فشكلها شكل خاتم صغير.

سُرّة ماما أيضاً على شكل خاتم صغير.

خاتم صغير في سلسلة لا نهاية لها. هكذا إذن، أنا معلّقة من خلاله بهذه السلسلة من البشر. الأدق هو أن هذه السلسلة تمتد إلى ما بعدي... وفي الاتجاهين، والجميع معلق بها.

غريب هذا الأمر. الخاتم الصغير في بطني، هو نفسه سُرّة الأرض. وتلك السلسلة التي تمر عبره ـ هي محور الكون الذي تدور حوله الكائنات ـ الآن، وبسرعة ملايين الشتاءات الضوئية.

لا، إنه هو ـ العاري الذي لا يستره شيء. ولكن لديّ، في سُرّتي وحدها الكون كله من بدايته إلى نهايته!

لقد تذكرت أيضاً كيف مرضت بجدري الماء في طفولتي، فامتلأ جسدي بالبثور ـ قال بابا:

ـ انظري كيف تَفتّق جسمك نجوماً!

فرحتُ ألهو عادّة البثور على بطني مجموعة كواكب وسُرّتي هي القمر.

وبعد سنين كثيرة اكتشفت أن المصريين القدماء صوروا بالشكل نفسه إلهة السماء نوت التي أصابها الجدري النجمي الذي أصابني.

والآن، فجأة، رغبت كثيراً في أن يكون تحت قبة هذه السماء طفل هو ابني وابنك. هل هذه فكرة غبية؟ أمازال الوقت مبكراً؟

لذيذ جداً أن أتخيل أننا، أنا وأنت، جالسان في حوض الاستحمام هذا ـ أنت تذكر كيف جلسنا فيه وجهاً لوجه فوسعنا بصعوبة. غسلت لك قدميك بشعري مستخدمة إياه كإسفنجة حمام. بعد ذلك أمسكت أنت ساقي وعضضت أصابع قدمي تماماً كما كان والدي يفعل حين كنت صغيرة. كان يجأر ويقول مهدداً:

ـ سآكلك الآن!

ويعض أصابع قدمي فيدغدغني ذلك وأخاف ـ ماذا لو قضمها فعلاً!

تسلقت بعد ذلك ظهرك ودسست ساقيّ تحت إبطيك، فرحت تغسلهما بالماء والصابون وتفرك كعبيّ وما بين أصابعي، وقد أشعرني هذا كله بمتعة شديدة.

استمتعت جداً حين رحت ترغي الصابون على كل مكان في جسمي، على الزغب الذهبي النابت هناك...

عفواً! أنا حمقاء.

تصوّر! الجنين ما بين الشهرين السادس والثامن يكون مكسواً بالشعر الذي يتساقط فيما بعد. لقد أرونا طفلاً كهذا جاء نتيجة ولادة مبكرة ـ فظاعة!

أتعرف لماذا أضاع الناس الشَّعر وصاروا عراة؟ البارحة قالوا لنا في المحاضرة: إن الشعر شيء مفيد جداً! انظر إلى القطة! شعرها ناعم، مريح، جميل، حنون! أتستطيع أن تتصور قطة عارية؟ هذه كارثة! دعنا من هذا! الحقيقة أنه حدَثَ طوفان، لم ينجُ منه أحد، نوع من القرود بقي حياً لأنها استطاعت أن تعيش في الماء. لقد بقينا آلافاً عدة من الأجيال قروداً مائية. لذا ظلت فتحات أنوفنا إلى أسفل وليس إلى أعلى. الدلافين، حيوانات التولين البحري الكسولة فقدت وبرها أيضاً.

ها أنذي ـ قردة مائية. أجلس هنا وأحلم أن تعود فنحشر نفسينا معاً في حوض الاستحمام.

أنظر إلى نفسي فينتابني القلق لكثرة الشعر عندي في أماكن لا يجب أن يكون فيها. لقد قلت إن هذا يعجبك، ولكن، يبدو لي الآن أنك، بكل بساطة، لم ترد أن تسبب لي الألم. طيّب! قل لي: كيف يمكن أن يعجبك الشعر هنا، وهنا، وهنا، وحتى ـ انظر أين!

أجلس وأنزع الشعر بالملقط. هذا مؤلم!

أتخيل فتاة من بنات الكهوف تنزع الشعر عن جسمها مستخدمة

قوقعتين بحريتين بدل الملقط. وتحلق الشعر من تحت إبطيها وعن ساقيها بشفرات مصنوعة من أنياب الحيوانات أو قرونها.

يانكا محظوظة، الشعر على جسدها أشقر في كل مكان، وقصير أيضاً.

حبيبي، ما هذا الذي أحدثك عنه؟ أقول هراء، وأنت صابر لا تعترض.

يانكا تسلّم عليك. مرت بي البارحة وروت لي حكاية مضحكة جداً عن عاشقها الجديد. تصوّر! لقد أحبها عجوز وعرض عليها الزواج.

قال لها:

ـ بنيتي، لقد بدأت أعشق النساء، حتى قبل أن يولد أبواك.

قلّدته يانكا، كيف جثا على ركبتيه أمامها وراح يدعوها للزواج، وهو يمسك بساقيها ويلتصق بهما، أما هي فكانت تتأمل نقرته الصلعاء، فتشعر بالعطف عليه من جهة، وترغب، من جهة أخرى، في ركله، ولكنها تمالكت نفسها بصعوبة!

رفضت عرضه طبعاً، ولكنها تبدو مشرقة وكأنها أحرزت ميدالية ما.

لقد أمضى حياته يعمل نقاشاً. وكان يسليها بحكاياته عن النقوش التي زيّن بها الساعات أو علب التبغ.

هل تستطيع تصوّر ما قدّمه هدية لها؟ أخرج من جيبه علبة جميلة كتلك التي توضع فيها الخواتم. فتحتها فوجدت فيها حبة أرز! لقد خربش شيئاً ما على حبة الأرز تلك. قال لها:

ـ يانوتشكا، يا حبيبتي! هاكِ أعزّ ما لديّ!

فيما بعد، في البيت أحضرت عدسة مكبرة وفتحت العلبة لترى ما الذي كتب فيها، ولكن حبة الأرز سقطت من بين أصابعها وتدحرجت إلى مكان ما، بحثت، وبحثت عنها ولكنها لم تجدها. وهكذا ظلت تجهل ما الذي خربشه عليها.

ما الـذي يجـده الجميـع فـي يانـكا؟ إن لهـا شـفتي أرنـب، وأذناها كبيرتان، تخفيهما تحت شعرها.

أكتب إليـك الآن من الغرفة وقـد تدثرت باللحاف وركّزت جلسـتي على الأريكة.

أنت أول رجل قال لي أني جميلة. أنت الأول بعد بابا طبعاً. غير أني لم أكن أصدقه، أما ماما فأصدقها. كانت تقول لي:

ـ يا فزاعتي.

كانت ترتـدي ثوبهـا المنزلي المصنـوع من الحريـر الصينـي اللماع المتماوج الألوان المزيّـن بدراكونات زرقاء. صعدنـا بأقدامنا فوق الصوفا العريضـة القديمـة، واتخذنا فـي جلسـتنا وضعاً مريحـاً، ورحنـا نتهامس. تحدثنا عن كل شـيء في العالم، حكت لي كل شيء. روت لي مثلاً، كيف ولدت ـ لم أكن راغبة في الخـروج من بطنها، فاضطروا إلـى إجراء عملية قيصرية. تلمسـت بأصابعي الندبة الصلبـة على بطنها، وشـعرت بغرابة أن أكـون ظهرت من ذلـك المـكان، والحق أنـي مازلت أسـتغرب ذلك حتى الآن.

وتحدثنا أيضاً عن جماع المرة الأولى.

قالـت: يجـب أن يكـون فعـل ذلـك جميـلاً، وألاّ يكـون إلا مع من يستحقه. المهم ألاّ تندمي فيما بعد على حدوثه، حتى لو لم تتزوجيه، حتى لو افترقتما ـ كل شـيء يمكن أن يحـدث، ولكن المهم ألاّ تشـعري بالندم على تلك الليلة.

أما بشـأن الفزاعة فكنـت أصدقها أكثـر مما أصدّق أبـي، على الرغم من أنها كانـت توبخني دائمـاً، وتؤكد أني بـلا ذوق، وأنـي لا أجيد اختيار ملابسـي، ولا أتكلم بالطريقة المناسـبة، ولا أضحك بالشـكل المناسـب. كنت معها أشعر دائماً أني مذنبة. ولكن، لم يكن من الممكن أبداً أن يدور في رأسـي أنها صارمة أكثر من اللازم، أو أنها غيـر عادلة في معاملتي. لقد

كان يرى فيّ محاسني، أما هي ـ فترى عيوبي.

بابا لم يلجأ أبداً إلى ضربي، أما هي، فقد قضيت طفولتي كلها أتلقى منها الضرب بالحزام الجلدي والصفع. ذات يوم تخاصم الاثنان، جئتها من الخلف كي أضمها. كانت تشرب حبة دواء، فصدمتُها، من دون قصد، تحت المرفق. بلّلها الماء فاندفعت نحوي وراحت تضربني عاجزة عن ضبط نفسها. أنقذني بابا.

وتخاصم الاثنان بسببي.

صاح بابا:

ـ لماذا تنكشينها باستمرار؟

فأجابت:

ـ ومن ستكون حين تكبر، إذا لم أفعل؟

سافرَتْ مرة إلى مكان ما لبضعة أيام، وحين عادت، أثارت فضيحة لأن البيت لم يكن مرتباً، وفي المرة التالية رتبتُ البيت عشية عودتها، وحرصت على أن يكون منظره جميلاً، ولكنها، على الرغم من ذلك، لم تكن راضية، بل غضبت أكثر من السابق. لعلها شعرت أننا، أنا وبابا، نستطيع العيش بشكل رائع من دونها، وأن الحياة في البيت تسير سيراً طبيعياً جداً في غيابها.

كانت تكرر دائماً كلاماً قرأته في مكان ما، مفاده أن الحياة ـ ليست رواية، وأنها ليست مغمورة بالورود، وأن عليك فيها أن تفعل ما لا تريد أيضاً، وأننا، عموماً، لم نخلق على وجه الأرض لكي نتسلى.

لم تكن تحب أن أخرج من البيت، وصديقاتي لم يكنّ يعجبنها. كانت تكره يانكا، وترى أن كل ما فيَّ من سيئات ـ أخذته عنها.

وكان بابا يدافع عني دائماً:

ـ حسناً، ولكنها بحاجة إلى صديقات!

ذلك كله كان ينتهي بدموع أمي:

ـ أنت دائماً تقف في صفها!

لقد كانت تشعر أن ما بيني وبين أبي أكبر مما بينهما. ولعلنا، أنا وهي، كنا نحس أنني أكثر منها أهمية عنده.

ذات يوم فهمت بالضبط ما الذي لا أحبه فيها. هي ـ امرأة كل شيء في حياتها صحيح ـ كل شيء يكون كما هي تريده بالضبط، ـ وأنه لا يمكن أن يكون إلا كذلك. كانت دائماً تعرف ما تريد، وكيف يمكن تحقيقه. ذلك كان ينطبق على الأثاث والناس. كانت حتى في المدرسة تلميذة ممتازة.

أما صديقاتها فكنّ من البائسات اللواتي كانت دائماً تعلمهن كيف يجب أن تكون الحياة. وكانت، في داخلها، تحتقرهن لأنهن لا يستطعن فعل ذلك، ولأن كل شيء في حياتهن ليس إنسانياً. وقد دأبت دائماً على لصق صور عطلاتنا في ألبوم تبدو فيه السعادة حالة منظمة. وكانت تريد أن تحشرنا، أنا وأبي، تحت سقف ألبوماتها.

ولكن شيئاً من هذا لم يتحقق.

كانت دعوات أبي للتصوير تتناقص شيئاً فشيئاً. وكان يعاني من ذلك فيفقد قدرته على ضبط نفسه. لم يكن يسكر في البيت، ولكن، تزايدت عودته مخموراً. أسأله:

ـ بابا، هل أنت سكران؟

فيجيبني:

ـ كلا، يا أرنبتي الصغيرة، أنا أتظاهر فقط.

كانا يتشاجران، وكأنهما لا يعرفان أن الكلمات الحاقدة لا يمكن استردادها ونسيانها. لا يعرفان أن الخصومة بين الناس تكون تامة، وأن المصالحة لا تزيل إلا نصفها، وهكذا يضيع جزء من الحب في كل مرة، فيصبح أصغر، فأصغر. أو لعلهما كانا يعرفان ولكنهما كانا عاجزين عن فعل أي شيء.

أما أنا فكنت أغلق عليّ باب غرفتي وأموت من انعدام الحب.

أسوأ الأشياء كانت المرآة. هاتان ليستا عينين، وهذا ليس وجهاً، وهاتان ليستا يدين، وهذا ليس صدراً ـ حتى أشعة الشمس لم تمسسه ـ تعد بأن تفعل، ولكنها لا تأتي.

لم أستطع أن أفهم كيف أمكن حدوث ذلك، ماما ـ غادة جميلة، وأنا هذه.

فكرت، ما أغرب أن تسمى هذه أنا!

وما أتعس ـ أن أكون هي!

منذ زمن بعيد عرفت يانكا الحب الأول، والثاني، والثالث، أما أنا فقد اقتنعت بأن شيئاً من هذا لن يحدث لي، فرحت أعول بلا صوت، وقد تجمد نظري على ورق الجدران.

في ذلك الوقت ظهر هو في بيتنا. هو وبابا كانا صديقين في شبابهما. أما الآن، فقد صار هو مخرجاً سينمائياً ودعا بابا للعمل في أحد أفلامه.

كان أحمر الشعر، رموشه الطويلة، الكثيفة، حمراء حمرة حارقة، كأنها الحناء الحمراء. شعره، عموماً، كان كثيفاً كثافة وحشية. حين جلسنا إلى المائدة كان الجو حاراً، ففك أزرار قميصه، وطوى كميه فظهرت عضلات زنديه قوية، يغطيها النمش. وأطلت من ياقة القميص المفتوحة خصل حمراء من الشعر تغطي صدره.

أذكر أنه قال إنه عائد لتوه من البحر، ولكن بشرته كانت فاتحة اللون لم تغطها الشمس بالسمرة، بل أكسبتها حمرة خفيفة.

تكاثرت زياراته لبيتنا.

أراني بابا صورة يظهران فيها وهما يقومان بحركة طائشة، يدلّيان رأسيهما إلى أسفل وأقدامهما ممسكة بعارضة الجمباز. نظرت إلى ذينك الصبيين، وتساءلت: هل أن أبي كان منذ ذلك الحين باباي قبل أن يصبح أباً؟ وهل هذا الأحمر كان هو نفسه؟ ماذا أعني بـ هو نفسه؟

هو كان عجوزاً عازباً، وكان بابا وماما يمازحانه دائماً قائلين إنه يجب أن يتزوج. وقد قال ذات مرة:

ـ إذا رأيت مرّة صدر امرأة ـ فكأنك رأيت صدور النساء جميعاً.

فاعترضت ماما قائلة إن هذا ليس صحيحاً أبداً، فصدور النساء كبللورات الثلج ليس فيها واحدة تشبه أخرى، وضحك الجميع.

بالنسبة إليّ، كان ذلك كله غريباً ومكدّراً.

كان يسميني ساشكا بروموكاشكا(*). وكنت في حضوره أفقد السيطرة على نفسي فقداً تاماً. بل الأدق، أني استعدت ثنائيتي بوجوده. تلك، التي كانت تخاف، موجودة هنا، أما الأخرى، التي لم تكن تخشى شيئاً، فقد اختفت في وقت من أصعب الأوقات.

يمرّ بي، ينظر إلى غلاف الكتاب الذي أقرؤه، ويسأل:

ـ كيف حال طروادة؟ أما زالت صامدة؟ أم أنهم استولوا عليها؟

أستجمع شجاعتي وأسأله عن الفلم الذي يريد تصويره. يجيبني:

ـ هأنتذي، مثلاً، شربت اللبن، فارتسمت على شفتيك، بنتيجة ذلك، شوارب لبنية صغيرة بيضاء. وفي الشارع ـ كتبوا الخبر في عدد البارحة من «جريدة المساء» ـ اقتحمت حافلة الموقف، حيث كان في انتظارها عدد كبير من الناس، فقتلتهم جميعاً. إن بين الشوارب اللبنية الصغيرة وهذا الموت علاقة مباشرة. نعم، وثمة علاقة أيضاً بينها وبين سائر ما في هذا العالم.

وقعتُ في حبه حتى الإغماء.

حين كان في ضيافتنا، تسللت سراً إلى المدخل لكي أشم رائحة معطفه الطويل وشاله الأبيض وقبعته. كان يستخدم كولونيا غير مألوفة ـ رائحتها رائعة، قوية، ذكورية.

لا أستطيع النوم. أنا الآن أموت حباً. ليالي بطولها أقضيها منتحبة

(*) كلمة روسية تعني «البزاقة».

وقد دسست وجهي في الوسادة. وصفحات كثيرة من دفتر مذكراتي أملؤها يومياً: «أحبك، أحبك، أحبك».

تألمت كثيراً. ولم أكن أفهم ما الذي يمكن أن أفعله تجاه ذلك كله.

كانت ماما ترى كل شيء وتشاركني المعاناة. لم تكن تعرف كيف تساعدني. تعانقني، وتحاول تهدئتي، وتمسح على رأسي كما لو كنت طفلة صغيرة... تحاول إعادتي إلى جادة الصواب.

ـ أنت ما زلت صغيرة جداً. لديك حاجة حادة جداً ليس فقط إلى أن تكوني محبوبة، بل إلى أن تمنحي الحب أيضاً. هذا رائع كله. ولكن من ستحبين؟ أترابك، لم يهجروا ألعاب الأطفال إلا منذ فترة وجيزة. ذلك هو سبب كل هذه الدموع التي على الوسادة، والحسد، والأوهام، والأحلام والحزن على المصير، والسخط على العالم كله، وعلى أقرب الأقرباء، وكأن أقرب الأقرباء هم بالضبط، المسؤولون عما حدث لك. وهكذا تشرعين في اختلاق الأشياء.

كانت تحاول إقناعي بأن وقت الحب لم يحن بعد، وأن كل هذا ليس حقيقياً.

أجهشت بالبكاء:

ـ وما هو الحقيقي؟

أجابت:

ـ حسناً، هو ذاك الذي بيني وبين بابا.

وبابا جاء إليّ في الغرفة، جلس على حافة السرير، ولسبب ما، ابتسم ابتسامة تعبر عن الإحساس بالذنب، وكأنه المسؤول عن حالي، وكأن ما حلّ بي مرض عضال وهو يعجز عن فعل أي شيء لمساعدتي.. تنهد وقال:

ـ يا أرنبتي الصغيرة، أنا أحبك كثيراً. طيب، هل هذا قليل؟

أخذت أشعر نحوهما بالإشفاق!

صرت أكتب له رسائل، وأرسلها كل يوم. كنت لا أعرف ماذا أكتب، لذا، ببساطة، أضع في المغلف أي شيء كان جزءاً مني في ذلك اليوم - تذكرة تراموای، ريشة، قائمة مشتريات، خيطاً، زيزاً مضيئاً.

أجاب على رسائلي عدداً من المرات. كتب لي عبارات مداعبة، وأخرى تعبر عن الاحترام. ولكنه صار، فيما بعد، يرسل مثلي أشياء غبية: رباط حذاء مقطوع، نتفاً من شريط تصوير سينمائي. ومرة أخرجت من المغلف منديلاً لفّ به سنّه التي قلعها قبل يوم، وقد كتب على المنديل أنه يرسل إليّ هذا آملاً أن يؤدي، إذا كان ما أعانيه حباً، إلى زوال مؤكد لذلك الحب. لقد كانت السن قبيحة حقاً، ولكني أخذتها ومرّغت بها خدي.

جاء ذات مرة إلى بيتنا، وتحدث طويلاً مع بابا وماما وراء باب مغلق، ثم مرّ بي. كنت أقف قرب النافذة كالمشلولة. أراد الاقتراب مني فشددت الستارة واختبأت وراءها.

قال:

- ساشكا - بروموكاشكا! يا طفلتي العاشقة المسكينة!

كيف يمكن أن يُحبَّ مخلوق عجيب مثلي؟ اسمعي، يجب أن أشرح لك أمراً مهماً، رغم أني على يقين من أنك، أنت التي وراء هذه الستارة، تفهمين كل شيء.

أنت لا تحبينني أبداً، أنت، ببساطة، تحبين. وهذان أمران مختلفان تماماً.

ثم مضى.

بعد ذلك لم يزر بيتنا في حضوري. وكفّ عن الإجابة على رسائلي.

في أحد الأيام لم أذهب إلى المدرسة. هكذا، ببساطة، قررت ألاّ أذهب - ولم أذهب. همت تحت المطر، دون أن ألاحظ أن السماء تهمي، كنت كالأبقار التي لا تلاحظ هطول المطر.

كنت أحمل سنّه في قبضتي المدسوسة في جيبي.

كل ما أذكره هو رائحة حريق في سلة زبالة علقت في أنفي، وواجهة محل تصوير ملطخة، فيها صورة عروسين ينثرون عليهما الملبّس.

أصابتني رجفة، وقد تبللت ملابسي، فسرت عائدة إلى البيت.

أفتح باب الشقة، على أرض المدخل مظلة كبيرة مفتوحة.

أشعر برائحة مألوفة في الممر. على المشجب معطف طويل وشال أبيض، وقبعة.

في الحمام ـ صخب ماء.

باب غرفة النوم مفتوح. ماما تطلّ منبوشة الشعر، تحاول لفّ ثوبها الصيني ذي الدراكونات، على جسدها العاري.

تسألني خائفة:

ـ ساشا؟ ما الذي حدث؟ ماذا جاء بك؟

■

استدعاني اليوم رئيس الرؤساء، قائد القادة، وقال:

ـ اجلس، اكتب الأمر التالي:

أجلسُ. وأكتبُ.

ـ إخوتي وأخواتي! أيها الجنود الأحباء! الأوفياء بالعهد، يا صنّاع السلام ومنقذيه! الوطن ينزلق كما تنزلق البزاقة تحت المطر! لا مكان للتراجع! ولا خطوة إلى الوراء! أوه، يا سلام، انظر! هل رأيت مؤخرتها؟ لا، ليس هذه! تلك التي اختفت عند المنعطف.

اشطب ما قلته عن المؤخرة. حسناً، أين وصلنا؟ آه، صح! هكذا إذن. الشعر من الغرّة حتى منتصف النقرة يجب أن يضفر في جديلة تُثبّت بشريطة من القماش وتتدلى إلى أسفل. لا استثناءات... السالف يجب أن يشذب، بحسب النموذج الموحد المقرر حالياً في الفوج، خصلة واحدة طويلة مسرّحة، ممشطة بالشكل اللائق، كي لا تكون نحيلة كالدودة، في

الصقيع يجب أن تكون الخصلة أعرض كـي تغطي الأذن. التدريب يحمي من الفراغ الذي هو سـبب كل ألاعيـب الجنود وشـيطناتهم. أعتقد أن هذا السبب كافٍ كي ندرب الجندي باسـتمرار. حذاء كل فرد يجب أن يكون علـى مقاسـه، لا عريضـاً ولا رفيعـاً، لكـي يسـتطيع الجندي، فـي أوقات الصقيع، وضع قش أو قماش قطني فيه. والأهـم من ذلك ألا يكون ضيقاً، كيلا يخرّش الأقدام والأصابع في أثناء المشـي، الأمر الذي كثيراً ما يجعل الجندي عاجـزاً في المسـيرعن مجاراة النشـطاء وكأن أحدهـم يجثم على رجله. يجب أن يكـون الحـذاء صالحاً، نظيفـاً، مدهونـاً دائمـاً، وأن نبدّل يومياً فردتي الحذاء فننتعل الواحدة محل الأخرى كيلا تهترئا، وكيلا تؤذيا الرجلين في المسـير أو المشـي. يجـب عدم نسـيان حلاقة الذقـن.. أقول للجهـلاء: إطالة اللحيـة يمكن أن تعنـي الهزيمة فـي القتال الفـردي، فمن السهل على الخصم الإمساك بلحية خصمه والانتصار عليه. غداً سننطلق. الرحلة طويلة. الليل قصير. الغيوم نائمة. سـنذهب أولاً إلى مملكة صديقة لنا هـي مملكة الأب إيفـان الذي يتكلـم العالم كلـه على قوتـه الهائلة. ها هم يكتبـون فـي "جريدة المسـاء" أنه خنـق بيديـه جنكيز خان نفسـه. هذا المكان وعر المسـالك، وأوحـش من الوحشـة. أقترح، بمنتهـى الصرامة، على جميع السـادة رؤسـاء الأفـواج والكتائب أن يشـرحوا لمـن هم أدنى رتبـة وللأفراد، ويفهموهـم أن عليهـم ألاّ يحدثوا أي تخريـب في الأماكن والقرى والخانات التي يمرون بها. وأن يرفقوا بالسـاكنين المسـالمين ولا يلحقوا بهم أية إسـاءة مهما صغرت، لئلا يثيروا الضغينة في قلوب الناس، فيسـتحقوا بذلك لقب "لصوص" المعيب. يجب ألاّ يدخلوا البيوت، وأن يرحموا العـدو الذي يطلـب الرحمة. يجب عـدم قتل العزّل من السـلاح، وعدم محاربة النسـاء، وعدم المسـاس بالأطفال. وعلى كل فرد، من أجل توفيـر الطلقـات، أن يسـدد على خصمـه بهـدف قتله. مـن يُقتل منـا عليه الرحمة، ومن يبقى حياً ـ له المجد!

الجبناء ومثيرو الهلع يجب أن يُقتلوا في أماكنهم. ورائي، هجوم، هورا!

تقدم، تقدم! هاجم! بالحراب! الرماة إلى الأمام! اطعن بالحربة!

اذبح، اقتل! خروي، بريكاك، آفوخ، فايركاخ روك، جهنّم!

قطع كلامه كي يلتقط أنفاسه، فكّ زرّ ياقته، واقترب من النافذة.

مسح عرق جبينه بالستارة. ثم أخرج علبة السجائر من جيبه. نقر بعقب السيجارة على غطاء العلبة. انكسر عود الثقاب على حرف علبة الكبريت الرطبة. وانكسر عود ثان، بالثالث أشعل سيجارته. أخذ سحبة عميقة. ثم أطلق سحابة كثيفة من الدخان عبر فتحة التهوية.

بدا له في لحظة من اللحظات أن كل هذا قد حدث في الماضي: هكذا، تماماً، كان يجلس في هذه الغرفة هذا الفتى الملطخ بالحبر الذي يذكّره كثيراً بابنه المقتول. الحليب على شفتيه لم يجفّ بعد، والنساء مازلن بالنسبة إليه مخلوقات غامضة. وكان أيضاً هذا الإبريق الصغير المكسور الأنف الذي برد فيه منقوع الشاي منذ زمن بعيد. كل شيء يشبه بدقة ما كان آنذاك: ورق الجدران الذي تغطيه زهور حمراء صغيرة ـ كالبثور ـ وكأن عدوى بجدري الماء أصابته نتيجة جريان الهواء.

وهذا الرجل المار وراء النافذة يجرجر قدميه وقد انتفخ جيباه المحشوان بزجاجات الشراب. وهذه اليافطة المعلقة في الجهة المقابلة التي لطّخ أحدهم الكلمة الأولى فيها بالطين وحوّرها لتصبح مدام المعسكر، بدلاً من حمام المعسكر. ومن مكان ما، خلف زاوية البناء، يأتي صوت طقطقة طفل بغصن صغير على أعمدة السور. ها هو ذا يمسّد لحيته بيده فيسمع حفيف خصلاتها. وذلك بالضبط ما حدث في الماضي ـ يمسّد، فيُسمع الحفيف.

خطر له أن سر استمرار الحياة هو، على الأرجح، في كون ذلك كله مدوّناً في كتاب. ولكنه يبعث حياً حين يقرأ أحدهم من جديد تلك

الصفحة التي سبق أن قرئت يوماً ما. آنذاك يبعث حياً هذا الورق على الجدران، والغصن الصغير الذي يطقطق على أعمدة السور، والسمك الفوّاح المعلق على الحبل بالقرب منا، وحفيف هذه اللحية، والإبريق الصغير المملوء بمنقوع الشاي البارد، والنساء اللواتي مازلن غامضات.

معنى ذلك، ببساطة، أن أحدهم يقرأ الآن هذه السطور ـ هذا هو كل سرّ استمرار الحياة.

قذف بأطراف أصابعه عقب السيجارة عبر النافذة، فطار متقلباً في الهواء.

مصّ منقوع الشاي البارد المرّ من أنف الإبريق المكسور ثم مسح بكمّه شفتيه.

وتابع الإملاء:

ـ ثالثاً، وقد يكون هذا هو الأهم، لا تقتل إلاّ مضطراً. تذكّروا أنهم بشر مثلنا. سيكون الأمر صعباً أيها الفتيان. سنضطر إلى الذهاب بعيداً، إلى حافة العالم. إلى مكان لم يصل إليه حتى الإسكندر المقدوني. الإسكندر لم يصل إلاّ إلى حدود ذلك المكان، حيث أمر بوضع عمود مرمريّ كتب عليه السطر التالي: «أنا الإسكندر وصلت إلى هذا المكان». ألا تصدقون؟ سأريكم ذلك. لشجيرات الصبّار هناك آذان في رؤوسها، والناس حكماء. حين رآها الإسكندر دهش كثيراً وقال: «اطلبوا ما تريدون وسأعطيه لكم!» أجابوه: «أعطنا الخلود الذي نتمناه كثيراً، أما الكنوز الأخرى فلا حاجة لنا بها». فقال لهم معترضاً: «أنا نفسي زائل، فكيف أستطيع منحكم الخلود؟» فردوا عليه: «إذا كنت تعدّ نفسك زائلاً، فلماذا إذن تتسبب بكل هذه الشرور وأنت تتجول وتهيم في العالم كله؟» انتبهوا! حذار أن تضعوا إصبعكم في فمهم. فما إن يدير المرء ظهره حتى يتلقى رصاصة في نقرته. سنسافر في البداية في القطارات، ثم في البحر بعد ذلك. وسنعرف أننا وصلنا إلى المكان المطلوب حين نرى بشراً برؤوس

كلاب ـ وسنمضي أبعد، حاملين معنا المجاذيف، وهم يسألوننا: ما هذه الرفوش التي تحملونها. هناك أيضاً بيوت عمومية فيها رجال مخنثون، وغير ذلك من القذارات، فكونوا دائماً على حذر! السلام، بالنسبة إلينا، عملية، أما بالنسبة إليهم فهو نتيجة. المعرفة في نظرهم ذكريات. كل منهم يعرف ما ينتظره ـ ومع ذلك يعيش حياته. فينتج عن ذلك أن يحب كل محب منهم، الآخر حتى قبل أن يعرفه ويتحدث معه.

وهم، إضافة إلى ذلك، لا يصلّون لراحة أنفسهم. آلهتهم بسيطة ولكن عددها عدد الطيور والأشجار والغيوم، وبرك الماء، والمساءات ونحن.

أما بالنسبة لوجود عوالم أخرى، فهم في شك، ولكنهم يعدّون تأكيد عدم وجود أي شيء خارج ما نراه، جنوناً، لأن العدم، كما يقولون، ليس موجوداً لا في العالم، ولا في خارج حدود العالم. إنهم يعترفون بوجود أساسين فيزيائيين لكل الكائنات الأرضية: الشمس ـ الأب، والأرض ـ الأم. ويعدّون الهواء الحصة البائسة للسماء، والنار كلها ـ تنطلق من الشمس. البحر ـ عَرَق الأرض، ـ وهو حلقة وصل بين الهواء والأرض، كالدم بين الجسد والروح عند الكائنات الحية. العالم ـ كائن حيّ ضخم ونحن نعيش في جوفه مثل الديدان التي تعيش في بطوننا. ولكن، هل الدودة سعيدة ـ لا أحد يعلم، أما الإنسان فيولد ويعيش ثم يموت سعيداً، غير أنه ينسى ذلك دائماً. وها هم هؤلاء الأذكياء يحلّون كل براغي السكة الحديدية. ليتهم فعلوا ذلك على خطوط الشحن وحدها! يا لهؤلاء الأشرار النهابين! يزعمون أن السكك الحديدية في فين ـ شو إي تفسدهم. يجب تدمير هذه القذارات كلها بلا رحمة. كالكلاب المسعورة! يجب أن نمسح عن وجه الأرض كلّ هذه المكلبة المرذولة! تذكّروا، لا بد من أن يؤدي بعضنا هذه الأعمال القذرة. يا رجال! سنثأر لرفاقنا وأصدقائنا في السلاح، الذين مازالوا أحياء بيننا يبتسمون، ولكن قريباً... المهم أن

تعرفوا أن الحق إلى جانبنا، وأن إلى جانبهم ـ الباطل. وقد يكون الأمر بالعكس. فالنور ـ هو اليد اليسرى للظلمة، والظلام ـ هو اليد اليمنى للنور. حتى الشمس، تسعى إلى إحراق الأرض، فلا تنتج النبات والبشر عموماً. لا يوجد منتصرون في هذه الحياة، الجميع ـ مهزومون. زد على ذلك أنهم، وأنت تطعنهم بالحراب، يظلّون يفكرون على النحو التالي: «المقلق هو ما الذي سيحدث لك بعد الموت، ـ هذا، على كل حال، كمن يسأل نفسه ما الذي يحلّ بقبضة اليد حين تبسطها، أو بالساق المثنية عند الركبة حين تمدها». المهم، يا أولاد، أن تحافظوا على سلامتكم! لا تطلقوا النار قبل أن يأتيكم الأمر بذلك! هل تذكرون سراويل فيثاغورث؟ آه منكم، ليس في رؤوسكم إلا الفراغ! أنتم درستم ذلك في المدرسة! دخلت المعلومات في هذه الأذن وخرجت من الأخرى، يا ضيعان العلم فيكم أيها الحمقى! ليس في عقولكم إلا تنانير النساء. ما الذي علّمَنا إياه فيثاغورث؟ فيثاغورث علَّم أنه حين يكون الموت مقدَّراً، لا يغادر عالم ما تحت ضوء القمر ونور الشمس غير الروح، سر يساراً في حقول وأحراج فارسيفونيا المقدسة. وحين يسألونك من أنت؟ ومن أين أتيت؟ يجب أن تقول: «أنا ـ جدْيٌ صغير ـ غطست في الحليب». طيب، أعتقد أني قلت كل شيء. مهلاً، من فضلكم، لا تبصقوا في صحن كاتب الأركان. عموماً، دعوا هذا العبيط وشأنه! حسناً، دعوه يشغل نفسه بكتابة نعواته، هل يزعج هذا أحداً؟ لا يريد الدعاء للقيصر الطاغية؟ ترى من منكم يريد؟

●

عدت من المشفى، ومازلت، رغم كل شيء، عاجزة عن تمالك نفسي. ذهبت لأتعلم، لأني أردت أن أمنح الحياة، ولكنهم، هناك يعلّمون الإجهاض.

في البداية، أردت أن أكون طبيبة بيطرية، ولكني، حين رأيت كيف

يعقّمون الكلاب من أجل راحة الناس، ـ غضبت وتركت الدراسة.

الآن أكتب إليك وسأتفرغ بعد ذلك للدرس. ليتك تعرف ما الذي أجد نفسي منساقة للإيمان به!

لشد ما يبعث الكدر أن تعرف تفسيراً لكل شيء. غريزة الأمومة مثلاً. أتعرف لماذا هي أقوى عند البشر؟ لأن الطفل يولد غير مكتمل مطلقاً بالمقارنة مع القرد. فلكي يظهر الجنين إلى الدنيا طفلاً ناضجاً يجب أن يبقى في البطن عشرين شهراً! أي، كي يكون عند ولادته مثلما يصبح بعد سنة من ميلاده. وهكذا تستمر المرأة في حمل طفلها ـ ولكن ليس في بطنها، بل خارجه. ثم لا تستطيع التخلي عنه بحال من الأحوال. الطفل ينمو، والأم تظل أبداً متعلقة به، لا تستطيع فراقه.

ما كنت لأستطيع في طفولتي أن أتصور ببساطة أن زمناً ما سيأتي، أكون راغبة فيه أن أخرج أمي من ذاتي، أن أتقيأها.

حين كان البيت خالياً، أخذت ألبومها الاستعراضي ورحت أنزع الصور منه وأمزقها نتفاً ثم أرميها في المرحاض.

صرت أدخن ـ فقط لأنها كانت تمنعني من التدخين.

أعود من الخارج فتشرع في فحصي. إنها تعرف أي مكان يجب أن تشمّ. هي لا تقول: "انفخي!" ـ لا، إنها تعرف أن كل رائحة تختفي بعد حبة سكاكر. تشم يديّ. الثوب والشعر يتشبعان برائحة التبغ، إذا جلس بجانبك أحدهم وراح يدخن. أما اليدان ـ فلا تظهر عليهما الرائحة إلا إذا حملت أنت نفسك السيجارة.

أنا، لم أخفِ ذلك ـ كنت أدخن علناً لإغاظتها.

بابا يقول لي بصوت خافت:

ـ بنيَّتي، لماذا تسعين إلى استفزازها؟ خبئي سجائرك، ألا ترين كيف تبرز السجائر بوقاحة من جيب سترتك!

أمّي تعنّفني، فأجيبها:

ـ أنا سيئة؟ عظيم، سأكون أكثر سوءاً!

هكذا كانت كل واحدة منا توصل الأخرى إلى حد البكاء والهستيريا.

أظن أن ذلك كان ضرورياً لي لسبب ما ـ الدموع والصرخات، ودقّ الأرض بالأرجل، وتمزيق وجوه المخدّات.

أغلقت باب غرفتي مرة، ورحت أحاول تمزيق الستارة بعنف أدى إلى سقوط تاجها بصخب. أما هي فكانت تدق الباب وتصرخ قائلة إنها أمّ وهذا وحده يجعلها تستحق احترامي، فأصرخ في جوابي على ذلك: لست أنا من حشر نفسه في تلك البويضة، بل إني أصلاً لم أطلب أن تلدني ولذا فأنا لست مدينة لها بشيء.

وفي مرة أخرى تشاجرت معي لأني استخدمت مجموعة طلاء أظافرها ولم أعدها إلى مكانها، فتساءلت في سري ما الذي سيحدث حين تكتشف أني بدأت أسرق منها النقود. لم أكن بحاجة إليها ـ أبي كان دائماً يعطيني ثمن السجائر أو أي شيء آخر أحتاجه ـ ولكن كنت أشعر بضرورة أن أخترق هذا الحاجز.

كان منظرها وهي ترتدي ملابسها وتتزين يثير اشمئزازي. وكنت دائماً أستطيع أن أخمّن المكان الذي ستذهب إليه ـ من خلال عينيها الزائغتين ـ الزلقتين.

تخيّلت كيف ستتعرى أمام عشيقها ـ تخلع ثيابها في أناة، قطعة فقطعة، ثم تطويها وتنضدها بعناية.

كان عمري ست عشرة، ومن دون أن أشعر بأي انتقال، وجدت أني أنا التي كنت طفلة قبل برهة ـ صرت فجأة امرأة وحيدة جداً.

خرجتُ من المنزل. صرختُ معلنة أني لن أعود إليهما وصفقتُ الباب. لم يكن ثمة مكان أذهب إليه. ذهبت للمبيت عند يانكا. استأذنت والديها بحرارة لإبقائي عندها ليلة واحدة. لم يكن عندها سوى ماما

وجدّة، لكنها كانت تسميهما والديها.

أبي ظل يركض باحثاً عني في كل مكان حتى منتصف الليل، مع أنه كان يستطيع أن يخمّن فوراً أين أنا. جاء وراح يطالبني بالعودة إلى البيت دون إبطاء. لم يكن هذا الوضع مريحاً أمام والدي يانكا. فقلت له:

ـ طيب، سأعود. ولكن ماذا أفعل إذا كنت لم أعد أحبها أو أحبك؟ أنا أحتقركما، فماذا أفعل حيال ذلك؟

ظننت أنه سيضربني. لم يضربني. بل ظَلّ طول الطريق يمشي صامتاً وهو يشرق بأنفه.

لست أدري لماذا تذكرت هذا الآن.

وحيدي، كم أحتاج إليك!

كل رسالة من رسائلك أقرؤها مرّات ومرّات، وأطبع قبلة عند كل نقطة فيها.

أنا، عموماً، أعيش من رسالة إلى رسالة.

أمرّ بالقرب من التمثال، إنه في مكانه، ولكن أين موعدنا؟

أحاول أيضاً أن أجد تبريراً لكونك لست هنا، لست إلى جانبي الآن. أنا لا أبحث عن تفسير، بل أبحث عن تبرير. لسبب لا أدريه أحتاج إلى ذلك، مادامت هذه هي الحقيقة. وهاك ما فكرت فيه: الأمر كما في الطفولة ـ إذا كنت تملك شيئاً ما، فعليك أن تتقاسمه مع الآخرين. لنفترض أنهم أعطوك حبات سكاكر، والآخرون ليس عندهم ما عندك. عليك إذن، أن تتقاسم الحبات معهم، وإلا فإنهم يستطيعون ببساطة أن ينتزعوها منك. هكذا يجب أن نتقاسم في هذه الحياة أغلى ما عندنا، فكلما كبرت غلاوة الشيء، اشتدت ضرورة اقتسامه. علينا اقتسام أحب ما عندنا وإلا انتزعوه كله منا.

أقبلك يا حبيبي! حافظ على صحتك، وكن حذراً. يا سعادتي!

إني أغفو وأستيقظ وأنا أفكر فيك.

لو لم تكن موجوداً لغرقت في ذاتي، أتخبط في فراغي باحثة عن نقطة ارتكاز لا أجدها.

مخيف جداً أن يصيبك أي مكروه.

لا أعرف لماذا تذكَّرت ما حدّثْتَني به عن طيور تعشق بعضها بعضاً في أثناء طيرانها. لا أستطيع أن أتذكر الآن اسمها.

أتعرف ماذا أريد الآن أكثر من أي شيء في الوجود؟ أريد أن أحبل منك بكل شيء ـ الفم، والعينين، والسرّة، والكفّين، وكل مسامات الجلد، والشعر، وكل شيء.

■

صعدنا إلى عربات القطار ـ أربعون إنساناً، وثمانية خيول، وضبّ واحد. ما أغرب تعايش الأشياء كلها في هذه الحياة! الناس الذين يتوحشون بسرعة تجاه الناس، ويتحولون إلى جلاميد قساة ـ يذوبون رقة ويصبحون إنسانيين تجاه حيوان صغير يعيش في جيب. يشفقون وينتعشون فجأة، حين يمسّدون ظهره بأصابعهم.

يوم قطاريّ طويل.

أظن أننا نعبر مملكة الأب إيفان.

أعمدة هاتف، وجسور، وبرّاكات خشبية، ومعامل قرميد، وأكوام نفايات، وخطوط حديدية بديلة، ومستودعات، وصوامع حبوب وغابات، وخطوط حديدية بديلة من جديد، ومستودعات بضائع، ومضخات مياه.

الرتل يجرجر نفسه ببطء. وعلى الحاجز المغلق عند تقاطع الطرق تقف عربة. وامرأة حامل متوسطة العمر تحك نقرتها بعلم صغير أخضر ملفوف. وثمة عنزة، مربوطة إلى عمود قصير، تنظر باهتمام.

في الأماكن المفتوحة ينتشر دخان القاطرة البخارية فوق الأرض ويعلق بالأعشاب الجافة الذابلة.

في إحدى المحطات وقع البارحة حادث مؤسف ـ رأيت مفتاحياً دهسته العجلات.

حركتنا تتسارع من جديد ـ تندفع السكة تحتنا كالسيل.

بحثنا يوماً عن برهان على دوران الأرض حول محورها ـ ها هي ذي تدور خلف النافذة.

مررنا بقرية فيها دستة من المداخن والسكان.

أفكّر كثيراً بأمي. جاءت لوداعي مصطحبة أعماها، على الرغم من أني رجوتها ألاّ تفعل.

فجأة، خطر في بالي أني لا أستطيع أن أحبها حباً حقيقياً إلا إذا ماتت. من هذا الذي قال: إن قرابة الدم ـ أبعد القرابات؟ ما أقسى هذا القول، رغم أنه حقيقة!

تذكّرت كيف ذهبا ـ كل خطوة من خطواته تقابلها خطوتان من خطواتها القصيرة.

ما أغرب كلمة ـ ابن بالتبني.

عرفت ماما عمي عن طريق جدتي. كم كان عمري آنذاك، ثمانية؟ زارنا عدة مرات، وكانت ماما تقدم له الشاي، وترسل إليّ في صمت، من وراء الطاولة، إشارات تهديد كي أجلس هادئاً وأسلك سلوكاً مهذباً. لقد بدا لي هذا الإنسان منفّراً منذ البداية.

كان يخاطبني بلهجة نشطة مازحة، كما يخاطبون الأطفال عادة، ناظراً إليّ بأذنه المشعرة. وكنت أجيب بالصمت على أسئلته الغبية، أما ماما فتقول بحنان:

ـ بنيّ، أجب، إنهم يسألونك!

كان ثمة كذب في هذا الصوت الحنون، كذب واضح بالنسبة إلى كلينا، وكان هذا يجرحني كثيراً.

ولكي أغيظه كنت أدمدم بشيء أكثر غباء من أسئلته، فيميع القناع

الذي على وجهه ـ هكذا كان يضحك، لقد كان من الأمور المعقدة جداً أن أعتاد على تلك الابتسامة.

ساشكا، يا جميلتي! هلا غفرت لي أني أكتب لك عن هذه الأمور؟ أنا لم أحدثك أبداً عن ذلك الرجل قبل اليوم.

أصارحك أني كنت حين أحاول تخيّل عالمه، أفقد صوابي. حياة الأعمى تبدو لي كحياة دودة الأرض التي تحفر في الظلام في كتلة الطين الرطب المتينة والكثيفة ثقوباً وأنفاقاً تركض فيها. وكنت أتصور أن فضاءه الأسود كله ممتلئ بمثل هذه الأنفاق والثقوب. وأننا، أنا وماما، محشوران في أحدها. لقد كان، ولاسيما في الليل، يتسلل هو وعماه إلى دماغي، فأعجز عن اجتثاثه من رأسي رغم كل ما أبذله من محاولات.

أذكر كيف قالت ماما، وقد أغضبني ذلك تماماً، انها ستتزوج هذا الرجل، وأنها تحبه كثيراً، وأنها تطلب مني أن أحبه أيضاً. لقد أذهلتني هذه الكلمة "أحبْه". أحبه هو؟ إنّ ما لم يستطع عقلي أن يستوعبه هو، ببساطة، كيف تجرّأتْ فأدخلت إلى بيتنا هذا الرجل الغامض الغريب ذا العينين الغائرتين المخيفتين والأسنان النافرة المتعفنة.

ماما طلبت مني أن أسمح للأعمى بتلمّس وجهي. أنا الآن، حتى بعد تلك السنوات كلها، أرتعد حين أتذكر ذلك.

هل تتصوّرين؟ لقد رسمتُ خططاً طفلية مجنونة لأفسد عرسهما، ـ تقطيع ثوب عرس أمي بالمقص، دهن ملابسها الرقيقة بالكريما، وأشياء أخرى من هذا النوع، ولكن العرس لم يكن أبداً كما تخيلت. فكل ما حدث هو أنه انتقل إلى بيتنا وأقام فيه.

لم أستطع بحال من الأحوال أن أفهم ما حاجة أمي إلى هذا العاجز. لا شك في أنك كنت ستفهمينني لو تنشقت رائحته. كانت رائحة كثيفة ثقيلة تفوح من جسده الضخم المتعرق، وكنت لا أفهم ما الذي يجعل ماما تتحمل ذلك، أتراها لم تكن تلحظه؟ أنا ببساطة لا أستطيع أن أصدق أنها

لم تكن تشعر بتلك الرائحة.

كان يقدم لي هدايا في بعض الأحيان. أذكر كيف حمل إليّ علبة صغيرة من دكان الحلويات، فيها بوظة من النوع الذي أحبه ـ كرتان تضوع منهما رائحة الشوكولا التي تدير الرأس. لشدّ ما اشتهيت التهامهما! ولكنني حملت البوظة خفية، وذهبت إلى المرحاض، فألقيتها فيه.

ابتهج حين عرف أن عندنا شطرنجاً خاصاً بالعميان أهدته لي جدتي، ولكنني رفضت اللعب معه رفضاً قاطعاً، رغم أني كنت قبل ذلك، مستعداً للّعب، حتى ولو مع المرآة.

حين كنا نسير، نحن الثلاثة، في الشارع، كان الناس ينظرون إلينا، وكان هذا يشعرني بخجل شديد. أذكر كيف كنت عند أول فرصة، كوقوفهما، مثلاً، أمام إحدى الواجهات، أو دخولهما إلى أحد المخازن، أتظاهر بأني أتنزه وحيداً، وأنه لا علاقة لي بهما. وأختلق أكثر الأعذار استحالة، كي لا أكون معه في حضرة الآخرين.

أخذاني يوماً إلى السينما. كانت ماما تهمس في أذنه شارحة له ما يجري على الشاشة، وكان المشاهدون يتأففون من ذلك طول الوقت، أما أنا فاضطررت لأخذه إلى دورة المياه. فهو يعاني من شيء ما في مثانته، لذا كان يذهب إلى دورة المياه مرة كل ساعة تقريباً.

لكن أكثر ما كان يثيرني هو الأمور الصغيرة ـ فقد صار من غير الجائز أن نضع الأشياء كيفما اتفق ـ فظهر الآن لكل شيء مكانه المحدد. وصار من غير الجائز أن يُترك الباب موارباً، فهو إما أن يُغلق إغلاقاً تاماً، وإما أن يُفتح على مصراعيه. وصار لزاماً على كل من في المنزل أن يجمد في مكانه حين كان يتمدد ليرتاح. لقد وضع في المرحاض علبة ثقاب، وكان، بعد أن ينتهي من قضاء حاجته، يشعل عود كبريت. وقد طالبنا بفعل ذلك أيضاً.

لم أكن أستطيع النظر إلى يديه وهما تطوفان على سطح الطاولة بحثاً

عن علبة السكر أو صحن الزبدة.

وكثيراً ما كان، حين يفكر، يحني رأسه ويضغط بإبهامه على تفاحة عينه. أنا مازلت حتى الآن، أتذكر كيف كان يجرجر قدميه في الممر باسطاً أصابع يديه.

كنت أشعر بالقرف حين تنزع ماما في المساء جواربه وتفرك قدميه البيضاوين المعوجّتين. وأشعر بقرف أشد ـ دون أن أعرف سبب ذلك ـ حين كانت تسميه بافليك، وكأنه طفل صغير.

لقد كان يبدو لي أحياناً أنه ليس أعمى أبداً وأنه يرى كل شيء. ذات مرة نظرت مصادفة عبر الباب المفتوح ـ كان عمّي الذي عاد إلى البيت، يخلع ملابسه وينزع حذاءه ضاغطاً على كعبي الحذاء بقدميه. وفجأة صاح بي بصوت حاد:

ـ أغلق الباب!

حين لم تستطع ماما مرافقته إلى أحد الأماكن طلبت مني أن أفعل. أمسك عمي بمقدمة كتفي وقد أدهشني بقوله لأول مرة:

ـ لا تخف، هذا ليس معدياً!

الجميع في الشارع، ينظر إلينا، ولم يكن باستطاعتي تحمل نظراتهم المشفقة، وهمساتهم التي يحاولون إخفاءها: "يا للهول!" أو "فلتبعد عنا هذا يا رب!" كان عليّ أن أقوده بسلاسة، من دون حركات حادة، أو قفزات، وإلاّ فإنه سيوبخني غاضباً ويشدد قبضته على كتفي. عليك إذا أردت مساعدته أن تعرف كيف تفعل ذلك. إنه يفقد صوابه حين يحاول المتعاطفون مساعدته فيمسكون يده التي تحمل العكاز. وكم كان صعباً أن تقوده متحاشياً الخوض في برك الماء إذا كان الجو ماطراً!

كان عمّي يحمل معه، كعادته دائماً، لوحاً حديدياً مما يكتب عليه العميان، له غطاء، فيه فتحات صغيرة مربعة الشكل. وقد خطر له ونحن في الطريق، أن يدوّن شيئاً، فتوقفنا، ورحت أنتظر بينما كان يُحدث بإبرة

غليظة ثقوباً في قطعة من الورق المقوى. وكان المارة ينظرون إلينا، فشعرت بالخجل، وتمنيت لو تبتلعني الأرض.

لقد كان، مع ذلك، يمشي في الدروب ـ الأنفاق التي يعرفها وحيداً واثقاً من نفسه يطرطق بنشاط حجارة الرصيف بعصاه البيضاء.

كنا نضع في السقيفة حقائب تحوي أشياء قديمة. وكانت ماما تستعرض تلك الأشياء من حين لآخر. وفي يوم من الأيام التقطَتْ من بينها كنزة كبيرة وضعتها على كتفي ثم قالت: سترتديها حين تكبر، ففهمت أنها كانت لأبي. وفجأة رأيت كنزة أبي على عمي. ولسبب لا أدريه، آلمني ذلك الفعل بحد ذاته أكثر من أي شيء آخر.

في الحديقة، عند أحواض المياه، كانا يستأجران قارباً، فيجلس عمي إلى المجاذيف، وتقوم ماما بتوجيه القارب. لم يكونا يفهمان لماذا أكره ركوب القارب، في حين أن الناس كلهم يحبون ذلك. كانا مبتهجين ـ هو يغرف الماء من فوق حافة القارب ويرشنا به، فتصرخ ماما ثم تغرق في الضحك، أما أنا فأجلس مبلّلا غاضباً. وحين ملأت، أنا، كفي ماء ورشقته في وجهه نهرتني ماما بصوت عالٍ وصفعتني على خدي. لم يحدث أبداً أن صفعتني قبل ذلك.

طالبتني بالاعتذار منه، فرفضت.

ـ لماذا؟ ما الذي فعلته؟ هو نفسه يرش الماء!

بكت ماما، أما عمي فراح يمسح قطرات الماء عن وجهه ويبتسم بقناعه المعهود.

ـ لا تهتمي، نينوتشكا، لا تهتمي.

غير أني كنت أعرف أنه يكرهني أيضاً.

مرّ بالقرب منا طلاب في قارب، فأطلق أحدهم صفرة وصاح:

ـ انظروا، خارون!

وكاد قاربهم ينقلب من شدة الضحك.

آنذاك كنت قد عرفت ما معنى كلمة خارون، فضحكت أنا أيضاً.

فيما بعد، حين صرنا وحدنا، قالت لي ماما:

- يا بني، سامحني من فضلك! وحاول أن تفهم وترحم.

يومها بدا لي غريباً جداً أن تطالبني ماما بالإشفاق عليها، بدلاً من أن تشفق هي عليّ.

لم أستطع، ومازلت لا أستطيع أن أغفر لها تلك الصفعة.

كان يسير مرة بمفرده، فوقع، وعاد ملطخاً بالدم والأوساخ، وقد تمزق قميصه. بكت ماما ونبشت العلب باحثة عن اللاصق الطبي واليود، أما عمي فكان دمه يقطر فوق الأرض الخشبية. أذكر أني لم أشعر نحوه بأية شفقة.

في أيام الآحاد كانت ماما تمنعني منعاً باتاً من إيقاظهما في وقت مبكر، وكانت تخرج من غرفة النوم مسرورة تدندن لحناً ما، وعلى رقبتها بقع حمراء - حساسية سببها شعر ذقنه. كان شعر ذقن عمي ينمو بسرعة كبيرة، حتى إنه يضطر إلى حلاقته مرتين في اليوم أحياناً، إذا كانا سيخرجان في المساء إلى مكان ما.

لم يكن بحاجة إلى الضوء، وكثيراً ما كان يجلس في الظلام، بل يحلق ذقنه أيضاً في الظلام - معتمداً على اللمس والسمع - الشفرة تصدر صوتاً عند مرورها فوق المكان غير المحلوق.

في يوم من الأيام كان الليل خانقاً فتمددت تحت النافذة المفتوحة ولم أستطع النوم. الجو ساكن جداً، وكل نأمة في الشارع تصل إلى مسمعي. النافذة في غرفتهما كانت مفتوحة أيضاً، فيصلني كيف كانا يتحادثان واثقين من أن حديثهما لن يسمع عبر البابين المغلقين. كان يهمر بصوت كصوت الهرّ أن نهديها ممتلئان وحلمتيهما مثل كشتبانين، وأن الشعر تحت إبطيها يشبه غابة استوائية. وكان ذلك كله يعجبها، فتطلق ضحكة مكتومة.

لشد ما كرهته في تلك الدقائق، ولشد ما احتقرتها!

شرع السرير يئن. فوددت لو أقفز وأقوم بعمل ما يغيظهما! أضرب الحائط بمزهرية فأكسرها، أو أصرخ، أو أي شيء آخر. ولكنني بقيت متمدداً أصغي إلى شخيرهما والصوت المرتفع الصادر عن اصطكاك بطنيهما المتعرقين. بعد قليل سمعتها تصرخ بصوت مخنوق:

- إي! إي! إي!

ثم اندفعت كالبرق إلى الحمام وهي تخبط الأرض بقدميها الحافيتين.

ها نحن الآن في محطة صغيرة. علقنا. أنتهز الفرصة كي أعود إلى الكتابة.

ساشينكا، لماذا أكتب لك عن عمي؟ أنا نفسي لا أعرف. ليأخذه الشيطان! الأفضل أن أكتب شيئاً مشوقاً.

من الطرائف عند ديموقريط أن الجسد قابل للانقسام حتى يبلغ الروح - الروح هي الجزء الأخير الذي لا ينقسم، كما هي حال الذرة. هناك دائماً مسافات بين الذرات. "لو أن الذرات تتلامس لكانت قابلة للانقسام، ولكنها في التعريف غير قابلة للانقسام: فالتلامس لا يمكن أن يتم إلا بين أجزاء". أي أن الأجساد يمكن أن تتلامس، أما الأرواح فيظل بينها فاصل، فراغ.

أشعر بالجوع.

الغربان - سوداء، تغطيها طبقة دهنية، فكأنها بذور تنثرها القاطرة.

أظن أن الناس ينقسمون ببساطة إلى أولئك الذي يفهمون كيف يمكن أن أكون ذاهباً لشرب الشاي، وفي الوقت نفسه، في الثانية إلا عشر دقائق نفسها، تدور الكرة الأرضية، ولا يرون في ذلك أي تناقض وأولئك الذين لا يستطيعون فهم ذلك على وجه العموم ولن يستطيعوا أبداً.

نقف عند مضخة المياه - القاطرة قررت الارتواء بالماء.

أجلس قرب النافذة وأتأمل قاطرة المناورة وهي تشخر بجانبي فتطلق حرّاً وبخاراً ساخناً لزجاً.

حلّ الظلام، ونحن مازلنا في مكاننا.

الجو هنا بارد عموماً في الليل، فأضطر إلى التدثر بالمعطف الطويل، كي لا أصاب بالبرد.

فوق السكة، يمشي، بموازاة رتل العربات كله، رجل ضئيل الحجم، يحمل مطرقة صغيرة لها ذراع طويلة، يدق بها الصناديق التي فوق العجلات، واحداً، واحداً، مصغياً إلى صوت خاص لا يسمعه إلا هو والصندوق.

قضبان السكك الاحتياطية يعلوها الصدأ.

وفجأة أُدرك أمراً بسيطاً جداً وهو أن هذه المحطة الصغيرة، ومصباح الشارع، ودقات المطرقة الصغيرة على الصناديق، والطقطقة الآتية من نافذة غرفة البرق، ورائحة الدخان والقاطرة البخارية الساخنة، التي تنفث بخاراً وزيتاً معدنياً، وهذا الصفير المخنوق التعب الذي تطلقه صافرة القطار ـ كل هذا هو أنا. ولا أحد آخر في أي مكان آخر يمكن أن يكون أنا، ولن يكون. كل شيء يكون مرة واحدة والآن. وإذا ما غادرنا الآن هذا المكان ـ فستختفي المحطة الصغيرة، وسأختفي أنا.

جأرت القاطرات، لعلّنا سنتابع مسيرنا قريباً.

بل لعلّ القاطرات ينادي بعضها بعضاً ـ كما يفعل الذكور والإناث ـ بأصوات تخرج من الصدر، يبحث بعضها عن بعض في الليل. حبٌّ قطاري. ها هي ذي الآن قاطرة وحيدة تنادي ولا أحد يستجيب لندائها. قد يكون هذا الصوت الذي تطلقه رقيقاً جداً بالنسبة إلى الأخريات.

كان لدى غروشينكا التي صوّرها دوستويفسكي «اعوجاج» مميز في جسدها. وأنا أتساءل دائماً ـ ترى ما طبيعة هذا الاعوجاج.

●

حبيبي، أنا قلقة.

أنسى نفسي ـ فتتسلل إليها أفكار تنذر بأن مكروهاً ما قد يصيبك.

أتمالك نفسي ـ فأدرك أن كل شيء يخصّنا سينتهي على خير.

كلما طالت غيبتك عني فلا تكون إلى جانبي، ازداد حجمك كجزء مني. أنا نفسي أنسى، أحياناً، أين تنتهي أنت في ذاتي، وأين أبدأ أنا.

كل ما يحدث معي لا يصبح حقيقة إلا لأني أفكر كيف سأكتبه لك. فمن دون ذلك، لا أستطيع، حتى حين يكون مزاجي جيداً، أن أعيش الفرح. يجب عليّ أن أتقاسمه معك حتى يكون.

هاك مثالاً على ذلك. البارحة اتفقنا أن أمرّ بيانكا. وصلت قبل الموعد. درسهم لم ينته بعد، فقررت أن أنتظرها في الداخل بدلاً من التسكع في الشارع. هذا الصيف غريب، إنه ليس صيفياً. برد ورياح. في المبنى ورشة إصلاح. الدهانون يصعدون السقالة ـ أحدهم، في وجهه كرزة ضخمة بدل الأنف، غمزني، وتظاهر، على سبيل الدعابة، بأنه سيدلق عليّ الآن الدهان من السطل الذي في يده. ضحكت. ما أقل ما أحتاجه فعلاً كي أشعر فجأة بالسعادة، ـ شريطة أن أروي لك ذلك فيما بعد. وإلا، افهمني، ما كان أي شيء، لا الدهّان وكرزته، ولا السطل والدهان الذي فيه.

تجولت في الممرات، الأماكن كلها غير مريحة، الريح تخترق النوافذ، ورائحة الدهان في كل مكان، والصنّة تنبعث من المراحيض. عرفت الغرفة التي أبحث عنها من البرنامج. أطللت على ما في داخلها. كانوا هناك يرسمون موديلاً. تسللت وجلست. لم ينظر إليّ أحد. كلهم مشغولون، يركّزون اهتمامهم، ويبذلون جهداً. على المنصة تقف امرأة، عارية، وحولها عدد كبير من الرجال الشباب، لكنهم لا يرون، بل الأصح

أنهم يرون شيئاً مختلفاً عمّا أفكر فيه.

في هذا السكون يتردد صرير أقلام الرسم، الفحم يخشخش على الورق. أحدهم يمدّ يده باستمرار، شاهراً قلمه، مضيّقاً عينيه وكأنه يقيس شيئاً ما في تلك المرأة.

الأستاذ يتنقل بينهم من واحد إلى آخر، ويدق بمفتاح كبير على رسومهم، منبهاً بذلك إلى خطأ هنا، ومخالفة هناك. قال لأحدهم بصوت يوحي بالأهمية:

ـ انتبه إلى اللون الخافت!

أما أنا فلم يكلّف نفسه مشقة النظر إليّ.

كانت يانكا تقول عنه ـ "هاذا تشاركوفنا نحن".

ثمة سخان على الأرض أمام المرأة الموديل. ولكن، كان من الواضح أنها تشعر بالبرد، ـ فهي تنشق بأنفها طول الوقت كما لو كانت مصابة بزكام. إنها تقف وقفة غير أنثوية ـ مباعدة بين ساقيها ويديها. فارغة كأنها مزهرية ـ الجسد هنا، وهي في مكان بعيد.

في هذا كله شيء ما غير حقيقي ـ في هذه اللامرأة، وفي هؤلاء الرجال. في هذه اللحظة، أطل ذلك الدهّان فجأة من النافذة فجمد في مكانه وفي يده كفّ اللباد.

حين لحظَته، سترت عورتها على الفور بالحركة النسائية المعروفة ـ يدٌ هنا، وأخرى هناك. فبدت، فجأة، أنثى حقيقية.

كم تمنيت لو أرسمها!

أخذ الجميع يستعدون للمغادرة. ألقت على نفسها ثوباً قصيراً، واختفت وراء الستارة.

أما أنا فبقيت أفكّر في الكتابة إليك عن ذلك كله.

وها قد فعلت.

استيقظت اليوم وبقيت متمددة في الفراش، مغمضة العينين أصغي

إلى الأصوات كلها من حولي، أصوات حية، بسيطة، أليفة ـ في مكان ما صوت آلة خياطة يتردد في الصباح الباكر، وهدير المصعد، وصوت اصطفاق باب المدخل، وضجيج الترامواي في نهاية الشارع، وطائر يتحرك ويرفرف في طاقة التهوية. ليتك تراه وتقول لي ما اسمه.

من المستحيل أن أصدّق أن ثمة حرباً في مكان ما، وأن الحرب كانت موجودة دائماً، وستكون. وأنهم حقيقة يمارسون فيها التشويه والقتل، وأن الموت موجود فعلاً.

صدّقني يا حبيبي، الجميل، الحميم، لن يصيبك أي مكروه.

■

تلقّينا من الميناء تموين المجموعة: سكّر 19 بود و5 فونط و60 زول؛ شاي 23 فونط و13 زول؛ تبغ 7 بود و35 فونط؛ وصابون 8 بود و37 فونط.

المرضى بحّاران و14 جندياً من الفوج الرابع على خط المواجهة. الماء في الخزان 5 أشبار لكل مضخة.

الطقس في منتصف النهار: الريح هادئة، الرؤية واضحة، الضغط الجوي 3001 على عمود الزئبق والحرارة 13½. مجمل ما تم نقله إلى الشاطئ: صناديق تجهيزات ـ 1؛ براميل لحمة ـ 4؛ أكياس 25 بود؛ طحين شعير 29 بود؛ حبوب 4 بودات؛ صندوق (خردة) ـ 1؛ طلقات 2160، قدور من الحديد الصب 3؛ حبال 5 بودات و20 فونط؛ صفائح حديد 50 صفيحة؛ شباك1؛ خيل1؛ ثيران2؛ في الساعة الثانية عشرة. الماء في الخزانات 24 شبراً.

أيام المسير 192، أيام الرسو102.

اليوم قدّموا للمجموعة لحماً مدوّداً ـ مشى الحال، التهموه، ولم يحدث أي تمرد.

وصلنا بعد أربعة أشهر إلى جزيرة منبسطة، مساحتها ميل واحد تقريباً، فنزلنا من السفينة كي نعدّ طعاماً لنا. وما إن أوقدنا النار حتى غاصت الجزيرة من تلقاء نفسها تحت الماء، ركضنا بأسرع ما نستطيع عائدين إلى السفينة، تاركين احتياطينا من الطعام مع القدور. قالوا لنا: هذه ليست جزيرة، بل سمكة اسمها ياسكونتي، أحست بالنار فذهبت مع مدخراتنا الغذائية تحت الماء.

تقدمنا أكثر باتجاه الشمال، وبقينا ستة أيام نبحر بين جبلين يغطيهما الضباب. وحين اقتربنا من الجزيرة رأينا حيوانات نادرة مختلفة وأناساً عراة من سكان الغابات. تابعنا الإبحار إلى جزيرة يقيم فيها ذوو الرؤوس الكلبية وقرود بحجم عجول في العام الأول من عمرها، توقفنا هناك خمسة أشهر بسبب رداءة الطقس التي منعتنا من مواصلة الإبحار.

لسكان هذا المكان رؤوس وأسنان وعيون كلبية. وهم يأكلون الغرباء إذا أمسكوا بهم. كما أن الثمار عندهم ليست كتلك التي عندنا.

الجو هنا حار جداً. الشمس تلفح إلى حد يكاد يكون غير محتمل. تضعين بيضة في النهر فتنسلق حتى قبل أن تبتعدي عنها. يوجد هنا بخور كثير ولكنه ليس أبيض اللون، بل بني. وهنا كثير من العنبر. وعندهم بانباسينا وكثير من البضائع الأخرى.

وهنا أيضاً تولد الأفيال الضخمة، والوحش وحيد القرن، وطائر الببغاء، وشجرة الأبانوس، وشجرة الصندل الحمراء، وجوز الهند، والقرنفل والشجرة البرازيلية، والقرفة، والفلفل، والزيزان الخرساء، وشجيرات القصب الفواح. وتعيش هنا أيضاً الطواويس، وهي أكبر وأجمل من تلك التي عندنا، ومنظرها مختلف عن منظر طواويسنا.

وفي حافة العالم هذه كثير من الحشائش المعمرة والحرير. وما أكثر الطيور البرية، ذلك ببساطة، أمر مدهش. أنت تستطيع أن تشتري بقرش واحد ثلاثة من طيور الدرّاج. الناس هنا أشرار، إنهم لا يعدّون السرقة

والنهب من الآثام، إن أمثال هؤلاء المستهزئين واللصوص غير موجودين على سطح الأرض. يعيش هنا عبَدة الأوثان، النقود عندهم ورقية، وهم يحرقون موتاهم. المأكولات المتنوعة موجودة بكثرة عندهم، ولكنهم يأكلون الجرذان الفرعونية.

إنهم يصلّون لمختلف الأشياء. ينهض المرء صباحاً ـ فيصلّي لأول شيء يراه. نجمة القطب لا ترى هنا أبداً، ولكن إذا وقفت على رؤوس أصابعك فإنها ترتفع نصف ذراع فوق الماء.

هم يحرقون موتاهم ويقولون إن سبب ذلك هو أن الدود سينمو في الجثث إذا لم نحرقها وسيأكل ذلك الدود كل الجسد الذي خرج منه، وحين لا يبقى له ما يأكله يموت كله، وستكون الروح التي لهذا الجسد، قد ارتكبت إثماً كبيراً. لذلك هم يحرقون الأجساد الميتة، فللدود روح أيضاً، كما يقولون.

أمشي حاملاً المجذاف، فيسألني أحد المارة:

ـ ما هذا الرفش الذي تحمله؟

تخيّلي يا حبيبتي ساشينكا! في البداية كانت الشجرة البرازيلية. ولم توجد البرازيل إلا بعد ذلك.

صعدت إلى سطح السفينة، لم يكن في مقدمتها أحد، اختبأت من الريح وراء لفّافة الرافعة. هذا المكان جيد وراء القماش المشمع الذي يغطيها، وباستطاعتي أن أدخن في كمّي.

البحر والسماء ـ غريب أن يكون بمقدورهما أن يوجدا في مكانين مختلفين.

قريباً ستكون البداية. ساشينكا، قد أُقتل. هذا أفضل على كل حال، من أن أعود عاجزاً، أو أن أضطر، لا قدّر الله، فأقتل أنا أحداً.

افهمي، أنا مستعد لكل شيء.

أنظر إلى الأمواج والغيوم. تحت قدميّ دفعات صماء. هدير يصدر

عن غرفة المحركات. وإحساس غريب في الروح، لست أدري كيف أفسر لك ذلك.

الريح تبدو كما لو كانت تحاول حشر الدخان في المدخنة. ولكنها تخفق في ذلك تماماً.

طائر نورس جمد في السماء، توقف ـ غرق في التفكير. ثم تذكر شيئاً مهماً، فاندفع بلمح البصر.

لِمَ أكذب عليك وعلى نفسي؟ أنا لست مستعداً أبداً لأي شيء!

ألقوا خارج السفينة كيس النفايات ـ فجنّت النوارس.

أتعرفين يا ساشكا؟ لعل الأمر هكذا: غلاف العالم الشيئي المرئي ـ المادة ـ يتمطى، يدهن نفسه بالكريم، يحكّ جسده ويحفّه حتى يثقبه، عندئذ ينبق الجوهر كما ينبق إصبع القدم من الجورب المهترئ.

●

حبيبي الغالي، الأليف، الوحيد!

اسمع ما الذي حدث!

ذهبت على الدراجة إلى غابتنا التي تعرفها. ثم مشيت إلى مكان المطار المهجور. هل تذكره؟

العشب غطى كل شيء. في حقل الطيران مكبّ نفايات، والهنغارات فارغة. ليس فيها غير كومات صغيرة من البراز في بعض الأنحاء. وفي كل ناحية نبقت شرطان شائكة صدئة.

سألت نفسي: ما الذي جاء بي إلى هنا؟ كل ما فعلته هو أني حرقت ساقيّ بعقصات نبات القريص. وقد امتلأ جورباي ببذور الأعشاب.

الشمس تغرب الآن.

وهأنذي أعْود إلى الدراجة فأرى حزمة صدئة من القش، تكاد تكون بطولي، منفوشة كالبجعة، وقد شرعت كثافتها تتناقص في ضوء الغروب،

وهي تتوهج ككومة من الجمر الملتهب.

قالت فجأة:

ـ قفي!

وقفتُ.

ظلّت صامتة.

سألتُها:

ـ من أنت؟

أجابت الحزمة المتوهجة:

ـ ألا ترين حقاً؟ أنا ـ آلفا وأوميغا، يأجوج ومأجوج، هيلدات ومودات، القمم والجذور، الشهيق والزفير، الأسرة، القبيلة، المخ، الخصاوي، لو عرفت البيع والشراء لعشت في سوتشي. أنا أكون ما أنا كائن. سويدي، حصّاد، وعازف مزمار. لا تخافي مني. أنا، ببساطة، أكلّم الناس المختلفين بأساليب مختلفة. فنحن نعيش في عالم حيث كل بلّورة ثلج تختلف عن الأخرى، المرايا، في واقع الأمر، لا تعكس شيئاً، ولكلّ شامة إنسانها الخاص الذي لا يشبه الآخرين. تكلّمي!

أنا:

ـ وماذا أقول؟

ـ قولي: كل ما يحيط بنا ـ خبر ونذير في الوقت نفسه.

أنا:

ـ كل ما يحيط بنا ـ هو خبر ونذير في الوقت نفسه.

الحزمة المتوهجة:

ـ طيّب، وأين المشكلة؟

أنا:

ـ هم جميعاً يريدون أن يُفهموني أن الحب لا يحتاج إلى آخر، ويستشهدون بأفلاطون الذي قال: الحب موجود في ذات المحب ولا

يحتاج إلى محبوب.

هي:

ـ وما علاقة هذا بالأمر؟ ليقل من يشاء ما يشاء! لماذا تصغين إليهم كلهم؟

أنا:

ـ وماذا عليّ أن أفعل؟

هي:

ـ انظري إلى ذاتك!

أنا:

ـ هل أنا قبيحة؟

هي:

ـ أنا لا أقصد ذلك. ها هي ذي بذور العشب على جواربك. هي، أيضاً، نذير وخبر. كلام على الحياة، على الانتصار، الأمران سيّان. في هذه الحياة لا يوجد مهزومون، جميعهم ـ منتصرون.

أنا:

ـ ولكني أريد أن أكون معه!

هي:

ـ قولي بالكلمات!

أنا:

ـ أية كلمات؟

هي:

ـ أنت تعرفينها.

أنا:

ـ أنا؟ من أين لي أن أعرف؟

هي:

ـ فكّري!

أنا:

ـ مـاذا تعني، هـل أكلل عبـد الـرب فوفـكا ـ موركوفكا علـى هذه؟ وأدوس، إضافة إلى ذلك، على قدمه، لأكون الرئيسة في المطبخ؟

هي:

ـ لا، لا، ليس هذا ما أعنيه!

أنا:

ـ لا أستطيع أن أحزر!

هي:

ـ لا حاجة إلى التخمين. أنت الآن تعرفين كل شيء. انظري إلى هذه البعوضة، إلى هذه الغيمة، إلى أصابعك المدببـة، والندبة التي عليها تحت الظفر تماماً.

أنا:

ـ أظن أني بدأت أفهم.

هي:

ـ ها هـو ذا العالم مرئـي. ولكنه يصبـح ـ إذا أغمضـت عينيك ـ غير مرئي.

أنا:

ـ فهمت!

هي:

ـ طيب؟

أنا:

ـ فهمتُ كل شيء.

فهمـت كل شـيء! نحـن الآن زوج وزوجـة. لقـد كنـا دائمـاً زوجاً وزوجة.

أنت ـ زوجي. أنا ـ زوجتك. وهذه أروع قفلة شعرية في الدنيا.

■

أيها الاسم المحترم ـ أيها الوطن!

بعميق الأسى أخبركم أن ابنكم.

على كل حال، أنتم، نفسكم فهمتم كل شيء.

تماسكوا.

أفهم حالكم الآن. لا توجد كلمات قادرة على مساعدتكم وتعزيتكم في هذا الوقت.

ثقوا، أنا نفسي، تصعب عليّ كتابة هذا كله. ولكن هذه هي الحياة، الخدمة العسكرية، حيث لا توجد كلمة "لا أريد"، بل كلمة "يجب".

ليكن لكم بعض العزاء في أنه لم يمت هكذا ببساطة، وإنما مات في سبيل شيء جميل وعظيم. ما هو هذا الشيء؟ ليكن، على الأقل، الوطن نفسه.

أفهم أن هذا ليس ما يجب أن يقال.

باختصار: لقد قُتل في المعركة.

في أي معركة؟

يكفي أن أقول إن ابنكم لم يعد من إحدى الحروب غير المشهورة، على حدّ تعبير الشاعر.

وما الفرق إن كان مات في سبيل البيض أو الحمر، الهيلينيين أو اليهود...

ما الفرق إن مات في هذه الحرب غير المشهورة أو تلك؟

أفهم، أنتم يهمّكم أن تعرفوا أية حقول بالضبط من حقول الإمبراطورية المعادية، هي التي يسمّدها دمكم، ولكن أليس الأمر سواء؟ أليست الحقول كلها تحت قبة السماء؟

جاء كوتوزوف كي يقهر الفرنسيين، أما ابنكم فجاء، كما يمزح الظرفاء من أصحاب الرتب غير العالية، من أجل أن يضرب الصينيين على خصياتهم. وهذه هي النتيجة: وقَّعوا على وصل الاستلام!

بالمناسبة، لقد كتبوا عن أبطالنا المعجزين في الصحف! البارحة، مثلاً، كتبوا في "جريدة المساء"، في العمود الثالث: "صعبة هي الدرب إلى صليب غيورغي المقدس!"

أرفق بهذا الكتاب نسخة من الجريدة.

كم هو محزن هذا الأمر ـ ذلك ما يخبرنا به مراسلكم من مسرح العمليات القتالية، ـ ولكن تجربة الأيام الأولى من الحرب تُبيِّن أن الأمر لا يمكن أن يكون إلا كذلك: لقد حاولنا في البداية أن نكون رحماء، لكننا تلقينا ضربات على مؤخرة القوات من بين الأعشاب البرية التي تغطي الحقول. ويمكنكم أن تخمنوا نتائج تلك الضربات، قتلى في كل جماعة!

لم تهطل الأمطار،
والأرض جفّت
لقد خرق اليانغويتسزيون انسجام الكون.
غضبت السماء،
فأرسلت إلى الأرض
ثمانية ملايين من جنود السماء.
سنؤدب اليانغويتسزيين،
سندمر السكك الحديدية ـ
فيهطل المطر غزيراً
وينتعش الناس والأرواح،
وتهدأ الديكة والكلاب.
هكذا، عليك أن تقتل لو واحداً!
اقتله الآن بسرعة!

اقتله بعدد المرات،

التي تراه فيها!

اليانغويتسزيّون، يا قارئي اللطيف ـ يتابع المراسل في تقريره ـ ليسوا بشراً، إنهم كَفَرة، لهم رؤوس كلاب، إنهم نحن.

نحن خرقنا الكون. نحن ـ ثقوب في البناء الكامل للعالم، يتسرب منها الدفء والمعنى، ويهبّ عبرها تيار فضائي جليدي. لكم أن تطلقوا أي اسم تشاؤون على انسجام الكون. "فين ـ شو إي" أو "لائحة قواعد"، لا فرق، المهم أن فيه وفرة في كل شيء ـ وفرة في الحياة، وفرة في الموت، والأهم أن فيه الدفء الإنساني.

كيف لي أن أفسّر ذلك تفسيراً أكثر بساطة! انسجام الكون ـ هو لائحة قواعد يجب أن تعلّم المجنّدين الأغرار ـ أن كل شيء منسجم مع غيره. كاشا وماشا، الحب والدم، الثلج والماء، أرض، أياً كان اسمها، هي الوطن وابنها.

ما تحت قبة السماء هو تحت قبّة السماء لأنهم يموتون تحتها ويظلّون أحياء بعد ذلك. الجميع هنا يستمرون في الحياة في البيوت نفسها، يمشون في الدروب نفسها، ويقولون الكلمات نفسها، التي لا تكفي لشيء، ويتأملون الغروب نفسه الذي يهمّ بالهرب، ويقصّون أظافرهم بعد أن ينقعوا أقدامهم في طست ماء ساخن. كلهم موجودون حيث كانوا. ممنوع أن تنتزع منهم بيوتهم، أو دروبهم، أو أرضهم، أو غروبهم، أو أظافرهم.

لقد كُتب في تلك اللائحة: يجب أن تفهم أنك تعيش على أرضهم، تسير على دروبهم. يجب عليك، إذا أردت أن تدقّ مسماراً في حائطهم، أن تطلب الإذن بذلك قبل أن تفعل. ويجب عليك، حين تبني بيتاً، ألاّ تبنيه لنفسك، بل للجميع. للجميع، الذين عاشوا والذين لم يعيشوا. لجميع الغروبات والأظافر.

القضيـة لا تتعلـق بعـوارض السـكة الحديديـة أو قضبانهـا، بـل في كونك تفعل ذلك من دون استئذان، تتصرّف بما هو حيّ، بما هو تحت قبة السماء.

لقد دمّر اليانغويتسزيّون انسـجام الكون، ويجب أن نقيمه من جديد. لذا لا بد مـن تدمير اليانغويتسـزيين، تدميرنـا نحن. نحن مـن لهم رؤوس كلاب، نحـن من يجـب أن يُقتـل كالـكلاب المسـعورة. نحن مـن لا يدع الناس يعيشون.

السماء نفسها غضبت فأرسلت الجيش السماوي لقتال أبنائنا.

نحن نقاتل السماء.

ليتك رأيت، أيها القارئ، أولئك الجنود السماويين!

إنهم أطفال!

وكلهم بنات صغيرات.

هم يعتقـدون أن كلمـات خاصـة ينطقـون بهـا، تعويذات سـماوية، تحميهـم مـن الأذى. هـم يؤمنـون أن ناقوسـاً ذهبيـاً شـفافاً سينشـأ حول أجسـادهم البنّاتيـة يحميهـم، بوصفهـم غيـر ناضجيـن، مـن الرصـاص والحراب. وهم يؤمنـون أيضاً أن باسـتطاعتهم أن يحرقـوا البيوت بمجرد لمسها أو إلقاء نظرة عليها، وأنهم يستطيعون الاختفاء ثم الظهور في أماكن لا يتوقعها أحد، وأنهم يسـتطيعون أن يتحولوا إلى كائنـات غير مرئية، وأن يختبئوا تحت الأرض، ويطيروا في الهواء، وأنه، حتى العشبة البرية تتحول في أيديهم إلى سـلاح. وأنه يكفي أن توجه العشـبة إلى يانغويتسـزي حتى تمزّقه المخالب الخفيّة إلى أشلاء في الحال.

إنهـم لا يأخـذون أحـداً أسـيراً، يتخلّصـون مـن ضحاياهـم بقسـوة غير بنّاتيـة، ويرون أن مـن واجبهـم المحتـم أن يمثّلوا بالأجسـاد الخامدة الأنفاس، يقطّعوها، يطعموهـا للخنازير، أما قلوبها فيأكلوها هم أنفسـهم. لكن هذا ليـس مجرّد بربريـة، بل فيـه معنى عميـق. إنهن، هـؤلاء الفتيات

الطائرات، لا يستطعن أن يتصورن أن ابن إحداهن حتى من دون ذلك، لن يتكرّر أبداً لا في اليوم الثالث، ولا بعد مئة ألف يوم ثالث".

ولكن، لنعد إلى أغنامنا.

أعود.

وفقاً لما هو مكتوب، ومرفق بدفتر رسائل كتبة الأركان، يجب للانتهاء من ذلك، أن أعرض باختصار في هذه النعوة، ظروف موته وأسبابه، فأقول مثلاً: إن ابنكم المخلص لقسَمه، أظهر صموداً وبسالة في المعركة، وقُتل وهو ينفّذ أمر قائد أحمق ـ، أو أقول بصيغة أخرى:

إن ابنكم المخلص لقسَمه أظهر صموداً وبسالة في المعركة، وأصيب إصابة خطيرة وهو ينفذ مهمة قتالية كلّفه بها قائد أحمق، ثم مات متأثراً بجراحه.

وهناك صيغة ثالثة ممكنة في حال قُتل ابنكم نتيجة تعامل طائش مع السلاح أدى إلى موته، أو في حال مرضه أو أية أسباب أخرى، كإصابته، مثلاً، بنزيف دموي، ـ أنتم تدركون طبعاً أنه من غير اللائق أن أكتب لكم ـ إن ابنكم، المخلص لقسَمه، مرض وهو ينفذ أمر ذلك الأحمق، ومات.

باختصار:

قُتل ابنكم في ضواحي تون جو، على ضفة نهر بيي خو.

أو، على نحوٍ أدق: قُتل ابنكم ولكنه حيّ وبصحة جيدة.

ولكن الحديث عن كل شيء يجب أن يكون بحسب التسلسل.

هم الآن يحمّلوننا في شاحنة استولى عليها الحلفاء.

●

فولودينكا!

ترى كم مضى من الوقت؟

لقد هتفت لي ماماك يومذاك، ولكنها لم تقوَ على الكلام.

فأخذ عمّك السماعة وحدثني عن كل شيء.

بقيت يومين ممدّدة، لم أنهض، ولماذا أنهض؟

كل شيء فيّ بارد، متجمد ـ روحي وساقاي.

ثم نهضتُ وذهبت إلى أهلك.

منظر أمك مخيف. وجهها متورّم من كثرة البكاء. نظرَت إليّ نظرتها إلى إنسان غريب.

جلسنا إلى المائدة. كان بافل أنطونوفيتش يقف إلى جانبها، ملقياً يديه على كتفيها. بعد قليل قال إنه ذاهب ليعدّ الشاي، ثم مضى إلى المطبخ.

قالت:

ـ ليت له تابوتاً، ليت له قبراً، ولكن لا شيء ـ مجرّد ورقة...

مدّت يدها إليّ بالنعوة.

ـ انظري، الورقة موجودة، والختم موجود، والتوقيع موجود. ولكن أين ابني؟

هنا أجهشَتْ بالبكاء، وأنا أيضاً. بكينا حتى الثمالة.

وكانت تكرر باستمرار:

ـ لماذا يقتلون؟ لماذا القتل؟ كان بمقدورهم أن يشوهوه، يتركوه بلا أذرع، بلا ساقين، ولكن، يبقوه حياً. إنه ـ لي! إنه يخصّني!

شرعنا نشرب الشاي مع قطع الخبز المحمّص. عمّك صبّ الشاي للجميع، وقد انتبهت إلى طريقته في صب الشاي ـ يظل يصبّه في الكأس حتى يلامس الإصبع.

أتدري؟ أظن الأمور هكذا ـ للألم حافة. المرء يفقد وعيه عندها حتى لا يموت. وللحزن حافة ـ عندها يكف فجأة عن الإيلام.

أنت لا تشعر بشيء، لا شيء عموماً.

تجلس وتشرب الشاي مع قطع الخبز المحمّص.

وهاك أيضاً: الناس كثر من حولك، وحين تقع مصيبة يختفون في مكان ما. لقد قرأت في أحد الكتب أنهم كانوا في الماضي يمنعون الالتقاء بالأرامل من النساء والرجال، لأنهم كانوا يعتقدون أن الحزن معدٍ. أظن أنهم الآن أيضاً يعتقدون ذلك، ألا يمكن أن يكون الألم معدياً فعلاً؟

ذهبتُ اليوم سيراً على الأقدام عبر حديقتنا. كانوا، في تلك الأثناء، يغلّفون التماثيل بألواح من الخشب استعداداً لقدوم الشتاء. فبدوا كأنهم يضعونها في توابيت. أحد التماثيل لفتاة في وضع يوحي بحيوية شديدة، وكأنها كانت ترى عامل النجارة.

وقفتُ أنظر إليها. لم أستطع مغادرة المكان. جمدت في وقفتي تماماً.

إنهم يغلّفونني أنا بالخشب.

إن التي في التابوت هي أنا.

■

ساشينكا، يا أنت لي!

مضى يوم كامل ونحن ننزل أشياءنا من الشاحنة، فلم أجد دقائق أكتب فيها إليك قبل الآن.

أتعرفين: إن أصعب الأوقات عليّ هو الآن؟

يفسّر ذلك لك أبسط الأشياء ـ ما حولي.

يستحيل وصف هذا المشهد! الدهانات، الروائح، الأصوات، النباتات، الطيور ـ كل شيء هنا مختلف.

وفوق ذلك كلّه، قمت اليوم بتدوين أول حادثة موت. أحد الجنود مات ميتة غبية جداً: وقف مصادفة تحت الرافعة بالضبط، أفلت أحد حبالها، فسحقته الصناديق.

ظننت أن ذلك سيكون أمراً استثنائياً، ولكن يدي دوّنت الكلمات

المرعبة وكأن شيئاً لم يكن.

تـرى، هل بـدأ يحدث في نفسـي ما كنـت أتمنـى كثيـراً أن يحدث؟ لقد كنت طول حياتي أسـأل نفسـي باسـتمرار هذه الأسـئلة عينها. وهأنذا أقتـرب أحياناً ـ على مـا يبدو ـ ليـس من اكتشـاف الجواب، بـل من فهمه بشـكلٍ ما. كـم احتقرتُ نفسـي وكرهتهـا ـ ذاتي التـي تمنيت لـو أتخلص منها كما يتخلـص المرء من حذاء ضيّـق مهترئ! كم تمنيـت أن أكون مثل أولئك جميعـاً ـ راضيـاً، سـريع الغضب، مرحـاً، متينـاً، لا أتسـاءل ـ أرى الأشياء واضحة من تلقاء نفسـها، أتعلّم أن أتشـبث بالحياة، أتجاوز كل ما ليس ضرورياً، مشـروطاً، محسـوباً، أتعلّـم ألاّ أفكر بالخـوف من الموت، بل الأدق، ألاّ أغـرق في التفكير، أتعلّم أن أضـرب حين يجب أن أضرب، وأفرح بما هـو موجود، وألاّ أصدّع رأسـي بالتفكير في سـبب الحاجة إلى ذلك كله.

هأنذا أكتب التقرير عن موت الرجـل دون أن ترتعش يدي. ذلك أمر جيد.

سأكتب الآن بإيجاز عن هذين اليومين الأوّلين.

البارحة وصلنا إلى تاكو. كانت سـفن كثيرة قد سبقتنا وهي ترفع كل الأعلام الممكنة، ولكـن الخليج ضحل الميـاه، ولم يكن بمقدور السـفن الكبيـرة أن تصل إلـى مصبّ بيـي خو. لـذا صعدنا فـي البداية إلى سـطح البارجة. وشعرتُ بالقلق حين نظرت إلى الخيول التي كانت روافع السفن ترفعهـا وتنزلهـا. كانت الخيـول تصهـل خائفة، يائسـة وكأنها استسـلمت لمصيرها فتدلّت عاجزة في الهواء وقد مطّت قوائمها فبدت أكثر طولاً.

عند المسـاء رسـونا فـي الخليج وظللنـا ننـزل حوائجنـا حتى وقت متأخـر من الليـل. حين سـاد الظلام أضيئـت المصابيـح في السـفن كلها، مجموعـة مـن النجـوم الكهربائية على سـواري الأشـرعة وأبراج السـفن. أتعرفين؟ لقـد كان ذلك جميـلاً جداً! فشـعرت لأول مرة بالأسـف لأنك

لست معي.

بريق الأضـواء المنعكـس في المـاء الأسـود، ومصابيح سـفن الجر والقـوارب الصغيـرة، وأشـعة الأضـواء الكشّـافة تنبعـث من وقـت لآخر فترتطم بالغيوم تاركـة عليها بقعاً قمريـة. كنت أتأمل هـذه الأضواء وأفكر فيـك. كان نسـيم دافـئ يهـب مـن الشـاطئ، حامـلاً معـه روائـح جديـدة مجهولة. المنظر مبهج بلا سبب معروف، ومخيف بعض الشيء. الأضواء تشتعل تارة، وتنطفئ تارة أخرى. تصوري! السـفن تتحادث بهذه الطريقة، فيرسل بعضها لبعض الرسائلَ عبر السّحب.

دخلنا مصـبّ النهر في الفجر تشـدّنا سـفينة جـرّ. على جانبـي النهر تمتد خطوط طويلـة واطئة من الأبراج. فراغ وموت فـي كل مكان. لقد تمّ الاسـتيلاء على هذه الأبراج منـذ بضعة أيام فقـط. وكانت تُـرى في بعض الأماكن على جدرانها آثار انفجار القنابل.

لا أعرف ما الذي كانوا ينقلونه في تلـك البارجة قبل أن نصعد إليها، ولكنها كانت قذرة، زلقة، تلتصق أقدامنا بسطحها اللزج.

أتعرفين؟ إن اسـم هذا النهر يعني في الترجمة ـ الأبيض. ولكن لون بيي خو رمـادي كثيف تشـوبه الحمرة. وهو ينقـل كل ما يسـتطيع نقله من مئات المدن والقرى، ـ زبالة، ألواح خشبية، قشور بطيخ، أشياء وأشياء.

ساشكا، لن أنسـى أبداً كيف سـكن الجميع حين رأوا لأول مرة جثة طافية قريبة جداً من جانب السفينة. كانت الجثة منتفخة، وجهها متجه إلى أسفل، ولم يكن واضحاً أهي جثة رجل أم جثة امرأة ـ لها ضفيرة شيباء.

أدغـال قصـب، وأشـجار صفصاف ناحلـة، وأمـواج عكرة، وسـهل رملـي ممتد حتـى الأفق. لـم يكن يبعـث الحياة فـي هذه الصحراء سـوى أكوام من الملـح البحري، وتـلال وربى، قالوا لنـا فيما بعد إنهـا قبور. كنا نرى أحياناً قرى مهجـورة. لم يقع بصرنـا على أي كائن حـي، غير قطعان الـكلاب. لكننا كنا نـرى أحياناً خنازير سـوداً تحفـر الضفاف التـي غطتها

الطحالب.

سرعان ما ظهرت مدينة تونغ كو. رأينا من بعيد بيوتاً صغيرة صفراء ـ رمادية مبنية من الطوب، ثم أطلّت مستودعات الجمارك الكبيرة والمخازن والورش ورصيف المرفأ الغارق بالصناديق والبالات.

قضينا الليل كله على رصيف المرفأ ننقل حوائجنا إلى عربات القطار. سينقلوننا الآن. لا أعرف متى سأستطيع الكتابة إليك في المرة القادمة.

ثمة وهج مخيِّم فوق المدينة طول الليل. وفي الهواء رائحة حريق. يقولون إن السكان أنفسهم يحرقون بيوتهم ويتهمون الأجانب بفعل ذلك، لكي ينشروا المزيد من الحقد ضدّهم. لقد احترق حتى الآن نصف تونغ كو، ولكن الحرائق مستمرة، ولا أحد يطفئها.

أتعرفين ما الذي يتأثر أكثر من غيره؟ إنه الأنف. تنتشر الآن في الهواء رائحة كريهة هي رائحة القصب المحترق، وثمة في الهواء أيضاً طعم غير مألوف يسبّب الغثيان. أعتقد أني تعلمت الآن كيف أميّز هذه الرائحة ذات الحلاوة المنفّرة.

●

فولودينكا!

أيها الإنسان الحبيب إلى قلبي! يا فرحي!

أشعر في التابوت بالبرد، قدماي متجمدتان.

كيف أشرح لك ذلك؟ أنا آكل، أرتدي ملابسي، أذهب لشراء حاجاتي. ولكني، مع ذلك، أظل ميتة أينما ذهبت.

لقد التحقتُ أيضاً بدورة تدريبية في قسم الإسعاف ـ رأيت هناك العجب.

اليوم عطلة، يوم معتم، صقيعي، لا حاجة للذهاب إلى أي مكان في

هذا الصباح. التدفئة رديئة، والجو بارد في الغرفة. الجليد يغطي النوافذ. تمددتُ تحت لحافين ورحت أفكّر فيك. كيف حالك هناك؟ ما أخبارك؟

ألزمتُ نفسي، فيما بعد، بالنهوض، وقمت ببعض الأعمال المنزلية. أشعر برائحة بدأت تتصاعد من سطل الزبالة، فقررت أخذه إلى المكبّ.

الباب متجمّد... والأشجار تجمّع على أغصانها الجليد. وفمي يتصاعد منه البخار. خرجتُ، واقتربت من حاوية النفايات. هي أيضاً تتنفس بخاراً.

وأشجار الميلاد ملقاة هناك في أكوام متّسخة وقد تناثرت فوقها نتف الزينة الممزّقة.

لا أحد في المكان.

أسأل:

ـ أهذا أنت؟

هو:

ـ أنا.

أنا:

ـ الخبر والنذير؟

هو:

ـ نعم.

أنا:

ـ اذهب!

هو:

ـ أنت لا تفهمين.

أنا:

ـ أنا أفهم كل شيء. اذهب!

هو:

ـ لقد حلّ المغيب والقمر لمّا يبزغ كما يجب. انظري إلى هذا الوبر الذي يغلّف الأغصان الشتوية. والقمر أيضاً لم يقف على القدم المناسبة. هل تسمعين؟ من الطاقة المفتوحة في الطابق الثاني يأتي صوت موسيقا وضحك ـ وليمة في زمن الزكام. وهناك عربة طفل على الشرفة، فيها طفل صغير استيقظ وراح يبكي بصوت عالٍ. إنه إنسان، ما إن ولد حتى شرع في المواجهة والاستفزاز. افهمي، أنا هو من أحبك، في هذا العالم.

أنا:

ـ أحب. في هذا العالم. أهذا كل شيء تقدر عليه؟

هو:

ـ أعرف، وضعك الآن صعب.

أنا:

ـ هل تستطيع عموماً، فعل أي شيء؟

هو:

ـ أنا أعرف أسماء الأشياء كلها، ولا أستطيع شيئاً.

أنا:

ـ لماذا؟

هو:

ـ للاشيء. ألم يعلموكم شيئاً في المدرسة؟ ألم تدرسوا أن هناك ماضياً، غير حاضر، ومستقبلاً؟ هل كنت، في درس الفيزياء تقرئين سراً تحت الطاولة روايات سميكة؟ السر كلّه في الضوء. كل شيء يتكون من الضوء. ومن الحرارة أيضاً. والأجسام ـ كتل من الضوء والحرارة. الأجسام تشع بالحرارة. الأجسام يمكن أن تفقد الحرارة فتصبح باردة، ولكن الحرارة تبقى حرارة. ألا تفهمين ما أقول؟ أنتما، مثلاً، اتفقتما على موعد قرب التمثال. ولكن هذا، في واقع الأمر، ليس موعداً قرب التمثال، بل تمثال قرب الموعد، فنحن إذا انتزعنا التمثال يبقى الموعد.

أنا:

ـ لا أستطيع الحياة من دونه. أنا بحاجة إليه. لماذاهو غير موجود؟

هو:

ـ لقد قلت أنت نفسك ـ يجب أن نقتسم. إذا أخذت وجب أن تعطي، لكي تبقي لنفسك شيئاً. وكلما كان الإنسان أغلى، زاد ما يجب أن تعطيه. وعموماً، المارة وحدهم يمشون مؤمنين أن أكثر الأشياء فظاعة قد أصبح من الماضي. تذكرين أن البطل والبطلة في إحدى الروايات السميكة التي كنت تقرئينها تحت الطاولة، ظلاّ قريبين بعضهما من بعض طول الوقت دون أن يلتقيا، وأنهما كانا يعانيان العذاب لأنهما لم يلتقيا بحال من الأحوال، ثم حين التقيا في نهاية المطاف، أدركا أنهما لم يكونا من قبل مهيئين لالتقاء أحدهما بالآخر، وأنهما لم يكونا قد عانيا، بعد، تلك الآلام التي كانت في انتظارهما. وهكذا حالكما أنتما الاثنان ـ أنتما مازلتما غير مهيئين للالتقاء ـ لم تعيشا ما فيه الكفاية من العذاب الحقيقي. إن هذا يبدو معقداً ولكنه، في الحقيقة، بسيط جداً.

أنا:

ـ بسيط؟

هو:

ـ لا تتشبثي بالكلمات. إنها مجرد ترجمة. أنت تعرفين أن الكلمات، أي كلمات، إنما هي ترجمة رديئة عن الأصل. كل شيء يتم بلغة لا وجود لها، وكلمات تلك اللغة هي الكلمات الحقيقية.

أنا:

ـ ما الذي تريده مني؟

هو:

ـ تأملي ما حولك. كل الناس يكررون أنفسهم، يلوكون الكلام نفسه ويندهشون كيف يمكن أن يكون ذلك. ثمة حيوات كاملة ليس فيها

أحد حيّ، حتى الحيّ منها يموت قبل أن يتذوّقهـا. قولي أنت: هل تريدين ذلك؟

أنا:

ـ نعم.

هو:

ـ هؤلاء يسـيرون علـى غير هـدى، فـلا يحصلـون إلا بصعوبة على تابوت لا يكاد يصل إلى ذقونهم.

أنا:

ـ ولكنهم يعرفون الأمر الرئيسي.

هو:

ـ ماذا؟ يعرفون أن الإنسان ليس ملزماً بأن يكون سعيداً؟

أنا:

ـ نعم. إنهم يعرفون. أما أنا فلا أعرف. أنا أيضاً أريد أن أعرف.

هو:

ـ ما هذا، تمرد؟

أنا:

ـ نعم.

هو:

ـ لا تكوني حمقاء.

أنا:

ـ لقد تعبت كثيراً من كوني أنا أنا.

هو:

ـ أنـت، ببسـاطة، مازلت لا تعرفيـن كيف يحـدث ذلك. تنسـين في المقهـى مظلتـك، فترجعيـن لاسـتعادتها ـ وإذ بالحيـاة تتخذ مسـاراً آخر. مشـيت، أنت تذكرين، في حديقتكما تلـك. كان الثلج يهطل جافـاً، حبوباً

صغيرة تتقافز. وبدا لك أنه ما من أحد غيرك في الحديقة، وكأنها كانت ملكك الخاص. اقتربت من المقعد، أزحت عنه الثلج بقفازك، وجلست. وفي الجهة المقابلة بالضبط، انتصب تمثال تلك الفتاة المغطى بالألواح الخشبية. في الليالي الشتوية يتاح لنا، على إيقاع دوران الزوابع الثلجية، وقت للتفكير في الفعل الذي لم نفعله كما يجب.

إنها تقف في تابوتها ـ تمدّ يداً إلى هذه الجهة، وأخرى إلى تلك ـ وتتحول. تصبح أكثر انسجاماً مع ذاتها. وتعرف أنها ستخرج قريباً من التابوت. يرفعون الغطاء، فإذا بها على حالها ـ يد إلى هنا ويد إلى هناك ـ هذه أنا! هل انتظرتموني طويلاً؟ كيف كانت حالكم هنا من دوني؟ ما الجديد عندكم؟ هل احتلوا طروادة؟ إنها هي نفسها، ولكنها مختلفة، لقد فهمت شيئاً ما في فصل الشتاء. في هذه اللحظة ركض نحوك كلب سبانييل. شمّ رائحتك. شرع يحك أذنه من الخلف، ولوّح بذيله. أنت شممته أيضاً ـ ضاعت منه رائحة كلبية لذيذة. ثم ظهرت طفلة صغيرة تمسك بيدها رسن الكلب، أخبرتك فوراً أنها تدرس الآن رقص الباليه، وأنها صارت تعرف حركات ذلك الرقص كلها، وأنه لا يجوز تقديم الحلويات لدونكا(كلبتها)، لأن ذلك قد يسبب لها الإسهال. أذنا الطفلة تلاصقان نقرتها الكثيفة الشعر، وفي عينيها حول طفيف. بعد ذلك ظهر يانكين الأستاذ الذي عرفته على الفور، أما هو فلم يعرفك. أذناه كبيرتان، سمينتان، على محيطيهما كتل صغيرة من الشعر، وخصلات شعر رأسه تتدلى حتى ياقة معطفه. قررت في البداية أن الطفلة الصغيرة هي حفيدته المبكرة، ولكنه ناداها كما كان أبوك يناديك، ـ "بنيّتي". في يده حقنة مطاطية طفلية. قذفها بعيداً، فركضت الكلبة تلاحقها بين الأشجار وهي تنبح. ثم جلس إلى جانبك على المقعد، شابكاً يديه فوق ركبتيه. كانت أصابعه قوية جلدها متسلخ في بعض الأماكن نتيجة استخدام المذيبات، وعلى أظافره بعض بقايا الدهان. ركضت الطفلة تلاحق الكلبة، أما هو

فقال إنه لم يعد يقرأ أي شـيء، لأن الكتابـة يجب أن تكـون بالحياة الحية ـ بالدموع، بالدم، بالعرق، بالبول، بالخراء، أما هم فيكتبون بالحبر. وكنت أنت تتسـاءلين في تلك اللحظة عن عدد الحمقى الذين قـال لهم ذلك في حياته الطويلة.

أنا:

ـ وماذا في ذلك؟

هو:

ـ يجب أن نساعد القدَر في انعطافاته.

أنا:

ـ ولماذا؟

هو:

ـ الغصن الموضوع في زجاجة ماء، يمدّ جذوره، فلا تجد ما تتشبث به، لذا تشرع في الالتفاف بعضها حول بعض.

أنا:

ـ أشعر بالبرد.

■

ساشينكا!

يا رائعتي!

كم أحسـدهم! لقد تعبوا فـي النهار، وها هـم الآن ينامون. ينشـقون بأنوفهم، يشـخرون، يـرون في أحلامهـم من يحبـون. أنا أيضاً تعبـت تعباً فظيعاً، ولكنني سأكتب إليك أولاً ما الذي حدث في هذا اليوم.

أرسـلونا إلى تيانتسـزين، وهي تقع في منتصـف الطريق إلـى بكين. الاتصالات البرقيـة مقطوعة كالعادة. لقد غادر تيانتسـزين إلى بكين فصيل يقوده الأدميـرال الإنكليـزي سـيمور، وهو مكـوّن من جنود مـن مختلف

البلـدان بما فـي ذلك سـريتان روسـيتان لم نتلـقّ منهمـا أية أخبـار بعد أن غادرتا معه.

سـبب كل ما يحدث هنا هـو أن المحاصَرين في الحي الدبلوماسـي الذين نذهب لإنقاذهم قتلوا جميعاً في بكين. لم يبق، للأسف، من نحرره. يقول أولئك الذين نجوا: إنهم ارتكبوا في المدينة مذبحة، فلم يتركوا أحداً من الأوروبيين حياً، أما مقرّات البعثات الدبلوماسـية فقد سوّيت بالأرض. مازال فصيلٌ أوروبي محاصرٌ في تيانتسـزين صامداً يخوض معارك قاسية. وقد أرسلونا إلى هناك لنجدته. ومن المحتمل أن نصل إلى المدينة غداً أو بعد غد.

تصل تونغ كـو بتيانتسـزين سـكة حديديـة ولكنهـا في حالـة محزنة ـ العـوارض محروقـة، والقضبـان الحديديـة منزوعـة، يضطـر عمـال المواصلات التابعون لنا إلى نبشـها مـن تحت التـراب أو البحث عنها في القرى حيث خبأها الفلاحون.

لقد اسـتطعنا إصلاح قسـم من السـكة المخربـة إصلاحـاً جزئياً غير متقن، لذا كانت العربات تهتز اهتزازاً شـديداً عند الوصلات بين القضبان. كان هنـاك نقـص فـي العـوارض ومحـاور التثبيـت، فكانـوا يضعـون بين القضبان عارضة واحدة حيث يجب أن يضعوا ثلاث أو أربع عوارض. لذا كانت قضبان السـكة تلتوي وتنخلع مـن أماكنها. كانت العربات تسـير بنا، ونحن نتوقع في كل دقيقة أن نصبح تحت الحطام. أعمدة الهاتف مقطوعة من جذورهـا علـى طـول الطريـق. مضخـات الميـاه لا تعمـل ـ والجنود مضطرون إلى نقل المياه إلى القاطرة البخارية من القرى المهجورة.

ساشينكا، حبيبتي، أنت لا تسـتطيعين أن تتخيلي كم كان ذلك كئيباً. المـكان قفر ـ السـكان اختفـوا، والبيـوت مدمـرة، والحقـول محروقة، أو هَشّمت زَرْعها الأقدام.

اجتزنا نصـف الطريـق تقريباً، ثـم توقفنا. ما كنـا أصلحنـاه قبل يوم،

قاموا بتخريبه في الليل ـ القضبان منزوعة وملقاة جانباً، بل إن بعضها اختفى، والعوارض لا أثر لها. نزلنا من العربات في إحدى المحطات، بل الأدق، في مكان كان محطة من قبل. الأبنية المجاورة للمحطة، المشيدة من الطوب، لم تكن مدمّرة فحسب، بل إنهم أيضاً نبشوا حجارة أساساتها، فطحنوها طحناً. إلى هذا الحد وصل كرههم لنا جميعاً.

سرنا النهار بطوله، حتى المساء، في أرتال منتظمة. خط السكة الحديدية يمتد بموازاة النهر. بيي خو زلق هنا، ضفافه طينية. وكنا نراه من بعيد طول الوقت من خلال كتل الأشجار على ضفتيه.

شعرنا بالعطش الشديد. ولكن لا ماء لدينا. الآبار التي في القرى مسمَّمة. وماء النهر ملوّث. خيولنا الشقية اكتفت في اليوم الأول بشمّ مياه النهر وامتنعت عن شربها، لكن العطش أجبرها فيما بعد على ذلك. وهي الآن تشرب هذا السائل اللزج الذي يذكّر بالسحلب البارد.

هكذا كان علينا أن نحافظ على كل بلعة ماء.

ومما زاد الأمر سوءاً أن بعوضاً محلياً صغيراً جداً كان يلسعنا باستمرار ـ على يديّ دمامل كبيرة حمراء ومنتفخة تسبب حكّة لا تطاق.

هذا أمر تافه على كل حال.

فصيلنا الأمامي تعرّض إلى كمائن مرتين. ولحسن الحظ لم يسقط منه قتلى، هناك فقط عدد من الجرحى، حتى هؤلاء كانت جروحهم طفيفة.

حين اجتزنا أرض المعركة رأيت لأول مرة آثار الحرب: خيول نافقة، بندقية مكسورة، قبعة ملقاة على الأرض، ثياب داخلية مضرجة بالدم.

ترى، ما الذي ينتظرني لأراه أيضاً؟ بل، هل ينتظرني شيء؟

كان يرافقني مترجم ملحق بنا. هو طالب في الكلية الشرقية في جامعة بطرس بورغ، كنيته غلازيناب. كيس حاجاته محشو بالكتب

والأوراق والبيانـات التـي كان يجمعهـا مـن كل مـكان ويقرّبهـا مـن أنفه ليتمكـن مـن قراءتهـا. لقـد كان نظـره ضعيفـاً وعدسـات نظارته سـميكة الزجاج.

مررنا في إحدى القرى بمعبد منهوب إلى حـدّ كافٍ. فالجنود مزّقوا الكتب طلبـاً للـورق الناعم، وقد حـاول مترجمنـا منعهم من ذلـك العمل البربري، ولكن دون نتيجة.

منظر يبعث على الغثيـان ـ المصابيح الكبيرة المزخرفـة المعلقة عند المذبـح في داخـل المعبـد، وفي المدخـل خـارج المعبد، محطمـة كلها. تماثيل الآلهة الصينية ملقـاة على الأرض في كل مكان وقـد بُقرت بطونها وظهورها. ثمة من قال لعسـاكرنا إن من عادة السـكان المحليين أن يخبئوا فيها الذهب والمجوهرات.

طفتُ في المـكان كلـه، كان المكان مثيـراً للاهتمام. علـى الجانبين كانت تنتصب هنا وهناك تماثيل مشـوهة الوجوه، وأمامهـا أوعية فيها رماد تغـرس فيـه الشـموع. المذبـح كان خاليـاً، والتمثـال الرئيسـي ملقى على الأرض وقد انفصل رأسه عن جسده، واسـتلقى مرتكزاً على نقرته. وقفتُ أمامه ـ كان ينظر من تحت حاجبيه نصف المسـدلين إلـى العالم المقلوب رأسـاً على عقب، نظرة حبّ وتواضع. وعلى الأعمـدة التفّت الدراكونات الزرقاء بعروق مذهّبة لامعة، وهي فاغرة أفواهها.

كانت في المعبد طبول ضخمة راح الجنود يقرعونها بمطارق خشبية كبيرة. فهرع إليهم غلازيناب وراح ينتـزع المطارق من أيديهم، معلناً أنه لا حاجة لاسـتدعاء الأرواح عبثـاً، وأن الدراكـون هو رمز الخيـر. فأثار ذلك قهقهة الجنود.

أسعدني ظهور هذا الفتى العاشـق المتحمس للغة كونفوشيوس ولي بو، ودو فو، فـي فصيلنا. إنه يذكّرني علـى نحوٍ ما ببطل كتـاب جول فيرن باناغيل. أعتقد أن باناغيل كان يشـبهه في صباه ـ غير معتدّ بنفسـه، وبطيء

الحركة، ولكنه ساعٍ نشيط لمعرفة كل شـيء. لقد علّمنا اليوم كيف نشرب من ميـاه بيـي خـو المالحـة، الممزوجـة بالطحالـب، فنخلطها بشـيء من الفودكا الصينية الخانشين.

طيب، يا ساشينكا، سـأحاول النوم الآن، على الرغم من أن الدمامل الناجمة عن قرص البعوض تشعرني بحكّة فظيعة.

لا أسـتطيع أن أصدق أن يوم غد سـيكون يوم المعركة التـي قد أُقتل فيها أو أُصبح عاجزاً.

أتعرفين؟ الإنسان، رغم كل شيء، مخلوق مدهش مفطور على تقبّل موت الجميع ما عداه.

ثمة أمر آخر مهم جـداً، لعله متعلـق بانتظار المعركة الأولى، لسـت أدري، ولكن أحسّ هنا بأن مشـاعري باتت أكثر حـدّة، وأن كل ما حولي، العالم كله وأنـا، بتنا أكثـر صراحة وأكثر نضجاً وبسـالة. أنـا أرى الآن كل شيء مختلفاً، أراه أكثر سطوعاً، وكأن غشاوة انزاحت عن العين التي كنت أنظر بها إلى العالم.

الأحاسـيس كلها متوترة، أنا أسـمع الليل من حولي بحـدة ـ حفيف الأغصـان، صيحـات الطيـور، خشخشـة الأعشـاب. النجوم فوق رأسـي ازدادت قربـاً وصـارت أكبـر حجمـاً، وكأنـي كنـت أعيـش في عالـم غير حقيقي، وهأنذا بدأت الآن العيش في العالم الحقيقي.

أظن أنه، لولا هذا الإحساس، لما كانت هناك أبداً أية حروب.

لقد أردت في الحقيقة أن أقول إن حبي لك يـزداد قوة يوماً بعد يوم. ولكني، ببسـاطة، لا أعرف كيف أكتب ما أشـعر بـه. لو أننـا الآن كنا معاً، لأخـذت وجهك بين يـدي وقبّلتـك ـ ولكان هذا أكبـر بكثير مما أسـتطيع كتابته على هذه الصفحات التي أتابع الكتابة عليهـا دون أن أنجح في قول أي شيء.

لقد قلـت لكِ أكثـر من مـرة: أنـا أحبـكِ. ولكن يبـدو لـي الآن أني

أقولها لك لأول مرة. ذلك لأنــي أحبكِ الآن حباً مختلفــاً، غير الذي كان. الكلمات هــي نفســها، ولكنها، بالنســبة إلــيّ، تعني أكثــر بكثير ممــا كانت تعنيه.

أنا الآن أشــعر براحة وبهجة لأني أعرف ـ أنت ســتبقين في انتظاري حتى أعود مهما واجهتِ من مصاعب!

أنا أحبك.

●

فولوديا!

حبيبي! وحيدي!

أنا سعيدة جداً لوجودك معي!

أنت تعرف أن الشــامات ـ تهيم، تظهر وتختفي، وتستطيع، عموماً أن تُبدّل الجسد.

لقد وجدتُ على جسدي شامتك، هل تتصور هذا؟ هنا، على كتفي.

ما أروع ذلك!

تجولتُ اليوم كثيراً في المدينة، ولا أستطيع النوم. أنت تعرف، كيف يتقلّب المرء في الفراش باحثاً فيه عن مكان يُشــعره بالبرودة المنعشــة، ثم يســخن هذا المكان فيشــرع في البحث عن غيره. هكذا فعلت حتى لم تبق بقعة باردة في السرير ولكن النوم لم يأت، لم يأتِ.

أجزاء من صــور تمرّ أمام عينــيّ اللتين لا أعرف هل همــا مغلقتان أم مفتوحتان. في الســاعة الثانية ليلاً لا فرق بين أن يكون العالم مرئياً، أو غير مرئي.

أم لعلّها الثالثة الآن؟

الأفكار تتراكض في الزمن، وكأنها في مرج من العشــب. الأعشــاب لا تنمو متســاوية في الطول ـ وقد تتخلّلها بقع صلعاء. وأنت كمن يخوض

في الوحل، تحرّك قدميك وأنت في مكانك.

تمرّ في مخيّلتي صور لا لزوم لها ولكنها تتكرّر باستمرار.

في المخزن نسيت أن آخذ كمالة النقود فركضوا خلفي وهم يصرخون:

ـ يا بنت، يا بنت! إلى أين؟

روت لي يانكا كيف ذهبت مع عريسها إلى المطعم، أعطيا النادل كوبيكات بقشيشاً فقذفهما بتلك الكوبيكات.

أسير في الشارع، يمدّ أحدهم يده من النافذة ـ لست أدري هل كان يدعوني إليه، أم كان يطرد بعوضة.

كتبوا في الجريدة أنهم وجدوا في الشمال طائرة انكسرت إحدى زلاجتيها، وطياراً متجمداً احترق حذاؤه المصنوع من اللباد ـ قبيل موته، دسّ قدميه المتجمدتين في النار كي يدفئهما. أما ساعة يده فعادت إلى العمل بعد أن ذاب عنها الجليد.

ومن صور الطفولة ـ أنا وبابا، نتنزّه في الحديقة، حذاؤه غطّاه الطين، فراح يحفّ نعل الحذاء بحِرف الرصيف وبالعشب، فبدا لي في لحظة من اللحظات أنه يحاول التحرر من ظله.

وهذه ماما تعدّ لي الطبق الذي أحبه ـ تقطّع الخبز مكعبات ترميها في صحن الحليب الدافئ، ثم ترش فوقها السكر الناعم. وفجأة شعرتُ بغصة في حلقي إذ فكّرت أنها ستموت يوماً ما، وأني سأتذكر بالضبط هذه اللحظة التي تعدّ لي فيها طعامي وترش فوقه السكر بملعقة صغيرة.

دعاني تشارتكوف إلى حفل موسيقي منزلي عند عازفة بيانو من معارفه. كانت طويلة القامة، ساقاها طويلتان إلى حدّ جعلها تجلس معوجّة إلى البيانو. أماكننا كانت تلاصق ظهرها تقريباً لذا كنا نرى انعكاس أصابعها على غطاء البيانو، فكأنها كانت تشارك نفسها في العزف بأيدٍ أربع. أما خدّاها فكانا يرتجّان طول الوقت.

في أثناء عودتي وقع حادث في الطريق، مات رجل، فمددوه على الرصيف وغطوا وجهه بجريدة.

ها هي ذي ذكريات عملي في الإسعاف تطفو مرة ثانية.

أرادت إحداهن أن تعلّق الستائر فوقعت وانكسرت من جديد ساقها التي سبق أن انكسرت عدة مرات من قبل.

وأشعل آخر ناراً، تعثرت قدمه بقرمة شجرة فوقع في النار ـ سلخوا الجلد عن كفّيه كما لو كان قفازاً.

وعلقت فردة سراويل ثالث بجنزير دراجته فوقع عنها وانكسر رأسه الذي اصطدم بحافة الرصيف صدمة جعلت عينه تتدلى معلقة بعصبها وكأنها معلّقة بخيط.

وهذا طفل يأكل البوظة ممسكاً بالخشبة التي في ذيلها. ركض، فتعثر ووقع، فانغرست الخشبة في حلقه.

هكذا تمرّ الصور كل يوم بلا نهاية.

كيف الخلاص من هذا كله؟

ذهبت مع تشارتكوف وصاحبته سونيتشكا للنزهة. فتاة ظريفة ـ أشفقت على حذاء أحدهم، حذاء قديم، مرمي في الشارع، لم يعد قادراً على المشي، ولم يبق له إلا أن ينظر إلى الزبالة طول الوقت، أخذَته، فوضعته في مكان آخر يطلّ على شجيرات السيرين. ذهبنا، فيما بعد، إلى المرسم، فشرعت ترسم صورة جانبية لوجهي. أجلستني بمحاذاة الحائط، ووجهت نحوي ضوء المصباح، ثم فردت صفحة من الورق وأخذت تظللها بالقلم الرصاص.

يجب فعل شيء لمعالجة الحول في عينيها. أمرّ بإصبعي أمام أنفها فتنظر إحدى عينيها إلى الإصبع، أما الأخرى فتشرد بعيداً.

دونكا تندفع دائماً لتعض بند حذائي. داعبتها بيديّ فعلقت بهما تلك الرائحة الكلبية اللذيذة.

تفوح في المرسم كله رائحة الدهان والتنر، والفحم، والخشب، والقماش. اللوحات في الزاوية ووجهها إلى الحائط، وكأنها تقضي عقوبة. ولوحات عرض وأُطُر، وعلب ألوان، وريشات ملوّثة بالزيت وخليط من الألوان. وأرض ملطخة ببقع جافة متناثرة متعددة الألوان. وفي المجلى القذر صحون غير مغسولة، وفي زوايا المكان بعر فئران.

أجلسني، حين جئت في المرة الثانية، على طاولة صغيرة ملوّثة وملطخة بالدهان. أخذ فحمة وبدأ العمل. كان ينظر إليّ من فوق نظارته، ينشق بأنفه، يعضّ على شفتيه، يمد لسانه، يهرّ، يتوخوخ، يصفّر. همس، وأنين، وتنهّد، وخشخشة الفحم على الورق المقوى.

جرس يرنّ فجأة عبر النافذة ـ البناء المقابل مدرسة.

في باحة المدرسة عجوز ضئيل يحمل مكنسة، هو، وأنا مثله، لا يفهم شيئاً مما يحدث.

ما أغرب أن تعمل موديلاً. ما هو عابر وغير ضروري يصبح ـ وأنت تجلس تنظر ببساطة عبر النافذة ـ ضرورياً ومهماً.

بعد الجرس اندفع إلى الساحة فتيان يلعبون برأس دمية، لعبة كرة القدم. كسالى. أظنهم هربوا من درس مهم، الفيزياء مثلاً، وسيفوتهم أن يعرفوا معلومة مهمة، لعلها تلك التي تقول أن الكون كفّ عن التوسع منذ زمن بعيد، وأنه يضيق بسرعة تساوي سرعة الظلام. رأس الدمية يتدحرج مصطدماً بالإسفلت، مصدراً رنيناً فارغاً، قوياً، مرحاً، وتتراقص ضفيرتاه بتحدّ وحيوية، وكأنه يقول: لا يهمّ، سنتخلص من هذا المأزق، ليس في هذه الدنيا ما لم نجربه! ارفع ذيلك عالياً كالمسدس!

روى لي كيف رسم مشاريع صورة لأمة الميتة.

قال: في البداية القماش ـ وجه الإنسان، وتعابيره. ثم الجسد. وبعد ذلك الحجر.

المرأة هي التي تقوم فعلاً بعملية التلقيح، أما الرجل فيحبل ويلد.

احترق البرلمان في لندن، مات الناس، أما تيرنر فحاول التقاط أضواء النار بالألوان المائية. نيرون ـ ليس فناناً، ولكن كل فنان ـ نيرون.

تحدثنا أيضاً عن ربة الإلهام. هي ليست حقيقية، لأنها، في واقع الأمر، لم توجد. ولكن كل إنسان ـ حقيقي. إنهم يعطونه في البداية كل شيء، ثم يأخذون منه كل شيء، من دون أن يقدموا له أي تفسير.

مررت به البارحة، كان يعمل بالألوان. رغبت كثيراً في أن أسحق دودة صغيرة في طبق الألوان. وقفت ورحتُ أضغطها بإصبعي.

فجأة قال لي:

ـ صح، يجب أن نتحسس الألوان بجلدنا.

مرّغ راحتيه في طبق الألوان، ثم طبع يده الملطخة بها على وجهي.

■

ساشينكا، يا أنت لي!

لا أعرف متى سأستطيع إرسال هذه الرسالة، لكني، مع ذلك، أكتبها. أمور كثيرة حدثت في هذه الأيام، وأنا لم أستطع، قبل الآن، أن أتحدث إليك بهدوء. سأخبرك الآن بما حدث معي، ولكني سأبدأ بما هو أهم ـ أنت غالية جداً على نفسي، وكلما طال افتراقنا، ازدادت قوة إحساسي بك. إحساسي بك إلى جانبي يصل إلى حدّ يبدو لي معه أنه، حتى أنت تعجزين عن مثله.

نحن في تيانتسزين. كم مضى علينا من الوقت هنا؟ ثلاثة أيام فقط. ولكنها تبدو ثلاثة أعوام، أو ثلاثة وثلاثين.

اتصل فصيلنا بفصيل العقيد أنيسيموف الذي استطاع الصمود حتى وصولنا. لقد منوا بخسائر كبيرة. ومنظر الجرحى يثير الخوف.

الجنود المنهكون تماماً في زمن الحصار، تمّ نقلهم من خط النار إلى مؤخرة قواتنا. فحصلوا، لأول مرة منذ بدء الهجوم من آرتور، على

فرصة للنوم، وتناول الطعام الساخن والاستحمام. ليتك رأيت فرحتهم وهم يغسلون ملابسهم الداخلية في مياه بيي خو العكرة!

توضّعنا في معسكر على الضفة اليسرى، وراء المدينة، في مكان منبسط مكشوف، ولكن حين صارت تصل إلينا القنابل من المواقع الصينية في إحدى ضواحي تيانتسزين، أُمرنا بنقل المعسكر إلى مكان أبعد. نصبنا خيامنا على بعد فرسخ من بيي خو، وفرسخين من حي المقيمين ـ هكذا يسمون هنا القسم الأوروبي من المدينة.

مازالت أخبار فصيل سيمور المختلط مقطوعة. لقد ذهب مع إلى بكين نحو ألفي إنكليزي وروسي وألماني وأمريكي وإيطالي، مشوا بمحاذاة السكة الحديدية يصلحونها. ولكنهم وقعوا في كمين في مكان ما وحوصروا، وخُرّبت السكة وقطعت من جديد. ترى، هل مايزال هؤلاء الناس أحياء؟

أما بشأن السفارات الأجنبية في بكين فقد علمنا بشكل مؤكد أنها دُمّرت، وأن السكان الأوروبيين والمسيحيين الصينيين أيضاً قتلوا جميعاً. صيني، كان يعمل في السفارة الألمانية، ونجا بأعجوبة، روى لنا ما حلّ بالبعثة الروسية في بكين: أحرقوا الكنيسة وما حولها ـ المكتبة والمشفى والمدرسة. وبلغت شدة حقدهم حدّ تدمير المقبرة البرافوسلافية ونبش جميع القبور ونثر ما فيها من عظام. وروى أنه رأى بأمّ عينه أُسرة روسية كانت تعيش في أبنية البعثة وقد بقرت بطونها وقطّعت رؤوسها.

تسري هنا شائعات مختلفة كل واحدة منها أشد إثارة للرعب من غيرها. ولا أحد يعرف ما الذي يجري.

لم أشارك حتى الآن في المعركة الحالية، ولم أرَ العدو عن كثب، بل الأصح، هو أني لم أر أعداء أحياء. الزي الرسمي لجنودهم غريب

الشكل ـ سترة زرقاء، يرتدون فوقها حرملة(*) حزامها أحمر ولها أزرارا مذهّبة. وعلى الظهر والصدر دوائر من قماش أبيض متسخ ـ كُتبت عليها بحبر أسود هيروغليفات تشير إلى القطعة التي ينتمي إليها الجندي، فتُماثل بذلك الرتب والشارات التي نضعها نحن على الأكتاف. أما سيقانهم فتغطيها سراويل وأحذية قماشية لها نعال سميكة من اللباد. لقد كان من النادر أن ترى بين قتلاهم من يرتدي الزي الكامل ـ فالجثث، في معظمها، شبه عارية. وجميعها، لسبب ما، فاغرة الأفواه، تمرّ بقربها فتتطاير سحب من الذباب.

الحر لا يطاق، والجميع يعاني من شح المياه. لقد شرع الجنود في حفر الآبار. غير أن الماء لا يكفي وأكثر من يعاني من ذلك هم الجرحى.

أحضروا لنا من المدينة المحاصرة مستوصفاً روسياً كان جزءاً من مشفى فرنسي. نصبوا له خيمة مجاورة لخيمتنا. أنا أسمع الآن أنين أحدهم، وأسمع كيف يشتمه الطبيب الروسي. كنية طبيبنا ـ زاريمبا. إنه كثيراً ما يشتم المرضى، كان يتصنّع ذلك، كان يريد أن يبدو فظاً، لكنه، في الحقيقة، إنسان رقيق القلب. كان يُري الجميع صورة زوجته وابنه. إنه، ببساطة، متعب جداً.

كانوا ينقلون الجرحى طول النهار، ينقلونهم في نقّالات، وكان يبدو أن ذلك لا نهاية له. وفوق كل جريح كانت تحوّم أرتال من الذباب. لم تكن وجوه الجرحى مكشوفة ـ لقد كانت غاطسة عميقاً بين الأغطية. ولم يكن الجرحى يرون غير السماء. كثيرون منهم يشتكون من الارتجاج في أثناء نقلهم. أحدهم كان يصرخ بصوت طفليّ جداً:

ـ ساقي، ساقي، على مهلكم!

مخيف أن أتخيل أنهم يمكن أن ينقلوني هكذا في أية لحظة.

تحادثت مع الجرحى، فروَوا لي أشياء فظيعة عمّا حدث هنا.

(*) معطف بلا أكمام.

أحد الضباط، ريباكوف، قطعت قدماه. قال إنه كان هنا منذ الربيع، وأن الإيخيتوانيين كانوا يملؤون تيانتسزين قبل بدء الأحداث، وأنهم كانوا يعقدون اجتماعات صاخبة. ويلصقون في كل مكان نداءات تدعو إلى قتل الأجانب. لم يفعل الجيش أو الشرطة شيئاً لإيقافهم، على الرغم من أن الموقف الرسمي للحكومة كان، قبل أن يجتاح الحلفاء ضواحي تان كو، ملاحقة المتمردين. ظهرت في الجزء الصيني من المدينة على البيوت التي يسكنها الأوروبيون والمسيحيون الصينيون علامات مرسومة بالدم - يذبحون الكلاب، ويطلون بأحشائها أبواب البيوت أو يلقونها إلى داخلها عبر النوافذ. فراح الصينيون العاملون عند الأجانب يطلبون الإقامة مع عائلاتهم في المعسكرات المحمية. رفضوا في البداية طلبهم، ولم يفتحوا لهم أبواب المعسكرات إلا بعد أن صار الإيخيتوانيون يذبحون في الليالي أسراً بكاملها. كانوا يرحمون الأطفال أحياناً، غير أنهم كانوا يحطمون عظام أيديهم قبل أن يتركوهم أحياء. لعلهم كانوا يفعلون ذلك لإثارة الخوف.

ساشينكا، أفهم أنه لا داعي لأن أكتب لك عن كل هذه الأشياء، ولكن، سامحيني، لا أستطيع إلا أن أفعل. لقد رأيت بنفسي طفلاً استطاع الوصول إلى المشفى الفرنسي. أعطوه قطعة خبز يابسة فراح يمصها ضاغطاً إياها بما تبقى من يديه المضمدتين.

وإذن، قضى هذا الريباكوف وجنوده أول ليلة من ليالي القلاقل في المحرس، الدخان والصخب يأتيان من المدينة الصينية، رأوا شفقاً أحمر يرتفع هناك - الكاتدرائية الكاثوليكية تحترق، والناس الخائفون يهرعون إلى محرسهم. الإيخيتوانيون أحرقوا بيوت الصينيين المسيحيين، وقتلوا مئات الناس. أما سادن الكاتدرائية نفسه فاستطاع الهرب إلى المجمع الفرنسي. في هذه الليلة بالذات جرت أول محاولة لاقتحام حي المقيمين، ولكن تم صدّها.

لقد بات من المستحيل ترحيل السكان الأوروبيين من المدينة ـ قطعوا السكة الحديدية، ووقع في الحصار مئات النساء والأطفال. كان يدافع عن تيانتسزين، إلى جانب الروس، الألمان، والإنكليز، واليابانيون، والفرنسيون، والأمريكان والنمساويون والطليان. ولم يكن عددهم جميعاً يتجاوز الألف مقاتل. وكان على هذه الحفنة من المقاتلين أن تصمد في وجه عشرات الآلاف من الإيخيتوانيين والجيش النظامي. لم يكونوا قادرين على النجاة ـ لا يستطيعون الانسحاب، ولا يستطيعون الابتعاد عن مرمى النيران. لقد توجّب على الباقين في المدينة من سكان حي المقيمين أن يحملوا السلاح ويدافعوا عن أنفسهم. حُفرت الخنادق في كل مكان، وأقيمت الحواجز في الشوارع التي كانت النار تطلَق عليها من وراء النهر، ومن المدينة الصينية.

كانت حصة الروس الدفاع عن محطة السكة الحديدية على الجانب الأيسر من النهر ـ المكان غير ملائم أبداً. وقد تَقرر الحفاظ على المحطة مهما كان الثمن، وإلا فإن الصينيين سيستولون على الضفة اليسرى كلها، وسيكون بمقدورهم أن يطلقوا النار على الحي وهم مختبئون وراء أكوام الطين التي تقطع الطريق، وفي هذه الحال لن يستطيع المدافعون الصمود لو ليوم واحد.

أمضى ريباكوف وجنوده أياماً عدة في المحطة. كانت المعارك تجري ليلاً ونهاراً. كانوا أحياناً يهاجمون لكي يمنعوا العدو من نصب المدافع ذات الرمي المباشر، وفي إحدى هجماتهم أصيب بجراح. يقول ريباكوف إنه اختار الدقيقة المناسبة للانتحار ـ لقد كان الوقوع في الأسر أمراً مرعباً ـ ولكن جنودنا استطاعوا إنقاذه وإبعاده عن مرمى النيران.

ساشينكا، لقد رأيت تلك المحطة بالمنظار ـ لم يبق منها الآن سوى حطام مثقّب مُحترق.

قصف تيانتسرين بالقنابل مازال مستمراً حتى الآن، وماتزال تُسمع

من المدينة أصوات الانفجارات ـ إنه الجيش الصيني يقصف الأحياء الأوروبية. الحصة الأكبر من القصف تنهال على المجمع الفرنسي حيث يعيش المبشرون الكاثوليكيون الذين يكرههم الإيخيتوانيون، وهناك بالذات توجد القنصلية الروسية، والمشفى الروسي ـ الفرنسي.

يتم القصف من الضاحية ومن مدرسة المدفعية الموجودة فوق تل مرتفع على ضفة بيي خو مقابل المجمع الألماني. يقال إنهم هناك دربوا قرابة ثلاثمئة ضابط صيني شاب، قدّم لهم الألمان أحدث المدافع. المدربون الأوروبيون هربوا، ولكن واحداً منهم بقي وحاول تخريب أجهزة التسديد، فتم تشقيفه. رأسه مازال حتى الآن معلّقاً على عصا من القصب. هذا، على الأقل، ما يشاع. أما الرأس فقد كان من الممكن حتى يوم أمس، مشاهدته بالمنظار إذا كان الطقس صحواً. الألمان والإنكليز استولوا اليوم على المدرسة، وكانت الخسائر كبيرة عند حلفائنا وعند الصينيين.

جريح آخر كنيته فيريغو، كان طول هذه الأيام في المجمع. هناك أيضاً دارت معارك متواصلة. الناس لم يخلعوا ملابسهم لا ليلاً ولا نهاراً، ولم يذوقوا طعم النوم تقريباً. كان من المستحيل نشر الخيام ـ ما إن ننصب خيمة حتى تبدأ القنابل بالتساقط. كانت النيران تدار من المدينة ـ الصينيون كانوا يرسلون إلى جماعتهم إشارات تحدد الأماكن التي يجب أن تُقصف. وقد اضطررنا إلى تخبئة الناس والخيول خلف الجدران على امتداد الشوارع. وكنا لا نقيم في المنازل إلا نادراً. وعلى الرغم من ذلك، كان هؤلاء يصابون بخسائر لا تقل عن الخسائر في المواقع العسكرية، بسبب عدم وجود أية زاوية في جميع المجمعات، لا تطالها المدافع أو الأسلحة النارية الأخرى. كانت البيوت دفاعات رديئة. الرصاص يتطاير عبر الأبواب والنوافذ والقنابل تخرق الجدران. أما النساء وأطفالهن فيختبئون في الأقبية.

يدا فيريغو الاثنتان معلقتان على صدره. لم يكن هذا المسكين قادراً على فعل أي شيء، لذا كان زملاؤه الجرحى يقدمون له المساعدة، ولكنه، مع ذلك، كان يسخر من عجزه. أصيب فيريغو بانفجار قذيفة على الجسر.

من المدهش أن الصينيين يتفوقون علينا بالسلاح. كان فيريغو يقول حرفياً ما يلي:

ـ هم يملكون أحدث المدافع واحتياطياً كبيراً من القنابل التي زودهم بها الألمان، في حين أن مدافعنا قديمة. وعلى كل خمس طلقات يطلقونها، نرد بطلقة واحدة. أما الأسلحة الفردية فحدّث عنها ولا حرج. إن لدى كل حمّال منهم الآن مسدساً من ماركة ماوزر أو مانليخير.

ترتبط المحطة بالمدينة بواسطة جسر عائم مبني من القوارب كي يكون فتحه ممكناً لتمر عبره السفن الشراعية النهرية. إطلاق النار على الجسر مستمر طول الوقت، وقد قُتل كثير من جنودنا هناك. إنهم، يرسلون في كل يوم من أعالي النهر قوارب مملوءة بالحشائش الجافة المشتعلة تجري مع التيار، فنضطر إلى فتح الجسر تحت النار.

رافقَتْ الجرحى الروس الذين جاؤوا إلى مشفانا الميداني راهبة كانت تُعنى بهم في المشفى الفرنسي. هي فتاة باريسية، يناديها الجميع ببساطة «لوسي»، فتاة لطيفة، بسيطة، نشيطة، أصابع يديها حمراء من المعقمات، يوحي مظهرها أنها ضعيفة البنية، ولكنها كانت تستطيع ببساطة أن تغيّر الأغطية تحت الجرحى وهم ممدّدون على أسرّتهم. لها شامة غير جميلة على رقبتها تشعرها بالخجل، لذا كانت دائماً تغطيها بيدها في حركة عفوية. لا أعرف كيف وصلت هذه الفتاة إلى الصين. إنها لا تكاد تعرف اللغة الروسية، ولكن الجميع هنا كانوا يحبونها جداً.

البارحة، ليلاً، أخذ أحد الجنود الجرحى في المشفى، يصرخ صراخاً حاداً. خيمنا متجاورة تماماً، لذا استحال علينا النوم. خرجتُ أستطلع الأمر. المريض الذي يصرخ فتى سيئ الحظ بُترت ساقاه في

الليلة السابقة. حاولوا تهدئته، ولكن صراخه ازداد علوّاً وراح يقاومهم بعنف مما اضطرهم إلى تثبيته في السرير بالقوة. حقنوه بالمورفين، لكنه لم يهدأ. صراخه أيقظ كل الجرحى. أغضب ذلك الدكتور زاريمبا فخرج من المهجع وهو يقول:

ـ دعوه يصرخ. حين يُبحّ صوته ـ سيسكت!

حينذاك، جلست لوسي إلى جانبه، حضنت رأسه وراحت تهدئه متحدثة إليه بالفرنسية في البداية، ثم أخذت تكرر تلك الكلمات الروسية القليلة التي تعرفها:

ـ نعم؟ لا؟ طيّب! بابا! ماما!

نظر إليها المسكين مبتور الساقين، الذي، أظن أنه ما من يد نسائية مسّدت رأسه غير يد أمه، بعينين مجنونتين ثم هدأ فصمت ونام.

في المشفى الميداني يموت بعضهم في كل ليلة. يحملون الموتى إلى خيمة أخرى، ولكنهم لا يبقونهم فيها طويلاً بسبب الحر الشديد. اليوم دفنوا ثمانية أشخاص. اثنان منهم، رأيتهما البارحة صباحاً حيّين، صحيحي الجسم، وفي المساء أحضروهما على نقالتين: أحدهما كان مصاباً بجرح قاتل في الحنجرة برصاصة طائشة، والثاني كان مصاباً في بطنه. الأول مات في المساء، أما الثاني، النقيب بوبوف، فظل يتألم حتى الصباح، كان يئن ويشخر فاقداً وعيه تارة، وصاحياً تارة أخرى. هذا النقيب تزوج منذ فترة قريبة.

لم تكن لدينا ألواح خشبية لصنع التوابيت ـ كنا ندفن الموتى في أكياس. حمل الجنود الموتى وهم يضعون قبعاتهم على أنوفهم. أحد الأكياس كان صغيراً جداً ـ لم يبق من الجثة بعد الانفجار سوى الكتفين واليدين والرأس، أما ما تبقى فقد تطاير كله أشلاء.

دفناهم على بُعد نصف فرسخ من المعسكر فوق إحدى التلال. صنعنا صليباً واحداً للجميع وغرسناه في الطين الجاف. لم ندفنهم عميقاً ـ

لم تكن لدينا القوة لحفر حفرة عميقة تحت حرارة الشمس اللاهبة.

ساشينكا، أتعرفين؟ لقد استمعتُ إلى ما يدمدمونه قبل الدفن، وتأملتُ الجنود وهم يطلقون النار في السماء فوق القبر، ولكن رأسي كان مشغولاً بأفكار لا تنسجم واللحظة التي أنا فيها. الهنود الأمريكيون، مثلاً، كانوا يطلقون السهام من أقواسهم نحو السماء لكي يطردوا الأرواح الشريرة، أما نحن، فإطلاق النار عندنا يسمونه تحية الوداع. إنه الطقس نفسه الذي كان الهنود يقومون به وهم يوجهون سهامهم إلى السماء. ولكن أولئك الممدَّدين الآن في الأكياس تحت الطين، لا يحتاجون إلى أي شيء من هذا القبيل.

عدنا صامتين، وكل منا يفكر في أنهم قد يحملونه غداً في كيس من هذه الأكياس المعدّة لنقل الشعير وهم يخبئون وجوههم خلف قبعاتهم هرباً من الرائحة الكريهة.

جاءني الآن، وأنا أكتب إليك هذه السطور، زميلي كيريل غلازيناب. لقد حدثتك عنه من قبل. جاء محبطاً كل الإحباط. روى لي أنه كان يترجم استجواباً لصيني قبض عليه جنودنا في قرية مجاورة. كان الصيني يؤكد أنه ليس إيخيتوانياً، ولكنهم على الرغم من ذلك، قتلوه قبل قليل.

ساشينكا، هنا يعتاد المرء على كل شيء.

ساد الهدوء الآن من حولي. لم أعد أسمع صوت الرصاص والانفجارات.

أسمع فقط أنّات أحدهم في المشفى الميداني وشخيراً في الخيمة المجاورة. وخشخشة فأر في خزانة الأطعمة. لقد ساد الظلام، لكن الجو مايزال حاراً وخانقاً، وقد اندفع السكّيت يهاجمني من جديد. عقصه منتشر في جسدي من الرأس حتى القدم. لا وجه للمقارنة بينه وبين بعوضتنا الطيبة القلب، التي تخبرك من بعيد أنها قادمة. السكّيت حشرات لا تُسمع ولا تُرى، وهي تقترب، فجأة ـ وخزة ولا نجاة. إنها تنقل

الملاريا. لقد وزّعوا علينا اليوم ناموسيات تَبيّن أنها صغيرة. الجنود الآن جالسون يخيطون من كل اثنتين أو ثلاث قطعة واحدة يستطيعون النوم تحتها.

جميلتي، أنا لا أشكو، لا تفكري بذلك! أنا، ببساطة، تعبت كثيراً في هذه الأيام، لأني أفكّر طول النهار كيف أفعل كي أبقى حياً، وفي الوقت نفسه، يتملكني نعاس فظيع ـ ما إن أجلس دقيقة حتى تهاجمني الأحلام، أما في الليل فأعجز، حين أتمدد لأستريح، عن التخلص من الانطباعات التي خلّفها النهار.

أغمض عيني ـ وعلى الرغم من ذلك أرى ذلك الصبي وما بقي من يديه المبتورتين، وكيف يمدّهما نحو كأس الشاي المقدم له. انقلب من جانب إلى آخر ـ أمام عيني من جديد الجسر الذي يوصل إلى المحطة المدمرة. لقد كنت البارحة هناك ورأيت كيف فتحوا الجسر لكي يمرروا الجثث التي تكدست في الليل. لا أحد يعرف ما الذي يجري في أعالي النهر، ولكن التيار يحمل من هناك سلاسل لا تنتهي من الموتى. أحد الموتى كانت يداه مقيدتين خلف ظهره. لم أر سوى أصابعه الملتوية، وقد بدا لي أنها تتحرك، ولكن ذلك كان بفعل الموج.

حبيبتي، اغفري لي أني أضطر إلى وصف هذه الأشياء المحزنة والمخيفة جداً، فهذه هي حياتي الآن.

لشدّ ما أرغب في أن أهرب من ذلك كله، أختبئ، أنسى ـ أتذكّر شيئاً ما من طفولتي، غرفتي، الكتب، أنا وأنت، أن أفكر في شيء ما جميل وحميمي!

هأنذا أعيد قراءة الرسالة، أشعر بالحزن ـ ما أقلّ ما فيها من حنان تجاهك، وما أكثره في قلبي.

أنا الآن ألوم نفسي لأني، حين كنا معاً، كنت أملك إمكانات كثيرة لأريك حبي، ولكني لم أفكر بذلك. والآن أنت بعيدة جداً فلا أستطيع أن

أقدم لك شيئاً ـ لا أستطيع ضمك إلى صدري، ولا تقبيلك، ولا تمسيد شعرك براحة يدي. الحب لا يحتاج إلى براهين، بل إلى إظهار. لشد ما أودّ أن أشتري لك زهوراً! أنا لم أشتر لك زهوراً أبداً. مرة واحدة فقط ـ هل تذكرين؟ ـ قطفت لك غصن سيرين في حديقتنا.

وأتمنى أيضاً أن أذهب معك فأشتري لك شيئاً ما أنثوياً، غير ضروري ـ خاتماً، بكلة، فردتي حلق، قبعة، حقيبة نسائية. لقد بدا لي دائماً أن ذلك كله غباء وتفاهة، ولم أفهم إلاّ الآن كم أن هذا مهم، وكم نحن بحاجة إليه. هنا فقط أدركت السبب الذي يجعل هذه الأشياء غير الضرورية، ضرورية جداً.

حين كتبت عن ضرورة ما ليس ضرورياً تذكرتُ جارتنا التي كنت أزورها أحياناً في طفولتي. لقد كانت تبدو لي آنذاك عجوزاً جاوزت المئة عام. لعلّها كانت كذلك فعلاً. كانت لها ساقان بدينتان ملفوفتان بالقماش، لا تستطيع السير عليهما إلا مستندة إلى ظهر الكرسي. تدفع الكرسي إلى الأمام ثم تجرّ قدميها إليه. ماما كانت تقول لي إن في ساقيها ماء، في كل ساق سطل ماء. أتذكرها كما لو كنت أراها الآن. الشكّالات تبرز من كومة الشعر الأشيب على رأسها، عيناها تدمعان، أصابع يديها متورمة مفاصلها وهي ترتعش باستمرار، أذناها كبيرتان، شحمتاهما ممطوطتان إلى أسفل تحت ثقل قرطيها، ويغطيهما دائماً قطن طبي لأنهما تنزّان قيحاً. لم أكن أخاف منها، فعندها كنت أجد دائماً حبة سكاكر أو كعكة، وأنا، عموماً، كنت أزورها من أجل الحلقات المطاطية التي يثبتون بها في الصيدليات الأغلفة الورقية لزجاجات الدواء وعلب المساحيق ـ كانت تحتفظ بتلك الحلقات من أجلي فتعلقها على مسكات النوافذ، أما أنا فكنت أحتاجها من أجل (النقّيفات) التي أصنعها من العصي الصغيرة وأقلام الرصاص.

كانت غريبة في تصرفاتها، تتحدث دائماً عن أشياء لم أكن أفهمها. تجلس ببطء على كرسيها أمام المرآة وتشرع في الكلام، تقول: إن تلك

التي في المرآة ليست حقيقية، ولكنها كانت في يوم من الأيام حقيقية وجميلة. كنت أهزّ رأسي مؤمناً على كلامها، ولكنها كانت ترى أني لا أصدق، فتريني صورها القديمة برهاناً على صدقها. لا أتذكر من تلك الصور غير صورة الجندول. حدثتني كيف كان قائد الجندول يقود جندوله في القناة الضيقة ويبعده برجليه عن جدران البيوت.

قالت لي مرّة:

ـ الأمور الضرورية أنساها، ولكني أذكر تلك الحركة التي كان سائق الجندول يقود بها جندوله.

كثيراً ما كانت تحدثني عن أمر ما، ثم تضيف:

ـ أنت الآن لا تفهم ما أقول. يكفي أن تتذكر.

وهأنذا لم أذكر حركة سائق الجندول ولم أفهم أهمية ما ليس مهماً، إلا الآن.

أذكر أيضاً أني سألتها عن أمر ما فأجابتني:

ـ هاكَ السبب!

جذبتني إلى المرآة وضغطت خدها على خدي.

أنا لا أذكر مطلقاً ذلك السؤال، ولكن جوابها رسخ في ذاكرتي: ننظر معاً إلى المرآة ـ أرى وجهي ذا الأعوام السبعة، وتجاعيد جلدها العجوز المتهدل، والشعر النامي فوق شفتيها وعلى ذقنها، وحاجبيها الكثين، وأشتمّ رائحتها العجائزية المنفرة، وأتمنى الإفلات بأقصى سرعة، لكنها كانت تمسك رأسي بقوة.

عدت إلى المنزل بعد العطلة الصيفية، فلم أجدها. قالوا لي إنها رحلت. يومها صدّقت ذلك.

الآن أتساءل ـ أين دلوا الماء اللذان كانت تحملهما في ساقيها الملفوفتين بالقماش؟ أتراهما امتزجا بأمواج بيي خو؟

أقرأ ما كتبت وأتساءل: كيف حلّت في الحديث بيننا هنا تلك

العجوز التي لا أحد يذكرها، على الأرجح، غيري؟ ليس هذا مهماً.

المهم، يا حبيبتي ساشينكا، هو فقط أننا معاً ولا شيء يستطيع التفريق بيننا. أترين! إني أجيب نيابة عنك؟ لهذا السبب لا أستطيع أن أختفي ببساطة ـ لا بد من وجود إنسان يعتني بك، يحبك، يفكر فيك، يعاني معك: يفرح لنجاحك ويتقاسم معك الحزن. أنا، كما ترين، لا يجوز بحال من الأحوال، أن أزول!

الآن فقط، وأنا بعيد عنك كل هذا البعد، أفهم يا حبيبتي كم كان قليلاً ما قلته لك عن حبي، وعن ضرورة وجودك بالنسبة إليّ! أنا أتشبث بك لأنك أنت الحياة. من الصعب أن أشرح ذلك، ولكن، أنا مازلت أتنفس وأرى ـ كلّ ذلك فقط لأني أحبك.

●

فولودينكا!

لا أعرف كيف أشرح لك ذلك، ولكني أعرف أنك ستفهم كل شيء.

سأتزوج.

اليوم طلب يدي للزواج.

كان الأمر مضحكاً جداً ـ ذهبنا إلى المطعم، وتصادف أن دعاني لعبور البوابة قبله، باب المطعم دوّار، وأنا أردت أن أقول له شيئاً فأدرت رأسي إلى الوراء، أما هو فانحنى مقترباً مني في تلك اللحظة، فكان أن صدمت أنفه بنقرتي. مسكين، سال دمه. وهكذا ظل طول العشاء الاحتفالي جالساً، رافعاً رأسه إلى أعلى، وفي أنفه قطعة قطن مدماة.

قال، إنه طلب الطلاق اليوم.

راح يدقق في الورود التي في المزهرية أهي حقيقية أم ورقية، ثم سألني:

ـ موافقة؟

أجبته بانحناءة من رأسي.

ثم ذهبت إلى الحمّام.

كانت النافذة مفتوحة هناك، يأتي عبرها صوت المطر، كان المطر يتهيأ للهطول منذ الصباح. غسلت يدي وأنا أتساءل: "ما الذي أفعله؟ ولماذا؟"

في هذه الأثناء دخلت امرأة عمرها يناهز الأربعين، وراحت تصلح كحل عينيها وهي تدمدم:

ـ أما أنا فلا أريد أن أتمالك نفسي!

ثم أخذت تتعطر: رشت من زجاجة معها سحابة من العطر نحو الأعلى ووقفت تحتها.

طلت شفتيها بالأحمر وهي تنظر إليّ بطرف عينها عبر المرآة. وأظنها قرأت في عيني من هي في نظري ـ عجوز، ذابلة، لن ينفعها أي طلاء في العالم.

عدت إلى المائدة، والجميع ـ لا سيما النُدُل ـ ينظرون إلينا نظرة ساخرة.

تكلّم على أزمة السكن، وتساءل: أمن الممكن أن يعدّ المرء بشكل جيد قمرة في عربة قطار لن يقضي فيها سوى ليلة سفر ما بين النقطتين آ وب؟

كانت تفوح مني رائحة عطر تلك المرأة التي التقيتها في الحمام، فرغب في أن يقدّم لي هديّة، ذهبنا بعد العشاء لانتقاء زجاجة عطر. اعتقد أنه تفحّص كل ما كان في المخزن من عطور، رشّها على معصمي، رفع كمّي ثوبي ورش كل ما انكشف من جلد يديّ، ثم رش رقبتي، وبعد ذلك رش العطر على ثيابه أيضاً ـ وكان في كل مرة يقطّب حاجبيه ويقول أن هذه الرائحة ليست رائحتي، بل رائحة امرأة غريبة. وهكذا خرجنا من المخزن دون أن نختار شيئاً. سرتُ في الشارع كمن يرتدي معطفاً ثقيلاً

من العطور، وبدأت أشعر بالغثيان.

أنا لم أخبرك حتى الآن بالأمر الأهم ـ أنا أنتظر طفلاً.

أخيـراً، كتبت هـذه الكلمـات ـ أنتظـر طفـلاً، ـ وأريـد أن أكتبها مرة أخرى.

أنا أنتظر طفلاً.

طـول الوقـت أتخيـل في سـري شـكله. بـذرة بطيـخ، شـحمة أذن، جورب مبتل، تسـعة سـنتيمترات، خمسـة وأربعون غراماً. تأملت الصورة فـي الكتـاب ـ العمود الفقـري بـدأ يظهر واضحـاً، أسـتطيع حتـى أن أعدّ الفقرات.

روت لي مامـا أنها حين حملت بي اشـتهت كثيراً أكل مـا طعمه مرّ، وكان بابا يسـميها ـ حبيبتـي لاعقة المرّ. أنـا أحفّ عود ثقـاب على جانب علبـة الكبريت ثم ألعـق ذلك الجانـب الحار الخشـن. كنا نفعـل ذلك في طفولتنا. هل هذا فظيع؟ أنا ألتهم الحلاوة أيضـاً. ما إن أفتح العلبة حتى لا يتبقى فيها غير الفتافيت.

وخطر في بالي فجأة أن هذا بالذات هو سـبب استحالة أن يخلق أي إنسان. أعني أن ذلك مسـتحيل كما أن خلق أحدهم في داخلي، يشتهي أن يَنشق إلى داخله رائحة عود كبريت محفوف على جانب العلبة لا يستطيعه أي خيال، لأن الأمر يحتاج إلى معرفة ـ ولا أحد غيري يسـتطيع أن يعرف ذلك. أتفهم؟ هناك تفاصيل لا يسـتطيع أي إنسـان أن يختلقها، تفاصيل لا يمكن إلاّ أن تُرى، وتُجرب، وتُحفظ في الذاكرة.

شهيتي متوحشة، ولكن أتقيأ كل شـيء، تارة في الصباح، في مواعيد محددة، وتارة في وسـط النهـار، في العمل. أشـعر الآن باسـتمرار برائحة كريهة تنبعث من فمي. ذات مرة لم أصل إلى الحمام في الوقت المناسـب ـ أغلقـت فمي براحة يـدي، ولكن كل شـيء اندفع خارجـاً وانبثق من بين أصابعي. خجلت خجلاً شديداً، لا أفهم، ما المخجل في هذا؟

أنثى الحيوان لا تتقيأ عند الحمل. المرأة هي الوحيدة التي تتقيأ. نحن، بوجه عام، حيوانات سيئة الحظ ـ في كل شيء، حتى في هذا.

أشعر بتقلصات شديدة في معدتي، حتى إني أتمدد ساعات، والطست بجانب السرير. أنتظر وأشعر بالخوف.

أُراكِم في داخلي الجنين، وأراقب القمر.

أحس أني أتحول إلى أخرى. حركاتي انسيابية. عيناي تلتمعان، يستولي عليّ نعاس لذيذ، ويتجه بصري إلى داخلي. ما حاجتي إلى هذا العالم المرئي، مادام ينضج في داخلي آخر غير مرئي؟ المرئي يتراجع إلى مكان ما، يمّحي، يستعد ليخلي المكان لغير المرئي.

لديّ إحساس مدهش وكأني أشارك في تكوين كوكب جديد، هو مني سينبثق في موعده المحدد، كأني أنا ـ أخت الحياة، وقريبة حميمة لكل شجرة. أنا كذلك بالفعل. أداعب رأس دونكا وأسألها في سرّي: كلبتي الحبيبة، إن لنا جَدّاً حيوياً واحداً، هل تفهمين ذلك؟ هي تفهم! ها أن لكل منا، أنا وهي، سرّة، ونحن مرتبطتان بهذه السرة. أحكّ بطنها فتشعر بالسعادة، وتلوّح بذيلها. أنا وهي ممتلئتان حتى التخمة بالسعادة، ولكن، ليس لي ذيل كي أطرق به أرض الغرفة مثلها!

دونكا مضحكة، غبية، تشير بإصبعك إلى شيء ما في مكان بعيد، فلا تنظر إلى حيث تشير، بل إلى إصبعك. وهي تحب، حين أخلع صندلي عن قدمي المتعبتين، وأتمدد، أن تقترب وتلعق أصابعي. هذا يدغدغني كثيراً! فلسانها خشن الملمس.

أهم ما في الأمر هو أن حياة ثانية تنضج في هذه الكتلة الحية التي في داخلي، وحياة ثالثة... وهكذا بلا نهاية. أنا، ببساطة، محشوة بالحيوات المقبلة! في المدرسة، لم أستطع أبداً أن أتصور اللانهاية ـ ولكن ها هي ذي، تحت يدي.

أنظر إلى النساء من حولي، ويبدو لي غريباً أن يسرن ببطون بلا

حبل، وهن يملكن القدرة على ذلك.

ومن الأمور الغريبة أيضاً أني صرت مختلفة ولكن صورتي في المرآة مازالت على حالها. بطني لم يبدأ بالانتفاخ.

أستيقظ في الليالي يبللني العرق خوفاً من أن ألد مخلوقاً شاذاً. أتمدد وأحاول أن أنسى كيف أرونا قطعة لحم يغطيها الشعر والأسنان، أو كائناً نصفه طفل ونصف سمكة وعيناه في جانب واحد من وجهه.

في الصباح تُفقدني هذه المخاوف صوابي. ماما قالت لي كي تهدئ من روعي، هي دائماً تجد شيئاً جيداً تقوله لي:

ـ معنى الزهرة ـ كل زهرة ـ ينحصر في كونها تذبل تاركة وراءها علبة صغيرة، لا تلفت النظر، ممتلئة بالبذور.

أما أبي فكان حين يسكر، يهتف لي طالباً مني أن أحتفظ بغليونه، معبراً عن فرحه بكونه سيصبح جَداً. ويثرثر بأشياء لا يتوقعها أحد:

ـ انتبهي، أنا أيضاً سأنجب إذا رغبت في ذلك، وسيكون لي حفيد أكبر سناً من أولادي! لِدي لي طفلاً ذكراً!

أقول له: لا وقت لديّ، وأغلق الخط.

ماما أهدتني حمّالة صدر لها قفل عريض ومعها حزام له بكلة متحركة، تسمح بإطالته مع تقدّم مدة الحمل.

إنها تقدّم لي النصائح باستمرار:

ـ إذا لاحظت عكراً في البول، راجعي الطبيب فوراً! حين حبلت بك ظهر عندي زلال.

شردتُ مفكّرةً في أمر ما، ورحتُ أقضم أظافري، فضربتني على يدي بقوة كما كانت تفعل حين كنت صغيرة.

الغريب أن قلقي كان يزداد كلما شرعت تطمئنني وتقول لي أن كل شيء سيكون على ما يرام.

ورشته الآن هي عشوائيتنا التي نقيم فيها.

أجول فيها وأتعلم كل شيء من جديد ـ هنا ملاعق الشاي، وهذا إبريق الشاي، ولكن، أين الشاي؟ الحقيقة هي أني كنت أرتب بيته الذي ليس بيتاً.

أتجول في أدراج البوفيه ـ هذه هي رحلة زفافي.

بعد كل خمس وأربعين دقيقة يرن الجرس في حوش المدرسة.

ويتناهى إلى سمعي طول الوقت صوت طرْقٍ ـ في الورشة المجاورة لنا يعمل نحّات، يطرق بقَدومه كتلة الصخر من الصباح الباكر. استعار مرة كتاباً ليقرأه فأعاده مغطى بغبار الحجر.

سونيتشكا تزورنا مرتين في الأسبوع. قال لها إنه قريباً سيكون عندها أخت أو أخ. فقررَتْ أنه سيكون أخاً. وصارت تسأل في كل مرة:

ـ كيف حال أخي هناك؟

أبتسم وأجيب:

ـ جيدة!

إنه يأخذها إلى مدرسة الباليه. في المرة الماضية ذهبت، أنا أيضاً، معهما. هي تمسك بيده، أما أنا فلا تعطيني يدها. تسأله:

ـ هل معنى ذلك أنك أنت وماما لن تتزوجا أبداً مرة ثانية؟

فيشرح لها الأمر بقوله إنه الآن ينام دائماً خارج البيت.

تعود فتسأل:

ـ بابا، أما زلتُ عندك أكثر، أكثر شيء؟

ـ نعم.

وتنظر إليّ نظرة المنتصر.

حين ذهبت معهما إلى هناك أول مرة في مطلع الربيع، كان الهواء رطباً بعض الشيء، ولكنه تحول إلى صقيعي في المساء. ندوس فوق برك الماء، التي شرعت بالتجمد، فترسل صريراً مبهجاً. الجليد يئن قبل أن ينكسر.

دخلنا قاعة الرقص احتماء من البرد، حذاء الباليه بارد، رفعه إلى فمه وراح ينفخ فيه ليدفئه.

وفجأة أحسست أنا أيضاً برغبة شديدة في دراسة الباليه. وسألت نفسي عن السبب الذي منع أمي من أخذي إلى مدرسة الباليه في طفولتي!

صوت احتكاك السيقان. وحفيف قماش الموسلين. والبنات الصغيرات يجلسن في صفوف على الأرض في الممر، يشددن واقيات سيقانهن المنسوجة من الصوف، وجواربهن الحريرية. المعلمة ـ باليرينا سابقة ـ تمشي بينهن في الممر مستقيمة الظهر، تتجاوز سيقانهن. والآباء والجدّات يجلسون قرب الجدران متدثرين بمعاطفهم الفرائية. وعازف البيانو المرافق يدفئ يديه على مشعّ التدفئة المركزية. ها هم يبدؤون.

ـ الذقن إلى أعلى! الجورب مشدود! الجورب! الظهر مستقيم! الساقان مستقيمتان كقائمتي الفرجار! الرأس! الظهر! لا تمدي لسانك!

خمسة أوضاع ـ خمس حزم موسيقية. جمدنا في الوضع الخامس.

نظرت إليهن فشعرت برغبة حارقة في أن أصبح صغيرة، رشيقة مثلهن وأقوم بالتمرينات على خشبة الباليه، في جميع الأوضاع: الآز والبلييه والبريبارارسيون! سأُدخل طفلي حتماً إلى مدرسة الباليه فقد ألد طفلة. ولكن ما الفرق! أنا منذ الآن أحب طفلي سواء أكان هو أم هي.

لقد كن، كلهن، يحببن تأدية حركة الانحناء والتحية (الريفيرانس). البارحة راجع معها دروسها في المنزل، شرح لها معنى الإمكانية. هو يملك مهارة ممتازة في شرح كل شيء.

ـ انظري، الإمكانية تمسك العالم، كما يمسك الحبل المعلق بالمسمار، هذه اللوحة. لولا وجود المسمار والحبل لسقط العالم وتحطم.

أنظر إليها، فإذا بها تأخذ صورة من إحدى المجلات وتمرر بالمسطرة والقلم الرصاص خطوطاً تربط كل شيء فيها بنقطة واحدة.

حبال رصاصية تصل كل كرسي، وزهرة، ويدين، وساقين، وعينين، وأذنين، بمسمار واحد. اقتربتُ وقلت لها:

ـ ما أجمل ما تصنعين!

أجابتني:

ـ هل تعرفين الإسوارة الغجرية؟

ـ لا.

ـ هل أصنعها لك؟

ـ هيّا، افعلي.

أمسكت معصميّ بيديها الاثنتين وشدّتهما في اتجاهين متعاكسين. كدت أصرخ من الألم! جلد ذراعي يحترق، وقد ارتسم عليه خط أحمر.

ابتسمتُ لها.

إنها تتصارع معي للفوز بأبيها.

■

ساشينكا يا أنت لي!

كم شعرت بالدفء والراحة حين كتبت اسمك في أول سطر من الرسالة ـ ساشينكا! كيف حالك هناك؟ ما أخبارك؟ أفكّر فيك طول الوقت. ويفرحني كثيراً أن أعرف أنك معي بأفكارك طول الوقت أيضاً!

أعرف أنك تفكرين بي وتعانين من أجلي. لا تعاني يا حبيبتي! هأنذا أكتب هذه السطور، معنى ذلك أنني لم أصب بسوء! أكتب، فإذن، أنا حي.

ولكن، متى ستتسلمين هذه الرسالة؟ بل هل ستصلك؟ أنت تعرفين القول السائر: الرسائل التي لا تصل، هي تلك التي لا تُكتب.

أنت، على ما أظن، تحاولين تخيّل حالتي، وكيف يبدو منظري الآن، ماذا آكل، وكيف أنام، وما الذي يحيط بي. حسناً، سأحاول أن أصف لك حياتنا ومعاشنا، مادامت الفرصة قد سنحت لي الآن.

في البداية كانت المعارك، كما سبق أن كتبت لك، تدور باستمرار، أما الآن فيسود الهدوء، ولا نسمع، إلا أحياناً، صوت تبادل القصف المدفعي.

مازلنا نعاني من قيظ لا يطاق، ولكن ريحاً قوية تهبّ الآن، عاصفة رملية حقيقية. تحمل الريح الرمل الناعم من صحراء غوبي، فتغطي كل الأشياء بطبقة من هذا الغبار الأصفر، الذي ينفذ إلى الخيم. للطعام صرير تحت أسناننا سَبَبُه حبيبات الرمل. الغبار في عيوننا، وفي آذاننا، وتحت ياقات قمصاننا، وفي جيوبنا ـ أمر مقرف.

أتمنى المطر، ولكن ليس للمطر قواعد يتقيّد بها. الكل هنا يحلمون بالمطر ـ لو هطل لكان بإمكاننا جمع بعض الماء النظيف. لقد سبح جنودنا في بيي خو ـ ظهرت البثور في أنحاء أجسادهم. قال الطبيب إن سبب ذلك تحلل الجثث. الآبار التي حفرناها شحيحة المياه. ومياهها سيئة. في الليل يضعون حرّاساً عند كل بئر خشية أن يسممها العدو.

التعزيزات الجديدة تصلنا باستمرار. وقد امتدّ معسكرنا بطول فرسخ، وتمّ توزيعه إلى مجموعات بحسب توزع حقول الذرة، ولكن الزرع درس الآن تحت أقدام الجنود.

سأصف لك ما أراه حولي:

في الجهة الجنوبية يلوح حطام القرى الصينية. السكان هربوا في شتى الاتجاهات، ولم يبق بين الجدران المحترقة غير الخنازير والكلاب الضالة، التي يصطادها جنودنا في بعض الأحيان. الأسوأ هي الكلاب. لقد توحشت تماماً وصارت تهاجم الجميع بعنف. إن القرى هنا قذرة وفقيرة على وجه العموم.

في مقدمة المشهد بعض الأحراج الصغيرة. وعلى الأرضية الخضراء تظهر الخيم البيضاء، المنصوبة في صفوف منتظمة. والخيول تقف في سلسلة طويلة في مرابطها، تهز رؤوسها ـ وفوقها سحب من

الذباب.

ثمة ضجة في خيمة القيادة. لقد جلبوا حُصُراً من البيوت المجاورة المدمرة. واستخدموا صناديق الذخيرة الفارغة بدلاً من الطاولات. إبريق الشاي بدأ لتوّه بالغليان، يقولون إنه لا شيء يساعد في تحمّل القيظ غير الشاي.

المستشفى الميداني أمامي مباشرة. لقد كتبت لك من قبل عن هذه الجيرة غير البهيجة.

وإلى اليسار، بين الخيام، أرى المسّاحين وهم يحومون حول سيباتهم الثلاثية القوائم، ذات المناظير الموشورية.

وإلى يميني، مع قليل من الانحراف، الجنود ينظفون بنادقهم تحت مظلة من القماش الخام. من هناك تتناهى إليّ رائحة الزيت المعدني، وصرير الأسياخ والفراشي التي ينظفون بها سبطانات أسلحتهم.

المطبخ في مكان أبعد قليلاً. اليوم نحروا بقرة بحضوري. وحين اندلق منها جبل كامل من الأحشاء، أدهشني أنها كانت تحمل كل ذلك في داخلها. عجباً، هل في داخلنا، نحن، مثل هذا القدر من الكلاكيش؟ أفي داخلي أنا مثل هذا؟ لقد دفنوا ذلك كله ـ ودفنوا معه عينيها. اليوم اكتشفت أن للبقر عيوناً واسعة ـ العين بحجم التفاحة.

نحن، في الغالب، نأكل لحم الخيول، إنه، من حيث الطعم، يذكّر بلحم البقر.

عند طرف المعسكر تماماً يحفرون الآن جوراً جديدة أبعد من هذه المراحيض التي أنشؤوها من دون أن يفكروا بالروائح غير المعقولة التي ينقلها إلينا الهواء.

ساشينكا، يا حبيبتي، لا أظن أن هذا كله يبعث عندك المتعة، ولكن هذا ما صرته أنا الآن.

في وسط المعسكر، هناك، حيث المطبخ والخيمة الكبيرة

المخصصة مطعماً للضباط، ترتفع تلة كبيرة من التراب، وتنتشر حولها في كل مكان تلال صغيرة أقل ارتفاعاً. ستبتسمين الآن، ولكننا نعيش فعلاً، وبالمعنى الحرفي للكلمة، في المقبرة.

تلال القبور، عندهم في كل مكان. إنها تغطي ضواحي تيانتسزين كلها. لقد روى لي كيريل غلازيناب كل شيء. في واقع الأمر، لا توجد عندهم مقابر كالتي عندنا، ولكن تشتغل في كل حقل عائلة معيّنة، فتخصِّص، حتماً، زاوية منه للأجداد. إنهم لا يدفنون الموتى في حفر، بل، على العكس من ذلك، يطمرونها فوق الأرض التي يضعون عليها التابوت ثم يهيلون عليه التراب من أعلى، وهكذا تنشأ تلة مستطيلة يتوقف حجمها على حجم التابوت وأهمية الميت. تطلى سطوح هذه التلة بخليط من الطين والتبن فتصبح شبيهة بالأكواخ القرغيزية. إنهم يعتقدون أن الأجداد يساعدون أحفادهم. وهذا ما يحدث فعلاً - جنودنا يكرهون هذه القبور كثيراً، لأن كل واحد منها غطاء جاهز لأحد رماتهم. وهذا يتطلب منا اليقظة الدائمة.

وفوق ذلك، يزعم الجنود الذين يقضون ساعات كثيرة في الملاجئ، أن في المكان أفاعي كثيرة، غير أني لم أصادف حتى الآن أية أفعى. لا أذكر إن كنت حدثتك أو لم أحدثك أني حين كنت فتى حملت في الغابة كومة من القش لإشعال النار، فانسلت منها أفعى وسقطت على الأرض. لقد لازمني الخوف طول عمري بعد تلك الحادثة. إن لدينا هنا، بصرف النظر عن وجود، أو عدم وجود، هذه الكائنات المقرفة، ما يكفي من الأشياء الصغيرة المكدِّرة - تمدّ يدك إلى جيبك لإخراج قطعة سكّر، فإذا به ممتلئ نملاً.

يا للحسرة! الهدوء يسود عندنا، ولكنه لا يشمل الموت. مازلنا، كما في السابق، ندفن الموتى يومياً تقريباً، غير أننا لم نعد نضع الصلبان على قبورهم، بل نحرص على أن نجعل القبر غير ملحوظ. لقد نبش الصينيون

ليلاً ذلك القبر الجماعي الأول الذي حدثتك عنه ونثروا الجثث بعد أن شوهوها. هم يكرهوننا إلى هذا الحد. نحن لم نكتشف فعلتهم إلا في الصباح حين رأى مناوب من جماعة الحراسة كلباً يحمل بأسنانه قطعة من عظم بشري.

أبحرَت من المدينة في مجرى النهر باتجاه تاكو سفينة قطر تجرّ بارجتين ممتلئتين بالفارّين من تيانتسزين. نساء منهكات، وأطفال، وعفش. وقد لفت نظري قفص فيه ببغاء.

إنهم يصلحون السكة الحديدية على عجل، لكي يصبح من الممكن نقل العتاد والبشر إلى هذا المكان. القاطرات البخارية كلها معطلة يحاول الأمريكيون وعمّال سكك من بلادنا إصلاحها. وتقوم إدارة الإشارة بإعادة الاتصالات، ولكن لا شيء متوفر، لا سيما الأعمدة والعوازل التي كانوا يستعيضون عنها بالزجاجات الفارغة.

نحن نلتقي أحياناً بالحلفاء ـ في كل يوم تصل إلى هنا قطعات جديدة. أمس، دُعي ضباطنا لزيارة اليابانيين. أحد اليابانيين، وكان يتقن اللغة الروسية إلى درجة مقبولة، قال، حين دار الحديث على صعوبات القتال ضد الإيخيتوانيين:

ـ سأخبركم بسرّ شجاعة الصينيين! ـ وضع يده على الطاولة المزروعة بالذباب الذي تطاير طبعاً.

ـ انظروا! لقد رفعتُ يدي الآن فعاد الذباب. الإيخيتوانيون ـ مثل هذه الذبابات. يقتلوننا من وراء السواتر، وحين نهاجمهم، يختبئون لكي يعودوا بعد ذلك.

وضرب بمهارة كبيرة عدداً من الذبابات براحة يده فقتلها.

يجدر بي أن أقول إن اليابانيين مذهلون بانضباطهم غير العادي وشجاعتهم الخارقة. ولعل ذلك هو سبب تحمّلهم لأفدح الخسائر. يقودهم الجنرال فوكوسيما المشهور برحلته من بيتربورغ إلى

فلاديفوستوك على ظهر جواد. وهم يمشون، في تدريبات النظام المُنْضَم، كمن قيّدت أقدامهم، بخُطا قصيرة تثير الضحك.

نحن هنا، عموماً، نشبه لوحة فنية إلى حدّ كبير.

الأمريكيون يشبهون رعاة البقر المستهترين بسبب قبعاتهم اللينة العريضة الحواف. إنهم يقاتلون جيداً ولكنهم لا يمتازون بالانضباط. تنظر إليهم فتشعر أنك في رواية من روايات ماين ريد.

الفرنسيون الأصلاء قليلون جداً، ولا يوجد هنا إلا الزوافيون المرسلون على عجل من الهند الصينية. إنهم قليلو الشبه بالقوات النظامية، ولكنهم (حربَجيّون) جداً.

عند الإنكليز مقاتلون من أبناء المستعمرات. طوال القامة، رشيقو الأجسام، يرتدون عمائم صفراء وحمراء. على رأس كل سرية ضابط إنكليزي حتماً، أما الضابط من أبناء المستعمرات، الذي قد يكون في سن أكبر بثلاث مرات من سن قائده، فيقوم بدور الضابط المساعد. أنا لا أظن أن الإنكليز يستطيعون الاعتماد بقوة على هؤلاء المقاتلين. السيباهيون، أبناء المستعمرات الهندية، يضعون حين يقدّمون التحية، يداً على العمامة ويداً على الصدر.

النمساويون هنا عشرات قليلة، ولكن أعلامهم الوطنية كبيرة الحجم، بحيث يمكن لعلم واحد منها أن يغطي الجميع دفعة واحدة. يتمثل الطليان هنا بسَرية من البارساليريين ـ الرماة الألبيوّن. يبدو هؤلاء وكأنهم انُتزعوا من لوحة "مشهد طبيعي". قبعاتهم تزينها ريشة ديك، بطّات سيقانهم عارية، وفي يد كل منهم بندقية قصيرة، وهم يبتسمون للجميع.

اليوم رأيت الألمان بستراتهم البنية غير الرشيقة. أحدهم ساءت حالته تحت أشعة الشمس الحارقة، فسحبه رفاقه إلى الظل وراحوا يحركون الهواء أمام وجهه لإنعاشه. كثيرون هنا تخور قواهم بسبب الحر.

أحياناً، يذكّرني هذا بحفل تنكري طريف ـ كل هذه الألبسة الرسمية والأزياء، والخوذ والعمائم. لقد كان الناس يرتدون الملابس المختلفة في الكرنفالات لخداع الموت. هل هذا ما نفعله نحن في هذا المكان؟

مما يلفت النظر أيضاً أن العلاقة بين الحلفاء ودية للغاية، حتى بين الجنود. وكيف يمكن أن يكون الأمر غير ذلك ماداموا مضطرين إلى اقتسام الحرمانات والمخاطر نفسها، ونجدة بعضهم بعضاً في المعركة؟ هل تعرفين ما الرائع في ذلك؟ ها هي ذي قبعاتنا تختلط بخوذات الإنكليز البيضاء وقبعات الفرنسيين الزرقاء المستديرة، وخوذ الألمان وعمائم السيباهيين وقبعات الأمريكان المثنية إلى الأعلى بتحدٍ، وسدارات اليابانيين الصغيرة البيضاء ـ فتبعث إحساساً بالوجود الحقيقي للأسرة الإنسانية الموحّدة، وبأن الحروب التي خاضها أجدادنا كلها صارت من الماضي. أظن أننا نخوض الآن آخر الحروب.

أزور أحياناً الجرحى، حين لا أكون مناوباً، أجلس معهم، وأستمع إلى أحاديثهم. اليوم كانوا يناقشون في إحدى الخيم وضع سلاح المدفعية. قائد البطارية الثانية آنسيلم الذي تحطم كوعه وشوّهت شظية أنفه ـ أصبح عملياً بلا يد وبوجه مشوه، ولكنه ظل مبتهجاً بكونه لم يصب بأكثر من ذلك، ـ قال: إن الصينيين يرموننا بأحدث المدافع الثقيلة التي لا تستخدم باروداً يطلق الدخان، من قواعد مغطاة تماماً بسواتر السكة الحديدية، ومن وراء الكتل العمرانية ـ الأمر الذي يجعل اكتشافها صعباً للغاية.

لقد كان مدهشاً أن أرى رجلاً مضمّد الوجه، سيظل مشوّهاً، مقطّع الأوصال مدى الحياة، لم يصب بالإحباط، بل وجد في نفسه القدرة على الضحك ورفع معنويات الجرحى الآخرين. وقد دفعني ذلك رغماً عني إلى التساؤل: ترى هل أستطيع أن أكون مثله؟

القازاقيون، بشكل خاص، يمتازون بقدرتهم الكبيرة على تحمّل

الألم. أحد أبناء منطقة آمور، الشرطي سافين، تحطم فكه وتورّم لسانه فلم يعد فمه قادراً على احتوائه، ولكنه ظل يحاول الضحك من ضماده الذي جعله شبيهاً بالنساء.

لعلك تذكرين ما كتبته لك عن ريباكوف الذي تحطمت قدماه. لقد قطعوا إحدى ساقيه حتى الركبة. هو يقول أنه يشعر بتلك الساق. أما أنا فقلت لنفسي، حين فكرت فيه: أظن أن الإنسان يظل بعد الموت يشعر مثله بجسده.

في كل يوم ينقلون إلينا جرحى جداً. اليوم ـ استثناء سعيد. جميع الأحياء مازالوا أحياء، لم يصبهم أذى ـ لم يصبهم أذى حتى الآن. لكنهم نقلوا إلينا البارحة ليلاً مراسلاً قالوا إنه وقع تحت النار مصادفة ـ حارسنا ظَنَّه، بسبب الظلمة والخوف، جاسوساً. لم تكن عندنا نقّالات فحملناه على درفة باب نُزعت من أحد البيوت المدمرة. كان مصاباً في ردفه، وكان يتألم ألماً فظيعاً. ألمه كان يعزز فكرة بعينها: هذا الرجل مصاب برصاصنا، وقد يموت بيدنا لا بيد العدو. كنا نخشى أن يبدأ دمه بالتسمم. الذين يموتون بسبب ذلك هم، بوجه عام، أكثر من الذين يموتون جرّاء جراحهم نفسها.

لقد أحببت زاريمبا السريع الغضب، طبيبنا. حين يكون طيب المزاج يشرع في إضحاك الجميع بحكاياته عن عمله لعدة سنوات في بعثتنا في بكين. كانت معرفته باللغة الصينية ضئيلة. واليوم، في أثناء شرب الشاي، تذكّر كيف أتاه في أحد الأيام صيني شاب، شرح له شيئاً ما عن مرض أمه. أعطاه زاريمبا دواء، ولكن الشاب لم يأخذه إلى أمه، بل سارع، هو نفسه، بشربه. ولم يشعر أبداً بغرابة اعتقاده أن الأم يجب أن تشفى بالدواء الذي تناوله الابن بدلاً منها! إن هذا يعطي تصوراً ما عن مستوى تطور الصينيين.

لدى الطبيب عمل كثير. لقد ذهب الآن لإجراء عملية ـ أحضروا جندياً من فرقة نزع الألغام بدأت الغانغرينا تجتاح جسده. كان الجندي

يتوسل إليهم أن يبقوا له ساقه. وقد سمعت كيف قاطعه زاريمبا بحزم:

ـ أنا لا أقطع الأعضاء عبثاً.

ثم أمر بوضع قناع الكلوروفورم على وجه الجندي بالقوة.

منذ أيام، وبدافع الفضول، شممت ذلك القناع ـ لا طعم له، ساخن، تفوح منه رائحة المطاط.

يستطيع المرء أحياناً أن يتبادل بضع كلمات مع لوسي. لقد ساعدت البارحة معاون طبيب في تغيير ضماد أحد الجرحى حيث تطلّب الأمر نزع قطع الشاش الجافة العالقة بالجرح. دفع الألم الجريح إلى التشبث بيديها. وقد أرتني معصميها وهي تبتسم ـ كانا مزرقّين زرقة داكنة. إنها تبدو فخورة بمثل هذه الكدمات.

لقد تبيّن أن لوسي صارت ممرضة بحكم الضرورة، فقد كانت تحاول الخروج من المدينة المحاصرة، ولكن القطار الأخير المحمّل بالفارين والمتجه من تيانتسزين إلى تاكو، تعرض للنيران هو وركّابه التعساء. كانت العربات ممتلئة بالنساء والأطفال والجرحى. فاضطر للعودة ـ دُمّر الخط الحديدي، وأرغم الجميع على البقاء في المدينة المحاصرة، وتحمّل القصف المدفعي العنيف. لم تستطع البقاء دون عمل، فذهبت إلى المستشفى متطوعة للمساعدة. لقد بات من الممكن الآن أن ترحل مع اللاجئين الآخرين ولكنها قررت البقاء مؤقتاً في مشفانا الميداني. إن الجرحى يحتاجون لوسي بدفئها وحنانها، بدرجة لا تقل عن حاجتهم إلى الدواء.

حين يتحدث المرء إليها يتركّز بصره لا إرادياً على الشامة الغبية، فتلاحظ نظرته، وتغطيها بيدها، فيصبح الموقف محرجاً.

ينجذب الناس إليها. هذا مفهوم، فالرجال المنقطعون عن البيت والأهل كثيرون. وكل واحد منهم يتمنى قطرة حنان، وعبارةً تشعره بالإنسانية والدفء. ولوسي واحدة مع الجميع في حنانها من دون أن

تسمح لأحد بالاقتراب منها. يبدو لي أنها تستثني من ذلك غلازيناب فقط. فكثيراً ما كنت أراهما معاً يتناقشان في أمر ما، بحيوية. ضحكة الأخت لوسي خفيفة جميلة. حين يعود كيريل من عندها إلى خيمتنا، يستلقي على فراشه ويتنهد في صمت. يمسح الغبار الرملي عن زجاج نظارته السميك الذي يشبه زجاج كعب الكأس. لقد حاولتُ مرة أن أنظر من خلال تلك النظارة ـ لا شيء سوى الألم في عيني.

في هذه اللحظة ينتشر الظلام هنا بسرعة وكثافة. وتبدأ الزيزان والضفادع في إنشاد أغانيها المسائية. ويحضر السكّيت على الفور. وتتناهى من كل مكان أصوات الشتائم واللطمات.

ينتظر المرء الظلام كي يشعر لو بقليل من الراحة، ولكن الذي يحدث هو العكس، يهدأ الهواء، وتنفث الأرض ما راكمته في النهار من حرارة، فلا يبقى للمرء ما يتنفسه.

لقد تركت العاصفة الرملية اليوم غطاء رملياً على كل شيء. حتى على الأسنان. أشعر طول الوقت برغبة في المضمضة لترطيب فمي. ولكن الأهم من كل ذلك هو العطش. أقرّب المطرة إلى فمي باستمرار، ولكن هذا الماء يجعل حالي أكثر سوءاً. العرق يتصبب جداول على وجهي وجسدي كله... والغبار العالق بالجلد يغطيه بقشرة سميكة لزجة. هأنذا أُكثر من الشكوى. لا تهتمي، كل هذا هراء، صدقيني!

ساشينكا، يا حبيبتي، أعرف الآن أن الحرب ليست معارك وانفجارات وجراحاً فحسب، بل هي أيضاً ترقّب لا نهاية له وقلق من المجهول وضجر. في هذا المجال ينقذني التواصل مع كيريل. نتكلم على كل شيء في الدنيا وكثيراً ما نتناقش، بل نتخاصم أيضاً ويغضب أحدنا من الآخر. ولكن هذا لا يدوم طويلاً. حين ننسى أننا تخاصمنا نبدأ من جديد الكلام على شيء ما.

أنا واثق من أنه كان سيعجبك. فعلى الرغم من بعض عادات

غلازيناب التي لا تعجبني مثل تلويحه بيديه بقوة في أثناء الكلام، وشدّه لكمّ من يخاطبه ـ يبدو لي قريباً ولطيفاً. يعجبني فيه صوته الحكيم وعيناه الذكيتان، وعدستا نظارته الصغيرتان. إنه يستطيع النوم بمجرد أن يضع رأسه على وسادته الصينية المطرزة، المحشوة بأوراق شاي من نوع بعينه، وفيها ثقب خاص صغير عند موضع الأذن. وهو يزعم أن رائحة هذا الشاي مفيدة جداً للعيون.

إنه يروي دائماً أشياء طريفة جداً! انظري، مثلاً، القصة التالية، وقولي ما رأيك فيها؟ الطاقة الحية التي تخترق وتربط كل الأشياء من حولنا بعضها ببعض، يسميها الصينيون تسي. في الماضي، كان الموسيقي يقف، من أجل معرفة استعداد الجيش للمعركة، في وسط الجنود وينفخ في بوق خاص، ثم يصدر قراره استناداً إلى صوت البوق. إذا كان صوت البوق ضعيفاً فإن ذلك يعني أن الروح القتالية ضعيفة أيضاً، ويكون هذا بمثابة نبوءة بالهزيمة في المعركة. وفي هذه الحالة يأمر القائد جيشه بعدم بدء القتال والانسحاب. هل أضحكتك؟

يمارس غلازيناب، حين تسنح له الفرصة، فن الخط، ولديه مجموعة كاملة من القصبات. وقوالب من الحبر الصيني ـ قضبان يفتتها في محبرة من الحجر ـ ويمزجها بالماء. ولكن الورق كان قليلاً، ولذا كان في أحيان كثيرة يكتب على لوح من الخشب أو قطعة من القماش ويغمس القصبة في الماء العادي. القصيدة عبارة عن عدد من الهيروغليفات المكتوبة من أعلى إلى أسفل. وهو، ما إن يصل في كتابته إلى آخر القصيدة حتى تشرع بدايتها في الاختفاء بفعل الشمس والريح. ليتك يا ساشينكا ترين كم هذا مسلٍّ!

أترين؟! نحن، أحياناً، نقضي هنا أوقاتاً غير سيئة أبداً.

سامحيني، لقد أردت أن أمزح، ولكن مزاحي كان غبياً.

هنا، يستثمر المرء كل شيء يمكن أن ينسيه واقعه.

مارس كيريل اليوم هوايته في فن الخط، فشعرت برغبة شديدة في تجريب ذلك، ولم أستطع تمالك نفسي، فرسمت أيضاً عدداً من الخطوط. نظر غلازيناب إلى ما فعلت ولاحظ بتواضع أن ما خططته يذكّر برزمة من القصب، فأشعرني قوله باعتزاز شديد، ولكن تبيّن لي فيما بعد، أن اعتزازي كان عبثاً. تصوري! الخط الذي ترسمه القصبة يجب ألاّ يشبه رأس الغنمة، أو ذيل الفأر، أو ساق اللقلق، أو الغصن المقطوع، أي أنه يجب ألاّ يشبه أي شيء حقيقي على وجه العموم. أنا أعرف الآن أن الخط الأفقي يشبه الغيمة الممتدة على مسافة عشرة آلاف "لي"، لذا قررتُ ألاّ أمارس فن الخط بعد اليوم.

لقد اتضح لي أن الكتابة القديمة نشأت بوصفها تسجيلاً لطقوس تقديم الأضاحي. كانت اللوحة تصور مشاهد الصلاة والمشاركين فيها واللوازم الطقسية الأخرى. هذا مفهوم طبعاً. ولكن ما حدث فيما بعد كان مدهشاً! انظري! لقد نجم عن ذلك أن صار هذا السرّ معروفاً لكل من يتأمل تلك اللوحة، ففيها كان الكلب كلباً، والسمكة ـ سمكة، والحصان ـ حصاناً، والإنسان ـ إنساناً. حينئذٍ صاروا يعقّدون الكتابة عمداً كي لا يستطيع فهمها إلاّ العارفون. صارت الإشارات تتحرر من الشجرة ومن الشمس ومن السماء ومن النهر. كانت الإشارات في الماضي تعكس الانسجام والجمال الشامل، فانتقل الانسجام إلى الكتابة. الكتابة الآن ليست انعكاساً للجمال، بل هي الجمال نفسه!

كم صار هذا قريباً إلى نفسي ومفهوماً!

كيريل حزين لأنه لن يكون في البيت يوم زفاف أخته. يقول إن أمه لم تشأ أن يلتحق بهذا العمل، وعانت معاناة فظيعة خشية أن يقتلوه. لقد قال لي:

ـ أنا لم أَخَف على نفسي أبداً طول حياتي، ولكني أخاف الآن من خوفها.

بقيتُ صامتاً. أعرف أن أمي أيضاً تعاني من أجلي.

حين ودّع بعضنا بعضاً في محطة القطار بكت وراحت تقبلني. أحرجني ذلك حرجاً كبيراً، فحاولت التحرر من عناقها.

زد على ذلك أن أعماها أراد فجأة أن يعانقني، فخرّش وجهي بلحيته الخشنة.

صارت تترجاني عند الوداع:

ـ حسناً، قل لي أي شيء!

لم أستطع أن أقول سوى كلمات:

ـ اذهبي! كل شيء سيكون على ما يرام! اذهبي!

هل تفهمين يا ساشينكا؟ كنت أقنع نفسي بأني أكرهها. لا، طبعاً، أنت لا تستطيعين أن تفهمي ذلك. حتى أنا، أعترف الآن بصدق، لا أفهم ذلك جيداً.

أغمض عيني فأرى ذلك العالم الذي لم يعد يراه أحد ـ شقتنا القديمة، ورق الجدران، أزهار الغاردينيا على النوافذ، الأثاث، الأرض الخشبية. المرآة المخبأة في الكوميدينا، التي كنت أكشّر أمامها محاولاً اكتشاف نفسي. والوسادة الملقاة على الأريكة، والطاووس المطرّز على وجهها، ذو العين المصنوعة من زرّ يمكنك تدويره... هذه الوسادة حاكتها جدتي. الزرّ كان ينقطع مرات ومرات، ليس من دون مساعدتي، طبعاً، وكانوا يعيدون تثبيته، فكان ذلك يؤدي إلى تبدّل تعابير وجه الطاووس ـ فهو تارة ينظر بطرف عينه خائفاً، وتارة يتأمل السقف مندهشاً، أو يضحك ضحكة لئيمة مكتومة في تارة ثالثة...

أرى علامات على حرف الباب ـ إنها أمي تقيس طولي واضعةً كتاباً على رأسي طلباً للدقة. أما هي فكانت ترفض قياس طولها على الرغم من إلحاحي الشديد.

أتعرفين؟! أطير من جديد بأفكاري بعيداً عن القيظ، والجراح

والموت، فأشعر بتحسن كبير!

عنـدي، فوق سـريري، علـى ما أذكـر، مخطط نصفـي لسـفينة كبيرة عابـرة للمحيط، معلّـق علـى الجـدار. وقـد كان باسـتطاعتي أن أتأمل بلا نهايـة، علـى ذلـك المخطـط القمـرات والممـرات والمحركات، وجسـر القيادة، والعنابر، والأشـخاص الصغار الذين يتنزهون على سطح السفينة، أو يتناولـون الغداء على مائدة فـي المطعم، والبحـارة، والوقّادين، بل كان هناك أيضاً كلب صغيـر جداً يختطف من يد الطباخ قطعـة نقانق. لقد كنت واثقاً من أن الذي علّق هذه السفينة فوق سـريري هو بابا. كنت أحب كثيراً أن أتخيـل تلك الحيـاة ـ ما الذي يأمـر به القبطـان الذي يصرخ فـي البوق المكبّـر للصـوت، وبماذا يجيبـه ذلـك البحّار الفتـى الأحمر الشـعر الذي يتسـلق سـاري السـفينة. كنت أؤلف مـن عنـدي أحاديـث البحـارة الذين يكشطون ما علق على سطح السـفينة من أوسـاخ. وأخترع قصصاً مختلفة عن الركاب، وأطلق عليهم ألقاباً مضحكة. وفي بعض الأحيان كنت أرسم بنفسـي أشـخاصاً صغاراً أكمّل بهم الطاقم، كذلك البحار المعلّق مثل قرد على أحد الحبال وهو يدهن المرساة حاملاً سطل الدهان بيده.

لقـد كان مشـوّقاً وطريفـاً أن أتسـاءل: مـن أكون أنـا بالنسـبة إليهم؟ أتراهم يشعرون بوجودي؟

حين انتقلنـا إلى البيـت الريفي، نزعت بحذر المسـامير عـن الجدار ولففتُ اللوحة على شـكل أسـطوانة ولـم أعطها لأحد. هكذا سافرت وأنا أنظر عبر الأسـطوانة إلـى الأفق وكأنهـا منظار. لقـد احتفظت مامـا طويلاً بهذه اللوحة مع رسـومي الطفلية، إلى أن جاء وقـت تخلصت فيه من تلك الأشياء كلها.

لم يبق فـي ذاكرتي عن أبي غيـر بعض الذكريـات المتقطعة. لا أذكر حتى كم كان عمـري، حين ذهبـت معه إلى المحطـة لاسـتقبال ماما. كان هناك زحام شـديد، حملني بابـا على كتفيـه وطلب مني أن أرقـب قدومها

جيداً وإلا أضاع كلّ منا الآخر. أذكر كيف كنت أمسك برقبة بابا وأبحث عنها ببصري وسط الحشد. كانت إمكانية ألاّ يجد أحدنا الآخر تقلقني وتخيفني. وفجأة رأيتها فصرخت بصوت سمعته المحطة كلها:

ـ ماما! ماما! نحن هنا!

مازلت أذكر أيضاً كيف ذهبتُ مع أبي إلى استديو التصوير. يبدو أن خيبة الأمل التي نجمت عن رداءة الصور أدت إلى اختفاء صوري مع أبي، من المحتمل أن تكون ماما قد مزقتها. لم تبقَ إلا تلك الصورة التي أظهر فيها وحيداً أحمل قيثارة كما تُحمل عادة آلة الكونترباس.

ذكرى أخرى غبية تماماً بقيت في خاطري: هأنذا أتلمس في الصقيع أنفه الأحمر الذي يشبه أنف المهرج.

كم يبهجني أني أستطيع أن أُشركك بكل هذا الذي لا يحتاجه أحد الآن!

ما الذي مازلت أذكره أيضاً؟

ظلّت ماما عاماً كاملاً تأخذني إلى صالة الجمباز الخاص كي تشدّ رقبتي وعمودي الفقري ـ قال لها الأطباء إن وضعهما غير سليم. هناك كانوا يثبّتون رأسي في ياقة جلدية متينة لها حزامان على الجبهة وتحت الذقن، ويشدّونني إلى أعلى حتى أكاد ألمس السقف. إلى جانبي كان صِبيان وبنات آخرون حالهم كحالي، يترجّحون معلَّقين كالسلامي في مخزن المواد الغذائية. كنت أكره هذا الجمباز وماما التي ترغمني عليه مهما أظهرتُ من مقاومة.

وأذكر أيضاً كيف زارنا ضيوف فاختبأتُ في الخزانة، جلستُ هناك في الجوّ الخانق والظلام إلى أن انتبهوا لغيابي وهرعوا يبحثون عني في الشارع. عنّفوني وسألوني عن سبب قيامي بذلك. أنا نفسي لم أكن أعرف السبب. أما الآن فأدرك أني أردت، ببساطة، أن يبحثوا عني فيجدوني ويفرحوا بي.

أتدرين؟! في طفولتي كانت تدور في رأسي أفكار غريبة جداً، بل لعلها لم تكن غريبة إلى هذا الحد. أهداني أحدهم بسكوتاً فرنسياً في علبة معدنية جميلة، ففكرت: ما الذي يمكن أن أفعله بهذه العلبة الجميلة؟ ثم قررت أنني أستطيع أن أضع فيها أشياء متنوعة وأطمرها، وحين يجد أحد ما في يوم ما علبتي سيعرف كل شيء عني. وضعتُ في العلبة صورتي وبعض الرسوم وطوابع ونثريات أخرى كانت تملأ دُرج طاولتي ـ حصى، تماثيل صغيرة لجنود، أقلاماً وما شابه ذلك من تفاهات كانت تبدو لي آنذاك مهمة جداً، ثم طمرتها في البيت الريفي تحت شجيرة الياسمين. خطر في بالي، بعد ذلك، أنني لن أكون، حين سيجدون هذه العلبة بعد أعوام كثيرة وكذلك لن تكون ماما، بل لن يكون أحدٌ منّا عموماً. ولذا يجب أن أضع فيها شيئاً ما من أشياء ماما. انتزعت من الألبوم صورتها سرّاً، ودفنتها أيضاً. فيما بعد، أذهلني أني أملك سَلطة مدهشة ـ سيبقى فقط أولئك الذي آخذهم معي في علبتي!

ترى، أين تلك العلبة الآن؟ أتراها حقاً ماتزال هناك تحت شجيرة الياسمين؟

كانت ماما تطلب مني بإلحاح أن أخرج إلى الشارع:

ـ ما بالك تجلس إلى الكتب مجدداً، اذهب والعب مع الأولاد!

لم أكن أحب اللعب مع الأولاد. ألعابهم قاسية ويرغمونك على خوض تجارب لا نهاية لها، تجارب يجب أن تصمد فيها. يقرِّبون، مثلاً، نقيفة مشدودة إلى عينك ليجربوك ـ هل تطرف عينك أو لا؟

كنت أرغب في طفولتي أن أقتني كلباً، وذات يوم أحضرت من الشارع جرواً مشرّداً. أطعمناه. ولكن ماما رأت فيما بعد أنه يتقيأ ثم يلعق مباشرة قيئه عن الأرض الخشبية، فلم تسمح لي بإبقائه على الرغم من كل توسلاتي.

وماذا أيضاً؟

كانت عند جدتي علبة فيها أزرار. وكنت أحب حتى العبادة أن ألعب متخيلاً أن تلك الأزرار هي جيشي. الأزرار البيضاء الصغيرة كانت جنود المشاة، والأزرار الأخرى كانت تمثل الخيّالة والمدافع. أتذكّر زراً كبيراً بنفسجي اللون ـ ذلك كان الجنرال الذي كان يحارب دائماً ضد جيش الجنرال الآخر الذي كانت تمثله بكلة نحاسية علاها صدأ أخضر. كنت أدير معارك كاملة ـ الأزرار تندفع في الهجوم، تصرخ، تدخل في صراع بالأيدي، وتموت. الموتى، كنت أدفنهم في العلبة من جديد.

ساشينكا، يا حبيبتي! لشد ما أستمتع وأنا أحدثك بكل هذا الذي اختفى في مكان ما!

أخذتني ماما مرة لأشاهد عرضاً للألعاب السحرية. ربما لم يكن في ألعاب ذلك الساحر شيئ مميز، ولكنها، آنذاك، سحرتني تماماً. كانت الأشياء تظهر وتختفي، ويتحول أحدها إلى غيره. الآس البستوني يصبح بنت الكوبّا. يأخذ قطعة نقد يغلق عليها كفّه ثم يبسطها فيظهر فأر أبيض. قَصَّ ربطة عنق أحد السادة بالمقص، ثم جمع النصفين فإذا بربطة العنق كاملة، لم يصبها أي أذى.

ثم دعا الراغبين للصعود إلى الخشبة وراح ينوّمهم تنويماً مغناطيسياً. ماما أيضاً لم تستطع تمالك نفسها فصعدت رغم أني تشبثت بها وحاولت منعها. كان فظيعاً وقاسياً أن ترى الناس الأحياء يتحولون فجأة أمام عينيك، إلى أناس منوَّمين يتحركون وأعينهم مغلقة. قال لماما: إن فيضاناً بدأ، وإن الماء يرتفع أكثر فأكثر في الغرفة، ـ فراحت ترفع ذيل تنورتها. فيما بعد قالت لي أنها لا تذكر شيئاً.

في مخزن الألعاب رأيت مجموعة خاصة بالألعاب السحرية. رجوت ماما أن تشتريها لي ـ قدمتها لي هدية في عيد ميلادي. كانت تلك مجموعة رائعة! كان في العلبة كل ما هو ضروري لإثارة إعجاب الجمهور. هذا تماماً ما كنت في الحقيقة أريده ـ ليس الألعاب بحد ذاتها،

بل حبّ الآخرين.

كانت في العلبة كرات صغيرة رائعة من الإسفنج، ومناديل حريرية وشرائط، وبيضة، وزهرة، وكل ذلك يبدو طبيعياً، ولكنه كان في الحقيقة خدعة! أشرطة خاصة، و«خواتم صينية»، وظفر صناعي للإبهام فيه فتيل ـ وكأن أحداً يستطيع أن يقتنع بأن إصبعي تشتعل كالشمعة.

لقد وجدت في المكتبة كتاباً مهماً عن مختلف السحَرة الكبار والمنوِّمين المغناطيسيين ومحترفي ألعاب الخفة ـ أعجبني أنه يمكنك أن تضع إنساناً في تابوت وتطمره وتهيل الأحجار على القبر، ثم يتضح للمشاهدين أن التابوت خالٍ! وأن المدفون ينتظر الجميع على المائدة في البيت!

حلمت أيضاً في أن أصبح لاعب خفة ومنوّماً مغناطيسياً، وقد أدهشني أن جدتي ليست معجبة أبداً بفكرتي الرائعة، كانت تكتفي بالنظر إلي وتقول:

ـ لعب أولاد!

كانت تريدني أن أنشغل بشيء ما يتسم بالجدية.

احتوت المجموعة السحرية بالإضافة إلى كل المعجزات أوصافاً تفصيلية حرصتُ على اتّباعها بدقة، ولكن ألعابي السحرية كانت، رغم ذلك، غبية وغير ناجحة. الأصح، هو أن كل شيء كان ينجح حين أتدرب أمام المرآة، حتى على أعقد الأشياء ـ تعلّم أداء الحركات التي تشتت الانتباه. ولكن، بقدر ما كانوا يضحكون من عدم خفتي. وقد أذهلتني في لحظة من اللحظات فكرة مريضة مفادها هو أني لم أكن في نظرهم ساحراً، بل مهرّجاً. وانتهت المسألة بكرهي لألعاب الخفة كرهاً شديداً.

ولكن، كان لي مع هذه الألعاب أمر آخر فيما بعد.

مرضت جدتي، الأصح، أنها تزحلقت فوق قطعة من الجليد قرب مركز البريد، فوقعت وانكسر حوضها. لم تقم بعد ذلك من الفراش. ظلت

شهوراً عدة، ممدّدة، عاجزة، تزداد ضعفاً. أذكر كيف كانت ماما تتحسر لأن جدتي «لم تعد من أهل الحياة». كما أذكر ذلك المشهد حين كانت ماما تمشط شعر جدتي، أما هي فكانت يداها ترتعشان، وكذلك رأسها. كانت جدتي جميلة جداً في صباها، لها ضفيرة طويلة وثخينة ثخن اليد. في يوم من الأيام قصّوا تلك الضفيرة بسبب المرض فاحتفظنا بها عندنا ككنز من كنوز الأسرة. وقد عاد شعر جدتي إلى النمو في شيخوختها.

وفي أحد الأيام عدت متأخراً جداً من المدرسة. نلت في المدرسة عدداً لا بأس به من العلامات الرديئة، فلم أرغب في العودة إلى البيت لثقتي بأني سأتعرض مرة ثانية لحفلة غسيل دماغ. تجولت في أماكن غير محددة حتى وقت متأخر، وأنا أعرف أني سأعاقب على هذا أيضاً. وهأنذا أدخل وقد أعددت نفسي لمواجهة أسوأ الأمور، لكن ماما لم تصرخ في وجهي، بل عانقتني وقبلتني. لم أفهم شيئاً، ولكني فهمت فيما بعد ـ خرج الطبيب من عند جدتي وظل طويلاً يغسل يديه بعناية فائقة، كل إصبع على حدة. تحدثت إليه ماما ثم ضغطت رأسي إلى صدرها وقالت: الجدة تحتضر الآن. وقادتني إليها لأودعها.

صارت الجدة مخيفة في حضرة الموت. كانت ممددة منبوشة الشعر، راجفة كلها، ولاسيما يداها.

لست أذكر ما الذي تحدثنا عنه، ولكنها طلبت مني فجأة أن أريها إحدى ألعاب الخفة. هززت رأسي علامة الرفض. لم أكن قادراً على فعل ذلك. لم يكن رفضي بسبب انعدام الرغبة، بل كان بسبب انعدام القدرة. ولكن شرح ذلك كان من الأمور المستحيلة.

صارت ماما تتوسل إليّ:

ـ فولودينكا، من فضلك! قد لا يتسنى للجدة أن تطلب منك أي شيء بعد اليوم. ماذا سيكلفك ذلك؟

غير أني كنت عاجزاً، انتزعت نفسي من بين يدي ماما وركضت

مبتعداً عن الجميع وأجهشت بالبكاء.

أذهلني، قبيل الدفن، هدوء يديها في التابوت. كانت ماما جالسة تمشط شعر المتوفاة.

في المقبرة دفعوني دفعاً كي أقبّل الميتة وأهيل فوقها أول حفنة تراب. قاومتُ في صمت. لم أكن خائفاً ولكني كنت مضطرباً على نحو ما.

أذكر أن فكرة خطرت في بالي، وأنا أسمع الصوت الخفيف لسقوط حفنات التراب على سطح التابوت: ماذا، لو انفتح التابوت الآن فتبين أنه فارغ وأن الجدة تنتظرنا في البيت!

دفنوها، وسوّوا الأرض فوق القبر على شكل حوض زهور. كان من المستحيل تماماً أن تكون الجدة قد تحولت إلى حوض زهور.

استمرت الجنازة طويلاً وكنت أشعر بحاجة فظيعة للذهاب إلى دورة المياه ـ ماما أدخلتني إلى برّاكة في المقبرة يتوسط ثقب أرضيتها. هناك، وأنا واقف فوق حفرة ذكّرتني بالقبر، تملكني إحساس حاد جداً بأن الجدة لا يمكن أن تنتظرنا في البيت، وأنها هناك في تابوتها تحت الأرض، لأن الموت ـ أمر حقيقي، حقيقي بقدر ما هو حقيقي هذا الثقب الذي تفوح منه رائحة النتن والجثث المتفسخة.

ترك موت الجدة في نفسي إحساساً برعبٍ طفليّ. ولكن عقلي لم يستوعب آنذاك، أني سأموت أيضاً في يوم ما. فأنا لم أخف من هذه الفكرة خوفاً حقيقياً إلا بعد ذلك الزمن بكثير.

أسمع الآن أنات الجرحى المتصاعدة من خيم المستشفى وأقول لنفسي: كم كان ذلك الموت رائعاً! ما أروع أن يعيش الإنسان حياته كلها ثم يموت بسبب الشيخوخة.

هأنتذي ترين كيف يتغير هنا تصورنا عن السعادة.

أتعرفين ما الذي خطر في بالي الآن؟ خطر في بالي أني لم أقدّم لأي

إنسان، أيَّ شيء في حياتي. أنا لا أتكلم على التفاهات، بل على الأشياء الحقيقية. الجميع قدّموا لي ـ أما أنا فلم أقدم لأحد شيئاً، لاسيما لأمي، ليس لأني لم أرغب ـ بل لأني تأخرت.

من جديد تتسلل هذه الأفكار البسيطة إلى رأسي وكأنها اكتشافات.

لقد فهمتُ أني أرغب في أن أعطي الكثير ـ الدفء، والحب، والكلمات، والرقة، وفهم الآخر، ولكن كل ذلك يمكن أن يتوقف قبل أن يبدأ، ربما غداً، أو بعد خمس دقائق، أو الآن! كم يحزنني هذا الأمر!

كفى، سأنهي الكتابة الآن. يدي تعبت، وعيناي تؤلمانني ـ أكتب لك على ضوء السراج.

حبيبتي ساشينكا، كم أتمنى أن يكون كل شيء عندك على ما يرام!

أعرف أننا سنلتقي.

●

لماذا؟

طول الوقت أطرح على نفسي هذا السؤال: لماذا؟

لماذا يجب أن نعاقَب بهذه الطريقة؟ بهذه الطريقة بالذات؟

كنت في الترامواي. ألم مفاجئ في أسفل البطن، ألم حاد، لا يطاق. انتابني خوف، وفهمت كل شيء فوراً، لكني حاولت إقناع نفسي بأن الأمر ليس كما أظن. لا أدري ما هو، ولكنه ليس ذاك. بدأ نزيف الدم.

كان عليّ أن أذهب إلى المستشفى مباشرة، ولكني ذهبت إلى البيت، إليه. جرجرت نفسي بصعوبة، ارتبك، صار يركض في الشقة وهو يدمدم:

ـ قولي، ماذا أفعل؟ قولي، ماذا أفعل؟

لم يخطر ببالي أني سأراه يوماً مذعوراً إلى هذا الحد. لم يعرف حتى كيف يستدعي الإسعاف. كان خائفاً أكثر مني. أخذت أهدئه، أقول له إن الأمر ليس مخيفاً، لكني، أنا نفسي، كنت أفهم أني قد أموت إذا لم يتوقف

نزيف الدم من الرحم، وهو لن يتوقف من تلقاء نفسه.

انتظرنا الإسعاف دهراً.

بدا بطني وكأنهم حشـوه بالحجارة وراحوا يضغطونه بملزمة. أصابع قدمي أصابها الخدر، ورشـح العرق من خلايا جسـدي كلها، جسدي كله يرتجف. بدأت أجأر، انتابتني هستيريا من شدة الألم والحزن، أما هو فراح يشرب الكونياك كأساً بعد كأس محاولاً تهدئة نفسه. الألم جهنمي، الدنيا تظلم أمام عيني، الغرفة تنزلق، مرات عدة شارفت على الإغماء.

في المشفى وضعوني مباشرة على الطاولة، خدروني، وجرّفوا ما في الرحم. خرج طفلي مني، كيف؟ لا أعرف، لم ألحظ شـيئاً. النزف مستمر، الدم يخرج قطعاً متخثرة.

في داخلي كل شيء ممزق ـ الروح والأحشاء.

جسـدي صار أصغـر، يبـدو لي أنـي أرتطـم بكل شـيء فـي العالـم: بالبـاب، بالنـاس، بالأصـوات، بالروائح. كل شـيء صار صاخبـاً، ضئيلاً، مرهقاً، غير ضروري.

كيـف حـدث ذلـك؟ منـذ أيـام فقـط، وقفـت أمـام واجهـة مخـزن متخصص بحاجات الأطفال، ورحت أتأمل مندهشـة، كثرة ما يحتاجه هذا الصغير، وهأنذي وحيدة الآن.

حين علمت ماما بالأمر قالت:

ـ ابكي! هذا ما تحتاجينه الآن، ـ البكاء مفيد.

أما يانكا فقالت:

ـ لقد كان الإجهاض أفضل لك من هذا العذاب.

استأجرنا شـقة فيها غرفة أطفال خصصناها للطفل القادم ـ أما الآن، فلم يبق إلاّ أن تنام فيها سونيتشكا.

بقيت في الفراش بعد المستشفى، فسألتني سونيتشكا كالعادة:

ـ هه، كيف حال أخي هناك؟

ابتسمت، وأجبتها:

ـ جيدة.

ـ ولماذا أنت في الفراش؟

ـ نزلة برد خفيفة.

استدرت وتظاهرت بالسعال، غارسة وجهي في الوسادة كي لا تلاحظ أني عدت للبكاء.

البارحة أدخلتها إلى الحمام ورحت أخلع عنها ملابسها. كانت تحاول منعي، وتتذمر، الأميرة العابسة. حاولت هز مشاعرها، فشرعت ألاعبها بملاقط الغسيل، أقرصها بها. لم أحسب الأمر جيداً، فكدت أخدش جلدها. أعطيتها ملقطاً:

ـ هاك! اقرصيني أنت أيضاً!

أخذته، وقرصتني به قرصة حقيقية، آلمتني.

أغسل جسدها، تبكي زاعمة أن الصابون دخل عينيها، وأن ماما تفعل ذلك كله بشكل مختلف.

بعد ذلك جففتها بالمنشفة، كان شعرها النظيف يزقزق بصوت عال. ماماي كانت تقول لي دائماً حين كنت طفلة، أنّ علينا أن نغسل شعرنا حتى يزقزق.

سيكون لي في يوم من الأيام، طفل، سيكون حتماً، حينها سأغسل له شعره هكذا ـ حتى يزقزق.

لم أفهم، إلا بعد حين، لماذا أصرّت سونيا على عدم البقاء عندنا في الليل. إنها لاتزال تتبول في السرير. لذا يجب النهوض من الفراش ليلاً وفحصه: أهو جاف أم مبتل، وتغيير غطائه إذا كان مبتلاً. كانت سونيا تعرف ذلك كله وتخجل منه خجلاً شديداً.

اليوم أخذتها، بدلاً منه، إلى درس الرقص.

بدّلت ملابسها، وفجأة دسّت تحت أنفي مباشرة حذاء الباليه:

ـ شمّي!

أخذت الحذاء ودسسته تحت أنفها:

ـ شمّيه أنت!

نظرت إليّ بعينين غاضبتين.

خرجت أتجول في وقت الدرس. رحت أنظر إلى سكة الترامواي الممتدة نحو ذلك المسار الخفي الذي يستند إليه العالم. وفجأة رأيت بوضوح شديد أن خطوطاً تمتد من كل الأشياء نحو نقطة الالتقاء تلك، وكانها خيوط، بل كأنها، بتعبير أدق، قطع مطاط مشدودة إلى أقصى حد. ها هي ذي الأشياء تبعثرت كلها ـ الأعمدة، وكثبان الثلج، والشجيرات، والترامواي وأنا، ولكن قطع المطاط لم تفلتها، أمسكتها وهي الآن تجرّها إلى حيث كانت.

■

ساشا! ساشينكا!

يا رائعتي! يا حبيبتي المجيدة!

أعرف أني لست بقربك، وأنك في حال صعبة. أتساءل طول الوقت كيف حالك هناك؟ ماذا حلّ بك؟ ماذا تفعلين الآن؟ بمَ تفكرين؟ ما الذي يقلقك؟ كم أتمنى أن أقترب منك في هذه اللحظة، أحنو عليك، أعانقك، أضغط رأسك على صدري. تماسكي أرجوك! يجب أن تصمدي!

أنا سأعود، وسترين، كل شيء سيكون على ما يرام!

نحن افترقنا منذ زمن قريب جداً، ولكن هذا الزمن امتد أعواماً.

الزمن، ولاسيما بعد أن ساقني القدر إلى هذا المكان، يمضي سريعاً وبشكل غير ملحوظ، وتارة، على عكس ذلك، يتوقف ولا يبرح مكانه، حتى إن المرء لا يدرك جيداً ـ هل الزمن موجود أصلاً؟

المرجح أنه موجود ـ يبدو لي، بعد الأحداث كلها، أن الزمن أصبح

غير مرئي، ولكن حين أتذكر اليوم الذي انقطعت فيه عنك، أستنتج أن الكثير منه قد مرّ، الكثير جداً.

أنت لا تستطيعين حتى أن تتصوري مقدار ما تقدمينه لي من عون، لمجرد كوني أستطيع أن أكتب لك! إن هذا ينقذني. لا تبتسمي ـ إنه ينقذني فعلاً!

ماذا كتبت؟! ابتسمي، ساشينكا، رائعتي، ابتسمي!

استيقظت باكراً ـ هذا أفضل الأوقات هنا. الفجر بزغ منذ برهة، الجو رطيب، ونسيم الصباح منعش. العيش هنا لا يكون ممكناً إلا في هذه الساعات. أستمتع بالبرودة المنعشة، وأحس سلفاً بالخوف من القيظ الذي تنذر به هذه الشمس الكبيرة الحمراء التي تنسلّ من الضباب فوق حقول الذرة. سريعاً ستصبح الشمس ذهبية، ثم بيضاء. سيتبخر الضباب من فوق الحقول، ويهدأ نسيم الصباح، ويبدأ الجحيم من جديد. الحرّ هنا يمكن أن يشوي المخ بالمعنى الحرفي للكلمة ـ كثيرون يتساقطون مصابين بضربة الشمس.

أرغب الآن في تدوين الانطباعات التي راكمتها في الأيام الماضية. سامحيني يا حلوتي، إذا اضطررت لكتابة أشياء غير سارّة.

لن أكتب بحسب أهمية الأحداث التي وقعت، بل بحسب ما يخطر في بالي أولاً.

أمس سكر أحد الضباط، فسيسلافينسكي، شرب الخانشين، وراح يتحرش بالجميع حاملاً منظاره المهشم. في الواقع، المنظار هو سبب سكره ـ رصاصة أصابت المنظار المتدلي على صدره، فنجا إلا من كدمة طفيفة. كان يُري الجميع المنظار المهشم والكدمة. كنت في الماضي أعتقد أن هذه المصادفات السعيدة لا تحدث إلا في الكتب. لقد فقد السيطرة على نفسه فقداً تاماً، بكى كطفل صغير، وراح يشرب ويشرب. بدا ذلك

غريباً، لأنه كان، قبل الحادث، يوحي بأنه إنسان صلب، بارد الأعصاب. في صباح اليوم التالي وجدوه غارقاً في البركة. هنا، قرب البيت المدمّر، بركة ماء صغيرة، يستحيل أن يغرق فيها حتى الطفل. أظنه انزلق من دون قصد، فقد كان فاقداً للوعي تماماً. حين أخرجناه من البركة، صارت جداول من سائل قذر تسيل من فمه وأنفه. حاولنا إنقاذه بالتنفس الاصطناعي ـ لا فائدة. دسّ معاون الطبيب أصابعه عميقاً في فمه ثم أخرجها ملوثة بمادة لزجة.

ما أغبى الذي حدث!

أهله سيتسلّمون إخطاراً بموته ميتة بطولية، على كل حال.

ولكن، ما الذي يمكن أن نكتبه لهم غير هذا؟ الحقيقة؟

الحقيقة هي أننا نمنى بخسائر كل يوم، وأنت ترين أن القتلى بعيدون عن أن يكونوا جميعاً من المحاربين. معظمهم ـ يموت نتيجة حادث مؤسف أو ضربة شمس. الحرّ مازال على حاله، لا يطاق.

ليس البشر وحدهم من يصابون. أول أمس حدث أمام عيني ما يلي: تحركت البطارية الثانية نحو المربض: الطريق تنحدر فوق تلة صغيرة والخيول تسير عدواً. وفجأة، وقعت فرس يمتطيها جندي خيّال. استطاع الجندي، لحسن الحظ، أن يقفز جانباً، أما الفرس فداس فوقها مدفع فحطّم قائمتيها الخلفيتين. صهلت شاكية، فأطلقوا عليها رصاصة الرحمة.

هاك نبأ جيداً ـ لقد عادت بقايا الحملة الأدميرال سيمور. كنا نعدّهم موتى. لم يستطيعوا الوصول إلى بكين، فقد كانت السكة مخرّبة. وكانوا، في الوقت نفسه، عاجزين عن ترك عدد كافٍ من الجنود لحماية المحطات التي يجتازونها، لذا كان الجيش الصيني يحتلها، فلم يتبق لهم سوى خوض المعارك لشق طريق العودة. عادوا دون تحقيق شيء، بل الأدق، عادوا بمئتي جريح. أما القتلى، فكانوا يدفنونهم في المكان كلما سمحت لهم الظروف.

لقد شارك في هذه الحملة سريّتان من البحارة الروس بقيادة النقيب شاغين. لم يعد إلا نصفهم. وقد اضطر بحارتنا لقضاء أسبوعين في ظروف غاية في الصعوبة في معارك متواصلة. أنا سمعت شاغين يروي للضباط كيف اضطروا مرة للانسحاب مؤقتاً تاركين قسماً من الجرحى في مبنى المحطة المهدم، وحين استعادوا المحطة وجدوا الجرحى ممزّقين أشلاء. القسوة هنا غير معقولة. جماعتنا أيضاً لم يكونوا يأخذون أسرى. لقد حاول شاغين منع مرؤوسيه من تعذيب الأسرى، ولكن محاولاته لم تكن ناجحة دائماً. الجرحى العاجزون هم من كانوا يقعون في الأسر. إن الناس ينقلبون إلى وحوش حين يرون ما يفعله الأعداء بزملائهم.

موقفنا هنا مازال على حاله تقريباً. معارك صغيرة تنشب بين حين وآخر قرب المحطة، وفي ضواحي المدينة، وأبعد من ذلك، قرب قناة لوتايسكي. البارحة كتبت لك عن قناة تخترق مدينة تيانتسزين، جرى شقّها قبل ألف عام، وتمتد عبر الصين كلها.

الطرفان الآن في حالة ترقّب، ولكن القصف متواصل باستمرار. وقد تبيّن أن الصينيين دقيقون جداً في تنظيم الوقت. يبدأ قصف المجمعات في الساعة الثالثة ظهراً ويستمر عادة حتى الثامنة مساء، ثم يعود في الثانية ليلاً ويستمر حتى العاشرة صباحاً.

ساشينكا، صرتُ، من كثرة استماعي إلى هذا الهزيم المتواصل، أميّز صوت قذائف مدافعنا من صوت قذائف مدافع الصينيين، وأعرف حتى عيارها.

الصينييون يقصفون من الأبراج بمدافع من عيار ست بوصات ورشاشات الهوشكيز السريعة الطلقات. ستقولين، طبعاً: ومن أين لك الخبرة بالعيارات! من المفهوم أني لا أملك أية خبرة! ولكن الآذان تعتاد، هذا كل ما في الأمر. بالإضافة إلى ذلك، أنا هنا أتغير. أصبح شخصاً آخر. هنا لا يستطيع المرء ألاّ يتغير. وهذا هو ما أردته بالضبط.

البارحة اضطررت إلى التوقف عن الكتابة. أكتب إليك في اليوم التالي.

أمس كنت في مهمة، سافرت إلى المدينة وكنت فرحاً بذلك، إنه أفضل من البقاء في المعسكر طول الوقت. ذلك، على الأقل، نوع من التغيير، على الرغم من وجود خطر الوقوع تحت القصف. غير أني أسارع، يا ساشينكا، فأخبرك، بأنه في أثناء وجودي هناك، لم تسقط أية قذيفة على تلك الأحياء. لا تقلقي!

تعرفين! في الطريق إلى المدينة مستنقع صغير. هنا، عموماً، خزانات مياه كثيرة، ولكنها تبدو ميتة بسبب الجفاف، وهي الآن تتفسخ من القيظ. وقد رأيت كيف رسمت الحيّات حرف S مرّات عدة. هذه هي المرة الأولى التي تقع فيها عيناي على تلك الكائنات المقززة، التي يتحدثون عنها كثيراً هنا.

مدينة تيانتسزين، والوادي كله، يقسمها خط عريض أصفر ـ هو بيي خو ـ المدينة تبدو جميلة جداً مادمت لا ترين آثار الدمار كلها.

المحطة والأبنية التابعة لها في حالة مخيفة ـ الرصيف حفّرته القنابل، أكوام من الأوساخ والقرميد المهشم. أسقف المستودعات الحديدية، تبدو وكأنها مصنوعة من دانتيلا معدنية ـ هكذا ثقبتها طلقات الرصاص والشظايا. والعربات المحترقة مازالت في أماكنها.

مهندسونا دعّموا الجسر بقميص معدني جديد. الكمية الضخمة من الجثث التي تراكمت هنا منذ يومين، لم تعد موجودة، ولكن الجثث، مع ذلك مازالت تعوم باتجاه المكان. وقد رأيت جنوداً يحاولون بعصوات طويلة من القصب، دفع شيء ما مزرقّ، منتفخ، بين القوارب.

كنتُ هناك برفقة ضابط من فصيل أنيسيموف كنيته غريبة ـ أوبري، كان قد وصل إلى المدينة قبل أن تدمّر، وهو الآن يتحسّر ناظراً إلى ما آلت إليه حال تيانتسزين في زمن الحصار. أوبري مصاب في أذنه، لا يسمع

جيداً، لذا يجب على المرء أن يصرخ حين يخاطبه.

أراني الرجل مواقع سكن الأجانب. بعد الجسر مباشرة يقع المجمع الإنكليزي. الشارع الرئيسي فيه اسمه فيكتوريا ـ رود. وهو يمتد بمحاذاة النهر ويتجه مباشرة نحو مساكن الصينيين، لذا كانت القذائف تنطلق بحرّية على طول الطريق الذي امتلأ الآن بالحفر.

الجدران كلها خدشتها الشظايا، وبيوت كثيرة تهدمت ـ لم يبق منها غير الركام المحترق والنوافذ المحطمة. على تقاطعات الطرق كلها، تنتشر المتاريس المشيدة من بالات الصوف وأعمدة المصابيح والطوب. قطع الأثاث والأوساخ والقرميد المهشم في كل مكان. في الشوارع هدوء، وهي خالية إلاّ من حرّاس من مختلف القوميات يقفون أمام البيوت التي تحولت إلى إدارات، ومشافٍ ميدانية، ومستودعات.

تصوري! مازالت على الأعمدة في الشوارع إعلانات معلقة تدعو لحضور عرض للسيرك. لقد ملأت فرقة دولية المدينة قبل الحصار بالملصقات، ولكن، بدلاً من جمع المال من الجمهور، اضطر الممثلون إلى الاكتفاء بتمكنهم من الفرار على متن آخر قطار انطلق إلى تاكو.

دخلت برفقة أوبري إلى غوردون ـ هول، مبنى بلدية المجمع الإنكليزي، فأخبرني أن النساء والأطفال لجؤوا إلى أقبية هذا المبنى زمن الحصار، وأنهم كانوا يحضرون لهم الطعام في فندق "آستور ـ هاوس" المجاور. هناك، في أقبية غوردون ـ هول أمضى القنصل الروسي شويسكي وأسرته زمن الحصار. وقد قُتل ابنه ذو السبع سنوات تحت القصف.

الفندق تضرر أيضاً، غير أن روعة هذا البناء بشرفاته وباحاته وبروجه، مازالت بادية حتى الآن. النوافذ الكبيرة الجميلة ذات التيجان مسدودة الآن بالأكياس. وقد قال لي أوبري أن في البناء حمامات من المرمر، وأجراساً كهربائية، وفخامة، وكل ما يحقق الراحة للساكنين.

ولكن كل ذلك كان في الماضي ـ فمنذ بداية الحصار انقطعت الكهرباء وانقطع الماء عن كل المجمعات.

عموماً، مازال يبدو حتى الآن، كم كانت هذه المدينة جميلة وأنيقة أيضاً! ومازالت تبدو علائم الفخامة التي أمّنها الأوروبيون لأنفسهم! الكورنيش الجميل، والشوارع العريضة التي لا اعوجاج فيها، وعلى جوانبها أشجار الحور والأكاسيا، والحدائق، ومتنزه فيكتوريا الخلاب، والبيوت الأنيقة المبنية على النمط الإنكليزي، والنوادي، والبريد، والبرق، والهاتف، والمجارير والإنارة. وعدد من المخازن الكبيرة المتلألئة، التي نُهبت واحترقت.

مخيفٌ الآن منظر هذه المدينة الأوروبية في قلب آسيا. ما من بناء، أو قصر لم يحترق أو يصب بقذيفة. لم يكن الصينيون الوحيدين الذين قاموا بالتدمير. لقد أراني أوبري في أطراف المجمع الفرنسي حيّاً كبيراً مدمّراً تماماً وهو ملاصق للمستشفى ويسكنه المسيحيون الصينيون، ـ لقد أمر القنصل الفرنسي بحرق هذا الحي حرقاً تاماً لأنه خاف من قيام الجانب الصيني من المدينة بالهجوم على الحي الفرنسي وحرقه.

هناك، على طول فرسخين، لا ترى غير الجدران المحترقة، والمداخن التي تنتصب وحيدة وسط أكوام من الحطام والفحم. بيوت الصينيين التي نجت من الحريق منهوبة، وفي باحات الدور تناثرت أثواب من الحرير ثمينة ورخيصة، وقطع أثاث مختلفة، وأوانٍ، وخردة، ومطرزات صينية فخمة، ومزهريات فخارية، ولوحات في أطر رائعة، وساعات، وكل ذلك محطّم ومسحوق بالأقدام.

جميع البيوت المهجورة يستخدمها الآن جنود الأمم المتحالفة. ومن المؤسف أن جنود الفصائل كلها من دون استثناء نبشوا هذه الأكوام من الخيرات والأوساخ. لم تكن في الحي الصيني أية رقابة، بل لم تكن هناك إمكانية أو حاجة لوجودها من أجل حماية الخيرات الصينية المتناثرة

في باحات الدور والشوارع.

أراني أوبري المكان الذي انفجرت فيه القنبلة التي أدت إلى إصابته. أما زميله الذي كان واقفاً إلى جانبه وتلقّى بجسده الموجة الضاربة، ففقد ساقيه ومات بعد بضع ساعات عانى فيها آلاماً فظيعة.

فوج السيباهيين الهنود أقام في معسكر في حديقة النادي الدولي ـ حين مررنا بالقرب منهم كانوا يشعلون النيران كي يعدّوا طعامهم، وهم يعزفون على مزاميرهم وآلاتهم الموسيقية الأخرى. وفي هذا الوقت كانت تجري في الشوارع جداول من المخلفات البشرية الكريهة الرائحة، ولكن هذا لم يكن يزعج الجنود ذوي العمائم، في حين أننا، أنا وأوبري، اضطررنا إلى سدّ أنفينا حتى نتمكن من اجتياز ذلك المكان.

قبض الإنكليز بحضورنا على جاسوس صيني. كان فتى صغير السن. أخذه السيباهيون من خيمة القيادة ومضوا به إلى الساحة أمام «آستور ـ هاوس»، لإعدامه... تكلمنا مع الضابط الإنكليزي فقال إنهم رأوا كيف كان هذا الفتى يلوّح لأحدهم بمنديل من فوق أحد الأسطح. الصينيون يعرفون جيداً كل ما يجري في المجمعات.

كان الفتى نحيلاً جداً ـ جلد وعظم. وهو حليق الرأس تماماً. حين مرّ بالقرب مني تلاقت نظراتنا. كانت عيناه ممتلئتين رعباً ويأساً. وكان يغص باستمرار، ربما بسبب الخوف. أشحت بوجهي سريعاً، لم أستطع الاحتمال. مازلت حتى الآن أشعر بتلك النظرة التي ألقاها عليّ.

ساشينكا، لقد ظننت أنهم سيقتلونه رمياً بالرصاص، ولكن السيباهيين قطعوا رأسه. ومما زاد الطين بلة، حضور مصور، لعله أمريكي. هناك، إذن، من سيرى هذه الصور ويتأملها. وكان السيباهيون يتخذون الأوضاع المناسبة للتصوير ويبتسمون في اعتزاز.

حاولت أن أرغم نفسي على رؤية ذلك المشهد، ولكني لم أستطع، ففي اللحظة الحاسمة أغلقت عيني، سمعت الصوت فقط، أتدرين؟

إنه يشبه صوت مقص جزّ العشب في الحدائق. حين فتحت عيني، رأيت رأسه على الأرض. مرات كثيرة رأيت في لوحات مختلفة رؤوساً مقطوعة، على صينية مثلاً، هذا الموضوع يحبه الفنانون ـ ولكنْ، في هذه اللوحات معنى سامٍ وجميل إضافة إلى ما فيها من فظاعة. أما هنا، فأمامي على الأرض شيء صغير مضرّج بدم أسود، وممرغ بالرمل. فم معوجّ ولسان معضوض، وعينان جاحظتان ـ الجسد بلا رأس، شيء لا يطاق، جسد مبتور ـ وجدول قاتم اللون يسيل من رقبة هذا الجسد.

ما أغرب أن يشاهد المرء هذا كله ولا يجن!

بل، إن الأغرب من ذلك أننا استطعنا أن نأكل في اليوم نفسه، وأن نتكلم على شيء آخر إنساني، بعيد، لا ينتمي إلى هذا المكان. لقد حدّثت اليوم، مثلاً، غلازيناب بالذي رأيته في الدفن، ولم يكن ذلك أكثر من سبب للحديث عن تناسخ الأرواح.

صعب جداً أن يكون إعدام أحدهم مدهشاً هنا، فكلٌّ منا يدرك سبب حدوث ذلك! إننا حين نقتلهم ننقذ أرواحنا. هذا هو السبب بكل بساطة. كيريل يؤمن بتناسخ الأرواح بعد الموت. هو، على الأقل، يعترف بذلك.

سألته، إذا كان الأمر حقيقياً، فلماذا لا يدهشنا عدم وجود نابليون أو مارك أفريلي أو على أقل تقدير ذلك الصيني المقتول بيننا، من جديد، أو ذينك المدعوين دوبتشينسكي ـ بوبتشينسكي اللذين يخافان الموت أكثر من أي شيء آخر؟ فأجابني قائلاً: نحن، مثلاً، لا ندهش حين نرى أنفسنا في المنام في ظروف مستحيلة تماماً وفي رفقة أناس ماتوا منذ زمن بعيد.

ـ لقد عشنا من قبل في عالم آخر وفي زمن آخر، ـ قال غلازيناب، ـ ثم استيقظنا هنا لا يدهشنا شيء، بل نتقبل الأمور بوصفها حقائق، ثم، سنعود، في مكان ما، إلى الاستيقاظ من جديد.

إن هذا الغلازيناب غير معقول على كل حال.

هأنذا أضحك منه فأقول: وذلك الفتى الصيني ـ إذا لم تكن روحه،

فعلى الأقل، رأسه الذي وَجَد عندي مأواه المؤقت. لست بحاجة إلى إغلاق عيني، كي أرى هناك، على الأرض، على الطين الذي داسته الأقدام، ـ رأساً مقطوعة مضرجة بالدم والرمل، وبياض عين بلا حدقة، ولساناً معضوضاً بني اللون.

سامحيني يا حبيبتي، سامحيني!

لن أشطب شيئاً من هذه السطور.

أنت تستطيعين، ببساطة، أن تقفزي فوقها، ألا تقرئيها.

كم أتمنى لو أستطيع أن أكتب لك عن الأشياء الجميلة فقط!

حبيبتي ساشينكا، لقد اضطررت من جديد إلى التوقف عن الكتابة لوقت قصير، ولكني عدت إليها الآن: هل تعرفين لماذا توقفت؟ الأمر غبي جداً، غير أني، مع ذلك سأشرحه، فأنا أريد التحدث إليك عن كل شيء! كان القوزاقيون والمدفعيون ينظفون الخيول في مرابطها، فنشب بينهم شجار. الدنيا هادئة الآن، نسيم يهب من تلك الجهة، محملاً برائحة الخيول، عرقها، بولها، هذا كله، في الواقع، روائح إنسانية لذيذة! الناس هنا، هم من تنبعث منهم الروائح الحيوانية المقززة، أما مِنَ الحيوانات ـ فعلى العكس من ذلك. وإذن، كان هؤلاء يتبادلون شتّى الشتائم القذرة ويصهلون بصوت عالٍ فظ. أردت أن أكتب لك تحت وطأة شتائمهم ـ ولكني لم أفعل. أحسست أن كلماتهم يمكن أن تلوّث هذه الرسالة بتلك الكلمات التي يتلفظون بها.

تمشّيت قليلاً. نظرت إلى الجياد: كانت تقف في أماكنها لطيفة جداً ونظيفة، تنفخ عليّ رائحتها الحيوانية اللذيذة. تحرك عضلاتها، محاولة طرد الذباب، تشخر، وتهز رؤوسها، تنظر بأطراف عيونها الحزينة الوادعة. كم هي وديعة هذه الخيول، وكم هو مريح وجودي بقربها!

أتابع الكتابة الآن، بعد أن تفرّق الجنود. عن أي شيء سأكتب؟

اليوم تحدثت لوسي عن نجاتها بأعجوبة حين دمّروا في الربيع

الماضي البعثة الكاثوليكية في مكانٍ ما شمال تيانتسزين حيث أقامت هناك ما يناهز السنة. على العموم، التاريخ، كما تجلّى في الصين، يبقى أحجية بالنسبة إلى الجميع، ولكن كيريل قال لي بسِرّية شديدة، نقلاً عن لسانها، أنها جاءت إلى الصين حباً ـ تركت كل شيء في وطنها، ورحلت إلى حافة العالم لتلحق بحبيبها، ولكنه، كما اتضح فيما بعد، كان سافلاً ـ قصة عادية ـ ولم تستطع العودة بعدها إلى الوطن، فعملت في البعثة الكاثوليكية. أعود الآن إلى حكايتها.

ما أقسى ما عانته هذه المرأة الصغيرة الحجم!

اندفع الجمع إلى داخل موقع البعثة دون أن يستطيع أي من أفرادها الهرب، ووجد الفلاحون الثائرون في خزانة المطبخ قطرميزات زجاجية فيها بصل مخلل حباته صغيرة الحجم. راحوا يُرون ذلك إلى أهل القرية جميعاً بوصفه برهاناً على حقد الأوروبيين وغدرهم ـ لقد ظنوا أن البصيلات هي أعين لأناس صينيين. وكان من المستحيل إيقافهم بعد ذلك، فبدأت المذبحة.

اقتلعوا عيني القس الكاثوليكي بالشوكة، وقطعوا رأس مدبرة منزله ـ كانت تمسك بيد ابنها فقتلوه بعدها على الفور. تروي لوسي ذلك كله من دون انفعال في صوتها الذي كان جاف النغمة، وكأن ذلك لم يَجرِ بحضورها، أو كأنها، هي نفسها، ماتت، والحديث يدور عن معاناة امرأة أخرى.

كان لدى لوسي مسدس صغير، ولكنها ظلت مترددة في استخدامه. تقول إنها أرادت في البداية أن تطلق النارعلى المهاجمين، ولكنها لم تستطع أن تسدد سلاحها نحو شخص بعينه، ثم قررت الانتحار كي لا تقع في أيديهم، ولكنها، بعد أن رأت ما فعله هؤلاء بالناس القريبين منها، بدأت تطلق عليهم النار. قالت أن رغبة وحيدة تملّكتها، هي قتل أكبر عدد منهم.

لقد بقيت حيةً بأعجوبة ـ أغلقت على نفسها باب الحظيرة وراحت تطلق النار، قتلت عدداً منهم، قبل أن ينقذها فصيل من الجيش الصيني النظامي ـ آنذاك، كانت الحكومة مستمرة في محاربة سعار الإيخيتوانيين، بل إن الحاكم المحلي لمقاطعة تشجي لي رصد جوائز مالية لمن يلقون القبض على المتمردين.

ظَلّ الجميع برهة من الوقت صامتين بعد أن أنهت روايتها. أما أنا فلم أجرؤ على النظر إليها ـ رحت أنظر إلى يديها. لقد أدهشني أن تكون هاتان اليدان اللتان تعطفان وتحنوان وتداويان، ـ قاتلتين.

هأنذا أخوض الحرب منذ مدة، ولكني لم أخض تجربتها الأساسية بعد، أما هذه المرأة الرقيقة ذات اليدين الحانيتين فقد خاضتها.

قالت لنا لوسي بعد ذلك أنها مستعدة لقتل المزيد منهم. لقد كانت تكرههم.

ساشينكا، كم يبدو هذا متوحشاً، غير مفهوم، ولا يمكن استيعابه.

إني أتألم كثيراً لأجلها، وقد بدأت أكرههم أيضاً.

حين نبقى وحدنا، يتكلم كيريل عليها برقة كبيرة. أتدرين؟ لقد قال لي أنه أحب في بيتربورغ امرأة، ولكنها سخرت من مشاعره، وهجرته من أجل آخر عديم القيمة. وها هو الآن، كما يبدو له، قد وجد ما هو حقيقي في الحياة.

ساشينكا، جميل جداً أن يراقب المرء عاطفتهما التي تولد على مرأى من الجميع ـ في قلب الدم والموت والجراح، والألم والقيح والقذارة. الجميع يلاحظ كيف ينشدّ أحدهما إلى الآخر، وينظرون إليهما مبتسمين. إنهم يحسدونهما طبعاً. لا، هذا تعبير خاطئ، إنهم يغبطونهما. ففي ظل طغيان هذه الوحشية في كل مكان، وطغيان القسوة ـ يصبح مبهجاً جداً أن تظل الرقة حية لو حتى بين شخصين فقط.

أظن أنهم ينظرون إليهما ويتذكرون أحباءهم. ساشينكا، يا حبيبتي

البعيدة! أنت الآن قريبة مني جداً، حتى لكأنك تقفين إلى جانبي، تنظرين من فوق كتفي إلى سطوري المتعرجة.

أقبلك برقة شديدة.

تصبحين على خير يا حبيبتي!

أنا وأنت كلٌّ واحدٌ منذ زمن بعيد. أنت ـ أنا، وأنا ـ أنت، ما الذي يمكن أن يفرّقنا؟ ما من شيء يستطيع أن يفرّقنا.

●

في الساق ـ مملكة نمل. بدأ النزيف.

منذ الصباح هطل مَطَران وطالب.

زجاجية، قصديرية، خشبية.

الأيام زلقة، تتراكض كالحرادين، تحاول الإمساك بها ـ لا يبقى في يدك غير الذيل ـ هذا السطر.

جرس. فرصة. أصوات أطفال في باحة المدرسة.

فكّرت فجأة ـ هذه الأصوات الطفلية في الفُرَص ستبقى كما هي بالضبط بعد مئة عام، بل بعد مئتين.

دونكا تخرمش أرضية الغرفة بأظافرها. وضعت قائمتيها الأماميتين على ركبتي، ونظرت في عيني نظرة رجاء، تدعوني للنزهة.

لقد علمتُ أن راقصات الباليه يصببن في كعب حذاء الباليه ماء دافئاً كي تصبح القدم أكثر ثباتاً فيه.

أخرُجُ مع دونكا للنزهة فألتقي مرات عدّة مع معلمة باليه سونيتشكا في الحديقة. هي أيضاً تقتني أُسرة كلبية، حجم الكلب فيها لا يتجاوز حجم الحذاء. غير أن عدم التناسب بين أحجام الكلاب لا يمنعها من شمّ بعضها بعضاً تحت الذيل.

حدثتني عن الباليه. لقد وقعت على المسرح وهي تؤدي رقصة

زوجية ـ كان ذلك نتيجة خطأ الشريك. هي تكرهه حتى اليوم. كان يحب أن يقول على المسرح شيئاً ما غبياً، مطبقاً أسنانه، محافظاً على جمود وجهه، وذلك كي يضحكها.

في البداية، رفضوا قبولها في الباليه، زاعمين أن سبب ذلك هو تسطُّح قدمها، ولكن السبب الحقيقي لرفضهم كان كبر نهديها اللذين بدآ في البروز.

مدربتها في صف الرقص قالت لها: تخيلي وجود قطعة خمس كوبيكات بين إليتيك واضغطيها طول وقت الدرس كيلا تسقط!

إنها تعيش مغامرة غرامية مع الطبيب الرياضي الذي يعالج الراقصين. هو يعدها دائماً بترك زوجته ولكنه لا يستطيع ـ لأنها مريضة، ومن أجل الأطفال، وما شابه ذلك. القصة معروفة. ولكي تتخلص من الوحدة اقتنت كلباً.

مقاومة القماش هي الجاذبية الأرضية بالنسبة لراقص الباليه.

لقد أرادت كثيراً في صغرها أن تتزلج على الجليد ـ ولكنها منعت نفسها من التزلج على الجليد أو الثلج ـ كانت تخاف أن تؤذي ساقيها.

كانت تقول: إن لدى سونيتشكا موهبة رقص الباليه، ولكنها كانت تحذّر:

ـ بنات الباليه لسن مثقفات ـ لا وقت لديهن للقراءة.

وكانت تقول أيضاً: حين تصعدين على الخشبة يبدو الناس كدمى مرصوفة ـ عليك أن تجعليهم حقيقيين ـ عاشقين لك.

في العادة، كان هو يخرج مع دونكا للنزهة. وقد قالت لي ماما مرات عدة أنها كانت تراه دائماً مع راقصة الباليه هذه.

ـ لا تكوني غبية! راقبيه! يجب أن تصارع المرأة من أجل زوجها!

مسكينة ماما. صار لي الآن بيتي، وهي، مع ذلك، تستمر في ملاحقتي بتعليماتها ونصائحها ولومها. هي وحيدة، وأنا أشفق عليها. بعد

أن تركها أبي تحوّلت باتجاهي. بتّ أخاف من زياراتها النادرة. يجب عليّ من جديد أن أسوّغ تصرفاتي وأشرحها. هي ترى أن كل ما أفعله لا يتم كما يجب، وأن بيتي وسخ وغير مرتب، بل إني، عموماً، بنت عاقة.

إنها تقوم بتربيتي دائماً. اشتريت معطفاً مطرياً، أريتها إياه ـ كالعادة: اللون ليس مناسباً، والمقاس ليس مناسباً، لقد بعثرت النقود في الهواء. إذا لم أوافقها في رأيها، فهذا يعني أني لا أحبها. تحمُّلها أمر لا يطاق، ولكن الإشفاق عليها أمر واجب.

ماما تكرر دائماً أنها تريد لي السعادة، وأن تكون علاقتي به جيدة دائماً، ولكنها، في واقع الأمر، تريد أن أعود إليها وأصير بنتاً صغيرة مرة ثانية.

هو صاحب وسواس فظيع، يأخذ دليلي الطبي فيجد أنه يعاني من كل الأمراض ما عدا النسائية. ولكنه، في الحقيقة، يخاف أن يكون قد ورث المرض الذي عانى منه أبوه ـ لقد أصيب الأب في الكبر بمرض الخرف.

كان أحيانا، يبدأ الحديث عن نفسه فجأة. أبوه كان أستاذاً جامعياً، أقام علاقة غرامية مع طالبته. أراد الابن أن يري الأب حقيقة هذه البنت، ولكي يبرهن له أنها لا تحبه، ضاجعها. الأب لم يستطع أن يغفر له ذلك. وحين أقام الابن أول معرض له، قال الأب بشأنه كلاماً مدمّراً أدى إلى أن يكفّ كل منهما عن التحدث إلى الآخر. مات الأب ميتة فظيعة ـ عاد شتاءً في وقت متأخر من الليل فنهبوا ما عنده وحطموا جمجمته.

إنه الآن يعاني لأن أباه مات آنذاك دون أن يقول له، هو ابنه، لو مرة واحدة: أنا أحبك يا أبي.

قال مبتسماً:

ـ كنت ألومه آنذاك لأنه أراد أن يترك أمي من أجل امرأة صبية. وأنا الآن أقوم بالشيء نفسه تماماً. لقد أردت أن أبرهن لأبي شيئاً ما، ولكن

الذي حدث هو أنه برهن لي من هناك عكس ذلك. غريب جداً أن أكون قد تزوجت آدا حين كنت أنت ما تزالين في مكان ما تصنعين الفطائر من الرمل.

كان ينسى أحياناً فيناديني:

ـ آدا!

هو لم يكن يسمع حتى نفسه.

أجيبه:

ـ من تنادي؟

ـ أناديك أنت! ما من أحد آخر أناديه.

ولكنه يقول مع ذلك:

ـ أتفهمين يا آدا ـ كان ذلك خطأ فادحاً وقد صححته الآن. قدري ـ هو أنت.

إنه يقول ذلك عن امرأة عاش معها ثمانمئة سنة. لقد كان يقول:

ـ ماذا تنتظرين؟ أن تتحرر ذاتي منها فوراً؟ نحن عشنا معاً ثمانمئة سنة.

وقد حدّث نفسه عنها ذات مرة فقال: لقد كانت عيشتي معها وحدة من نوع مختلف.

وقال أيضاً عن آدا: في البداية أردت أن أكشف لها علاقاتي النسوية، كنا متفقين على الصراحة والثقة، ولكني فهمت بعد ذلك، أن الأمر على العكس، وأنه يجب ألاّ أقول لها شيئاً، إذ لا يجوز أن تهين الإنسان الذي يحبك. وهكذا صرت أكذب عليها.

ـ كانت تصدق كل ما أقول! ولكن خداع الشخص الذي يصدقك في كل شيء أمر غير معقول أبداً!

قال ذات مرة:

ـ حين تعيش مع الآخر، يجب أن تنظف يومياً عاطفتك تجاه هذا

الإنسان بالرمل والقرميد.

ثم أضاف أن هذا كلام عليه وعلى آدا، وليس علينا.

في اليوم الذي قرر فيه ترك زوجته، ناداه في الشارع طفل يبيع الصحف بلقب "جدّي". كان إحساسه كارثياً، وكان لا بد من فعل شيء. روى الأمر على سبيل الدعابة.

إنه، على الرغم من ذلك، يهرع إليها حالما تدعوه لتعليق الستائر، قائلاً إن الأُسرة التي استمرت عمراً، لا يمكن أن تكفّ فجأة عن الوجود.

وأعلنت سونيتشكا حين حضّرتُ لها رقائق القطايف:

ـ ماما تقول إنك سرقت منا بابا.

ـ وماذا أيضاً؟

ـ وأنك لا تعتنين بي.

ـ وأيضاً؟

ـ بسببك لا أسافر مع أمي في العطلة. نحن الآن لا نملك نقوداً.

ومرّةً رنّ الجرس فجأة في قلب الليل. حرارة سونيا مرتفعة. شرع يهيئ نفسه للخروج، فقلت له:

ـ انتظر، سأذهب معك!

فأجابني مرتبكاً:

ـ أنت تعرفين، هي متأكدة أن سونيا مرضت حين كانت عندنا، وأنك لم تعتني بها جيداً.

ذهبتُ معه. ركبنا سيارة أجرة. ظللنا طول الطريق صامتين، كلّ منا ينظر إلى جهة. كان سائق السيارة يتمخط باستمرار، ويعطس، حتى إننا كدنا نصطدم بترامواي.

أنا في بيتهم لأول مرة.

الجدران كلها تغطيها اللوحات. لقد رسمها عارية في لوحات كثيرة، تارة في هذا الوضع، وتارة في ذاك. واقفةً، جالسةً، مستلقية. دخلت فجأة

ـ أدهشتني المفارقة بين الجسد الغضّ في اللوحات، وبين هذه المرأة العجوز المنبوشة الشعر التي ترتدي ثوباً منزلياً مغسولاً حتى بهتت ألوانه، وتنتعل حذاءً منزلياً مهترئاً.

درجة حرارة الطفلة 39، يكللها العرق، سقف فمها ولسانها تغطيهما نقاط بيضاء. وعلى خلفية خدّيها المحمرين ـ مثلث أبيض يحيط بالفم.

بثور ـ بحجم حبات العدس.

انقضّت آدا عليّ زاعمة أن ابنتها عادت من عندنا مبتلة القدمين، كانت تخوض في برك الماء، وأنا لم أفحص حذاءها. واغرورقت عيناها بالدموع.

ـ هكذا فجأة، أصابتها الذبحة الصدرية؟

قاطعتها:

ـ أرجو عفوك... هل أنت طبيبة؟

ـ لا...

ـ وإذن، رأيك لا يهمني.

شرحت لهما أن هذا المرض هو الحمى القرمزية، وأن هذه البثور ستبدأ بالزوال في اليوم التالي.

ذهبت لأغسل يديّ، فحمل إليّ منشفة، فسألته بصوت خافت من دون تفكير:

ـ كم عمرها؟

ارتبك وهو يجيبني:

ـ أنا وهي متساويان في السن.

عدت إلى البيت وحيدة. قال لي أنه يجب أن يبقى عندها حتى الصباح.

ـ أنت تفهمين السبب؟

أحنيت رأسي. أنا أفهم كل شيء.

بعد ثلاثة أسابيع شفيت بشرة سونيتشكا تماماً.

في الليل كنا نستلقي متعانقين حين قال لي:

ـ هأنذا ولدت وسأموت ـ هذا مفهوم، ليس ساراً، ولكنه مفهوم. الأمر مخيف بالطبع، غير أنه قابل للتفسير، ويمكن التعامل معه. ولكن ماذا بشأن ابنتي؟ هي الآن موجودة وستموت ذات يوم ـ إن هذا مخيف حقاً. من قبل، لم أكن حتى أعرف أن الأمر سيكون مخيفاً إلى هذا الحد.

إنه يدللها، وهي، القليلة الوجدان، تستغل سلطتها على أبيها. هو يعتقد أنه يجب أن يصطحبها طول الوقت إلى هذا المكان أو ذاك ـ السيرك، حديقة الحيوانات، حفلة صباحية للأطفال. بعد زيارتها تمتلئ الشقة بالبقايا اللزجة لحبات السكاكر وآثار الشوكولا، ولفافات الكاراميل. يشتري لها توافه شتى ـ إنه، ببساطة، يخاف أن يقول لها لا. وما سبب هذه الموجة من السخاء إلا خوفه من خسارة قربها منه.

تتذمر وتعترض على المائدة ـ لن آكل هذا، وذاك أيضاً لا أريده. عموماً، كل شيء عندما ماما مختلف وأطيب مذاقاً. أما أنا فلا أستطيع قول شيء، إنه يسمح لها بالتصرف كما تشاء. وأنا الغبية أتعذّب خشية أن تبقى جائعة.

إنها تأخذ أشيائي من الخزانة من دون استئذان، والبكلات والأطواق من علبة الزينة وتأخذ من قرب المرآة العطور وطلاء الأظافر. هزّ كتفيه وقال: كلّميها أنت مباشرة. وحين بدأت كلامي معها، وقف إلى جانبها ودافع عنها كما لو أني قلت كلاماً ظالماً.

حين أمشط شعرها لا تجلس هادئة بل تتحرك باستمرار وتصرخ إذا علقت الفرشاة بشعرها، زاعمة أني أفعل ذلك عمداً لإيلامها.

في صباح يوم الأحد، حين تكون الفرصة متاحة للنوم فترة أطول، تقفز من فراشها لحظة بزوغ الفجر، وتركض إلى غرفتنا، تتسلل إلى فراشنا، فتجلس على صدر أبيها وتحاول فتح أجفانه بأصابعها. وهو

يتحمل ذلك كله.

في عيد ميلادها، ذهبنا كي نشتري لها الهدايا. لقد أراد أن أساعده في انتقاء فستان وحذاء لها. أما عيد ميلادي فلم يتذكره أصلاً. في الحقيقة، أنا نفسي نسيت أني ولدت.

تأكل الفطيرة المحشوة بالزبيب المحببة لديها، فتجمع الفتات في راحة يدها التي تمدّها إليه. أما هو فعليه أن ينقر ذلك الفتات مستخدماً شفتيه فقط.

يجلسان متلاصقين، كتفاً إلى كتف، ويرسمان في الألبوم ـ هي ترسم شجرة على صفحة، وهو يرسم ثعلباً على الصفحة الأخرى.

إنهما سعيدان معاً.

ترى، هل هما بحاجة إليّ؟

ينهض في الليل ليتأكد من أن سريرها غير مبتل. يحملها من السرير ويأخذها مستلقية على ذراعيه، وهي تدمدم في نومها والنعاس يغالبها، إلى الحمام، يجلسها على كرسي المرحاض، أما هو فيجلس على حافة حوض الاستحمام بالقرب منها، كي تتمكن من إسناد رأسها إلى ركبتيه، وينتظر بصبر صوت جيشان الماء في المرحاض.

لكنها، مع ذلك، تبلل السرير أحياناً، فينزع عنها ملابسها المبتلة، ويلبسها ثوب نوم جافاً، وينزع الشرشف المبتل، فيطويه جاعلاً وجهه الجاف في الأعلى، ثم يمددها فوقه ويحكّ لها ظهرها حتى تنام.

لقد اعتادت أيضاً أن تشرب قبل النوم زجاجة "الماء المنوّم" التي تحضرها لها أمها.

صديقاتها ينام بعضهن عند بعض، أما هي فتخاف أن يكتشفن أمرها فيسخرن منها ويكففن عن صداقتها، لذا تختلق شتى الأعذار كي لا تنام خارج البيت.

إنها تخجل حتى منّي، أما أنا فأقول لها: ليس في هذا ما يخيف،

الأطفال كلهم يتبولون، وحين يكبرون ينتهي كل شيء، ويصبح بمقدورهم أن يناموا من دون قطعة المشمّع.

ثم أغسل لها ملابسها بشكل مستقل.

يخيل إلـيّ أننا لن نسـتطيع أبـداً أن نحب بعضنـا بعضاً حبـاً حقيقياً. وأحيانـاً أرى العكـس، حيـن تلتصق بي، فتنسـكب فـي نفسـي موجة من الحنان تجاه هذا الكائن المشوّش.

راجعنا عدداً من الأطباء بشـأن الحول فـي عينها. وصفـوا لها نظارة خاصة بعدسـة لعيـن واحـدة، أما العيـن الثانيـة فيجـب أن نغطيهـا بقطعة سـوداء. كانت تخجل خجلاً فظيعاً من نظارتها فتسعى طول الوقت لنزعها خشية أن يضحك منها الأولاد.

هي صاخبة في البيت فقط، أما في المدرسـة فهي إنسـان آخر. ذهبنا لحضور حفلة مدرسـية سـتلقي فيهـا قصيدة على المسـرح. حيـن ظهرت ونظارتهـا علـى عينيها ضحـك أحد الأطفـال، فنسـيت كلمـات القصيدة، واربدّ وجهها، وهربت وهي تنتحب.

لكنها كانـت تعوّض فـي البيت مـا تخسـره خارجه ـ فـي البيت هي ملكة وحولها رعيتها، الموجودون في هذا العالم من أجل أن يرقصوا على أنغام مزمارها فقط.

تأملـتُ كيف ترسـم بالقلـم الرصـاص، ولفـت انتباهي أنهـا كانت، إذا بدا لها الرسـم غيـر صحيح، تتركه ببسـاطة فيكـفّ، بالنسـبة إليها، عن الوجود، فلا تعود تراه، بل ترسـم على الورقة نفسـها رسـماً آخـر دون أن تلحظ الخطوط القديمة، فلا ترى غير خطوط الرسم الجديد.

يجب أن نتعلم العيش بهذه الطريقة.

كانت تحب أن ترسـم بألـوان أبيهـا أكثر من أي شـيء آخر. أُلبسـها قميصه القديم كي لا تتلطخ ملابسـها. لقد أراد أن يعلّمها شـيئاً ما حقيقياً، ولكن الوقت مايزال مبكراً ولن يكون ذلك ممتعاً لها.

قصّت ذات مرة، بمقص الأشغال اليدوية، خصلة من شعرها ولصقتها بالصمغ على ذقنها ـ مثل بابا.

وفي مساء أحد الأيام، كنت أنوّمها في سريرها، دفنت وجهها في الوسادة وراحت تبكي.

ـ ما الأمر، يا رائعتي؟

قالت عبر الشهقات:

ـ بابا، أنت ستموت! أنا حزينة جداً لأجلك!

لقد بدأت الآن تعي نفسها وعياً حقيقياً، فقد قالت، حين كنا نشاهد الغروب قرب الحوض المائي:

ـ هذا هو درب الشمس ـ هذا ليس الشمس، وهذه أنا، أليس كذلك؟

ذهبنا إلى مسرح الأطفال لنشاهد "سندريللا". كنت أمشي وأفكر ـ ما أغرب ما فعلوه! لقد شكّلوا فتاة من الثلج. هذه، عموماً، لم تكن كومة مصنوعة من كتل الثلج ـ كان لها ذراعان وساقان، حتى أصابع يديها كانت مشكّلة إصبعاً، إصبعاً. لكن سونيتشكا لم تجد في ذلك ما يستحق الدهشة، حتى إنها لم تسأل عن شيء:

ـ إنها حقيقية! إنها حية!

اشترى لها ساعة يد صغيرة مما يستخدمه الكبار. كانت تربطها ثم تقربها من أذنها وتقول بإعجاب:

ـ هل تسمعين؟ صوتها كصوت الزيزان!

صنع لها طائرة ورقية، أخذناها وذهبنا معاً لنطيّرها، غير أن الطيارة لم تحلّق إلاّ إلى أقرب عمود حيث علقت بالأسلاك. فكنّا، حين نمرّ بالقرب من المكان، نلوّح لها بالتحية. لم يَبق منها غير الذيل الذي كان يلوح رداً على تحيتنا.

كانت تحب أيضاً أن تأخذ سماعتي الطبية، تفحص بها كل شيء ـ نفسها، ودونكا، والجدار، والأريكة، وحافة النافذة... تضعها على الزجاج

وتقول للعالم الذي خلف النافذة بصوت جاد:

ـ تنفس! والآن، احبس النفس!

أقرأ لها قبل النوم، فتصغي، ناظرة إلى مكان ما في داخلها، وهي تمسد الزغب على ساعدها، فوق المعصم بقليل ـ في هذا الاتجاه أولاً، ثم في الاتجاه المقابل. تنظر في الكتاب حين أقلب الصفحة ـ هل في الصفحة الجديدة صورة ما؟

كان لا بد من مراقبتها طول الوقت. تتمدد لتنام، تنزلق تحت اللحاف، وفرشاة الأسنان ما تزال جافة. قيام! إلى الحمام! ولكنها على الرغم من ذلك تخترع شيئاً ما ـ تثبت الفرشاة وتمر عليها بأسنانها، هازّة رأسها من جهة إلى جهة وكأنها تحتج.

أظن أنها تخاف أن تحبني، فذلك سيعني أنها تخون ماماها. هي تخشى الخيانة، والغدر. حاولت أن أكلّمها، أشرح لها، أنه ليس في هذا الأمر ما يخيف، فهي إذا أحبت شخصين حباً حقيقياً، فلن يعني ذلك أنها خانت أحدهما.

يبدو لي أننا سننجح في مسعانا. أحياناً يسود بيننا ونحن معاً، شعور براحة كبيرة. ففي يوم الأحد الماضي، مثلاً، أخذتُها إلى الفراش فطلبت مني أن أجلس معها في غرفتها نصف المظلمة. إنها تخاف من العتمة وتتوسل كي نترك لها الغرفة مضاءة. أترك لها مصباحاً خافت الضوء، مغطى بمنديل شفاف. الظلال تكون مختلفة في كل مرّة. فتختلق، وهي متمددة في السرير، أسئلة عن أولئك الذين هناك، على السقف.

وهي ترجوني دائماً أن أمسّدها بالفرشاة ـ كما يفعل باباها.

أمرّ بفرشاة ناعمة من الريش على يديها، وساقيها، وظهرها، وسرّتها. ذلك يدغدغها فتضحك وتتلوى سعيدة.

أقبلها قُبلة المساء وأهمس في أذنها:

ـ هذا يكفي، والآن تكوّمي كالكعكة!

■

ساشينكا، يا حبيبتي!

ما أكثر الموت حولنا في هذا المكان! أحاول ألاّ أفكر في الأمر. لكني لا أستطيع.

لقد صلّحوا الطريق إلى تاكو. وصارت تصل من هناك يومياً فصائل جديدة من الحلفاء استعداداً للهجوم. إذن، سيكون المزيد من الموت.

قال كيريل: يجب أن يموت المرء بسهولة، مثلما مات لويس السادس عشر ـ حين صعد إلى المقصلة ورأى بعد سجنه أول شخص حيّ يستطيع أن يتبادل معه لو كلمة، سأل الجلاد:

ـ ما أخبار حملة لابيروز يا أخي؟

لقد ظَلّ، حتى قبل الموت بدقائق، يهتمّ بالاكتشافات الجغرافية.

نعم، أنا أيضاً أتمنى مثل تلك الميتة ـ تموت وكأنك ذاهب لتناول الإفطار. أظن أن ذلك يتطلب من المرء أن يكون قوياً جداً.

هل أنا قوي؟

ساشينكا، لقد رأيت هنا موتاً مثالياً. إنسان ـ شاب جميل، أبيض الأسنان، كان يشكو من أسنانه طول النهار، يمشي متورّم الخدّ، وهو يكاد يعوي من الألم، ـ اختفى في لحظة. أصابته قذيفة إصابة مباشرة. لم أكن موجوداً لحظة الانفجار، ولكني رأيت، فيما بعد، يده التي استقرت على ذروة إحدى الأشجار.

إن هذا هو مثلي الأعلى.

ولكن، ماذا لو حدث الأمر على غير هذا النحو؟

في كل يوم أرى جرحى، فأفكر رغماً عني أني قد أكون غداً واحداً من هؤلاء. من المؤسف أن احتمال سقوط قذيفة على رأسي سقوطاً مباشراً يساوي الصفر. ولكن احتمال الإصابة بعاهة والتلوّي من الألم ـ

احتمال قوي جداً.

قد تصيب الرصاصة أو الشظية ركبتي، أو كفّي، أو قد تستقر في كليتي اليسرى، أو اليمنى، أو في غلاف القلب، أو قد تخرق المثانة. الاحتمالات لا حصر لها ـ الإنسان، عموماً، كائن سريع العطب جداً.

لقد رأيت هنا الكثير، الكثير حتى التخمة.

أنظر إلى الجريح وأقيس حاله على حالي رغماً عني.

أحد الجنود أطلق صيحة الهجوم "هورا"، فاخترقت، في اللحظة نفسها، رصاصة خدّيه وحطمت أسنانه. إني، لسبب لا أدريه، أتصور نفسي مكانه، ولا أستطيع التخلص من ذلك.

خرجت في الليل لقضاء حاجتي، يغالبني النعاس، فسمعت كيف كان أحدهم في خيمة المستشفى الكبيرة يتوسل بأسى:

ـ لا أستطيع أن أجد سريري، فليساعدني أحدكم كي أجده!

كانت عينا هذا الفتى ملفوفتين بالضمادات فراح يتلمّس طريقه بين الأسرّة الميدانية. لقد خرج، هو أيضاً، في قلب الليل، لقضاء حاجة، فأضاع طريق العودة إلى السرير.

سيلفونني بالضمادات، وسأخضع لعمل جراحي، سينشرون عظمي، ويقصون البقايا المتقيّحة في ساقي اليمنى، أو اليسرى.

إنه لمِمّا لا يطاق أن أقضي ما تبقى من حياتي وأنا أتدحرج على ساق واحدة، أو ربما، بلا ساقين عموماً.

من المحتمل أن تقوم لوسي غداً بغسل بقايا دمي عن غطاء طاولة العمليات.

ومن المحتمل أن يحدث عكس ذلك، فأختار أن أذهب بسهولة.

ترى متى حدث ذلك؟ أول أمس، خرج مساعد الطبيب ليدخن سيجارة بين عمليتين. رآني، فاقترب مني. لعلّه أراد أن يتكلّم مع أحد، فيروّح عن نفسه. الجميع يناديه احتراماً باسمه مقروناً باسم أبيه ـ ميخائيل

ميخايليتش. إنه يعجبني ـ له مظهر يوحي دائماً بالطيبة، فوق رأسه المستدير بقايا غرّة طلاّبية شيباء ـ لقد ترك الجامعة في يوم من الأيام دون أن يكمل دراسته، وله شاربان محترمان وبطن مستديرة، ومشية عجائزية صغيرة الخطوات، وأنف متهدل مضحك، وزوائد متدلية على عنقه موشاة باللونين الأحمر والأزرق. جلسنا صامتين، ثم تنهد وقال:

ـ يا إلهي! ما الذي لا تراه في هذا المشفى الميداني! اليوم، صباحاً، حملوا إلينا جريحاً شاباً في مثل سنك. كان مشوهاً إلى حد جعله يحاول الانتحار. ثبّتُّه بالقوة حتى وصل الطبيب وأعطاه حقنة المخدر.

أنهى تدخين سيجارته، ربّت على كتفي وكأنه يقول ما الذي لم يمرّ بنا في هذه الحياة! ثم مضى بخطواته الصغيرة نحو غرفة العمليات.

الموت، ما أكثر المرات التي سمعت فيها هذه الكلمة، وما أكثر ما قلتها أنا وكتبتها، ولكني الآن لست متأكداً من أني فهمتها فهماً حقيقياً.

كتبت هذه العبارة ورحت أتساءل:

ـ ترى هل أفهمها الآن؟

ساشكا، المهم هنا ألاّ نفكّر. ولكني أفكّر طول الوقت. وهذا خطأ. كثيرة هي الأجيال التي فكّرت في هذا الأمر، وتوصلت إلى حكمة عظيمة ـ يجب ألاّ نفكّر. ترى لماذا يشغلون الجنود دائماً بمهمات شتى، مهمات قد تكون فارغة وبلا معنى، ولكنها واجبة التنفيذ؟ إنهم يفعلون ذلك ليمنعوهم من التفكير. إن في هذا معنى عميقاً جداً ـ هو منع الإنسان من التفكير. يجب إنقاذ الإنسان من نفسه، من التفكير بالموت.

هنا، يجب على الإنسان أن يعرف، على نحو ما، كيف ينسى، أن يعمل شيئاً ما بيديه ـ إنهم يرغمونهم على تنظيف الأسلحة تارة، وعلى إصلاح ملابسهم الرسمية تارة أخرى، أو دفن شيء ما تارة ثالثة. يختلقون لهم عملاً.

أعتقد أن هذا بالضبط ما جعلني أختلق عملاً ـ أن أكتب إليك

كلما سنحت الفرصة، أي أن أصنع الحروف. إنك بهذا تنقذين حياتي يا حبيبتي!

ساشينكا، الحبيبة، الجميلة، أنا لا أشكو لك، لا، وأعرف أنك تفهمين ذلك.

أنا أفكر دائماً بالموت. إنه حاضر حولي طول الوقت، من الصباح حتى وقت متأخر من الليل، بل في النوم أيضاً. نومي فظيع، تعذبني فيه الكوابيس والحمى. أتعرّق أحياناً بشكل وحشي. أنا، في العادة، لا أتذكر أحلامي، إنها تختفي في مكان ما بعد لحظات من استيقاظي ـ كما يختفي الغباش عن المرآة حين يهبّ عليها تيار هوائي، فلا يبقى له أثر. ولكن ما رأيته اليوم في منامي ظَلّ في ذاكرتي.

لقد رأيت نفسي من جديد في مركز التجنيد، عارياً أمام اللجنة الطبية ـ إنه إجراء مهين إلى درجة كافية. كل شيء جرى كما لو كان في اليقظة، حتى أني لم أدهش حين وجدت نفسي أخضع لهذا الكشف الطبي مرة ثانية. أقف في الطابور ساتراً عورتي بكفي. أنظر دون قصد إلى الندب والكدمات على أجساد الواقفين أمامي، وإلى مؤخراتهم المشعرة والعارية، وشاماتهم وبثورهم. كل هذا مهين، ولا سيما حين يتلمس الطبيب مؤخراتهم، يطلب منهم أن يستديروا وينحنوا إلى الأمام مباعدين بين سيقانهم. ها هو ذا دوري، لكن، ولسبب لا أدريه، حلّ محل الطبيب فيكتور سيرغييفيتش أستاذي الذي مات في الصف. كان يمسح نظارته بربطة عنقه وينظر إليّ. أبدأ بتبرئة نفسي، فأنا بحثت عن تلك الحبوب التي حدّثَنا عنها، ولكني كنت مضطرباً إلى حدّ جعلني عاجزاً عن إيجادها:

ـ فيكتور سيرغييفيتش! يومذاك، في الصف، حين سقطتَ ممدداً على الأرض قرب السبورة، نبشتُ جيوب سترتك كلها، ولكن الحبوب لم تكن فيها! أقسم بشرفي!

أما هو فظل يهز رأسه، ويمسح نظارته بربطة عنقه.

ـ لم تكن موجودة... بعد ذلك هرع المدير ووجدها فوراً! لقد كانت هنا، في هذا الجيب! لقد أريتكم مكانها!

وربّت على جيبه براحة يده.

هنا فقدت القدرة على الاحتمال فقداً تاماً، فاستيقظت.

ساشينكا، أنا لم أحدثك عن ذلك من قبل.

حين سقط مغمياً عليه في الدرس، اندفعت نحوه، نحو تيوفيك لأنقذه، غير أني لم أجد تلك الحبوب، وحين أعطوه الدواء كان الوقت قد فات. أعرف أن هذا لم يكن ذنبي أنا، ولكني، على الرغم من ذلك، مازلت حتى اليوم أشعر بضرورة أن أُقنع نفسي بذلك.

أنت تعرفين أني كنت أحبه كثيراً وأنزعج منهم حين يلقبونه "تيوفيك". لقد كنت أحب أن أذهب إليه في الفرص بين الدروس متسلّحاً بحجج واهية، كنت، ببساطة، معجباً جداً بتلك الأدراج الزجاجية والفراشات الحبيسة فيها، وتلك الخزائن القديمة وما فيها من نماذج طبيعية، وتلك الممتلئة ببيوض النَّعام الضخمة، ونجوم البحر، والأعشاب.

لقد رسخ في ذاكرتي كيف جلب معه في درس علم النبات نماذج شمعية لجميع أصناف التفاح في صناديق صغيرة مفروشة بالقطن. يومها تملكتني رغبة جامحة في قضم بعضها ـ فقد كانت جميلة جداً، ونضرة، وحقيقية!

كلّفني في الصيف بجمع نماذج من أوراق النبات ـ بذلتُ أقصى ما أستطيع من جهد في أداء المهمة. ولكن ما أعجبني أكثر من جمع النباتات في الوديان وتجفيفها في ألبومات بروكغاوز، هو أني كنت بعد ذلك أكتب تحت تلك النماذج بخط مرتّب: "أدوفانتشيك ـ تاراكساسيم" أو "بودوروجنيك، بلانتاغو". لقد أدهشني أن "بودوروجنيك" عادياً يمكن أن يكون كلمة مهمة وجميلة ـ "بلانتاغو". وكأن الكلمات كانت تثير اهتمامي أكثر من أوراق النبات المجففة المضجرة.

حين صار فيكتور سيرغييفيتش يدرسنا علم الحيوان استهواني جدياً، هكذا ظننت، علم الأورنيتولوجيا، فحتى على مائدة الغداء، وأنا آكل قطعة الدجاج، كنت أجمع العظيمات وأتفحّص كيف يعمل المفصل: أي وظيفة تؤدي هذه العُظيمة، أو ذلك الغضروف.

عموماً، أقول بصدق: إني لا أعرف هل كنت، قبل دروسه، أحب ذلك كله ـ النباتات والطيور. أظن أني لم أكن مهتماً بذلك، بل أحببت هذه الكائنات الحية كلها من خلال حبه لها.

أو أحببتها لأجذب انتباهه إلى جهودي فيمدحني؟

مع ذلك، كانت لديّ قبل دخول المدرسة حالات حُبّ لذوات الريش ـ أذكر أني وجدت في البيت الريفي في عش على شجرة البتولا ثلاثة غربان صغيرة، فصرت أتسلل إلى هناك عدة مرات في اليوم فأحشو حلوقها بقطع اللحم المطبوخ وأسقيها الماء من علبة قديمة مهملة عند الجدة.

ولكن حبي للطبيعة تعرّض لامتحان حقيقي بعد نحو عامين، في البيت الريفي نفسه، مع طائر صغير أيضاً. هرع إليّ ابن الجيران منتحباً، يغص بدموعه، ويحاول جاهداً أن يشرح لي ما جرى. تبعته راكضاً، فرأيت في الدرب المؤدي إلى مدخل بيتهم ما لا تطيق عيون الأطفال احتماله فعلاً. لقد سقط من العش فرخ فكان سقوطه، لسوء الحظ، بالقرب من بيت للنمل. غطاه النمل كله، وكان جسده يتقلص في صمت. ارتبكت ولم أدر ما أفعل. كان إنقاذ الطائر مستحيلاً، ولكني لم أستطع أيضاً أن أقف، ببساطة، متأملاً آلامه.

أتعرفين يا ساشينكا؟ أظن أني بدأت أنضج نضجاً حقيقياً في تلك اللحظة. لقد أدركت أن عليّ أن أجد في نفسي الجرأة على فعل الخير. والخير في تلك اللحظة كان إيقاف معاناة الطائر بأسرع ما يمكن. أخذت فأساً، وطلبت من الطفل أن يدخل إلى البيت، ثم اقتربت من الفرخ

الصغير الذي تحول إلى كومة صغيرة حيّة سوداء من النمل، فقسمته بشفرة الفأس إلى نصفين، لقد ظل كل من القسمين يتلوى من الألم ـ أو لعلّ ذلك ما بدا لي بسبب حركة النمل. حملت تينك الكتلتين من النمل إلى مكان قريب من السور ودفنتهما هناك. وقد رأى الطفل ذلك كله من نافذة الشرفة، فغضب مني ولم يستطع أن يسامحني.

أمر آخر كان أيضاً من أسباب إعجابي بفيكتور سيرغييفيتش هو قدرته على أن يجعل الأشياء العادية، أشياء غير عادية. لقد أضحكنا في درس الأدب أنهم أرسلوا بوشكين الشاب، لمكافحة الجراد فكتب تقريراً لاذعاً:

طار الجراد، طار
ثم حطّ في الحقل
بقي في الحقل، بقي وأكل كل شيء
ثم طار من جديد.

أليس هذا مضحكاً؟ غير أنه كان عند فيكتور سيرغييفيتش ذا معنى آخر تماماً: بوشكين موظف لأداء مهمات خاصة، أرسلوه، وهو النشيط، الذكي، في مهمة تتعلق بقضية ذات أهمية. الناس أصابتهم كارثة، تركتهم بلا وسائل للعيش، فراحوا ينتظرون من الحكومة العون.

أظن أن أستاذي كان، ببساطة، غاضباً من تلك المعاملة المتعالية ضد الحشرات التي كانت بالنسبة إليه لا تقل أهمية وتعقيداً وحيوية، عنا نحن البشر.

كان الجميع في المدرسة يضحكون منه، حتى الأساتذة الآخرون، وكان هذا يحزنني جداً. ولكن ماذا كان باستطاعتي أن أفعل؟

لم يكن باستطاعتي أن أفعل غير أن أحب ما كان يحب، ـ النباتات والطيور. بعد موته زال طبعاً اهتمامي الشديد بتلك الأشجار الدائمة الخضرة وطيور النعام، والحجَل، ولكن أسماءها رسخت في الذاكرة ـ

فكان رائعاً جداً ألاّ أكتفي بالتنزه، ببساطة، في الغابة، بل أن أعرف أيضاً ـ ها هو ذا الزعتر البري، وهذا هو الكانوبير، وذاك هو الأتريشنيك، وهناك نبتة الشيريتس. تسير في الدرب تحيط بك شجيرات الكروشينا، والنعناع البري، والحميضة، والكوروستافنيك! وها هي ذي عشبة الدجاجة العمياء، وعشبة الأوسوت السامة، ونبتات القريص! والطيور! ها هي ذي عصفورة شوك، وهناك قبّرة، وهذا الطائر صياد السَّمَك!

ممتع جداً أن تسير في الدرب وأنت تعرف لماذا تحب عشبة إيفان ـ شاي رماد الحرائق! إن ذلك كله يبعث فيك إحساساً مدهشاً بالحياة التي لن تنتهي أبداً.

بعد موته بدأت لأول مرة أفكر فعلاً بموتي.

ستقولين، طبعاً، إن كل فتى يعاني هذه النوبات من الفزع، هذه الحالات من الخوف، وأنت محقة، طبعاً، فهذه أمور عادية جداً. أنا نفسي أعرف جيداً كل ذلك. ولكن هذه المعرفة لا تخفف عني شيئاً.

لقد حدثتني ماما كثيراً عن خوفي وأنا في الخامسة من عمري، حين كنت أسمع الكبار يتكلمون على موت أحدهم، وكيف كنت أسأل: "هل سأموت أنا أيضاً؟" فتجيبني: "لا"، فتهدأ نفسي.

كنت في طفولتي ألعب بالأزرار لعبة الحرب، أتخيّل أني هم في ساحة المعركة، حين أندفع في الهجوم أطلق صيحة "هورا" ـ فأقع قتيلاً فاتحاً ذراعيّ. أتمدد لحظة، ثم أقفز راكضاً إلى الأمام وكأن شيئاً لم يكن، حياً، متعطشاً للاشتباك بالأيدي. اذبح، اقتل، اطعن!

استغرقت ذات يوم في اللعبة، فلم ألحظ أن أمي كانت تقف في الباب، تتأملني. قالت:

ـ هل تعلم أن لكل زر قتيل ماما أيضاً، تنتظره في البيت وتبكي؟

يومذاك لم أفهمها.

أذكر أني، بعد موت جدتي، جرّبت أن أتصور نفسي ميتاً ـ تمددت

على الأريكة، عاقداً يديّ على صدري، أرخيت عضلات جسمي كلها، وأغمضت عيني، وحاولت أن أحبس نفَسي طويلاً. وبدا لي للحظات أني استطعت حتى أن أوقف دقات قلبي. وماذا بعد؟ كل ما حدث هو أني أحسست أني حيّ إلى حد غير معقول. وأن قوة في داخلي، لم تكن مدرَكة من قبل، أرغمتني على التنفس. صحيح أني لم أقترب عقلة إصبع من فهم الموت، ولكني أحسست في ذاتي، بوضوح، ما معنى الحياة. إنها أنفاسي، إنها مالكتي.

أنا لم أحب جسدي، وأظنني احتقرته منذ بداية صباي المبكر، حين أدركت فجأة أن "أنا" ـ ليست تماماً "هو"، وأن "هو" ـ ليس "أنا" أبداً. لقد كان غريباً جداً في لجنة السَّوق إلى الجيش، أن يهتم أحدهم في أثناء الفحص الطبي، كاهتمام ماما في طفولتي، بوزني، وطولي، وأسناني، ويدوّن بعناية على الورق كل تلك الأرقام التي ليست لها عموماً أية علاقة بي. لم كل هذا؟ من يحتاجه؟

أتعرفين ما الذي أخافني أول مرة ـ حين كان عمري أربعة عشر أو خمسة عشر عاماً؟ لقد خفت من الكشف الذي أنار وعيي فجأة فأدركت أن جسدي يقودني إلى القبر، كل يوم، وكل لحظة، مع كل شهيق، وكل زفير.

أليس هذا دافعاً لكرهه، لو من أجل ذلك فقط؟

أذكر أني كنت متمدداً على أريكتي وبصري ينزلق على داخل السفينة المعلقة على الجدار، فخطر في بالي أن هذه السفينة الضخمة، لو أحست فقط بكل العمق الذي لا قاع له تحتها، لغرقَت فوراً.

لقد أدرك جسدي ذلك العمق اللانهائي.

أنا أجد في كل مرة أسباباً جديدة للكره. فمثلاً، صار لزاماً عليّ أن أحلق ذقني. جلدي، كما تعرفين، ليس مستوياً. إنه منفّر ـ دمامل وبثور، ـ أحلق ذقني فأجرحها دائماً، ويسيل الدم. جربت أن أطلق لحيتي ـ

لم تنمُ، مشهد تعيس، وليس لحية. أذكر أني حلقت لحيتي وجرحت ذقني كالعادة، فشلّتني فكرة أن هذا الكيس الجلدي المقرف، المحشو بالكلاكيش، يغرق الآن، في اللحظة نفسها، التي أضع فيها قطعة من ورق الجرائد فوق الجرح، يمضي إلى القاع ويشدني معه.

وأنه سيظل يغرق كل أعوام حياتي، حتى يصل إلى القاع تماماً.

كل شيء صار لا يطاق. الأشياء العادية تؤكد، وكأنها اتفقت على ذلك، أمراً واحداً: هذا الموقد ـ سيكون، حين لن أكون، ومقبض الباب هذا، سيمسكون به، ونوازل الجليد المتدلية وراء النافذة، ستظل حتى بعد ثلاثمئة سنة، نوازل جليدية تلمع وتشعّ بالألوان في ضوء الشمس في منتصف نهار من نهارات آذار.

حتى المرآة تحولت في الفجر فجأة من شيء محايد فصارت كما هي في الحقيقة، ـ بلعوم الزمن. أنظر فيها بعد دقيقة فقط ـ فإذا بها قد ابتلعت الدقيقة التي مضت وإذا بحياتي تنقص منها تلك الدقيقة.

ما يضايقني أيضاً أن الجميع من حولي واثقون بوجودهم، أما أنا فيبدو لي أحياناً أني غير حقيقي، وأني أجهل نفسي تماماً. ومادمت غير واثق بذاتي فكيف أكون واثقاً بالآخرين؟ لعلّي لست موجوداً أصلاً. لعلّ أحدهم اختلقني ـ كما اختلقتُ الأناس الصغار على ظهر السفينة ـ وها هو ذا الآن يعذبني.

لقد سقطت في مستنقع أسود لا قاع له، اختفيت، كففت عن الوجود. أحتاج لكي أوجد إلى براهين، وهي غير موجودة.

المرآة تعكس شيئاً ما، ولكنها، مثلي أنا على كل حال، لا تملك أي تصور عني... ما تستطيعه هو فقط أن تبتلع كل شيء دون تمييز.

لم أكن قادراً على الانشغال بأي شيء، كل ما أحاول البدء به ـ وكل ما كان في الزمن العادي يسلّيني ويفرحني، تلك الكتب مثلاً، ـ لم يعد يستطيع إبقائي عائماً على السطح، كل شيء غطّاه اللامعنى اللزج كطبقة

دهنية سميكة.

كان الأعمى يثير أعصابي بوجه خاص. أتمدد في غرفتي، أحشر نفسي في زاوية الأريكة، أختبئ تحت الوسادة، فتهزّني رعشة خفيفة من هول الظلمة والفراغ، أما هو فيصفّر بمرح ويقرقع بحذائه في الممر، يعيش حياة كاملة، لا تبدو له أبداً مظلمة وفارغة على الرغم من العمى! ترى، ما الذي يراه بعينيه اللتين لا تبصران، ولا أراه أنا؟ أي عالَم هذا العالَم غير المرئي؟

القسط الأكبر كانت تناله أمي. أقفل باب غرفتي، لا أخرج منها، لا آكل، لا أكلم أحداً.

كان الكلام مع أمي بلا جدوى طبعاً. هي تعتقد أني أمرّ بنوبات يصاب بها الشباب في هذه المرحلة العمرية. لقد سمعتها تشرح وضعي لصديقتها:

ـ ها قد مرّت نوبة الرسم، والآن بدأت نوبة البحث عن معنى الحياة. ستمضي أيضاً! من حسن الحظ أنه لم يصادف بعد "عذراء طاهرة" تفتل عقله! أنت تعرفين بنات هذه الأيام!

كنت أخاف البنات خوفاً فظيعاً. لم يكن ذلك خوفاً، بل خجلاً إلى حدّ الذعر. في أحد الأيام، كنت في الترامواي، جلست قبالتي واحدة رائعة الشعر ـ كومة كاملة من الشعر الكستنائي المتموج، ويا لروعة ذلك العطر الذي يفوح منه! كانت، من وقت لآخر، تجمع طرفيه براحتيها ثم تتركه ينسبل على كتفيها من جديد. كم كنت أودّ أن ألمس ذلك الشعر! رأيت أنه ما من أحد ينظر إليّ فلمسته! لقد بدا لي أن حركتي لم تكن ملحوظة. ولكنها لاحظتها فنظرت إليّ بطرف عينها نظرة ساخرة. شعرت بخجل شديد وانطلقت كالرصاصة خارجاً من الحافلة.

بعد مثل هذه الحالة، يزداد احتقار المرء لنفسه!

من المضحك أن أتذكر الآن؛ كانت ماما تخاف عليّ كثيراً، لذا كانت

تفتش أغراضي سرّاً ـ أتراها تظنني خبّأت فيها سمّاً أو مسدساً؟

سمعت يوماً همساً وراء الباب. كانت تتوسل إلى أعماها:

ـ بافلوشا، كلّمه أرجوك، أنت رجل، وستتفاهمان بسرعة أكبر!

يجرجر قدميه ويقرع الباب.

فأصرخ في الجواب:

ـ ابعدوا عني جميعاً!

آخذ كتاباً لأحد الحكماء المشعوذين، آملاً أن أجد فيه، إن لم يكن جواباً، فسؤالاً مطروحاً بشكل صحيح على الأقل. الحكماء ـ المشعوذون كلهم يدعون بصوت واحد إلى العيش في الحاضر، والابتهاج بما هو لحظي وعابر.

ولكن على المرء أن يتعلم كيف يفعل ذلك!

كيف أبتهج بالحاضر إذا كان غير ضروري وغير ذي نفع؟ كل شيء يبعث على الغثيان ـ ورق الجدران، والسقف والستائر، والمدينة وراء النافذة، وكل ذلك الذي ليس أنا. حتى ذاتي أنا التي ليست أنا تبعث على الغثيان كسائر الأشياء. الماضي يشعرني بالغثيان، إنه ماضٍ أبتر، غبي مكوّن من الحماقات والإذلالات. وأشعر بالغثيان بوجه خاص من المستقبل. المستقبل، بوجه خاص ـ لأنه الطريق إلى ذلك الثقب الذي يفوح منه العفن في مرحاض المقبرة.

ولم كل هذا الذي قبل الثقب؟ ما الذي اخترته أنا؟ الجنس؟ الزمن؟ المكان؟ أنا لم أختر شيئاً، ولم يدعُني أحد إلى أي مكان.

والآن، حين صار كل شيء رديئاً جداً، فكرتُ فعلاً في أخذ شفرة من شفرات الأعمى التي في الحمام، كنتَ أختنق من استحالة الاستمرار في العيش بالشهيق ومن بعده الزفير، ثم الشهيق من جديد، وبعده الزفير مرة أخرى، الجلد يغطيه العرق، قلبي يؤلمني، أصابتني رعشة ـ فجأة بدأ شيء ما ينتفض انتفاضاً مدهشاً في أطراف أصابعي.

من مكان ما في الأعماق أخذ يتصاعد هدير ليس منتظماً ولكنه يتصاعد بثبات. نما فصار موجة. أجبرني على القفز من السرير والركض في أنحاء الغرفة، أركض إلى النافذة، أفتح دفّتيها، يطقطق الورق الذي ألصقَ على حافتيهما درءاً لبرد الشتاء، ويتناثر مِزَقاً، أتنشّس الشارع. يتنامى الهدير، يقوى، ينتشر. وأخيراً، تنتشلني موجة غامضة، هائلة القوة من قاع القاع، وتقذفني، كما لو كنت حفنة صغيرة، إلى السطح، إلى السماء. وتملؤني الكلمات.

ساشينكا، هذا أمر يستحيل شرحه، ما نستطيعه هو فقط أن نعيشه.

ذاب الخوف، اختفى. والعالَم الذي كان مختفياً عاد إلى ذاته. صار غير المرئي مرئياً.

وبدأ كل هذا الذي ليس أنا يستجيب، يهدر في جوابه، يعترف بأني أخصّه. أتفهمين ما أتحدث عنه؟ كل شيء من حولي صار لي، صار بهيجاً، مهضوماً! شعرت برغبة في أن أتلمس، أستنشق في ذاتي، أتذوق بلساني، ورق الجدران، والسقف، والستائر، والمدينة التي وراء النافذة! ما ليس أنا صار أنا.

في تلك الدقائق كنت أحيا فقط. أتأمل ما حولي ولا أفهم كيف يستطيع الآخرون إغفال ذلك. ترى، هل يستطيع المرء العيش من دونه؟

ثم تذهب الكلمات، ويختفي الهدير، وتبدأ نوبات الإحساس بالفراغ من جديد، نوبات حقيقية ـ أرتعش، أرتجف، أرتمي على الأريكة، وأرفض الخروج إلى أي مكان ـ لم أستطع أن أشرح لنفسي: ما ضرورة الخروج إلى مكان ما؟ من الذي يحتاج إلى الخروج؟ ما معنى ـ خروج؟ ما أنا؟ ما معنى ـ ما؟

إن أكثر ما يخيف هو ألاّ تعود الكلمات.

لقد أحسست في لحظة ما إحساساً حاداً بعلاقة معينة: الفراغ الكوني الجليدي الذي لا أستطيع الخروج منه، لا يمكن أن يملأه غير ذلك الهدير

الرائع، والهسيس، والهزيم، وصوت أمواج الكلمات. إن ما هو لحظي، متغير، لا يصبح مبهجاً وذا معنى، إلا حين يمرّ عبر الكلمات. فمن دون ذلك يصبح ذلك الفرحُ بالراهن، الذي دعاني إليه الحكماء، مستحيلاً. كل الراهن عدمٌ لا جدوى منه إذا لم يؤدّ إلى الكلمات، وإذا لم تؤدِّ الكلماتُ إليه. الكلمات هي وحدها التي تسوّغ وجود الموجود، وتعطي المعنى لما هو لحظي، وتجعل غير الحقيقي ـ حقيقياً، وتجعل أنا ـ أنا.

أتفهمين يا ساشينكا؟ لقد عشتُ في غربةٍ ما عن الحياة. لقد نما بيني وبين العالم سور من الحروف. لم أكن أنظر إلى ما يحدث لي إلاّ من وجهة نظر الكلمات ـ هل أستطيع أن أحمل معي هذا إلى هناك، إلى صفحة المخطوط أو لا. أنا أعرف الآن بماذا أجيب الحكماء المتعفنين منذ زمن بعيد: اللحظي لا يكتسب معنى إلا إذا التقطته (على الطاير). أين أنتم أيها الحكماء، ها؟ أين عالمكم المرئي؟ أين لحظيّكم؟ ألا تعرفون؟ أنا أعرف.

شعرت أن الحقيقة انكشفت لي. أحسست فجأة أني قوي. لست قوياً فحسب، بل قويّ قوةً شاملة. بلى، ساشكا، اضحكي مني، أحسستُ أني قادر على كل شيء. فقد انكشف لي ما كان مغلقاً أمام غير العارفين. انكشفت لي قوة الكلمة. هذا، على الأقل، ما بدا لي آنذاك. من خلالي اكتملت سلسلة هامة جداً، لعلها أهم سلسلة، تمتد من ذلك الإنسان الحقيقي، الذي تفوح من فمه رائحة منفّرة، اليسراوي، اليمناوي، الذي تؤلمه الحروق، ذلك لا يهمّ، فالمهم هو أنه حقيقي مثلك ومثلي، وأنه كتب في زمن ما: "في البدء كانت الكلمة". وها هي ذي كلماته قد بقيت، إنه ـ فيها، فهي صارت جسده. هذا هو الخلود الحقيقي الوحيد. لا خلود غيره. كل ما تبقى ـ يجب أن يكون هناك، في الحفرة الممتلئة ببراز المقبورين.

من خلال الكلمات امتدَّ من ذلك الإنسان إليّ ما هو أقوى من

الحياة، والموت، لاسيما إذا فهمنا أنهما سيّان.

أتصورين، أية دهشة تملّكتني وأنا أنظر إلى المحيطين بي؟ كيف يستطيعون أن يوجدوا؟ كيف لا يسقطون ماداموا غير معلّقين بهذه السلسلة التي فوق الموت؟ ما الذي يثبّتهم؟

لقد ظهر لي بوضوح أن ما كان قبل المادة ـ هو الحبر.

أفواه الذهب في كل العصور، وعند كل الشعوب، أكّدوا أن الكتابة لا تعرف الموت، وأنا أصدّقهم ـ إنها الوسيلة الوحيدة للتواصل بين الأموات، والأحياء، والذين لم يولدوا بعد.

كنت مقتنعاً بأن كلماتي هي ما يبقى بعد أن يلقى كل ما هو يومي، وأني في حفرة القبر في مقبرة جدتي، ولذا كتبت ـ الكلمات هي الجزء الأهم والأساسي في حياتي.

لقد آمنت أن الكلمات ـ هي جسدي حين لا أكون موجوداً.

أظن أن من غير الجائز أن نحب الكلمات كل هذا الحب... لقد أحببتها حتى الجنون... وهي راحت تتغامز وراء ظهري.

كانت تضحك مني!

كلما ازداد حشري لذاتي في الكلمات ازداد وضوحاً عجز الكلمات عن التعبير عن أي شيء. الأصح هو أن الكلمات تستطيع أن تخلق شيئاً خاصاً بها، ولكنك لا تستطيع أنت نفسك أن تصبح كلمات. الكلمات ـ مخادعة. تعدك أن تأخذك معها في العوم، ثم تبتعد عنك سرّاً ناشرة أشرعتها كلها، وتبقى أنت على الشاطئ.

المهم ـ أن الحقيقي لا تستوعبه أي كلمات. الواقعي ـ يسبب لك الخدر. كل ما يجري في الحياة أكثر أهمية ـ أسمى من الكلمات.

في لحظة ما، تفهم أنك إذا كنت تستطيع نقل ما عانيته بالكلمات، فمعنى ذلك أنك لم تعانِ شيئاً.

ساشينكا، يبدو أن ما أقوله ملتبس جداً، لكني، مع ذلك، لا أجد بداً

من أن أقول كل ما عندي. وأنا أعرف أنك ستفهمينني مهما كان كلامي ملتبساً.

أنا أعني هنا عبثية الكلمات. إذا كنت لا تشعرين بعبثية الكلمات، فذلك يعني أنك لا تفهمين من الكلمات شيئاً.

سأحاول أن أشرح ذلك على النحو التالي: أتذكرين؟ لقد كتبت لك أني حاولت ذات يوم في إحدى الفرص، بعد أن قرأت كيف كان المهرجون القروسطيون يحرجون سادتهم ـ البُلَهاء بأسئلة ماكرة، أن أسخَر بالطريقة نفسها من معذِّبي التلميذ الذي في صفّ أعلى، وكيف أنه، دون أن يستمع حتى النهاية إلى عبارتي الملتوية، لطمني على أذنيّ كعادته. هكذا تماماً هم أفواه الذهب وسعيهم إلى مدّ ذواتهم في الزمن ـ إنهم، مثلي، فتيان أغبياء قرؤوا كثيراً وحاولوا طول حياتهم كلها أن يخدعوا الموت بأحاديث ملتوية، ولكن الموت كفّ عن الإصغاء إليهم في نهاية المطاف، ولطمهم على آذانهم.

أنت تذكرين أني لم أستطع قَط أن أقنعك بأن كل كتاب ـ كذب، على الأقل، لأن له بداية ونهاية. ليس من النزاهة أن نضع النقطة الأخيرة، ونكتب كلمة «النهاية» ـ دون أن نموت. لقد ظننت أن الكلمات ـ هي الحقيقة العليا. ولكن تبيَّن لي أنها وهم، احتيال، تزييف غير لائق.

عاهدت نفسي ألاّ أكتب شيئاً بعد اليوم، وبدا لي ذلك عملاً جديراً بالاحترام.

ساشينكا، لا أحد يستطيع أن يشرح لماذا لا يوجد جواب على سؤال «من أنا؟» إلا إذا تكشّف الجواب فجأة ومن تلقاء نفسه، في مكان غير مناسب. إن معرفة الجواب عن ذلك السؤال مستحيلة. الممكن هو فقط أن يكون المرء هو نفسه.

أتفهمين؟ لقد أردت أن أكون.

أنا لم أكن أنا. جاءت الكلمات ـ أحسست أني قوي، ولكني لم

أستطع أن أقول لها ـ تعالي! فتركتني فارغاً، عديم الفائدة، مستهلكاً، فألقوا بي في الزبالة.

لقد كرهت نفسي ضعيفاً، فأردت أن أكون قوياً، ولكن أي شخص سأكون ـ ذلك ما قرَّرَتْه، بدلاً مني، الكلمات.

ساشينكا، افهمي، لم أستطع البقاء هكذا! أنت كنت تظنين طول الوقت أن السبب هو أنت ـ لا، ليس أنت!

أنا كنت مضطراً إلى التحرر منها، أن أحس نفسي حراً، حيّاً، هكذا ببساطة. كان لزاماً عليّ أن أبرهن أني موجود بذاتي، من دون كلمات. كنت بحاجة إلى براهين تؤكد وجودي.

أحرقت كل ما كتبته ـ ولم أندم على ذلك لو دقيقة واحدة. أنت وبختني، ولكن عبثاً. حبيبتي، لا توبخيني أرجوك! لقد كان عليّ أن أتغيّر، أن أصير آخر، أن أفهم ما يفهمه الجميع إلاّ أنا، أن أرى ما يراه كل أعمى!

ليس مقدّراً لي أن أموت ثم أولد إنساناً آخر ـ أنا لا أملك إلاّ هذه الحياة. لذا يجب عليّ أن أصبح حقيقياً.

أتعرفين؟ ـ لقد كان غريباً أن تكون تلك الدفاتر قد احترقت منذ زمن بعيد، وتحولت إلى رماد، ولكني لم أبدأ بحرق ذاتي، ذات ذاك الذي كنته في الماضي، إلاّ هنا والآن.

أنت تدركين أني كنت أعمى. كنت أرى الكلمات، ولا أرى عبر الكلمات. كنت كمن ينظر إلى زجاج النافذة، لا إلى الشارع. كل ما هو موجود ولحظي يعكس الضوء. وهذا الضوء ينفذ عبر الكلمات، كما عبر الزجاج. الكلمات موجودة لكي تمرّر الضوء عبر ذاتها.

أنت تبتسمين: طبعاً، أنا مازلت أنا تماماً ـ لقد عاهدت نفسي ألاّ أكتب أبداً، ولكني أفكر الآن بأني قد أؤلف كتاباً حين أعود. وقد لا أكتب، هذا ليس مهماً.

ما أعانيه الآن أهم بكثير من مئات بل آلاف الكلمات. قولي لي

كيف يمكن أن أعبّر بالكلمات عن هذا الاستعداد للحياة الذي تطفح به نفسي؟

ساشينكا يا حبيبتي! لم أشعر من قبل أبداً بذاتي حية إلى هذا الحد!

تأملت ما حولي لدقيقة ـ الليلة مقمرة، والسماء ساطعة، ملأى بالنجوم، وتشبه السعادة إلى حد كبير. تمشيت وأنا أفرك أصابعي التعبة. ليلة مدهشة. القمر يضيء إلى حد تستطيع معه القراءة في ضوئه. الحراب تلتمع. الخيم مضاءة بنور القمر.

هدوء رائع، لا صوت.

لا، الأصوات تتناهى من كل مكان، ولكنها مسالمة رائعة ـ صهيل حصان، شخير في الخيمة المجاورة، أحدهم يتثاءب في المشفى الميداني، الزيزان تزقزق بين أغصان الحور. أقف وأتأمل درب التبانة. الآن، أرى فوراً ودائماً كيف يقسم درب التبانة الكون من طرف إلى طرف.

أقف تحت قبة هذا الكون، أتنفس وأفكر: يبدو أن هذا القمر يستطيع ببساطة أن يجعل الإنسان سعيداً. أما أنا فمازلت أبحث منذ أعوام عن براهين تؤكد وجودي!

يا لي من أحمق غير معقول، يا ساشكا!

ليذهب القمر إلى الشيطان، ولتذهب البراهين إلى الشيطان أيضاً!

ساشكا يا حبيبتي! أية براهين على وجودي أحتاج، مادمت سعيداً لكونك موجودة، وتحبينني، وتقرئين الآن هذه السطور!

أعرف أن الرسالة المكتوبة تصل إليك على نحو ما، أما غير المكتوبة ـ فتختفي دون أن تترك أثراً. هأنذا أكتب إليك، يا ساشينكا الحبيبة.

●

كنت مساء أمس أسير من محطة الترامواي عائدة إلى البيت، فرأيتها

من بعيد ـ تتجه نحوي.

أنتقل إلى الرصيف الآخر ـ وهي أيضاً.

تتجه نحوي مباشرة. نقف وجهاً لوجه.

مسرّحة الشعر، مرتبة الهندام، تبدو أصغر بكثير من سنها، وكأنها امرأة أخرى. شعرها مرفوع إلى أعلى، أذناها ظاهرتان. وقفت صامتة. وفجأة بدأ حاجبها يرتعش بعصبية.

قلت لها:

ـ يوم سعيد يا آدا لفوفنا!

حاجبها يرتجف.

ـ ألكسندرا، يجب أن أكلمكم، أن أكلمك. يجب أن تستمعي إليّ. يجب أن أتكلم.

أجبتها:

ـ لا داعي لذلك.

لا داعي لأن تقولي شيئاً يا آدا لفوفنا!

أنا أعرف كل شيء.

لقد أتخم الزوج بالإجاص.

ولسنوات طويلة قبل ذلك، ظلت امرأة الزوج تتساءل: ترى، من يحتاج إليّ؟

وحين انتفخ ما حول حلمتي نهديها، ابتهجت، فقد تعبت من الانتظار دون جدوى. وبدت كأنها (غولليفيراية) في الثامنة عشرة من عمرها.

فكّرت في أمر غولليفير ـ كيف كان يتبرّز؟ وكيف كان الأقزام المساكين يتصرفون تجاه ذلك كله؟ لقد تبوّل مرة، فكان بوله كافياً لإطفاء حريقة كاملة، تُرى ما ضخامة الجبال التي كانت تتحول إليها كل تلك الثيران والأبقار والأغنام في كل صباح؟! وفجأة أحسست بزيف كبير،

ولكن ليس بسبب استحالة وجود بشر بهذه الضخامة.

زوج أمي الثاني ـ إنسان سيئ الحظ. سيئو الحظ يتزوجون دائماً أرامل عندهنّ أطفال.

في زمن ما، في شبابه البعيد، أرسل سيمفونيته إلى موسيقار شهير، فلم يتلق أي رد. فيما بعد، في إحدى الحفلات، اكتشف موسيقاه في اللحن الجديد الذي ألّفه ذلك الموسيقار. منذ ذلك الحين انتقم من البشرية بلجوئه إلى العطالة التامة. صار يكسب رزقه من المرافقة الموسيقية في دروس الرقص، ويدفئ يديه على مشعّ التدفئة المركزية.

كان دائماً يقرأ بصوت عالٍ ما تكتبه الجرائد في باب الوقائع الطريفة، ويحب الأرقام. لقد انتحر بشر كثيرون في الأعوام الخمسة آلاف الأخيرة، لا أحد يعرف عددهم بدقة. غير أن ذلك العدد موجود. إنه موجود. حيّ حياة موضوعية مستقلة. هكذا وجدت أمريكا في زمن ما قبل كولومبوس. إذا كنا لا نعرف شيئاً لا نراه، لا نحس به، ولا نسمعه، ولا نستطيع تذوقه بلساننا، فذلك لا يعني أنه غير موجود.

الانتحار، بحسب الإحصائيات، يحدث غالباً في النهار ما بين الساعتين الثانية والثالثة، وفي المساء ما بين الحادية عشرة والثانية عشرة.

لقد ظن سيئ الحظ أنه بزواجه يقوم بعمل نبيل، فقوبل بالجحود. حين أحب، قال لحبيبته:

ـ أنا سعيد جداً بظهورك في حياتي، أنت منقذتي.

ثم تساءل في سره بعد سنوات كثيرة:

ـ هل حقاً تستطيع المرأة أن تكون منقذاً؟ إنها تساعدك على العوم، إذا كنت طافياً، وعلى الغرق، إذا كنت تغرق.

انتظرتِ طويلاً أن يبدأ زوج أمي النظر إليها بغير العين الأبوية، ولكنه لم يفعل قَط.

كانت الأم أياماً بطولها تدق مفاتيح الآلة الكاتبة بأصابعها. تَصَلّب

الجلد على رؤوس أصابعها فكأنه وسادات صغيرة صلبة. وصايا، توكيلات، صفقات، محاضر تفتيش، ترجمات محلّفة. وفي كل مرة كانت تفقد عملها حين كان رئيسها يختلس النظر من فتحة قميصها إلى أعلى النهدين، فيبقيها بعد العمل، ويغلق باب المكتب بالمفتاح ويحضر زجاجة نبيذ وكأسين، ويشرع في إقناعها بصوت متهدج:

ـ أعرف أنك تحبين زوجك، وأن وضعك صعب، وأنا أستطيع مساعدتك.

ترفض المساعدة، وبحركة رشيقة واحدة تفتح الباب.

صارت تعمل في البيت. ألم دائم في الرأس الذي تبلّد من الضرب على الآلة لساعات طويلة. كانت تضع الآلة الكاتبة على الوسادة. شريط الآلة مثقب مجعلك. ورقة الكربون مخردقة بالثقوب. تمد رأسها من النافذة لتدخن، فتبدو لها السماء بنجومها وَرَقة كربون مستعملة.

انتقلت بعد موت أمها مباشرة للعيش مع جدتها وجدّها كي لا تبقى في شقة واحدة مع سيئ الحظ المدمن على الكحول.

في الجنازة قالت لها الجدة:

ـ لا تفسدي جوّ التشييع، ابكي!

قالوا إن الأم ماتت بمرض القلب. قلبها الضعيف لم يحتمل.

لم يقولوا لها أن أمها انتحرت إلا حين أتمت السادسة عشرة. أروها الرسالة القصيرة التي كتبتها قبيل موتها... كانت الرسالة تنتهي بالعبارة التالية: "آدوشكا، من دون ألم حقيقي لا تنضج الروح. الإنسان ينمو بالألم".

في الواقع، ماتت الأم على هذا النحو: أفرغت على راحة يدها الزجاجة الصغيرة من بقايا الحبوب المنومة ـ لم يعدّ أحدٌ تلك الحبوب، ولكن عددها موجود في مكان ما، وهو حي ـ وألقت بها في إناء في المطبخ، سحقتها ثم غمرتها بمنقوع الكرز، فحصلت على ما يشبه

المخلوطة، حركتها بالملعقة، ثم أضافت إليها بعض الشراب لتصبح أكثر سيولة. صبّتها بعد ذلك في كأس وشربتها دفعة واحدة. أصغت إلى ما في داخلها، ثم أفرغت محتويات صندوق الأدوية وراحت تبتلع كل ما فيها من حبوب دون تمييز: حبوب للقلب منتهية الصلاحية، وحبوب لمعالجة حرقة المعدة، وأخرى لعلاج الربو، وحبوب لتنشيط الكبد.

جاء زوج الأم في وقت متأخر فرأى الزوجة نائمة فلم يوقظها. ما أدهشه هو فقط أنها نامت دون أن تخلع ملابسها.

ماما أبداً لم ترد أن تموت، بل أرادت أن ينقذوها ويحيوها.

بعد ثلاثة أعوام كتبت للعجوزين بطاقة بريدية: "عزيزيّ جدتي وجدي! أنا تزوجت. آدا". لقد فكّرت في أن تكتب لهما، ولكنها لم تكتب: "وأنا لا أستطيع أن أفهم أمراً واحداً ـ لماذا تُمنح كل هذه السعادة لي، أنا التي تعرف ذاتها الحقيقية، من الداخل؟"

الزوج شاب، غير متكبر، رقيق اليدين، حار الأنفاس.

قال لها بشأن الموهبة: هذه ليست إرثاً من الأبوين، إنها ـ اليقظة.

لم يكن لديهما ما يعيشان به، وقد رفض أن يساعده أبوه الأستاذ الجامعي، بل إنه لم يكن يتواصل معه عموماً. باعت القطعة الثمينة الوحيدة التي تملكها، خاتم زواج أمها، أما هو فكان يذهب في الليالي ليعمل حمالاً، وكان، في أيام الآحاد يغسل النوافذ في المؤسسات الفارغة، وأحياناً، واجهات المحلات التجارية.

تعلمت نسج عشّ لهما في البيوت المستأجرة، وعرفت كيف تحب الأثاث المخلّع في تلك البيوت الغريبة.

ذهبَتْ إلى العمل كي يتمكن هو من الدراسة. كان يتألم من عيشه على نقودها. أما هي فتقول له:

ـ ما بالك تقول هذا الكلام يا أحمقي الصغير؟ ألسنا زوجاً وزوجة؟

حين كانت تعمل في الجوقة الثانية، بعد الظهر، كانت تُعد له طعام

الإفطار، وتحمله إلى السرير كي يظل مستلقياً لفترة أطول، ولكي تستلقي أيضاً إلى جانبه فيداعبها. وكانت تستمع إليه وهو يحدثها عما كانت أمه تحضره من طعام، فتدخل في مباراة خفية معها، ولكن فطائر الأم كانت تظل هي الأفضل.

راح يقلّب ألبوم المكتبة ثم أشار بإصبعه:

ـ آدا، انظري، هذا نحن.

سيدة صلعاء تقف إلى جانب وحيد قرن مروّض.

سألته:

ـ ومتى أدركت أننا سنكون معاً؟

ـ حين خلعتِ النظارة فبدوتِ لي كما لو خلعتِ ملابسك: الغريب أنك خلعتِ النظارة فقط، فأدركت أني أحبك.

في الماضي كان يقص أظافره بسكينة جيب، أما الآن فهي تقصها له بمقص معقوف.

كانت تأخذ نقوداً من الأستاذ في السر. الأستاذ كان سيئ الهندام، ليس له مَن يعتني به، تنبعث من فمه رائحة كريهة ـ لقد كان كله غارقاً في علمه. إنه مريض تغطي كَفّيه قطعٌ من الجلد الميت. وفي كل مرة كان يقول لها في رجاء:

ـ إياك أن تخبريه أن هذه النقود مني. إن ذلك سيؤلمه.

كانوا يهدمون الأبنية من حولهم، فيحمل الزوج إلى البيت الأشياء التي تركها الناس، كراسي، وصوراً في إطاراتها، وعلاّقات برونزية... ذات يوم توفي أحدهم في المبنى المجاور، أفرغوا شقته، ورموا كل محتوياتها في القمامة، فجلب منها رزمة رسائل. ولسبب ما، كان يُغفلان قراءة عبارات مثل: قطتي الصغيرة! حبيبتي! حبيبي الحلو! حبيبتي "البشعة" تانيشكا! ربما لأن هذه الرسائل كانت لغرباء.

لقد شرح لها السبب الذي يجعله يسمح لنفسه بقراءة رسائل الغرباء:

ـ لأننا سنموت نحن أيضاً، بل نحن الآن ميتون من وجهة نظر الرسائل. لا توجد رسائل خاصة بالغرباء.

كان يصعقها في كل مرة أنه يقاسمها أفكاره التي لم تكن تفهم منها شيئاً. كانت تكتفي بحفظها عن ظهر قلب:

ـ في البداية، لم تكن الكلمة، بل الصورة ـ رسوم حروف الأبجدية هي أشكال فرعية مختصرة.

أو:

ـ أن تبدع ما هو مثلك وعلى شاكلتك ـ أمر يستطيعه كل كائن. القطة، والغيمة. علينا أن نصوّر الغابة بشكل يختلف عن رؤية الأشجار لها.

يضمّها بيديه الملطختين بالألوان المتراكمة عليهما، فتخرج بعد ذلك هكذا، مرقّشةً إلى الشارع.

كانت في النهار قوية ومستعدة لحمايته من العالم كله، وفي الليل كانت تحتاج إلى الارتواء بكاءً في أحضانه.

كل ما تحتاجه لسعادتها ـ هو أن تنظف المغسلة مما علق بها من رغوة حلاقة ذقنه.

تقلي له البيض عيوناً، تكسر البيضة على حافة المقلاة، هكذا انقضت مئة سنة.

ظهرت آثار تحسس على شفتها العليا، ولكنه كفّ عن تقبيلها منذ زمن بعيد، على كل حال.

عنده أخريات، هي لا تصدق. يجب ألاّ تعرف شيئاً مادامت هناك إمكانية لعدم المعرفة.

فجأة تصبح شكّالة الشعر المتعرجة الخفية مرئية.

رائحة عطر غريبة.

على طاولة زينتها أحمر شفاه ليس لها.

ـ لمن هذا؟

ـ ما معنى "لمن هذا"؟ أنت تتركين أشياءك مبعثرة في الشقة كلها!

ترى، كيف يداعب تلك؟ أيداعب تلك كما كان يداعبها هي، أم بشكل آخر؟

أي كلمات يقول لتلك، كيف يضغطها معانقاً عند اللقاء والوداع؟ إنه معها كالزجاج المكسور، أما مع تلك فلطيف، حار الأنفاس.

مسحَتْ بقعة على أرض الغرفة ولاحظت سحجات على الأرض الخشبية. فراحت تتخيل كيف كانت تلك تطقطق بكعبي حذائها الحادين، وكيف كانت طرقات الكعبين تؤثر فيه وتثيره.

من يدري، هل كان في حالات المداعبة الليلية النادرة يريدها هي بالذات، وليس تلك التي تتعبها لعبة "تعالي نتغير"؟

في الفراش، كانت تخشى ألاّ يكون ممسكاً بها هي بين يديه وهو مغمض العينين. طلبت منه:

ـ انظر إليّ!

كان أشد ما يؤلمها أنه كان يأتي بتلك إلى بيتهما. تأخذ تلك أشياءها، تلمس كل شيء، تضحك ساخرة وكأنها تقول: ما أحط ذوق امرأتك!

صارت تخاف أن تتمدد في السرير ـ تشعر كأنه ليس سريرها. تُرى، مَن فَرَد اللحاف، مَن أصلح الوسائد؟

أظافرها مقصفة ومهملة.

تحاول أن تتصور شعوره حين يعود إلى البيت، يعانقها، ويحس ببطنها الذي يضغط على جسده، بعد أن كان يعانق الأخرى الممشوقة القوام. كان يفك عرى حمالة نهدي تلك ويقبلهما.

كيف هما يا ترى؟

يذهب إلى مكانٍ ما فتظن أنه ذهب إلى تلك. إنها تظن دائماً ـ أنه

ذاهب إلى تلك، أينما ذهب.

هتف لهـا ليقول: إن كل شـيء عـادي، ويطلب منهـا ألاّ تنتظره على العشاء ـ هتف بينما كانت تلك تستحم.

كانت تراها في كل امرأة يعرفها.

تنظر إلـى ثوب تلـك وتفكّر ـ قـد يكون ذلك هـو الثوب الـذي فكّ أزراره. كانت تخشى أن تقول لها تلك:

ـ أنـت أرهقتـه بانعـدام الحـب، أمـا أنـا فأسـتطيع أن أعطيـه مـا لا تستطيعين. إنه يخفي عنك أنت الأسرار، أما أنا فيقول لي كل شيء.

هي لن تجد ما تجيبها به، مادام الأمر كذلك فعلاً.

الذنب ذنبها حقاً، فهي التي فقدت القدرة على أن تكون مختلفة. هو يخفي عنها خيانته ـ ذلك يعني أن عليها أن تسـامحه، لأنه يراعي مشاعرها إلى هذا الحـد، ويحرص عليهـا. ذلك يعني أنـه بحاجة إليهـا، وأنه يعرف قيمتها، ويخاف أن يزعلها، أو يشعرها بالإهانة.

الاعتراف ـ ليس نزاهة، بل قسـوة. وهو لا يريد أن يكون قاسياً تجاه إنسان قريب إلى قلبه.

الخيانة ـ ليسـت جسـداً، الجسـد موجـود بذاتـه دائماً. حيـن يكون الاثنان معاً، لا يهم أين يكون جسداهما.

هي لا تستطيع أن تخسره، لأنك لا تخسر إلا ما لا تملكه.

الإنسـان لا يسـتطيع العيش من دون حنان، والحنان دائماً يكون غير كافٍ، وسيكون غير كافٍ، لأن الحاجة إلى الحنان أكبر دائماً من أي حنان.

إذا وجد لنفسه متنفساً، فهذا يعني أنه كان يختنق.

كيف تستطيع الأخريات صدّه مادامت هي لم تستطع ذلك؟

صمتت، تظاهرت بأنها لا تلاحظ شـيئاً، وأنّ كل شـيء على ما يرام. خافت من الكلمات ـ الكلمات لا تفعل شيئاً غير الهدم، فجأة قال لها:

ـ حين تلمسـني تلك أرتعش. أما أنت فلا أشـعر معك بشـيء. إنني،

في الواقع، أخونها معك.

لا كلمة، ولا عتاب، ولا سؤال. شعرت بالألم، ولكن ألمها كان بارداً. لم تغضب منه ـ هو أيضاً يتألم. وقد صار أكثر طيبة بسبب شعوره بالذنب.

حين كانت تلك تهتف له ـ كانت تناديه ليكلمها، أما هي فتذهب إلى الحمام وتفتح صنبور الماء كي لا تسمع شيئاً.

كانت تخاف أن تشم رائحته، أو تبحث في جيوب ملابسه قبل غسلها فتجد فيها ما لا تحب ـ كانت تطلب منه أن يفتشها بنفسه، فقد يكون نسي شيئاً ما في أحد الجيوب.

حرصت على أن تكون خفيفة الظل في تعاملها معه ـ تقبّله كما تقبل الأخت أخاها قبلة الوداع في الصباح:

ـ إلى اللقاء!

قررت أن تعيش كما لو أن العالم لا ينهار، فلا تتجول باكية في أنحاء البيت، تغسل ملابسه وتكويها، لأنه إذا ذهب إلى تلك بقميص غير مكويّ ـ ستشفق تلك عليه وستكويه له.

حين ظهر المرسم أصبح الأمر أكثر سهولة، صار يقضي الليل هناك وينام على الأريكة. في الصباح، حين كانت لا تريد أن تنهض وتحيا، ـ تبتسم، وتبتسم مرة أخرى، و...

تقول للسقف غير المدهون منذ زمن، كلمات الشكر.

الأولاد ليسوا بذوراً تنمو.

ولدت طفلة، ولادة متأخرة، انتظرتها طويلاً، وصلّت لأجلها. كان رأس الوليدة كبيراً ـ عند الولادة مزّقت فرج أمها تمزيقاً.

تولد القردة فتمسك فرو أمها فوراً، أما الطفل فلا يجد ما يمسك به عند ولادته ـ إنه يولد عارياً، لا شيء يحميه.

الموجة الحارة التي انبعثت بميلاد الطفلة وحّدَتْهما من جديد ولكن

بشكل مختلف... ومن جديد صار واضحاً سبب وجودهما معاً.

حليب الأم كان شحيحاً، وهذا ما جعلها تغار من زجاجة الحليب.

كان يحب أن يغيّر ملابس ابنته، ويقول: إن أصابع قدميها تشبه حبات السكاكر.

بعد ولادة سونيتشكا، لم تكن راغبة في المداعبة، وهو أيضاً، لم يكن يلح في طلب ذلك. وهكذا مضت مئة سنة أخرى.

أمراض الطفلة كانت تستهلك جسدها وروحها، وهذا ما جعل إدراكها لإعراضه عن حبها أكثر سهولة. صار من الممكن الآن أن تلوم نفسها لأنها لم تعد تهتم به بسبب الطفلة، الأمر الذي يشعره بأنه مهجور ووحيد. كانت، حين تمرض الطفلة، لا تفكر إلا بمرضها، ويكفّ كل شيء آخر عن الوجود بالنسبة إليها.

قاما بتثقيب أذني الطفلة. الزوج لم يتمالك أعصابه فخرج من عيادة الطبيب مبتعداً عن صراخها. أما هي فوضعت رأس ابنتها الصغير على ركبتيها، وثبتته بيديها كما لو كانت تثبته بين فكّي كمّاشة. نظرت سونيا إليها من أسفل إلى أعلى بعينين خائفتين، لا تفهمان سبب تعريضها لهذا الألم، وصرخت مستسلمة، لا تحاول الإفلات.

تلمست أمام المرآة بشرتها تحت العينين ولم تصدق ـ ما أكثر هذه التجاعيد! بدأ شعرها يتساقط، سدّ مجرى الماء في الحمام ـ جمعت منه كومات مبللة متلبدة. كفّت عن الابتسام لئلا تظهر أسنانها المتآكلة ـ أما تلك فكانت تتثاءب بمتعة مظهرة ما في فمها من نضارة وصبا، وصحة.

كان أصدقاؤه يسخرون منها في الخفاء، إنهم يعرفون كل شيء طبعاً.

في بعض الأحيان، كان يترك لها رسالة صغيرة يخبرها فيها أنه لن يعود ليلاً. وقد كتب لها ذات مرة: "أنت تزوجت في يوم من الأيام، عبقرياً، ولكنك الآن تعيشين مع عجوز أناني فارغ".

ازداد حبها له بعد هذه الرسالة.

كثيراً ما كانت تتذكر كيف أحست ذات يوم بالوهن فأغمضت عينيها، وشعرت فجأة بالسعادة. الأرجح أن السعادة يجب أن تكون هكذا، لحظية كوخزة الإبرة: تبرّزت الطفلة، رائحة البول تفوح من حفّوضتها، النقود نفدت، الطقس رديء منفر، الحليب فار، ولا بد من تنظيف الموقد الغازي، في الراديو يتحدثون عن زلزال، حرب في مكان ما، كل هذه الأمور مجتمعة هي السعادة.

مئة عام أخرى مطيرة. وأيضاً...

إنهما منذ زمن بعيد يتقاسمان الطاولة، أكثر مما يتقاسمان الفراش. هما ليسا زوجين، بل جليسين إلى طاولة واحدة. يخلعان ملابسهما دون أن ينظر أحدهما إلى الآخر، ينامان كل على طرفه في السرير ـ السرير كبير والوادي الذي بينهما كذلك. رأسها لم يعد يستند إلى كتفه... المسافة التي تفصل في ليالي الشتاء بين كائنين يشعران بالبرد، صغيرة جداً، ولكن من المستحيل اجتيازها.

في سرير الزوجية يستيقظ هو أو هي بسبب الإحساس بالوحدة. تأملت، دون سبب محدد، كيف ينام ـ وجهه هرم تماماً.

ظهر صوت جديد في البيت ـ صوت اصطفاق الأبواب.

كان يصرخ شاتماً حياته، وكانت تتلقى ذلك مدركة أنها هي حياته. شجارات، طويلة ومرهقة، على وقع نقنقات طفلة مريضة.

حمل مرّة إبريق الشاي وكان ممتلئاً بالماء الغالي، فخافت أن يرشقها بمائه، لكنه تمالك نفسه وسكب الماء في حوض صبار على حافة النافذة. فيما بعد رمت الحوض ومحتواه في الزبالة، ثم عادت حاملة السطل. كانت رائحة الصبار ما تزال عابقة في المطبخ.

وفي أحد الأيام راح يصرخ في وجهها وهو ثمل:

ـ لا تحملي إليّ حذائي المنزلي بين أسنانك!

لم يتعلم أن يحكم إغلاق الستارة في الحمام فكانت تضطر في كل مرة إلى تجفيف الأرض بالممسحة بعد أن يستحم.

ولم يكن أبداً ينظف بالفرشاة حوض المرحاض مما يعلق به.

كان يحتقر أصدقاءه الذين يحرزون أي نجاح، وكانت هي من يناله الشتم جراء ذلك. لقد تصورت ذات يوم أن حياتها مجرد ممسحة. يكتب القدر عليها شيئاً، فيمسحه بها فوراً ـ هكذا تدوس حياته حياتها على دفعات. وحين تواجهه عثرة ما، تضع نفسها على الفور حامية له.

في زوايا البيت تتجمع كومات من الغبار، تركض هاربة من المكنسة وكأنها وحوش صغيرة. تساءلت: ترى ما الذي يغذيها؟ وفجأة أدركت ـ أعوام عمرها.

كان يرمي جواربه أينما اتفق. فتافيت الطعام فوق رفوف المكتبة، قصاصات الأظافر على الطاولة. المشكلة الأكبر هي جواربه. هذه ليست قضية تافهة. إنها نقاط علاّم. الناس يتصرفون كالحيوانات، ولكنهم لا يستطيعون أن يتذكروا سبب ذلك. الناس يحددون مساحتهم الحيوية برائحة أقدامهم. الحيوانات كلها تعرف ذلك، فتمشي حافية. ها هي ذي دونكا تحب أن تمرّغ وجهها بالأقدام أو الأحذية المنزلية فتدغدغ خيشوميها رائحةُ أصحاب البيت اللذيذة. كلما ازدادت الحياة المشتركة بين الناس صعوبة، ازدادت نقاط العلاّم التي يضعونها.

كانت تخاف أن يقول لها ذات يوم:

ـ أنا أحب أخرى. وسأذهب إليها.

أما هو ففعلها وقال ما كانت تخشاه.

كان قد حضّر سلفاً الكلمات التي سيجيبها بها إذا هي توسلت إليه ـ وهي توسلت إليه فعلاً ـ أن يبقى كرمى للطفلة. قرّر أن يقول لها، بل قال:

ـ الشيء الوحيد الذي يستطيع الوالدان أن يقدماه للطفل، هو أن يكونا سعيدين. أنا معك غير سعيد. أما معها فسعيد. الناس التعساء لا

يستطيعون أن يقدموا السعادة للأطفال.

هي نفسـها كانت تعرف أن ـ كرمى للطفلة ـ عبارة لا تعني شيئاً. هي فقط كانت تخاف أن تبقى وحيدة، فما من أحد سيحبها بعد الآن.

قالت له، وهي نفسها غير مؤمنة بما تقول:

ـ لا تؤجج النار! دعنا نؤجل الحديث إلى الصيف. تمهّل!

من الخير لكما، أنتما الاثنان، أن تتأكدا من عواطفكما، أن تختبراها. قد يكون الأمر مجرد نزوة عابرة ستبرد بمرور الزمن. إذا كان الأمر كذلك فلماذا تحطّم حياتنا؟ إن أردت الذهاب إليها حينذاك ـ لن أمنعك.

هو أيضاً لم يصدق ما قالته.

ـ هي فقط من فهمت معها معنى الحب.

ـ وماذا عني؟

ـ وماذا تريدين مني أن أقول؟

ـ قل: كانت غلطة.

ـ صحيح، هذا أنت، أنت ـ غلطة!

التقطت آنية تركتها سونيا، ملأى بماء عكر من حوض السمك، وقذفتها على خزانة الأواني الزجاجية. تهشم كل شيء. وامتلأت الغرفة بشظايا الزجاج والماء الملوث. قفزت الطفلة من سريرها ووقفت في الباب حافية.

ـ قفي! لا تدخلي!

هرع الاثنان إلى سونيا. تزحلق فجرح يده بشظايا الزجاج. أما هي فحضنت البنت وحملتها إلى السرير، مددتها فيه، وهدّأتها، ثم خرجت رادّة الباب وراءها. تابعا الشجار همساً.

لم يتوقف نزيف الدم، والكره أيضاً.

حين انتهت الكلمات، لطّخ صدر قميصها بالدم النازف من يده ومضى ـ متجاوزاً الزجاج المهشّم بقرف.

انهارت فوق السرير وأجهشت بالبكاء، ليس أسفاً على الآنية المحطمة، بل على الزمن الطويل الذي قضته لتجد نفسها مهجورة.

ظلّت تنظف الغرفة حتى منتصف الليل، ثم أخذت سونيا إليها في السرير. تقلبت البنت طويلاً، وقُبيل الفجر كانت تنام في عرض السرير مزيحةً أمها إلى حافته تماماً.

انقضت مئات السنين.

كانت الأماسي التي يأخذان فيها سونيا أصعب الأوقات. تهيم في الشقة الفارغة وتفكّر.

لقد فهمَتْ فجأة أنه لا صديقات لها. صديقاتها اختفين في أماكن مجهولة ففقدتهن بمرور السنين، ولم يبق غير أصدقائه. إنهم يتكلمون معها الآن بلهجة مختلفة. جميعهم صاروا مشغولين. وهي، أيضاً، لم تكن ترغب في النظر في عيون أولئك الذين كانوا يعرفونها منذ زمن بعيد.

كانت، من قبل، تخلع جواربها، فتقوم دونكا بلحس أصابع قدميها وهي تهز ذيلها، أما الآن فهي تلحس قدمي تلك.

جرّبت أن تسكر، اشترت زجاجة نبيذ ـ حامضة، لم تستطع إرغام نفسها على الشرب، فسكبت الشراب في حوض المغسلة.

تتمالك نفسها أحياناً، وأحياناً لا ترغب في ذلك. تحشر أنفها في جورب قديم من جواربه، وتنهمر الدموع من جديد.

لا أحد يشخر بالقرب منها، أو يدفعها بقدميه، أو يدعك اللحاف ويجمّعه في كومة.

معدته مريضة، فهل ستحرص تلك الصبية على أن يكون في فطوره طبق من الحبوب المطبوخة، وهل ستهتم عموماً بألاّ يُكثر من أكل الأطعمة المالحة؟

لقد فهمَتْ ما الذي كان ينقصه في حياتهما، كانت تنقصه حياة أخرى. ماذا لو هتف لها فجأة ثملاً، تعيساً، نادماً، بينما هي خارج

المنزل؟ أظنه كان يرغب في الاعتراف بأنه أكبر الحمقى، وأنه يطلب منها السماح! وأنه يحبّها وسيعود إليها. لقد تعب ويريد أن يأتي فيضع رأسه على ركبتيها، فكل شيء في الدنيا يجب أن ينتهي على هذا النحو ـ بعد أن يجتاز الرجل التجربة، يعود إلى حبيبته ويضع رأسه على ركبتيها.

كانت تحرص على البقاء في البيت، بل لم يكن عندها مكان تذهب إليه، تشرب العنبرية المصنوعة من منقوع التوت البري، وتراقب جرس الهاتف. ترفع السماعة من وقت لآخر ـ تسمع الصوت ـ الهاتف غير معطل. هرعت مرة من الحمام عارية تماماً كي ترفع السماعة قبل أن ينفصل الخط. كان المتصل سونيتشكا التي حدثتها عن هدايا أبيها.

سونيا تعود في كل مرة محملة بالهدايا، فخافت أن ينجح بمرور الزمن في استمالة الطفلة إلى جانبه.

لامته حين أتاها بالطفلة مساء يوم الأحد:

ـ أنا، إذن، أكون ملحاحة منفّرة طول الأسبوع، أعنّفها، أمنع عنها الأشياء، أتحامل عليها، أطالبها، أربّيها، وأنت ـ تتظاهر بالطيبة، تفسد الطفلة فلا تسمع منك كلمة «لا»، تدلّلها، تعلّمها ما لا أستطيع أن أسمح لها به!

لاحظت أنه لايزال يرتدي الكنزة التي حاكتها له.

سونيا ترقص فوق السرير وتتفاخر:

ـ انظري أي ساعة أهداني أبي! أتسمعين؟ تتكتك كالزيزان!

صرخت بصوت آمر:

ـ هيّا، نامي فوراً!

هي لا تغفو مع ألعابها الجديدة، بل مع نمرها الصغير الذي تساقط وبره.

صار يرسل إلى الطفلة بطاقات عليها رسوم مختلفة ـ ثعالب، أرانب، كائنات مشوهة برأسين، بثلاث عيون، بساق واحدة، وكلها تبتسم

وتلوّح بأكفّها، تناديها. في البداية، رمتها في القمامة، ثم كفّت عن ذلك حين لاحظت أنها تحمل أرقاماً متسلسلة... صارت سونيا تعلّقها بدبابيس على الحائط فوق سريرها. وتتحدث معها قبل النوم.

كانت تطبخ الحبوب لعشاء سونيا، فأطالت النظر عبر النافذة. المارة هناك كتلة شاحبة اللون. كانوا يسرعون في السير ولا يعرفون أنهم سعداء. احترقت الطبخة، فجلست إلى الطاولة مسندة رأسها إلى يدها وأجهشت بالبكاء. دخلت سونيا في تلك اللحظة:

ـ ماما، ما هذه الرائحة؟ ماذا بك؟ أنت تبكين؟

شرعت تهدّئها كما لو كانت امرأة ناضجة، وتمسّد شعرها:

ـ هوّني عليك، ماموشكا، الأمر لا يستحق كل هذا، مجرد صحن حبوب!

كانت سونيتشكا قد كفّت تقريباً عن التبول في السرير، أما الآن، بعد رحيله، فكل شيء عاد من جديد.

قرأتا كتيّباً للأطفال، حيث تذهب البنت إلى سوق للأشياء المستعملة يبيعون فيه دمى قديمة، فتدرك فجأة أن الدمى ـ بنات ميّتات. كيف يكتبون للأطفال مثل هذه الأشياء؟

في الطريق إلى المستوصف، سألت سونيتشكا بصوت مرتفع سمعه كل من في الحافلة:

ـ ماما، هل هجرنا بابا بسببي؟

في العطلة، أخذنا منها سونيا لمدة أسبوع. كفّت تقريباً عن الخروج من البيت، لم تعد تحمل القمامة إلى الحاوية المخصصة لها، أو تجلي الأواني، أو تبدل ملاءات السرير، أو تكوي الملابس الداخلية. ولم تعد تصارع وحوش الغبار الصغيرة بخرقة مبللة. استسلمت. لقد بدا لها ذلك نوعاً من العقوبة، فتحولت عن الطعام الخالي من السكر إلى أكل الشوكولاتة. وهذا عقوبة أيضاً.

شعرها يتدلى خصلات قذرة شيبها يثير الخوف.

نظرت في المرآة إلى التجاعيد حول عينيهـا، وجلد وجنتيها الجاف، ورقبتها الذابلة. المـرأة تجف من الداخل أولاً، تجف روحها، ثم جسـدها بعد ذلك.

تسـاءلت: كيف حدث هـذا؟ ـ ها هـي ذي العروق تمتـد كالجداول على ساقيها، وشعرها يشيب. لقد بدأت منذ زمن تفارق جسدها.

نظرت إلى صورهـا في اللوحـات المعلقة على الجـدران، وتذكرت كيف كانـت تتخذ الأوضـاع المختلفـة ليرسـمها، وكيـف كان يتوقف عن الرسم ليقبل كل مكان في جسدها. إنها الآن تتساءل:

ـ من تلك التي على قماش اللوحة؟ ومن أنا إذن؟

صارت تكلم نفسها:

ـ يجب أن أفتـح طاقـة التهوية، ثم أذهـب إلى المطبـخ لأضع إبريق الشاي على النار. أتسمعين؟

ـ لماذا؟

ـ لأن على الإنسان أن يحب نفسه، لو مؤقتاً.

ـ يحب نفسه؟ لماذا؟

راحت تتخيل ـ إنها تستحم الآن تحت الدوش، ترتّب نفسها، ترتدي ملابسـها، تتبرج، تشـتري لنفسـها عند محطة الحافلات باقة مـن الزهور. الآن سيحدث شيء ما.

وقد حدث.

ـ آدا!

التفتت.

إنه الطبيـب البيطري الذي كانـت تأخذ إليه دونكا. سونيتشـكا كانت تسـميه الدكتور آيواوا. إنه يعالج الجميع ويشـفيهم هذا الدكتور آيواوا! لم يقل أحد للبنت الصغيرة أنهم يأتونه بقطط صحيحة لا تشكو من شيء، ثم

يأخذونها من عنده مخصية، مقلّعة الأظافر.

ـ آدوشكا، الحرية أنفع لك، كم تحسّنت! الجميع يعرف كل شيء.

أحاط خصرها بيده، قبل اليوم لم يكن يسمح لنفسه بشيء من ذلك. ضحك ضحكة وقحة.

ـ لمَ لا نتعشى سويّة مادمنا قد التقينا؟

قالت في سرها: ها هي ذي المعجزة.

ـ ولمَ لا؟ ادعني إلى المطعم، واطلب لي طبقاً غالي الثمن!

جلسا في الزاوية، تحيط بهما المرايا.

ظل النادل واقفاً بقربهما، ينظر إلى شكله في المرآة، يصحح وضع ربطة عنقه، وياقة سترته.

كان آيواوا يروي لها حوادث مضحكة صادفته في العمل. وكانت هي تقهقه ضاحكة. انحنت النادلة وهي تلمّ الصحون الفارغة، انحناءة كبيرة فوق الطاولة متيحة للبصر أن يتسلل عميقاً وراء فتحة قميصها. اختطف نظرة، ثم ابتسم وكأنه يعتذر عن فعلته، نحن ـ عبيد الغرائز.

ـ حين تقضي حياتك كلها بين السماعة والتخدير، تصبح رومانتيكياً رغماً عنك.

سألته، بعد أن شربت كأس الشمبانيا عن آخره ووضعته أمامها ليصب لها المزيد:

ـ إذا كنت طول حياتك تحب شخصاً محدداً، فهل تستطيع أن تحب غيره؟

ـ ما بالك تطرحين هذا السؤال للمرة الثالثة؟!

ـ للمرة الثالثة؟

الآن فقط، أدركت أنها ثملت منذ زمن.

بدا لها أن الجميع من حولها يعرفون إلى أين ستذهب الآن، ولماذا.

رأت في المرآة، وهي خارجة من المطعم، كيف راح النادل يلعق ما

تبقى في الصحن.

حين خرجا من المطعم راح آيواوا يقبل شفتيها، أما هي فتعلقت برقبته وقالت ترجوه:

ـ إلى أي مكان إلا بيتي!

ذهبا إلى بيته، انتعل حذاءه المنزلي في العتمة، وهمس:

ـ لا تقلقي، زوجتي والأولاد في البيت الريفي.

حين شرع آيواوا ينزع عنها سراويلها، أجهشت بالبكاء واعترفت من خلال دموعها، بأنها لم تنم مع رجل منذ أعوام. أما هو فقال في سره: «حسناً، هذا يعني أني لن أصاب بأية عدوى».

شخر، وانتفخت أوداجه، لكنه لم ينجح.

دخل إلى الحمام وأغلق الباب وراءه.

انتظرته طويلاً ثم ارتدت ملابسها على عجل وانسلّت خارجة من الشقة.

خطرت في بالها فكرة ـ لو كان الوقت شتاء لكان بإمكانها أن تسكر حتى تفقد الوعي وتتجمد في الشارع.

لم تكن تخاف الموت، بل ما سيحدث بعده. سيتفحصونها عارية، ثم يفتحون بطنها ليتأكدوا من شيء ما لا يحتاج إلى تأكيد.

ـ كل ما في الأمر ـ تناول مسحوق.

لسبب ما تخيلت أنها تهيل الماء في حوض المرحاض آخر مرة في حياتها. عادت فضغطت نابض صنبور الماء مرة ثانية.

أخذت حفنة من الحبوب وراحت تبتلعها. نسيت أن تحضر شراباً يساعدها على البلع ـ ذهبت إلى الحمام وشربت ماء من الصنبور مباشرة.

كانت الحبوب كبيرة الحجم فلم تستطع بلعها ـ اضطرت لكسرها.

جلست على حافة حوض الاستحمام وأخذت تكسّرها.

تذكرت أنها أقفلت باب الشقة، يجب أن تفتحه. في أثناء اجتيازها

لأرض الغرفة، شعرت بالدوار.

تمددت في السرير.

بدأ الطنين في رأسها. تراقصت الغرفة ودارت زاحفة. قرّبت الهاتف إليها وطلبت الرقم.

رفعت تلك، الأخرى، السماعة. كان النعاس يغالبها فلم تفهم شيئاً.

ـ ناديه، أريد أن أكلّم زوجي!

ـ أتعرفين كم الساعة الآن؟

ـ لا.

أخذ السماعة.

ـ ماذا حدث؟ هل جننت؟ لقد أيقظت سونيا!

ـ ابتعلت حبوباً. أنا خائفة. أنا لا أريد أن أموت. تعال، أرجوك!

ثقل لسانها وتعثرت حركته.

ـ اطلبي الإسعاف!

ـ تعال!

ـ دعيني أطلب لك الإسعاف!

ـ أرجوك!

ـ كم أكرهك! سآتي حالاً.

ـ لا تصطحبها معك!

ـ حاضر، لن أتأخر، وأنت، حاولي أن تتقيئي.

ـ انتظر!

ـ ماذا تريدين أيضاً؟

ـ أنا أحبك.

ـ أنا قادم، قادم!

تلك، الأخرى، تريد أن تنام. يجب أن تذهب باكراً في الصباح إلى العمل.

■

حبيبتي ساشينكا!

ها هي ذي الورقة البيضاء أمامي من جديد ـ إنها وسيلتي للتواصل معك. لكن، من جهة ثانية: كيف تستطيع ورقة غبية أن توحّدنا في حين أن كل ما يفرّقنا يبدو تافهاً، لا معنى له! كيف يمكن أن توجد حواجز تفرّق بيني وبينك؟ أنت، أيضاً، تشعرين الشعور نفسه، أليس كذلك؟

حبيبتي الجميلة! ليتك تعرفين كم أودّ العودة إلى البيت!

لعلّ هذا هو السبب الذي يجعل كتابتي إليك مهمة جداً. حين أكتب، أشعر أني في طريق العودة.

طلب مني كيريل اليوم أن أسلّم حقيبته إلى أمه في حال إصابته. ثم ضحك ضحكة قصيرة وقال:

ـ إنها، طبعاً، لن تفهم من هذا كله أيّ شيء.

إنه دائماً، يتكلم عليها بهذه الرقة.

هنا، في هذا المكان البعيد، بدأت أفهم أن كلّ سوء التفاهم بيني وبين ماما، وكل عدم حبي لها، كان هراء.

أنا الآن مستعد للصفح عن كل إساءاتها، والاعتذار منها عن كل ما عانته بسببي.

أتمنى أن أبدأ بالاعتراف لها بشيء ظل يعذبني كل هذه السنوات، دون أن أتمكّن من الاعتراف به. أتفهمين يا ساشينكا؟ القصة غبية جداً. كنت ألعب بقطع نقود على حافة النافذة. أتذكرين الحافة العريضة لنافذة بيتنا؟ أم أنها بدت لي عريضة هكذا، آنذاك؟ حسناً، كنت ألعب بقطع النقود ـ أوقفها على حدّها، وأنقرها بإصبعي، فتدور وتتحول إلى كرات صغيرة رنّانة، شفافة، فوقع بصري على مزهرية عريضة من الكريستال، وضعت فيها ماما زينتها ـ بكلاتها، وأساورها، وأقراطها، وخاتماً، هو

خاتم الزواج الذي أهداها إياه الأعمى. وفجأة، شعرت برغبة شديدة في أن أجعل ذلك الخاتم يدور على حافة النافذة مثل قطع النقود!

حاولت مرات عدة ولم أنجح، كان الخاتم ينطّ ويسقط على أرض الغرفة. ولكني نجحت في النهاية! كان ذلك جميلاً جداً ـ كرة ذهبية، مثقوبة، نصف هوائية، ترسم دوائر على حافة النافذة وهي تطلق صفيراً خافتاً. لقد أعجبت خصوصاً بالصوت الذي كان الخاتم يرسله وهو يدور على جانب واحد مصطدماً بأرضية الحافة قبل أن يتوقف. لكنه حين عدت ونقرته بظفري مرة ثانية، قفز من النافذة.

هرعت إلى الشارع، بحثت عنه، بحثت طويلاً ولم أجده. لعلّ أحدهم وجده فحمله معه.

في البداية، أردت أن أقول لأمي كل شيء، ولكني لم أقل، وهي، أيضاً، لم تسأل. فيما بعد، سألت، لكن وقت الاعتراف كان قد فات، فقلت لها أني لا أعرف عن الأمر شيئاً. عانت ماما معاناة شديدة، ولم تستطع أن تهدأ ـ ترى، من الذي سرق خاتمها؟ شكّت بأناس بريئين تماماً. لقد سمعتها تقول لأعماها أن سارق الخاتم هو، على الأرجح، جارتها، ثم قررت أنه الطبيب الذي استدعياه، حين كان عمّي مصاباً بنزلة برد.

كان ذلك يخجلني خجلاً فظيعاً، لكني بقيت صامتاً.

أنا الآن مستعد لإخبارها بكل شيء.

أفكّر فيها، فأتذكر أشياء صغيرة منها، مثلاً، أنها كانت دائماً تضع على عينيها عصابة سوداء عند النوم، فهي لم تكن تستطيع أن تغفو إذا كان الضوء ينفذ إلى الغرفة.

كنت في الطفولة أحب رائحة التبغ العالقة بملابسها. كانت تدخن سجائر ذات رائحة متميزة، وتستجيب، إذا كان مزاجها جيداً، لرجائي فتطلق من بين شفتيها الدخان على شكل حلقات متداخلة، بل حتى على شكل الرقم 8..

حين انتقل الأعمى للإقامة معنا، منعها عن التدخين، فكانت تدخن أحياناً في الخفاء، عبر النافذة، وتطلب مني أن يبقى ذلك سراً بيننا.

أذكر، حين كنت مريضاً، كيف جاءت من الشارع المتجمد، فلم تلمسني إلا بعد أن دفّأت يديها تحت إبطيها ثم لمست بهما رقبتها لتتأكد من أن أصابعها باتت دافئة.

فيما بعد، حين بدأنا ندرس الرياضيات، بدت لي مضحكة وهي تطالبني بتحضير الدروس، مع أنها لم تكن قادرة على حلّ، لو مسألة واحدة من مسائل الكتاب.

بعد فترة وجدتُ عدداً من الصور الفوتوغرافية القديمة، كانت فيها مع رجل، غير أبي، فدهشت لأول مرة، إذ اكتشفت أني لم أكن أعرف عنها إلا القليل. ولسبب لا أدريه، بدا لي أن سؤالها عن ذلك الرجل الذي انطبعت صورتها معه إلى الأبد تحت شجرة النخيل، أمر مستحيل تماماً، مع أنه أمر في غاية البساطة.

والآن يدهشني أن أحاديثنا كلها كانت على هذه الشاكلة ـ تصرخ:

ـ كائن صحيح، ضخم، وتقضي الأيام بلا عمل!

ـ أنا لا أقضي الأيام بلا عمل، أنا أفكر.

ثم أصفق الباب في وجهها.

دخلت إلى غرفتي ذات يوم، في وقت متأخر من المساء، يبدو لي أنها كانت تريد التحدث إليّ في أمر مهم. تمددت على الأريكة وتظاهرت بالنوم. غطّتني باللحاف، ووقفت قليلاً بجانبي، ثم خرجت.

غير أن أهم ما أريد الاعتذار عنه الآن هو علاقتي بالأعمى.

عدت مرة مسرعاً من الباحة إلى البيت فوجدته في غرفتي ـ كان يتلمس كل شيء. أقمت لأمي حفلة هستيرية، طالباً ألا يتجرأ فيدخل إلى غرفتي أو يلمس شيئاً من أشيائي. أما هي فبكت وراحت تصرخ في وجهي. بدأت تنتابها الهستيريا أيضاً. وهكذا صار كل منا يصرخ في وجه

الآخر دون أن يسمعه.

الآن فقط فهمت كم كان صعباً عليها التعامل معنا، نحن الاثنين.

لم يكن يحرجها أبداً كون زوجها أعمى. في المقهى، كان النادل يتوجه إليها بالسؤال عن طلباتهما: أما بالنسبة للناس الذين ألفوا التواصل بواسطة العيون، فقد كان من الطبيعي أن يتوجهوا إلى مرافقة الأعمى. التي تعوّدت أن تجيبهم ضاحكة:

ـ اسألوا زوجي، فهو لن يأكلكم!

يبدو لي أنها كانت، على العكس، تشعر بأهميتها لارتباطها بأعمى. أذكر، كيف زارتنا بنت إحدى معارفنا، عرفتها من قبل فتاة جميلة جداً، غير أنها تعرضت لحادث مأسوي. كانت تجلس على أريكة مع كلب صاحب البيت تلاعبه، لم يكن الكلب منزلياً، بل كلباً التقطه صاحبه من الشارع. ويبدو أن البنت قامت بحركة أجفلت الكلب فعضها في وجهها مباشرة. كانت غادة جميلة، فصارت مشوهة. وقد جاءت إلى أمي تطلب منها أن تساعدها في التعرف إلى شاب أعمى.

لقد فعلت كل ما بوسعي كي أنكّد عيشهما، أما هما، فكانا، على الأرجح، متحابين ولا يفهمان ما الذي يجعلني قاسياً إلى هذا الحد.

أحاول الآن أن أتذكر أنه صرخ في وجهها لو مرة واحدة ـ لا أذكر شيئاً من هذا. على العكس، حين تعثّرت أمّي وتمزقت أربطة مفصل قدمها رعاها عمي برقّة كبيرة وكان يحمل إليها الطعام في السرير... أذكر، كما لو أني أراها الآن، كيف كانت تقفز على عكازيها في الممر قفزات غير رشيقة، وهو يمشي إلى جانبها، مستعداً لنجدتها ومنعها من السقوط.

أذكر أن ماما، كانت تنظر في المرآة دائماً وتتحسر، أما هو فيقترب منها، يضمها من الخلف، ويقبلها مبتسماً ابتسامته العوجاء. إنه لمن امتيازات الأعمىٰ أن يكون كما هو فعلاً، لا كما تريده المرآة أن يكون.

وأذكر أيضاً أني كنت أدرس استعداداً لامتحان الفيزياء، أدمدم شيئاً

ما، حين قال فجأة:

ـ الضوء يقطع في ثانية واحدة مئات آلاف الفراسخ ـ وذلك فقط من أجل أن يصلح أحدهم وضع قبعته أمام المرآة!

لقد بات واضحاً تماماً بالنسبة إليّ، وفي تلك اللحظة، أن الضوء يسرع كل تلك السرعة عبثاً.

كان يقرأ كثيراً ـ تدخل إلى غرفتهما، المكان مظلم، فارغ، تدير مفتاح النور، فإذا به جالس على الأريكة وعلى ركبتيه كتاب ضخم. كان يستعير تلك الكتب الخاصة بالعميان من المكتبة، ويتذمر من كونها قرئت حتى اهترأت صفحاتها وانمحت الأحرف المكتوبة بخط بريل تحت الأصابع.

وكان عمي يكتب الشعر أيضاً. يخرج في قلب الليل إلى المطبخ، كي لا يزعج ماما النائمة، يجلس في العتمة ويثقب الورقة بمسلّته بسرعة كبيرة.

وكثيراً ما كانت ماما تكرر السطور التي أحبتها من شعره:

ـ دفئك في العتمة، عوّضني عن النور...

عندهما في الغرفة أكوام من الورق السميك المثقب بالمسلّة. لقد حاول حقني بحب علم المسكوكات. كان عمي يجمع قطع النقد القديمة، وكان بمقدوره أن يظل يقلّبها لساعات، وكانت لديه بعض القطع النادرة المفضلة ـ لقد أحبها عن طريق اللمس.

أنظر إلى جحري عينيه الغائرين، وهو يحدثني عن بانتيكابيا، عاصمة مملكة بوسبورسك. أذكر تلك القطعة النقدية ذات الرسوم النافرة ـ على أحد وجهيها صورة قوس مشدود وسهم موجه نحو الشرق وعلى وجهها الآخر ـ صورة ثمرة الغريفون.

كانت القطع تكتسب بعد أن تلمسها يداه، رائحة معدنية حامضة. أضع في كفي هذه الأقراص الخفيفة ذات الأطراف غير المستوية، ولا

أستطيع أن أصدق أنها عاصرت أرخميدس وهانيبال.

كانت على وجه قطعة صغيرة صورة القيصر ريسكوبوريد الأول، تذكرت اسمه لغرابته، وعلى وجهها الآخر، صورة جانبية للامبراطور الروماني تيبيريوس. وقد قال لي عمي: إن القياصرة البوسبوريين كانوا يحملون لقب "صديق القياصرة وصديق الرومان" وكانوا لذلك يصكّون على نقودهم صور أباطرة روما.

كانت لديه أيضاً قطعة مفضلة سكّت عليها صورة امرأة مقطوعة الرأس.

قال: في الماضي، حين كان الناس يموتون، كانوا يحشرون بين أسنانهم قطعة نقدية ـ أجرة الرحلة. وذات يوم قال مازحاً أنه يجب أن نضع في حنكه عند موته هذه القطعة التي سُكّت عليها صورة المرأة المقطوعة الرأس:

ـ أنا لا أريد أن أسافر من دون تذكرة!

ساشينكا، تصوري! كنت أظن في طفولتي أن القطع المعدنية هي بنات النقود...

كان عمي يتفحص باستمرار محتويات كنزه: قطع مشوهة الشكل، انمحت تضاريسها وغطتها حبيبات الصدأ وبقايا من الزخرفة العربية، وكنت أنظر إليه مندهشاً ـ يبدو أنه كان يرى القطع النقدية والماضي، والذين صكّوا تلك القطع، وشكل أولئك الأباطرة الذين اختفوا منذ زمن بعيد، في حين أنه كان يعجز عن رؤية بيت العنكبوت في زاوية الغرفة، أو مدخنة المصنع البعيدة وراء النافذة، فهذه الأشياء لا وجود لها عموماً بالنسبة إليه.

آنذاك كان يتملكني شعور بالتفوق عليه ـ هو أعمى، أما أنا فمبصر أرى ما لا يراه. ولكن، يبدو لي الآن أن ذلك الفتى المبصر كان يلاحظ كل شيء، ولكنه لم يكن يرى شيئاً. الأعمى، من حيث التوصيف، يجب

أن يكون ضعيفاً، غير قادر على حماية نفسه. أما هو، فكان قوياً متعطشاً للحياة، وهذا هو سبب تمسك ماما به. يبدو أن عمّي لم يكن يشعر بأنه جاهل مسكين، أو محروم ينقصه شيء ما. إن عدم رؤيته للعالم يختلف تماماً عن عدم رؤيتنا له إذا ما عُصبت عيوننا. هو لا يرى العالم، تماماً كما لا يستطيع المبصر أن يراه بركبته أو كوعه.

كان عمّي، بالإضافة إلى ذلك، يمتلك شعوراً خاصاً جداً بالدعابة. فهو، مثلاً، يأكل التفاحة بالسكين، يقشّرها، ويمسك برأس السكين حزّاً منها ويرفعه إلى فمه، أو يروي ضاحكاً كيف التقى في الشارع بسيدة متقدمة في السن، قادته إلى مركز البريد، وقالت في وداعه بصوت حزين: "الموت أفضل من حياة كهذه!"، لم يتمالك نفسه، فضربها بعكازه. كان يروي هذه الحادثة وكأنه يحضّ الجميع على الضحك بمَرح لسماعها.

لا أعرف لماذا تذكرت الآن كيف عشنا في الصيف في البيت الريفي. كان يمشي في الحديقة، فينحني، يتلمس أغصان أشجار التفاح، فيتذكر أين وأية ثمرة تنمو، ويظل يتلمسها يوماً بعد يوم فيشعر بها وهي تكبر.

ثمة شيء آخر أتذكره ـ خدعوه في أحد المخازن. أراد أن يدفع حسابه، فتطوعت سيدة ذات قلب حنون لمساعدته. سرقوا نقوده من محفظته. ففجّر فضيحة، وراحت البائعة الصبية المسكينة تنتحب مؤكدة أنه لا علاقة لها بما حدث.

حين حلقت ذقني لأول مرة، أعطاني عمي زجاجة الكولونيا الخاصة به. في تلك اللحظة، خطرت في بالي، لأول مرة على ما أظن، فكرة بسيطة: هذا الرجل لم ينجب أطفالاً، وهو، طول هذه الأعوام، يريد أن يحس بي ابناً له، أما أنا ففعلت كل ما أستطيع كي لا يحدث ذلك.

بالمناسبة، إنه هو من علمني أن أضع قطعة صغيرة من ورق الجرائد على الجرح، إذا جرحت ذقني في أثناء الحلاقة.

أنا أيضاً كنت أفكر بأبي طـول هذه الأعوام. لمـاذا هجرنا أنا وأمي؟ ما الذي حدث آنـذاك؟ كنت أتخيل كيف سـنلتقي. لا أعـرف لماذا، كنت أفكر أنه سـيأتي ببسـاطة ذات يوم إلى باحة المدرسة ليسـتقبلني بعد انتهاء الدروس.

حدث أن رأيت كيف كان رجـلٌ يعلّم ابنه ركـوب الدراجة ـ يركض خلفـه ممسـكاً بسـرجها. فـوددت كثيراً لـو أن أبـي علّمنـي أيضـاً ركوب الدراجة بهذه الطريقة.

وأذكـر، كيف كان المدير، بشـعره القصيـر المحلوق حلاقـة صيفية، يسـلّمني في الاحتفال الرسـمي للمدرسـة، شـهادة التقدير وسـط تصفيق القاعة كلها، بينما كنـت أنا أبحث بعيني في حشـد الأولياء عـن أبي، على الرغم من أني أعرف استحالة وجوده بينهم، ولكن ماذا لو عاد الآن فجأة؟ أتراه كان سيرى ما حققته من مجد؟ ويعتز بي؟

كنت أعثر أحيانـاً على ما بقي من أشـيائه التي لم تتخلـص منها ماما لسـبب لا أعرفه. فمثلاً، كنـت ألعب في صغـري بمسـطرته اللوغاريتمية. وفي السقيفة بقيت كتبه القديمة وقد علاها الغبار. وهي كتب مضجرة إلى حد كبير، ممتلئة بالأرقـام والمعادلات. لقد أتلفت كل صـوره، أما الصور التي يظهـران فيها معـاً فقصّت منهـا الجزء الـذي يظهر فيه، حتـى إن تلك الصورة التـي تُظهرها بعد أن حملت بـي، لم يبق فيها من أبـي غير أطراف أصابعه الممسكة بكتف أمي البدين.

سـألت ماما مرة عن أبي ولكني لم أتلقّ جواباً منها غير قولها إنها لا تريد الآن أن تحدثني عن هذا الرجل.

ـ ستكبر، وتعرف كل شيء.

بعد هذا صرت أخاف أن أسأل عنه.

وهكذا تحـول هذا الحـب الذي لـم أجد لـه مصرفـاً، والـذي تعزّز بكرهي لـزوج أمي، إلـى معلّمنا فيكتور سـيرغييفيتش. ولسـت أدري، هل

كان هذا الإنسان الغريب الأطوار يستحق ذلك.

في أثناء الدرس كان يرينا بواسطة المجهر الكائنات البسيطة. كان يقذف ربطة عنقه وراء كتفه كي لا تعيقه، ولكنها كانت تعود دائماً فتسقط على صدره. لم نكن نرى شيئاً مفهوماً تحت المجهر، أما معلّمنا فكان يتكلم بحماسة، محاولاً إقناعنا بأن ما نراه هو الخلود الحقيقي. وكان، لكي ندرك ما يقوله، ينتقيني وسيلة إيضاح، الأمر الذي يُغرق الصف في بحر من الحماسة، أما أنا فكان عدم إدراكه أنه بذلك يسخر مني يحزنني إلى حد البكاء. لقد راح يُضحك أترابي بدعوتهم إلى أن يتصوروا أني أنقسم إلى نصفين، مع بقاء هذين النصفين "أنا"، وأن كلاً منهما هو سيدة صَبيّة، وفي الوقت نفسه، تظل عجوزاً، وتبدأ الحياة من جديد ـ ويستمر هذا الأمر ملايين السنين.

ـ يكفي أن تتصوروا فقط! ـ كان يزعق من فرط الحماسة ـ هذا الكائن الوحيد الخلية الذي ترونه على الشريحة تحت عدسة المجهر، عاصر الديناصور.

لقد أدهشني آنذاك وجود خلود حقيقي في العالم، وأن موت هذه الكائنات البسيطة ليس أمراً طبيعياً، بل مجرد مصادفة. وأدهشني أكثر من ذلك أن فيكتور سيرغييفيتش، معلمي المفضل، سلّمني بهذه السهولة لسخرية أولئك الوحوش. وفكرت آنذاك أيضاً، وأنا أبكي حزناً، غامراً وجهي في الوسادة ليلاً، أنه لا يحبني. ولذا يجب عليّ ألا أستمر في حبه.

إنه تيوفيك.

بعد أسبوع، أصيب بالنوبة التي قتلَتْه في الدرس.

ساشا! أكتب إليك يا صغيرتي فأنسى كل شيء حولي! ما أجمل هذا! كل شيء هنا مشبع بالموت والألم، ويستحيل تماماً أن يتخيل المرء أن تبقى الحياة في مكان ما على حالها: شوارعَ، وصحفاً، ومخازن، وترامواي، وحديقة حيوان، أو مخزناً لبيع الحلويات يشتري منه قطعة

حلوى.

هذا ما يجعل أكثر الأشياء بساطة يبدو غريباً. أليس غريباً أن تعيش مدينتي حياتها الطبيعية من دوني، فلا يحدث شيء سوى اختفائها عن بصري؟ الفصل الآن صيف عندكم أيضاً، فهل الجو عندكم خانق وقائظ كهذا الذي هنا؟

كم أتمنى قدوم الشتاء!

يعبّ المرء بفمه الهواء الصقيعي، يسمع صوت تكسر الجليد تحت قدميه، وكأنه يمشي وهو يقضم كعكة، ويرى النوازل الجليدية على فوهات المزاريب، والثلج يهطل متمهلاً ساهماً من الصباح.

أتعرفين؟! أتذكّر الغابة في شهر آذار: انحسر الثلج، وهناك، حيث سار بعضهم في الشتاء فوق أكوام الثلج، بقيت آثار الأقدام متداخلة فوق الأوراق الجافة وكتل الثلج المتجمدة. وهكذا يمتد في الغابة درب غريب من كتل الثلج الموحلة التي لم يكتمل ذوبانها. ترى، ما الذي جعلني أتذكّر ذلك؟

أذكر أيضاً، أننا نسينا زجاجة ممتلئة بالماء على الشرفة في ليلة صقيعية، فانفجر زجاجها، وظل الماء منتصباً محافظاً على شكلها.

أتذكر كل ذلك لأننا نموت هنا من القيظ.

ساشينكا، ما أكثر المرات التي تخيلت فيها عودتي إلى البيت! هناك، مازال كل شيء على حاله: غرفتي، الكتب في كل مكان، على حافة النافذة، وعلى ظهر الخزانة أكداس منها تبلغ سقف الغرفة، وعلى الأرض قرمة الحطب، وأريكتي القديمة التي تقعّرت من كثرة الاستخدام، ومصباحي المكتبي. لا إطلاق نار، لا موت، كل شيء في مكانه المعتاد، الساعة تتكتك، والزمن متوقف. كل شيء حقيقي، بيتوتي، حميم.

أنا، لو تعرفين، أحلم بأني، حين أعود، سأتمدد على السرير وأظل نصف النهار أتأمل بودّ ورق الجدران. في الماضي، ما كان ليخطر في

بالي أن شيئاً صغيراً كهذا يمكن أن يجعل الإنسان سعيداً.

نعم ـ نعم، حين أعود سأنظر بشكل مختلف تماماً حتى إلى الأشياء العادية جداً ـ كؤوس الشاي، والمصباح الكهربائي، والأريكة اللينة، ورف الكتب، ومدخنة المصنع وراء النافذة. يبدو لي أن كل الأشياء اكتسبت الآن معنى جديداً تماماً في نظري. هذا وحده يبدو لي كافياً لتسويغ حدوث كل الذي حدث.

أتعرفين ما الذي يثير الدهشة في الموتى؟ الذي يثير الدهشة هو أنهم يصبحون جميعاً متشابهين. لقد كانوا مختلفين وهم أحياء، أما بعد ذلك فعيون الجميع متماثلة ـ بؤبؤات العيون غائمة، الجلد بلون الشمع، والأفواه كلها، لسبب ما، فاغرة. وأكثر ما يثير النفور بلا سبب مفهوم، هو النظر إلى شعر الميت وأظافره.

ورائحتهم واحدة. إنها ليست رائحة، بل صنّة، عفن. إنها أكره رائحة على سطح الأرض.

أتعرفين؟! لقد رأيت في حياتي كثيراً من الأسماك والطيور والوحوش الميتة، ولكن لم يحدث أبداً أن تصاعدت منها رائحة العفن التي تتصاعد من الجثث البشرية.

الاعتياد على تلك الرائحة مستحيل. وعدم استنشاقها مستحيل أيضاً. إن الرائحة الكريهة التي تفوح من مزيج برازنا والطين في حفر المراحيض ليست شيئاً بالمقارنة مع رائحة تلك الجثث. وكذلك ليست شيئاً بالمقارنة معها رائحة القيح العالق بالضمادات المنزوعة عن الجروح المنتنة.

أما رائحة القش الممتزجة برائحة الخيول، فنعبّها عبّاً كي نخمد بها رائحة العرق والجثث المتفسخة.

أتمنى أحياناً لو أقطع أنفي.

نعم، أقطعه وأرسله إلى الوطن، أكلّفه بالسير في شوارعي،

واستنشاق الروائح فيها. الأنف الهارب في قصة غوغول لم يستنشق أية رائحة، أما أنفي فسيستنشق حتى الثمالة الروائح التي أعرفها.

يدهشني، على كل حال، أن الروائح التي رسخت في ذاكرتي في يوم من الأيام، لا تضعف بمرور الزمن، بل تزداد قوة.

أمر عبر الحديقة، رائحة أزهار الزيزفون التي تفوح، بعد المطر ليست رائحة بل رائحة عظمى!

ها هو ذا مخزن الحلويات الذي نتردد عليه ـ فانيل، قرفة، شوكولا، كعك، كرواسان، إكلير، غوم، بالوظة، مربى الخوخ، حلاوة، وقطع الكاتو المدعبلة كالبطاطا، المفضلة عندي.

رائحة كثيفة رطبة تتصاعد من مخزن بيع الزهور ـ أزهار الليلي البيضاء الندية، وتراب الأحواض المنكوش الذي يتصاعد منه البخار.

الروائح تنبعث من النوافذ المفتوحة ـ قهوة مطحونة حديثاً هنا، وهناك يقلون سمكاً. وهنالك فار الحليب واندلق خارج القدر. أحدهم جلس على حافة النافذة، يقشّر برتقالة، وفي مكان آخر يطبخون مربى الكرز.

انبعثت رائحة مكواة، قماش ملدوع، طاولة كي ملابس، بخار.

يرممون منزلاً ـ رائحة الدهان تخرش الخياشيم.

أما الآن فتفوح رائحة الجلد ـ أحذية، وحقائب يد، وأحزمة.

أبعد من ذلك مخزن عطور ـ روائح عطور محببة، وكريمات، وزجاجات كولونيا، وبودرة.

مخزن بيع سمك، تفوح من السمك المعروض على قطعة من الجليد رائحة البحر المنعشة.

ورشات تصليح آلات ـ روائح الصدأ، والشحمة، والكيروسين والزيت المعدني.

من الكشك على زاوية الشارع تفوح رائحة حبر المطابع، والجرائد

الطازجة. وهـذا أحدهم يَخـرج من غرفـة موقد الحمّـام تفوح منـه رائحة العرق وأكياس القنب والفحم.

من مخزن بيع الخبز تنهمر رائحة الأرغفة الطازجة لذيذة دافئة.

وهذه صيدلية! ما أشد رائحة المشافي المنبعثة من الصيدلية!

أبعـد قليـلاً، يغلـون الزفـت ليفرشـوا بـه الشـارع، ورائحـة الصمغ المحترق القوية تطغى على كل شيء.

هكذا كنت سأمشي بلا نهاية أستنشق، وأستنشق كل الروائح.

●

قريباً سينقضي شهر.

ذهبت في الأسبوع الرابع بعد وقوع تلك الحادثة لسونيتشكا. إنها ما تزال فاقدة للوعي.

ليس من الواضح تماماً كيف حدث ذلك. الأرجح أن دونكا حاولت التخلص من مقودها، شدّته فسحبت سونيا خلفها، انزلقت قدم سونيا على الدرج الذي غطاه الجليد، فاصطدمـت مؤخرة جمجمتها بالحافة الحجرية لإحدى الدرجات، وسقطت في بركة من الثلج الذي بلّله المطر.

حوّلتها إلى المستشـفى الـذي أعمل فيـه. أواه، كم كلفنـي من جهد تحصيل غرفة مستقلة لها!

إنها راقدة في سريرها، هزيلة، جلد وعظم.

يداها وساقاها تغطيها كدمات زرقاء من وخز الإبر.

يقودون العلماءَ الضيوفَ لمعاينتها:

ـ هذه حالة نادرة. الطفلـة التي تحدثنا عنها، إنهـا مازالت في الكوما بعد الإصابة، وقد مضى...

والداها يجيئان إلى المشـفى بالتناوب، ويظَلان هناك لسـاعات. إنها تحتاج لمن يبدّل الخرق المتسـخة تحتهـا، وينقّط في عينيهـا الجافتين ماء

مقطّراً، ويرطّب شفتيها الذابلتين، ويقلّبها من جنب إلى جنب، ويغسل جسدها.

أمرّ بالقرب من غرفتها، أطلّ برأسي ـ عيناه تتأملان المنظر عبر النافذة، وهو يدلّك ساقيها الهزيلتين اللتين لا حياة فيهما.

إنه يعدّ نفسه مسؤولاً عما حدث، أما هي فتتهمني أنا.

آدا تُكثر من زياراتها لرئيس الأطباء، تطالب، تبكي، ويتردد صوتها في الممر:

ـ أرجوكم، افعلوا شيئاً!

حين تكون هي عند سونيا، أتجنب غرفتها.

في مناوباتي الليلية أزورها كثيراً.

نظارتها ذات العدسة الواحدة ترقد على الطاولة الصغيرة قرب السرير، وساعتها أيضاً. أدير نابض الساعة.

في السرير ألعابها التي جلباها من البيت، النمر الصغير بعينيه ـ الزّرين ـ المتدليتين من محجريهما.

حذاؤها المنزلي تحت السرير، ينتظر صابراً.

زرتُها مرّةً وهو عندها. رأيته يمرر الفرشاة الناعمة على ذراعها. رآني فارتبك وأخفى الفرشاة.

جاءت لعيادتها صديقتاها في المدرسة. جلستا دقيقة خائفتين، منكمشتين.

قال لهما:

ـ لا تجلسا صامتتين، حدّثاها عن الدروس التي تأخذونها الآن في الصفّ!

ازدادتا انكماشاً.

وضعتا في كفّها، دون سبب واضح، كوز صنوبر ثم خرجتا من الغرفة، وأجهشتا بالبكاء.

استيقظَ صارخاً في قلب الليل ـ لقد رأى في المنام أنه قرض إصبع سونيتشكا بالباب.

ـ أتفهمين؟! رأيت في المنام أني أسير أمامها وهي تقف ورائي وقد دسّت إصبعها في قفل الباب.

كان يتنفس بصعوبة، وقد بلّل العرق جسده كله. وظَلَّ يتقلب في سريره حتى الصباح.

نحن ننام منفصلين.

في المرة الأولى، ذهبت للنوم في الغرفة الأخرى لأنه كان يشخر، وقد ضربني بيده على عيني وهو يتقلب في الفراش في نوم قلق.

ولكني أفهم الآن ما عناه بالضبط حين تكلم على وحدة من نوع مختلف. لقد استيقظت ذات يوم فرأيت إلى جانبي على الوسادة وجهاً ـ عجوزاً، غريباً.

صرت ألاحظ فيه أشياء لم أكن أراها من قبل.

إنه، من ناحية، شديد القرف إلى حد غير معقول ـ في السهرات الجماعية يضع كأسه في مكان مرتفع، فوق سطح الخزانة، كي لا يشرب منه أحدهم خطأ ـ ولكنه، من ناحية أخرى، لم يكن نظيفاً. حين أحضّر الثياب للغسيل، أجد دائماً بقعاً بنية اللون على سراويله.

صارت طريقة تناوله للطعام تثير اشمئزازي. إنه يأكل بسرعة وجشع وفوضى.

نعود من زيارة أصدقائه القدامى، فيشرع بالتحدث عنهم بكلام رديء: هذا بلا موهبة، وذاك تافه... في الحقيقة، لم يتبقّ له أصدقاء قدامى. العائلات الصديقة القديمة، الأدق: الزوجات في تلك العائلات كففن، بعد أن ترك آدا، عن دعوتنا مُفترِضات أن المثل السيئ معدٍ.

إنه يهرم وهو يخاف ذلك. لذا يزداد تعلّقه بي قوة، فيزيد هذا التعلق من شعوره بالهرم.

صار ينسى كل الأشياء ـ المهمة وغير المهمة. يهرع مضطرباً ويسأل:

ـ تصوري! لا أستطيع أن أتذكّر مَن رسم لوحة "ماسحو الأرض في أورسا"؟ يعذبني هذا السؤال منذ الصباح!

أحياناً، يكون التعامل معه جيداً جداً وسهلاً. وأحياناً، يسكب في داخلي كمداً شديداً.

إننا اثنان وحيدان.

ذات يوم، قبل أن يَحدث لسونيتشكا ما حدث، قال لي:

ـ أما كانت علاقتنا جيدة في يوم من الأيام؟

ـ بلى.

ـ ما الذي يحدث الآن؟

وقام هو بشرح ما يجري:

ـ أتعرفين؟! أنا وأنت أخذنا مرآتين عاكستين للضوء مثل مرآتي فرينيل، وجمعناهما معاً، فخلق العتمةَ تعاكسُ الضوأين في إحدى الزوايا.

كنا نتشاجر من وقت لآخر شجاراً يشبه ما تُصوره الأفلام الرديئة. يُغضب أحدنا الآخر لأسباب تافهة، وبعد ذلك نصرخ ونصفق الأبواب.

أتأمل كل ذلك أحياناً، وكأنه يحدث لآخرين: من هذان اللذان في المطبخ؟ ماذا يقولان؟ ولماذا؟

هي من يستفزني بوجه خاص. من هذه المرأة؟ أهي حقاً أنا؟ لا، هذا مستحيل. أين أنا إذن؟ ما الذي أصابني؟ أين اختفيت؟

ـ أنت لا تجيدين تحضير لحم الغنم! كانت آدا...

وتطير اللحمة المسكينة إلى سطل الزبالة.

ـ طيب، دع آدا تحضر لك لحم الغنم!

لا يمكن أن تكون تلك المرأة التي في المطبخ هي أنا!

بعد المصيبة التي حلّت بسونيا خفتت الشجارات ولكننا لم نزدد

قرباً فيما بيننا.

يعود من المشفى فيبدأ بالسكر. ومرة دمدم وهو ثمل تماماً:

ـ أتعرفين يا ساشا؟! لقد خفتُ حين تساءلت: هل أنتِ حقاً الإنسان المناسب الذي انتظرته طول حياتي، أم تراني خدعت مرة ثانية؟ ولكن، مادمت قد فكرت بالأمر على هذا النحو، فذلك يعني أن الأمر كذلك فعلاً!

نزعت عنه ملابسه، ومددته في السرير، ثم شربت ما تبقى في الزجاجة. وقال لي في مرة أخرى:

ـ لقد تخيلت أننا، أنا وأنت، ـ حقيقيان. نحن حقيقيان حين نكون معاً، أما حين نكون مع الآخرين، فيبحث كل منا عن الآخر، ولا يستطيع أن يجده. لا بد أن ذلك كان وهماً.

التقيت أول أمس بآدا في المستشفى. كانت ذاهبة إلى غرفة ابنتها، تصعد الدرج بصعوبة. توقفت عند إحدى النوافذ لتلتقط أنفاسها. وكنت مضطرة إلى المرور بجانبها. رأتني فابتسمت فجأة.

اقتربت منها.

تنهدت قائلة:

ـ ساشا، أنا أعرف أنك تفعلين من أجل ابنتنا كل ما تستطيعين. شكراً لك... وأرجوك لا تحملي في نفسك حقداً عليّ!

ومضت تصعد الدرج ببطء.

في تلك الليلة لم أستطع النوم، وأدركت من صوت تنفسه أنه ليس نائماً أيضاً. بقينا هكذا مستلقيين دون نوم. قلت له:

ـ أنت تذكر قولك لي أنك ارتكبت خطأ بزواجك من آدا.

ـ أذكر.

ـ حسناً، يبدو لي أن عليك أن تصحح ذلك الخطأ، فتقضي بقية حياتك معها.

■

ساشينكا، يا حبيبتي!

كيف حالك هناك؟ ماذا حلّ بك؟

أعرف أنك تفكرين بي، وتنتظرينني، وتحبينني، وتكتبين لي الرسائل.

لو كان الأمر في الماضي، لشطبت كل كلمات هذه العبارة، ولم أترك منها غير كلمة "لي"، أما الآن فيبدو لي أن الأمر ليس مهماً!

أحتاج كثيراً إلى رسائلك! كلّنا هنا ننتظر البريد، ولكن البريد لا يأتي، والأرجح أنه لن يأتي في وقت قريب. رسائلك تدور في مكان ما. وهي ستصلني حتماً ـ من أي مكان هي فيه الآن. أنتظر، وأنتظر ـ وستأتي مهما طال الانتظار. أظن أني سأتلقى كومة منها دفعة واحدة. إنها الآن تتجمع، ثم ستنهمر كالشلال...

ها قد أتيحت لي ساعة من الزمن ـ أودّ أن أقضيها بصحبتك.

عندنا هنا أخبار جيدة. حتى هنا توجد أخبار جيدة! تصوري! البعثات الدبلوماسية ماتزال صامدة في بكين! الجميع ظن أن هؤلاء الناس ماتوا، ولكنهم أحياء. لقد تمكن أحد المراسلين من الوصول إلينا وهو يحمل رسالة يخبروننا فيها أنهم محاصَرون وينتظرون منا المساعدة. عدد من المراسلين لم ينجح قبله في أداء هذه المهمة. هنا يجري التحضير لحملة على بكين، ولكن علينا قبل ذلك اجتياح تيانتسزين المحصّنة. لا يجوز أن نترك الجيش الصيني وراء ظهرنا.

وهاكِ خبراً آخر: ـ لقد نقلونا إلى الجناح الشرقي.

شغلت قيادتُنا المكان الذي كانت تشغله أكاديمية الهندسة العسكرية، وسكنَ الضباط في البيوت الصغيرة التي كان يقيم فيها الضباط الألمان والإنكليز ـ أساتذة الأكاديمية. أكتب إليك الآن وأنا جالس في

ظل الأكاسيا يحيط بي تول يحميني من عقص السكّيت. الجميع هنا، كالعادة، يرهقهم الحر. وأنا أيضاً، تتساقط نقط العرق من أنفي فوق الورق ـ فاعذريني على البقعة التي تلطخ الرسالة!

حين جئنا إلى هنا كانت الفوضى تعمّ المكان كله. من الواضح أن الذين كانوا يعيشون هنا هربوا في آخر دقيقة، بعد أن احتل الإيخيتوانيون هذا المكان، ففي الغرف والممرات تناثرت الملابس الرسمية للطلاب وكتبٌ باللغات الصينية والإنكليزية والألمانية. وكان من الغريب وجود دفاتر للطلاب امتلأت صفحاتها بالرسوم والتمارين المخطوطة بعناية، وقد تناثر في المكان الحبر والمحابر وريش الكتابة المحطمة وأقلام الحبر الصيني، وقطع الزينة الصغيرة، والقبعات، ولوحات صينية، وخطبٌ مكتوبة عمودياً على أوراق طويلة، وصناديق وأدراج منبوشة. كل شيء مرمي، ممزَّق، مهشَّم، مسحوق بالأقدام.

لقد وجدنا هنا، أنا وكيريل، مكتبة أوروبية غنية. معظم الكتب في الرياضيات والفيزياء والكيمياء. وقد ارتأى جنودنا على الفور تمزيقها وإحراقها ـ ولم يكن باستطاعة أحد أن يوقفهم. كان من الطريف أن الأبنية الأكاديمية كلها بنيت في البداية على النمط الصيني وقد اصطفت بعضها خلف بعض كرتل من الإوز، شغل الأبنية الأولى منها الأساتذة وقاعات الدراسة، والمخابر، والمكاتب العلمية، وخصصت الأبنية التالية لسكن الطلبة تليها أبنية الخدمات والمطبخ.

وفي وسط الباحة الأولى ينتصب برج خشبي للمراقبة. وقد صعدت اليوم إلى الطابق الأعلى فيه، من هناك انبسط أمامي منظر كان يمكن أن يكون رائعاً لو كففنا عن التفكير بما يجري حولنا. في شمال المكان مباشرة تظهر قناة لوتاي التي نصب الصينيون على ضفتيها بطاريات مدفعيتهم. وإلى الغرب منه ـ مدينة تيانتسزين الصينية، وبعدها بقليل الأحياء الأوروبية. وفي الجنوب الغربي يستقر معسكرنا. أما في الجنوب

الشـرقي فتمتد السـكة الحديدية الذاهبة إلى تونغ كو. وفي الشـرق ينبسـط سـهل رائع تغطيه الأعشـاب الطفيليـة. وتلوح فيـه هنا وهناك قـرى صينية وأحـراج صغيـرة كأنهـا نقاط سـوداء. وفـي مكان مـا، بعيـداً في الشـمال والشـرق، يمكن أن يشـاهد المرء بالمنظار تحركات القوات الصينية، التي قدمت، على ما يبدو، من لوتاي إلى تيانتسزين.

تجولـت مـع كيريل فـي المجمع الـذي نُقيـم فيـه فأذهلنا غنـاه. هنا ورشـات أسـلحة، ومسـتودعات، ومخابـر. وهنـاك يصكّون عملـة صينية نحاسـية وفضية. وثمـة معمـل كامل في صـالات كبيـرة، حيـث يصنّعون البـارود، والطلقـات لأحـدث أنـواع بنـادق المـاوزر والماليهيـر. وفـي مسـتودعات تحـت الأرض تكدسـت احتياطيـات ضخمـة مـن القنابـل اليدوية بشـتى أنواعها، والقنابل المضيئة والحارقة. وقد قام كيريل بترجمة المكتوب علـى أبـواب تلـك المسـتودعات باللغـة الصينية. هنـاك، مثلاً، لوحة كتب عليها "مسـتودع الرعد تحت الأرضي" ومعنى ذلك "مسـتودع الألغـام"، أما معنـى عبـارة "مسـكن التنيـن المائـي" المكتوبة علـى باب مستودع آخر، فهو ببساطة "مستودع أدوات الإطفاء".

لقـد وَضـع العمـال الصينيـون بالقـرب مـن الأحـواض والمراجـل الضخمة والآلات صورَ الآلهة الحامية للعمل وأشعلوا بالقرب منها أعواد البخـور. وألصقـوا علـى الآلات والمراجـل لوحـات كتبت عليهـا باللون الأحمر عبارات مثل: "تشـغيل الآلة ـ سـعادة كبيرة لها"، "فتـح المرجل ـ نجاح عظيم".

الأمر الإيجابي فـي انتقالنا هو أننا لـم نعد نجاور المشـفى الميداني ولا نسـمع ليلاً ونهاراً أنين الجرحى. والأمر السـيئ طبعاً، هـو أننا لم نعد نسـتطيع المـرور بزاريمبا أو لوسـي وتبـادل الأحاديـث معهما. هنـا يألف المرء الآخرين بسرعة كبيرة.

في الجانب الغربي من المجمع بنيت في مكان مفتوح أقبية للبارود.

وكان شعور من الخوف الفظيع يتملك المرء حين يمرّ بقربها، من أن تصيب تلك الأقبية طلقة فيتناثر كل شيء في الهواء. في هذه الحالة سيكون من يُقتل فوراً أحسن حظاً ممن يصبح عاجزاً.

كلا يا ساشينكا، لقد كنت في الماضي أفكر على هذا النحو، أما الآن، فأنا أفكر بالأمر بشكل آخر. في الماضي بدا لي أن العيش مشوهاً أو عاجزاً ـ كارثة. لا فائدة ترجى من تفاهة الدودة. ما جدوى بقائك عبئاً على نفسك وعلى غيرك؟ لقد كنت أحلم بموتٍ مثالي فلا يلحظ أحد موتي، كنت ـ اختفيت!

أما الآن فأنا أريد أن أعيش أياً كانت الأحوال.

ساشكا، ما أشد رغبتي في الحياة! لا يهمني أن أكون عاجزاً أو مشوهاً! المهم أن أعيش! ألاّ أكف عن التنفس! إن أكثر ما يخيف في الموت هو انقطاع النفس.

في المشفى الميداني أدهشني إلى حدّ ما أحد المشاهد ـ جاؤوا إلى المشفى بجريح كل ما فيه محطم: يداه وساقاه... كان ينتظر عملية البتر حين روى أحد الشباب المرحين حادثة مضحكة فقهقه جميع من في المهجع ضاحكين، وضحك ذلك الجريح أيضاً. لم أفهم آنذاك، بل لم يكن في مقدوري أن أفهم، ما الذي يضحكه. ولكني أفهم ذلك الآن.

سأعيش، حتى لو جرحت، لو صرت عاجزاً! سأقفز على ساق واحدة. وماذا في ذلك؟! هي ساق واحدة، ولكني أستطيع أن أقفز عليها إلى أي مكان. حتى لو فقدت ساقيّ ـ لا يهم! سأظل أنظر عبر النافذة!

أصاب بالعمى ـ لا يهم! فأنا سأسمع كل ما يجري حولي، كل الأصوات، إنّ هذا معجزة رائعة! اللسان؟ ليبق اللسان فقط ـ سأعرف بواسطته هل الشاي حلو أم أن حلاوته غير كافية. حتى لو بقيت لي يد فأنا أريد لهذه اليد أن تعيش! بها أستطيع أن ألمس العالم وأشعر به!

ساشينكا، أخشى أن تبدو لك هذه الرسالة هذياناً. سامحيني يا

حبيبتي الجميلة واغفري لي هذا الهذيان. إنه ليس هذياناً بسبب المرض، بل هو، ببساطة، لأني أنا ـ أنا.

إن أكثر ما يثير الدهشة ـ هو أن كل واحد هنا يأمل أن يعود إلى وطنه سالماً.

وأن كل واحد، حين يرى آخر، يعرفه، أو لا يعرفه، حدقتاه فارغتان، كامدتان، وجلده بلون الشمع، وفمه فاغر، يقول في سره مبتهجاً رغماً عنه: هو، وليس أنا! إنها بهجة مخجلة لا يمكن قهرها: اليوم قتلوه هو، وليس أنا! أنا اليوم لاأزال حياً!

ثمة فكرة لا أستطيع التخلص منها، وهي أن أية رسالة، ربما هذه، ستكون رسالتي الأخيرة، بل، قد لا أستطيع إكمالها. الأوبرا، وحدها، تنتهي نهاية ذات معنى، بجملة موسيقية ختامية. أما هنا فيموتون كيفما اتفق.

ساشينكا، ما الذي يمكن أن يكون أكثر إثارة للخوف من الموت كيفما اتفق؟

إن كل دقيقة يمكن أن تكون الدقيقة الأخيرة، وكذلك كل رسالة، لذا يجب أن يلتزم المرء بكتابة الأمور الرئيسة، لا بكتابة النثريات.

لهذا بالضبط، لأن كتابة هذه الرسالة يمكن أن تتوقف في أية دقيقة، يجب أن أحدثك الآن عن كل شيء لم أقله أو أجّلته إلى وقت آخر.

عمّ سأكتب؟ يبدو لي أن الأشياء كلها تافهة.

أتعرفين؟! هناك قصة واحدة أردت أن أرويها لك في يوم من الأيام، بعد سنوات كثيرة، حين تصبح طرفة. ولكنني سأكتبها الآن. ألا يمكن أن أعجز فجأة عن كتابتها؟ إنها لا تهمّ أحداً غيري. ولكنني أحتاج إلى كتابتها. هي قصة قصيرة.

بل لعلها، إذا نظرت إليها من هذا المكان، قد تحوّلت إلى طرفة.

لقد التقيت بأبي.

كان في خزانة ماما دُرج تحرص دائماً على قفله. وقد رأيت أين كانت تخبئ المفتاح... وحين كنت وحدي في البيت، فتحته. وجدت فيه وثائق وأوراقاً وإيصالات. وتبيّن لي أن أبي كان طول هذه الأعوام يرسل إلى ماما النقود بانتظام. لم أكن أعرف عن ذلك شيئاً، ولكن الأمر الأكثر أهمية هو أني وجدت عنوانه.

لم أقل لماما شيئاً.

أردت في البداية أن أكتب إليه، ولكني لم أعرف لماذا قررت أن أسافر إليه بنفسي. ليلة في القطار، وجدت نفسي بعدها أمام باب بيته.

وقفت أمام الباب ولم أستطع بحال من الأحوال أن أحسم أمري وأضغط زر الجرس.

تخيلي ـ كم عاماً عشت وأنا أحلم بهذا اللقاء! والآن. لا أستطيع أن أشرح لنفسي ماذا أريد. ما حاجتي لذلك؟ أنا لم أكن مراهقاً ساذجاً يظن أنه سيحظى أخيراً بالإنسان القريب إلى قلبه، والذي حلم بلقائه كل هذا الوقت. كنت أعرف أني سألتقي برجل غريب، لا حاجة له بي أبداً. إنه هجرني، وطول هذه الأعوام كلها لم يُظهر تجاهي أي اهتمام. قد لا يسمح لي بتجاوز عتبة البيت. ما الذي أريده منه؟ هل أريد أن أحصل على ذلك الحب الذي حرمت منه طول حياتي؟ هذا مستحيل. لقد عشت من دونه ذلك الجزء من حياتي الذي كنت أحتاجه فيه فعلاً. هل أنا طالب ثأر؟ هل أريد أن أثأر من ذلك الوغد الذي رمى بزوجته وطفل صغير إلى المجهول؟ هل أقذفه بكل الحقد الذي تراكم في داخلي؟ هل غضبي عادل؟ أليس من الضروري أن يوجد من يعاقبه على نذالته؟ هل أضربه على وجهه؟ هل أهينه؟ أمن الممكن أن أكون بحاجة إلى ندمه وتوسلاته طلباً للصفح؟

الغريب أني شعرت بالكره تجاه أمي وعمّي أكثر مما شعرت بكره ذلك الرجل الذي لا أعرف عنه شيئاً.

ألا يمكن أن يظن أني أريد منه شيئاً فيخاف؟ أتراه يريد التعويض عن فعلته؟ أنا لا أريد منه شيئاً! وإذا أعطاني ـ سأرفض.

كنت مضطرباً. وكلما طالت وقفتي أمام ذلك الباب، ازددت إدراكاً لعدم حاجتي إلى هذا اللقاء الذي حلمت به منذ الطفولة. أنا لا أحتاجه.

هممت بالمغادرة، ولكن الباب فتح في اللحظة نفسها. لعله أحس بأن أحدهم يقف هناك.

جسد متهدّل ضيّق النفس ـ يستنشق الهواء بصعوبة عبر خيشوميه شبه المسدودين. لم أتوقع أن أرى هذا العجوز الضخم ذا الدوائر المنتفخة تحت العينين والوجنتين المتهدلتين. لقد كان هو، نظر إليّ في صمت.

قلت:

ـ مرحباً! أنا قادم إليك.

أدهشني أنه عرفني على الفور، وكأنه كان ينتظر هذه اللحظة طول الأعوام التي عاشها.

بدا الارتباك على وجهه للحظة فقط، رفع حاجبيه وتنهد ثم قال ببساطة:

ـ طيب، ادخل! أظنك جائعاً بعد السفر؟

تملكني إحساس غريب بأن ما يجري، لا يجري معي، لأنه كان في الوقت نفسه مستحيلاً، وعادياً جداً. قدّمني إلى زوجته وابنيه معلناً أني ابن نينا، زوجته الأولى. الكل كان يشعر بالحرج ـ لم يكن أي منهم مهيأً لمثل هذا الموقف. الجميع ظلوا صامتين. تكلمت زوجته نيابة عن الجميع، ولكنها تكلمت همساً بصوت مخنوق، مبحوح. شرحت لي السبب، وهو كتلة تشكلت في حنجرتها نتيجة اضطرابات عصبية، وهي تضغط على قصبتها الهوائية... الغريب أنها ذكّرتني بأمي.

أختي كانت صبية ذات حجم غير معقول. جلست، فامتلأت بها

الأريكـة علـى الفور. راحـت تنظـر إليّ مـن تحت جبينهـا نظرة متشـككة وكأني أريد أن أسـرق منها شـيئاً. أما الصبي، فعلى العكس منها، مال إليّ، وكان واضحاً أنـه مسـرور لهبوط أخ أكبـر عليه من السـماء. سـألني على الفور إن كنـت أعرف بعـض أبـواب المصارعـة، وحين أجبته بـلا، خاب أمله، لأنه، في ظني، كان يرى في عالمه الطفلـي، أن وجود أخ أكبر يعرف أبواب المصارعة يسهّل عليه حياته كثيراً.

هـذان كانـا أخي وأختـي، ولكنـي لم أحـس بأيـة عاطفـة تجاههما، ولماذا يجب عليّ أن أحسّ بذلك؟

جرّنـي الأخ إلـى غرفتـه واندفـع يرينـي ثروته كلهـا ـ نماذج سـفن، جنوداً صغاراً، قلعة من الورق المقـوى، وقال عن أخته: إنها لا تذهب إلى المدرسـة لأنهم يقاطعونها هنـاك ولا أحد يريد الجلـوس معها في الصف وفي المطعـم أيضاً. وهكـذا تبيّن لي أنها تقبـع في البيت طـول الوقت بلا صديقات ناهيك عن أصدقاء.

غريب أن تجد نفسك فجأة في قلب حياة أحدهم.

حين بقينا وحدنا لفترة من الوقت، لم أجد أبـداً ما أقوله لها، فرحت أسـألها عما تقرؤه من الكتب. لم أفكر مطلقاً بالإسـاءة إليهـا بأي حال من الأحوال، ولكنها أعلنت فجأة بصوت عاتب:

ـ المـرأة تعرف أن النـاس الذين ينظـرون إليهـا لا يفرّقـون بينها هي نفسها، وبين مظهرها.

أنقذتني الدعوة إلى الغداء فأسعدتني.

جلس الجميـع إلى المائـدة صامتيـن أيضاً، ما عـدا زوجة أبـي التي سألتني بصوتها المبحوح المخنوق عن مشاريعي في الحياة.

رفعت البنيّة المسـكينة غطاء قدر الحسـاء لكي تصبّ لنفسـها حساء الملفوف، ولكن الأب سارع فوجّه إليها ملاحظة:

ـ أليس ما سكبته كافياً؟

اربدّ وجهها في الحال ونفرت دموعها وهي تنهض مبتعدة عن الطاولة وتمضي بخطا غير رشيقة إلى غرفتها.

أطلق الأب تنهيدة متعبة، وجمّع فوطة المائدة في يده ثم مضى في إثرها، لكنه عاد بلا شيء، فهي لم تفتح له باب الغرفة.

بعد هذا، تابع الجميع الأكل في صمت، وعيونهم مركزة على أطباقهم. أما أنا فرحت أفكّر: "ما الذي أفعله هنا؟ ألا يجب أن يكون لكل شيء معنى في هذا العالم؟ ما المعنى الذي يجب أن يكون لكل هذا؟" إن ذلك المعنى لم يتكشف لي أبداً. ترى، هل كان باستطاعتي أن أتصوّر لقائي مع أبي على هذا النحو؟

جلست مع أخي أساعده في حلّ مسائل عن القطارات والمشاة، فأذهلني أن يكون طفل في مثل سنه على هذا القدر من التخلف العقلي. أطلّت علينا أختي، ألقت على السرير شالاً كان مرمياً على الأرض في الممر.

رسم على وجهه تعبيراً ساخراً وقال في إثرها:

ـ برميل بدين أنجب طفلاً!

وضعت يدي على رقبته.

ـ لا يجب أن تتكلم عليها بهذه الطريقة!

قلّص عضلات وجهه بتعبير ينم على الاحتقار.

ـ هي ـ أختي! أتكلم عليها كما أريد.

ضغطت على رقبته. وبدا من تعابير وجهه أني آلمته.

ـ هي ـ أختي! وأحذرك من أن تتجرأ فتتكلم عليها بهذه الطريقة! هل فهمت؟

قال بصوت كالفحيح أنه فهم، فتركته. وأفهمني بنظراته أن وجود أخ أكبر لم يعد يعجبه مطلقاً.

في المساء بقينا، أنا وأبي، وحيدين. راح يشفط الشاي شفطاً

متواصلاً من كأس كبيرة ـ قال إنه يشكو من حصى في الكليتين.

سـألته عن عمله، فتبين لي أن أبي ـ مهندس معمـاري. أنا، حتى هذا لـم أكن أعرفه.

أبديت اهتماماً بما يصممه الآن. فجاءني الجواب:

ـ برج بابل!

ثم تابع قائلاً أنهم كُلِّفوا بتصميم سجن.

كان يجلس محني الظهر، واضعاً سـاقاً على سـاق، مشبكاً يديه على ركبتيه. مثلي تمامـاً. الآن فقط، التقطـت عيناي مدى التشـابه بيننا. صرت ألاحـظ أن لهجته كلهجتـي، وحركاتـه كحركاتـي، وتعابير وجهـه كتعابير وجهي، وكذلك أنفه وفتحتا عينيه، وشفاهه.

سـألته إن كان يذكر كيف ولدت. انتعـش أبي وراح يـروي لي كيف رآني أول مـرة. قـال إن وجهي الصغيـر كان بعد الولادة مباشـرة مسـطحاً كلوحـة فرعونيـة، ولكن كل شـيء برز فـي اليـوم التالـي ـ تكـوّر الأنف، واسـتقرت العينان فـي محجريهما، وصارت الشـفتان شـفتين. كنت بلون الجزر بسبب اليرقان الولادي، وقد أدهشه أني جئت إلى هذا العالم بأظافر طويلة نامية.

سـألته إن كان يذكر كيف ذهبنا إلى المحطة لاستقبال أمي، فوضعني على رقبته كي أبحث عنها؟ أومأ برأسه بنعم غير واثقة.

سـألني عن ماما، وعن أعماهـا، وعن جامعاتي. ولكنـي لاحظت أنه لم يكن مهتمـاً كثيراً بذلـك. وأنا لم أكـن مهتماً أيضـاً. تثـاءب كلانا، فقد قضيت الليلة الماضية في القطار بلا نوم.

أعـدّوا لـي مـكان نومي فـي مكتبـه علـى أريكة بالقـرب مـن خزانة الكتب.

كنت أنتظر طـول الوقت أن يقـول لي شـيئاً مهماً. ولكني لم أسـمع سوى:

ـ طابت ليلتك! غداً سنرتوي من الكلام.

لقد كان فيه شيء يثير الإشفاق.

أخذت قبل النوم كتاباً لا على التعيين عن الرف، قلّبت صفحاته، كان مؤلفاً قديماً جداً عن حجارة البناء، عرفت منه أن ساركوفاغ ـ اسم نوع من الحجارة في طروادة يتصف بقدرته على إتلاف جسد الميت، بل عظامه أيضاً، دون أن يبقي منها أثراً، ولذا اختاروه لبناء المقابر. إنه حجر يلتهم اللحم. ما أغرب هذا! حجرٌ يمتص الإنسان في ذاته.

استيقظت في الصباح الباكر، في العتمة، كان الجميع نائمين. ذهبت إلى المحطة دون أن أودّع أحداً، وركبت أول قطار مغادر.

قبل هذه الرحلة كذبت على ماما، قلت لها: سأنام عند صديق لي. حين عدت، جلسنا وحيدين نشرب الشاي اعترفت لها بسفري لزيارة أبي.

ظلت صامتة فترة طويلة، تحرّك بالملعقة الصغيرة الشاي في كأسها، ثم قالت فجأة:

ـ لماذا؟ إنه ليس أباك.

جمدت برهة.

وأخبرتني ماما أنها التقت في صباها بهذا المهندس المعماري وأنه ظل فترة طويلة يتقرب إليها، ولكنها لم تكن تحبه.

يدعوني إلى حفلة، الكل ينظر إلينا في أثناء الدخول، وفي الصالة، وأنا أكاد أموت خجلاً ـ كان مشعث الشعر، سيئ الهندام، تفوح منه رائحة صابون رخيص.

دعاها إلى الزواج فرفضت. وحين حملت بي تذكرته فوافقت. قالت إنها في العرس كانت تحاول شدّ بطنها إلى الداخل. لم يلحظ أحد شيئاً على كل حال.

لم أستطع إلا أن أتمتم:

ـ ولكنك استغللته بهذا السلوك!

ـ صحيح. أظن أني تصرفت بنذالة. ربما. ولكني كنت مستعدة لفعل أي شيء من أجلك. قلت لنفسي: يجب أن يكون للطفل أب! ظننت أني قد أحبه. ولكني لم أستطع. أقنعت نفسي أن هذا ما يجب أن يكون! وفي نهاية المطاف فهمت أني لن أستطيع الاستمرار. حاولت إقناع نفسي بأن أكون ممتنة له، ولكن كل لمسة منه كانت تثير فيّ الشعور بالغثيان. لم تكن حياتنا حياة أسرة بل عذاباً دائماً، فانفجرت في لحظة من اللحظات. كان يمرّ في ظرف عصيب، فقد انهار الجسر الذي صمّمه، وفوق ذلك جئت أنا لأخبره بكل شيء.

حين تمالكت نفسي، سألتها:

ـ ومن أبي إذن؟

تناولَتْ علبة السجائر التي تخفيها عن عمّي وأشعلَت واحدة راحت تدخنها عبر طاقة التهوية. ظللت أنتظر.

أجابتني أخيراً:

ـ ما الفرق؟ قد لا يكون لك أب مطلقاً. أنت منذ بدأت تتكون في أحشائي، لم يكن لك غيري. افترض أنك حمل بلا دنس.

ابتسمت بمرارة، ولم تنبس بعد ذلك، لو بكلمة واحدة، حول هذا الموضوع.

هأنذا يا حبيبتي ساشينكا قد رويت لك الحكاية.

أتعرفين ما الطريف في الأمر فعلاً؟ الطريف أني حينذاك أردت أن أكتب عن ذلك قصة مهمة، بل قصة طويلة: فتى يبحث عن أبيه ثم يجده أخيراً. لم أدرك أنها، في الحقيقة، قصة مضحكة. يا إلهي، لقد أردت أن أصبح كاتباً! أن تكون كاتباً يعني أنك لا شيء.

ساشا، أنا هنا أرى الآن أنّ من كنتُه شيء مضحك ومنفّر. لقد محوته. عشت كل هذه السنين ومازلت لا أعرف شيئاً عن ذاتي. من أنا؟ ماذا أريد؟ أنا مازلت لاشيء! أنا لم أفعل شيئاً في هذه الحياة حتى الآن!

يمكن أن أجد لنفسي ما أشاء من الأعذار، ولكني لا أريد البحث عنها. أنا أبدأ كل شيء من لحظة نشوئه. أعرف، أشعر، أن إنساناً آخر ينشأ في داخلي، إنساناً حقيقياً، لديه الكثير من الطاقة والرغبة في صنع شيء مهم! حين أعود لن أضيّع دقيقة من حياتي عبثاً. كل شيء سيكون مختلفاً. سأجد الوقت اللازم لصنع الكثير وإنجازه! حتى السماء، سأنظر إليها بشكل مختلف.

أعرف ما الذي تفكرين فيه وأنت تقرئين هذه السطور الغبية. ستقولين لي أني، وأنا هنا، أستطيع أن أنظر إلى السماء...

لا يا ساشينكا، ليس هذا هو المقصود، ليس هذا!

ليتك تعرفين ما الذي خطر في بالي الآن! ستضحكين. أرجوك يا حبيبتي لا تضحكي!

حين أعود سأصبح معلماً.

أظنك ستتذكرين الآن كيف كان الإغريق القدماء ينتقون المعلمين. حين كان العبد يكسر يده أو رجله ويصبح غير صالح لأي عمل، كانوا يقولون: «ها قد أصبح لدينا مربٍّ!»

لست أدري أي معلم سأكون، ولكن يبدو لي، دون أن أعرف السبب، أن هذه ـ مهنتي. أستطيع على كل حال أن أجرّبَ ذلك.

بلى، لسبب لا أدريه، أعرف أني سأكون معلماً جيداً. سيكون بمقدوري أن أدرّس الأدب، ولم لا؟ ما رأيك؟

عموماً، تدور الآن في رأسي أفكار كانت مستحيلة من قبل. منها، مثلاً، أني أريد أن يكون لنا طفل. أيدهشك ذلك؟

أنا نفسي دهشت. ولسبب لا أعرفه، أريده أن يكون ولداً.

أنا أتخيله صبياً يافعاً، فأنا لا أعرف شيئاً عن الأطفال الصغار، بل أظن أني أخاف التعامل معهم.

وأتخيل، مثلاً، أني ألعب معه الشطرنج ـ ولكي أرغّبه في اللعب

أتخلى عن الوزير.

سأراقب نموه، فأضع على رأسه كتاباً.

سنرسم معاً، وسنخترع شيئاً ما. سأريه كيف يصنع من ورقة أكاسيا صفارة.

أتخيل نفسي وأنا أعلّمه ركوب الدراجة. هو يتمايل في كل الاتجاهات، وأنا أركض خلفه ممسكاً بالسرج. لكن هذا سيكون حين يصبح فتى.

سيكون لنا كل ما نريد، ساشكا، صدقيني!

أتخيل أيضاً أنك سافرت إلى مكان ما، وأننا ننتظرك، ونذهب لاستقبالك في محطة القطار. هناك سيكون حشد من البشر. أحمله على رقبتي وأطلب منه أن يبحث عنك، وإلا سنفقدك. يراك فيصرخ:

ـ ماما، ماما، نحن هنا!

●

البارحة كانت مناوبتي الليلية. نظرت إلى مهجع الأطفال ـ لقد عرضوا لهم قبل النوم فيلماً عن عقلة الإصبع. كان يرمي فتات الخبز للطيور الجائعة، وكأنه كان يعرف منذ البداية إلى أين يأخذونه مع إخوته وأخواته، ويعرف أنه في جميع الأحوال لن يحتاج إلى الخبز.

ثم انتقلتُ إلى غرفة سونيتشكا.

مازالت ممددة على حالها وفي يدها كوز الصنوبر، إنها لا تريد أن تموت، على الرغم من عجزها عن فعل أي شيء.

مسّدتُ يدها الناحلة.

أدرت نابض الساعة ـ الزيز.

الثلج يهطل في الخارج، هادئاً، بطيئاً، متقطعاً، أخرس.

تمددتُ على طرف السرير، حضنتها، ضممتها إلى صدري، ورحت

أهمس في أذنها:

ـ سونيتشكا، اسمعيني. سأقول لك الآن شيئاً مهماً جداً. حاولي أن تفهميني. أنا أعرف أنك الآن تسمعين ما أقول. لقد قرأت في أحد الكتب عن الموت أنه يشبه ما قد تصادفين في الصغر، حين تلعبين في الساحة بالثلج، فتنظر أمك إليك من النافذة، ثم تناديك لتعودي إلى البيت. أنت تنزهت بما فيه الكفاية وحان وقت العودة. تتدحرجين على تلال الثلج، تبتلّ ملابسك، ويمتلئ حذاؤك المصنوع من اللباد ثلجاً. لو ترك لك الخيار للعبت ولعبت، ولكن حان الوقت، ولا جدوى من النقاش. أنت عنيدة، وهذا ممتاز. لم يتبقّ منك سوى حفنة جلد وعظم، وأنت، مع ذلك تتشبثين بالحياة. لا تريدين الرحيل. أنت رائعة! رائعة صغيرة. ولكن عليك أن تفهمي أنك لا تستطيعين العيش. الأمر سيان بالنسبة إليك، أما والداك فقد أرهقتهما تماماً. إنهما يحبانك كثيراً جداً. لقد قالوا لهما أن الأمل في إنقاذك معدوم. الأطباء الذين عاينوك وأرادوا كثيراً مساعدتك، لا يستطيعون فعل أي شيء لأجلك. لا تلوميهم! قد تكون معرفتهم قاصرة في غير هذا المجال، ولكنهم يفهمون حالتك. يبدو لك أنهم راشدون، كبار، أقوياء، أذكياء، غير أنهم في حقيقة الأمر لا يستطيعون فعل شيء. صدقيني، لو أنك نظرت الآن إلى جسدك، لأدركت فوراً أنه لا يستطيع خدمتك. أنت لا تحتاجين إلى التمسك به فترة أطول. أتفهمين؟ لو أنك تطلقين سراح جسدك، لأديت بذلك خدمة جيدةً لوالديك. أنت، أيضاً تحبينهما كثيراً، أليس كذلك؟ لقد أنهكهما العذاب. حين تكون لدى المرء ذرة أمل، يستطيع أن يتحمل كل شيء. وحين لا تكون ـ تصبح الحالة، ببساطة، مؤلمة جداً، جداً. إن موتك أفضل لهما. من الصعب فهم هذا، ولكن حاولي يا صغيرتي الناحلة! انظري فقط إلى هذا الجسد، إنه لم يعد ينفعك في شيء. إنه لم يعد يستطيع أن يرقص، ولن يستطيع أبداً أداء حركة "الريفيرانس"، أو الركض، أو القفز، أو الرسم أو الخروج إلى

الشارع. موته سيكون أمراً ممتازاً. افهمي، الحياة ـ موهبة عطاء. وكل ما فيها ـ يتطلب العطاء. حتى موتك ـ عطاء. إنه عطاء للذين يحبونك. أنت تموتين لأجلهم. هذا مهم جداً للآخرين الذين يرحل عنهم أقرب الناس إليهم. هكذا، فقط، يمكن أن نفهم شيئاً ما عن الحياة. إن موت أحبائنا وأعزائنا ـ عطاء يساعدنا على فهم الشيء المهم الذي نحن هنا من أجله. ثم صوّري الأمر لنفسك فقط، أنت ـ طفلة صغيرة لا تعرفين حتى لماذا يضيء المصباح، ناهيك عن أشياء مثل مرايا فرينيل، ويحدث مع ذلك أن تعرفي ما لا يعرفه أحد من الكبار، وأكثر الناس حكمة هنا. كل ذلك سيتكشّف لك أنت. سآخذ، إن رغبت، كوز الصنوبر، وأطمره في فصل الربيع في الأرض. ستنبت منه شجيرة. قولي لي: ما الذي يستطيع الكوز الذي يغادر حياته الجافة أن يعرفه عن وجود شجرة السرو؟ الجسد هو، ببساطة، جسد. ألا تكبرين فيضيق على قدميك حذاء الباليه الذي تستخدمينه؟ أنت، ببساطة، تكبرين فيه. المهم ألا تخافي أن تصبحي وحيدة فجأة. أتذكرين كيف رسمت خيطاً يمتد من كل الأشياء والبشر فيشدها إلى نقطة واحدة؟ العالم مبني على هذا الشكل. في البداية كنا جميعاً معاً، كلاً واحداً. ثم تناثرنا، ولكن كلاً منا مربوط بذلك الخيط الذي نُشَدّ به إلى حيث كنا. وسيتجمع العالم كله فيما بعد في هذه النقطة مرة ثانية. كل واحد سيعود إليها ـ في البداية أنت، ثم دونكا، بعدها باباك وماماك ـ ليس مهماً من سيكون قبل من. نحن سنكون هناك كلنا معاً من جديد، ولذا يسمى هذا المكان ـ مكان الحشر. حتى قضبان السكة الحديدية تلتقي هناك. وجميع الترامورايات تسير إلى هناك. وتلك الطائرة الورقية التي طيّرتها برفقة بابا طارت إلى هناك، لكنها علقت بالأسلاك. تصوري! إنها مازالت عالقة وقد لوّحت لي بالتحية وأنا قادمة إلى العمل. الوقت متأخر الآن. الثلج يهطل وراء النافذة. هدوء. الكل نيام بعد أن أرهقهم العمل. بنيّتي الحبيبة، جسدك هذا بات عاجزاً عن فعل أي شيء،

أما أنت فتستطيعين فعل كل شيء. هيّا، تكوّري كعكةً!

■

حبيبتي ساشكا ذات العينين المختلفتي اللون!

لقد رأيتك اليوم في المنام!

تصوري! لا أذكر الآن ما حلمت به بالضبط، كنا ذاهبين معاً إلى مكان ما. ثم اختفيت أنت لا أعرف لماذا، حاولت الركض وراءك ولكني لم أستطع، حركاتي كلها صارت ثقيلة، وكأني غاطس في الماء حتى الصدر. ترى، لماذا تنتسى الأحلام بسرعة؟ حسناً، ليس هذا مهماً. المهم أني حلمت بك، وأننا كنا معاً.

أيمكن أن تكوني حلمت بي أيضاً؟ تصوري أن حلمي التقى بحلمك في مكان ما، فقبّل كل منهما الآخر، وضغط بجسده على جسده، وتعانقا.

فتاتي الحبيبة، حبيبتي!

بعد يومين سنقوم باجتياح تيانتسزين. على الأقل، هذا ما يقولونه. الكل هنا في حالة تأهب، ولا أحد يعرف أي شيء معرفة شافية. نستعد للحملة على بكين، غير أنهم يعودون فيقولون لنا أننا يجب أن ننتظر فترة الأمطار - وأين هي هذه الأمطار؟ - فقبل ذلك لا نستطيع أن نبدأ المسير. شائعات، شائعات وشائعات. الجميع هنا لا يعيشون إلا على الشائعات.

أنا حيّ وصحتي جيدة، على الرغم من أني بتّ ناحلاً جداً، ملابسي كلها معلقة على جسدي وكأنها معلقة على عصا. في الأيام الأخيرة عادت معدتي إلى الاضطراب من جديد: ذهبت إلى الطبيب، ولكن زاريمبا نصحني فقط بالتوقف عن الأكل مؤقتاً. القمل لم يعشش في رأسي بعد. أستحم مثل أغلبهم، نادراً، أحلق ذقني نادراً أيضاً. شعري نما بكثافة. اليوم قررت أن أحلق ذقني، أرتّب نفسي. جلست على صندوق فارغ من صناديق القنابل، ورحت أحلق لحيتي التي لم أحلقها منذ خمسة أيام.

فرشاتي كانت قطعة من شاش الضمادات. كنت أحتاج إلى مرآة صغيرة للحلاقة. مرآتي كسرتها، فاضطررت إلى استعارة مرآة من كيريل. المرء هنا لا يحلق ذقنه إلا نادراً، ولكن لا بد من فعل ذلك من وقت لآخر، وإلا فإنه سيتوحش تماماً.

أتدرين؟! نظرت إلى نفسي في المرآة، وأنا أحلق، فرأيت فجأة أني فاغر الفم. أتفهمين! رأيت نفسي ميتاً. لقد صرت أرى كيف سيصبح الجميع بعد موتهم بما في ذلك أنا.

ولكني أحرص على طرد مثل هذه الأفكار من رأسي.

اليوم سافرت لوسي مع مجموعة من الجرحى إلى تونغ كو. أرسلوهم إلى هناك على سطح بارجة يمضي بها تيار نهر بيي خو نحو الأسفل. ما أشد الفرح الذي رأيته في عيون أولئك الذين نقلوهم أخيراً من تيانتسزين، بعيداً عن الرصاص والقنابل وطاولات الجراحة والألم، وما أشد الحسد الذي في عيون من بقي هنا!

حين ودعَتْ لوسي جماعتنا بكت وهي تحاول أبداً تغطية شامتها التي على الرقبة بيدها. وقد سمح قائدنا الجديد العقيد ستانكيفيتش ـ لم أحدثك عنه من قبل، سأحدثك بشأنه لاحقاً ـ لكيريل أن يودعها، إنه الآن هناك، في المرفأ، ولكن كان يجب أن يعود منذ زمن. آمل ألاّ يكون أصابه مكروه.

أنا فرح جداً بسعادتهما! لقد بحث كل منهما عن الآخر طول العمر، وها هما يلتقيان ـ هنا، والآن!

لقد اعترف كيريل أنهما قررا الزواج. وأنها ستنتظره في تونغ كو.

وعلى الرغم من أني لا أعرف، طبعاً، ما الذي وجده غلازيناب فيها. إنها لطيفة ولكنها بسيطة جداً بالنسبة إليه، وأكبر منه سناً بكثير، ولكن هذا ليس مهماً. ماذا قال أوفيد؟ الصبية نفسها ـ ليست إلا جزءاً صغيراً من ذاك الذي يعجبنا فيها.

ها قد عاد كيريل. استلقى وأدار وجهه إلى الحائط. صمت برهة، ثم قال:

ـ الآن، يجب عليّ حتماً أن أعود حيّاً.

ساشينكا، هناك، حيث الموت، حيث يرسلون الناس ليُقتلوا، ـ يكثر الكذب دائماً. أتعرفين كيف أفكر في هذا الشأن كله؟ في الحقيقة، ليس مهماً أن تنتصر أو تنهزم، لأن النصر الوحيد في أي حرب ـ هو أن تبقى حياً بعدها.

ولكن، إلى جانب الكذب حول الصراع بين الخير والشر والكلمات الجميلة الكاذبة حول الخلود، هناك في كل هذا حقيقة مهمة جداً، وأنا أشعر بها. ولعلّي أنا هنا مِن أجلها، من أجل أن أفهمها.

الناس هنا يصبحون أكثر فظاظة، ولكنهم يصبحون أكثر ليونة. يتكشف فيهم شيء ما كان مخبوءاً. وقد لاحظت أنه حتى أولئك الجنود الذين وجدتهم حيوانات فظة بدؤوا يكتبون لأهلهم رسائل رقيقة. ذاك مثلاً، قد يكون سكر وضرب زوجته، ولكنه الآن يكتب لها: سأبقى، مع قبلي وعناقي، محبك بِيتْيا. ألا يستحق هذا وحده أن يرسلوه إلى هنا من أجله؟

وماذا عني؟ ترى، هل كنت، لولا هذه التجربة، سأفهم أني أصارع لأعبُر في الحياة من خلال الأشياء المعقدة، إلى الأشياء البسيطة؟ البسيطة إلى أقصى الحدود.

صحيح أن الشر هنا كثير في كل مكان، وكثيرة هي القسوة الفظة، العبثية، القبيحة، ولكن، كلما ازداد انتشار الشر والقسوة، ازداد تمسك الإنسان بما هو إنساني في ذاته ومن حوله، وازدادت أهمية محافظته على تلك الذرّة من الإنسانية الكامنة في داخله. هأنذا، لم يكن لي في الماضي أصدقاء حقيقيون، أما هنا، فأتقاسم مع إنسان آخر، ما قد يكون آخر أيام وساعات حياتي، وينسكب فيه كل ما عندي من دفء إنساني كما ينسكب

ماء المطر في حفرة.

عزيز عندي الآن كيريل، كأنه أخي، وكلما ازدادت قوائم أسماء المقتولين والجرحى طولاً، ازداد تعلّقي بهذا الإنسان غير الرشيق، ذي النظارة السميكة. ها هو ذا الآن أمامي، لا يخطر في باله أبداً أني أكتب لك عنه. نزع نظارته ليمسحها، وفي عينيه القصيرتي النظر، اللتين لا يحميهما شيء تحت حاجبيه المتورمين، نظرة طفلية عاجزة تماماً. استدار مجدداً نحو الحائط. إنه لا ينزع نظارته حتى حين ينام.

نحن، أنا وهو، نتقاسم الأفكار والمخاوف نفسها ـ كم يقرّب هذا بين الناس! في الرأس رجاء واحد ـ ألاّ يحدث مكروه في هذا اليوم، وفي الذي يليه! والذي يلي! والذي...

أتذكر كيف نظر إلى قدميه وتنهد بأسى ثم قال:

ـ ما أقبحهما! ومع ذلك يحزنني أن تقطعا.

في إحدى قدميه ظفرٌ نامٍ. وقد قال ذات يوم مازحاً: لعلهم سيتعرفون عليّ، إذا قتلت، بواسطة هذا الظفر، لأني سأكون بلا وجه.

لقد أحسست لأول مرة بذلك الشعور المدهش الذي يكثر الحديث عنه كذباً ـ صداقة الرجال. إنها، في الحقيقة، لا تحتاج إلى الكثير، هي ببساطة، تتطلب أن تعرف أنه لن يتركك وحيداً، وأنك ستساعده بكل ما تستطيع. هناك دائماً، شيء رائع، في التقائك بصديقك حياً، صحيح الجسم.

وهأنذا أشعر الآن بالفرح لأن غلازيناب هنا، ولم يصبه أي مكروه. أظنه نام؛ غرس وجهه في وسادته الصينية المحشوة بأوراق الشاي ونام. أسمع حمحمته وتمتمته. إنه يقول شيئاً في نومه. لعلّ حبيبته تزوره الآن في الحلم. يا لسعادته! لا، إنه ليس نائماً. لقد كان يكلّم نفسه، ها هو ذا ينهض الآن ويخرج.

الزيزان تئز بشدة في أشجار الحور، مسبّبة طنيناً في أذني.

لا أدري لماذا تذكرت كيف حكى لي كيريل أنه لعب، وهو صغير، لعبة الحلاق ـ قصّ شاربي قطّ، فصار القط بعد ذلك يتعثر بقوائم الكراسي، ويخطئ فيدس سحنته في الأرض بعيداً عن صحن الطعام.

إن نظرتي إلى الجنود صارت مختلفة أيضاً. كلما ازداد عدد المقتولين ازداد إحساسي بقربي منهم قوة. البارحة، كنت أسجل أسماء القتلى وفجأة، ولأول مرة، سميت هذه الكتيبة كتيبتي، وشعرت أني، أنا نفسي، جزء منها.

لقد بدا لي في الماضي أن الحياة استعداد للموت. أتدرين؟! في يوم من الأيام شعرت أني نوح الذي انكشف له أن الطوفان آت، عاجلاً أو أجلاً، وأن حياة جميع من على الأرض ستنتهي. ولذا كان عليه أن يبني السفينة كي ينجو. لم يعد نوح يحيا كالآخرين، بل صار يمشي هائماً، يفكر بالطوفان. وهأنذا بنيت سفينتي أيضاً. غير أن سفينتي لم تكن من جذوع الأشجار، بل من الكلمات. ها هم، كل من حولي، يعيشون حياة اليوم، يبتهجون بما هو لحظيّ، أما أنا فلا أستطيع أن أفكر إلا بحتمية الطوفان، وبالسفينة. لقد بدوا لي تعساء، وأنا، على الأرجح، واحد منهم.

لقد بدا لي أنه يجب عليّ أن أكتب عن الأمور الأكثر أهمية، أكتب عن كل مسألة زوجاً من السطور: الأحداث، والناس، والأشياء، والذكريات، والمشاهد، والأصوات. ها هو ذا زيز طار وارتطم بركبتي. والأمر يتعلق بي وحدي، إن كنت سآخذه معي أو لا. حالة مشابهة عشتها في طفولتي حين طمرت العلبة تحت شجيرة الياسمين. المختلف الآن، هو أني أستطيع أن آخذ معي كل شيء أريده.

عمل نوح ـ قبول واعٍ وحكيم للموت.

يا لي من نوح لا يصلح لشيء.

ساشينكا! كل هذا هراء، لم يكن هناك أي نوح! وسفينتي المصنوعة من الكلمات تمضي بعيداً، أما أنا فأبقى هنا! يجب ألاّ نستعد للموت، بل

للحياة. وأنا، لست مستعداً للحياة بعد يا ساشكا!

أنا نوح الأنواح، أحمق الحمقى، أبحث عن شيء ما مهم، كبير، لا يمكن بلوغه، ولا بد لي من أن أكون هنا كي أفهم أنك عندي. عندي، إذن، ذلك الكبير، المهم ـ أنت. الموت يحيط بي، وأنا أشعر في داخلي بموجة الحياة الضخمة تغمرني، ترفعني، تحملني إليك.

في الليل تنهمر عليّ الكآبة ـ ألجأ إلى كلينا طلباً للنجاة، فذاك الذي كان لم يختفِ قَط، إنه حيّ، إنه فيَّ وفيك، نحن مكوّنان منه.

لعلّك تذكرين يوم جئت إلى موعدنا عند التمثال بالقرب من صالون الحلاقة. كنت أشعر بوخز في ظهري وقد تجمدت أذناي من شدة البرد الذي لم أعتد عليه. اشتد الصقيع في المساء، ونحن نتنزه ملتفين بشال واحد هو شالك. إني أرى الآن ذلك الشال كأنه أمامي ـ قطبات نسيجه ضخمة ورخوة. تجمدت أطرافنا فذهبنا إلى بيتك، خلعنا ملابسنا وتمددنا تحت اللحاف وأسناننا تصطك من البرد ـ أمسكت بيدي المثلجتين ووضعتهما بين فخذيك لتدفئيهما.

أو تذكرين كيف ركبنا الدراجة في المنزل الريفي صيفاً فعلقت تنورتك بين أسياخ الدولاب.

هذه قطع صغيرة من حياتنا، وما أكثرها يا ساشينكا! بل، الأدق، كم هي قليلة حتى الآن!

حين بقيت عندك لأول مرة، ذهبت ليلاً إلى المرحاض، لم أكن أرى شيئاً في العتمة، فرحت أتلمس الجدران، وتصطدم ركبتاي بالكراسي، فأيقظتك من نومك.

وحين دخلت في عيني شعيرة لحستها بطرف لسانك.

قولي: أمازلت تقضمين أظافرك؟ حبيبتي، لا تفعلي ذلك، لا تعضي أصابعك، إن أصابعك جميلة جداً، ورقيقة جداً!

مرة، كنت غارقة في التفكير بشيء ما وتطوفين في أرجاء الشقة

وفرشاة الأسنان عالقة في زاوية فمك.

ألا تذكرين كيف جئت إليّ فوضعت دلّة القهوة فوق النار وقد نسيت أن أضع فيها ماء؟ لقد اضطررنا إلى رميها في سطل النفايات.

وفي زيارة أخرى نسينا إبريق الشاي فظلّ يغلي في المطبخ محوّلاً إياه إلى غرفة بخار. بعد ذلك شربت رشفة من الشاي ثم قلت لي فجأة وأنت تنظرين في الكأس:

- انظر، الشاي عندي بسكر وخيال مصباح!

لم تدخل قدمك بسهولة في حذائك الجديد - فاستعنت بملعقة طعام.

وصحن سجائرك! صحن السجائر طافح، إنه ممتلئ دائماً بأعقاب السجائر!

والتمثال الصغير ذو القرنين. ماذا حلّ به؟ أين هو؟ هل ينتظرني؟

حبيبتي، لقد افترقنا منذ زمن بعيد، ومع ذلك أشعر أن ما مضى على فراقنا ليس سوى بضعة أيام.

أغمض عيني فأراك جالسة على السرير، كما في الماضي، مرتدية قميصي الداخلي، ممسكة ركبتيك بيديك، مسندة ذقنك عليهما، وقد خرجت لتوك من الحمام، غسلت رأسك وصنعت من المنشفة عمامة. أمام وجهي مباشرة - بطّة ساقِك التي احمرّ جزء منها نتيجة عقصة بعوضة. أقبّل بطتي ساقيك.

سأتلمس حتماً رقبتك باحثاً عن نبضك، كما كنت أفعل في الماضي. أحب كثيراً دقاته في هذا المكان بالذات. أحب كثيراً هذه النبضات القلقة تحت بشرتك الرقيقة.

أرى شفتيك الجافتين، سأقبلهما بلا نهاية. يتغير لونهما عند الأطراف، أما في الوسط، فتغطيهما قشرة رقيقة.

سينهمر حب عظيم عليك، على شفتيك، على بطتي ساقيك، عليك

كلك. وفي الليل، في العتمة، سأهمس لك بكلمات حانية، أقبلك، أداعبك، أحبك!

أنت لي ولن أعطيك لأحد!

أرغب فيك رغبة مسعورة! أشعر بحاجة كبيرة إلى جسدك!

فأنا إنسان حيّ يا ساشكا!

●

إنه صباح ترامواياات، ما أكثرها!

وراء النافذة ظلام، وفي داخل الحافلة تبدو وجوه الجميع زرقاء بسبب ضوء المصابيح الخافت، وكأنهم غرقى.

بعضهم يبدو كأنه ينقر شيئاً بأنفه، وبعضهم يلوث عينيه بقراءة جريدة. في الصفحة الأولى أخبار الحرب، وفي الأخيرة، كلمات متقاطعة. يخبرون من العاصمة أن الإقامة في المكتبة العامة ذات السقوف المتشققة التي نمت فيها الطحالب، ممنوعة ـ سبب ذلك أن من لا بيوت لهم يأتون إليها ليناموا داسّين أنوفهم في ملازم الصحف القديمة المتعفنة.

ويكتبون من مدينة غاللين، أن قشرة تنمو فوق حجارة الرصيف تحت أشعة شمس الغروب الكثيفة.

وثمة أخبار عن مدينة القدس.

ومن أخبار العلم أن العلماء وجدوا بالإحصاء أن الناس في الخمسة آلاف سنة الأخيرة لا يتقاربون فيما بينهم بنتيجة الانتقاء، بل كالأشجار التي لا تنتقي جيرانها ولا ملقّحيها بغبار الطلع، وإنما تتشابك أغصانها وجذورها ببساطة، نتيجة نموها.

كما أنهم اكتشفوا عن طريق التجربة لغزاً من ألغاز الزمن: تستطيع الأحداث أن تجري في أي ترتيب تشاء وأن تحدث عند أيّ كان. يمكن في وقت واحد، أن يصفّر أحدهم بصفّارة من ورق السجائر حتى تصاب

شفاهه بالحكّة، في مطبخ هنا، وأن يقرأ أحدهم في مطبخ آخر رسالة من شخص زال من الوجود. هأنتذي عند طبيب الأسنان، يدسّون إبرة في إحدى قنوات أسنانك لينتزعوا عصباً، وبعد ثمانمئة عام تهتز شراشيب غطاء الطاولة عند هبوب تيار هوائي. وقد لاحظ القدماء عموماً أن الماضي لا يبتعد بمرور السنين، بل يقترب، وأن الساعات لا تستطيع إلا أن ترسل أصواتاً كأصوات الزيزان التي تتبارى أيها أقوى، مع أننا نعرف منذ وقت طويل أنها الثانية إلا عشر دقائق.

اختفت الفراشات كلها تقريباً من جبال الألب نتيجة الصيد الجائر.

الشاي الملفوف بورق الجرائد يعوّض عن السجائر.

قد يصبح المطر أشدّ غزارة في المساء.

حوادث: كانت تسير دون أن تعلم أن الحياة أقصر من تنورتها.

رسائل القراء: ما أحسن أن ينتظروك على العشاء!

المرأة الثلجية تسأل غاضبة لماذا يحزن الجميع لمصير «تايتانيك» أكثر من حزنهم على جبل الجليد؟

أبحث عن طابع عليه صورة مربي حمام ينتظر عودة طيوره من تحليقها ولا ينظر إلى أعلى، بل في طست الماء، لأن السماء فيه أكثر وضوحاً. أنا وحيدة، واعية، صهباء منذ زمن، بلا عادات سيئة، ولكن قد أدخن أحياناً، أنا شقيقة نفسي، بحسب كتاب نبوءات الدرويديين - حبة خردل، طولها يمكن أن يحتويه الإبط، والحجم لا شيء. العينان - بحيرتان مختلفتا اللون عند بوابات مدينة أسطورية. وضعي المادي جيد. عملت سابقاً في مستشفى يحيط بها سور مرتفع من القرميد غرست في أعلاه قطع من الزجاج المحطم كي تخمش الريح. هناك، لا يخاف الأطفال السرطان، بل وخز الإبر - كنت أضطر للبحث طويلاً عن مكان في يد المريض لم تخزه إبرة.

والآن - أنا سيدة الحياة. الخبر والنذير.

أضع الفواصل في عبارة: القتل ممنوع العفو.

أحفر بالإزميل يداً صغيرة، ساقاً صغيرة، أنظر، ما الذي ينقص اللوحة، ـ أستمر في الحفر حتى أتم العمل.

بعد العمل أعود منهكة إلى البيت، لكن هذا البيت ليس بيتاً.

أتقلّب في الليل على الأريكة المتداعية، فتدمدم بشيء ما بلغتها الخشبية المتهالكة المليئة بالشنشنات. الصنبور في المطبخ لا ينغلق. اشتريت وسادة جديدة تعذبني ـ تفوح منها رائحة الدجاج. ومن طاقة التهوية تأتي أصوات ليلية غريبة، غير مألوفة، ـ أعيش الآن مقابل حديقة الحيوانات. أتهيأ للذهاب والتنزه فيها ـ حلّ فصل الشتاء من جديد. الأقفاص فارغة.

ذهبت في أحد الأيام، لم يكن الثلج قد هطل بقوة، مجرّد رذاذ ثلجي. لقد أفرغوا الحوض من الماء ـ قاعه ممتلئ بالأوساخ. دخلت إلى جناح القرود، المكان مدفّأ تنتشر فيه رائحة كريهة. تأملت القرود. إنها تغسل أيديها ببولها وتنظف جلدها المكسو بالشعر.

هذا ما قالوه.

بعد ذلك انضممت إلى مجموعة من التلاميذ، وقادنا العاملون إلى مكان في الطرف الآخر من حديقة الحيوانات، كل ما كان فيه هو الدجاج. دجاج عادي منزلي. رائحة المكان كرائحة وسادتي. هناك أخبرونا أن الدجاجة الجالسة على البيض، تقلّبه دائماً بحيث يصل الدفء المحيي المنبعث من جسد الأم، إلى كل أجزاء طفلها، ونتيجة لصبرها ورعايتها يفقّس البيض صغاراً أصحاء. لكن هذا، كما علمنا، ليس أبداً مثالاً للأمومة الواعية، فالذي يجري في الواقع هو ما يلي: يسخن بطن الدجاجة، وهي بتحريكها للبيض تبحث في محيطه عن وجه مناسب تبرّد به بطنها الساخن. وبعد فترة من الزمن يسخن سطح البيض الذي ترقد عليه، ولذا تعود فتقلبه كي تجعل وجهه البارد إلى أعلى. وبعد أن

تكرر ذلك مرات كافية، ينقر الصغار البيض، فتدهش إذ تجد نفسها أمام مجموعة من الصيصان. هكذا يا أولاد، تقوم الطبيعة بالعمل بدلاً منا، فتنظم كل شيء.

خرجت من قسم الدجاج فرأيت فيلة شتوية، وحيدة، بائسة. إنها تتجمد برداً في الشارع، بينما يقوم العاملون بتنظيف بيتها الذي ليس بيتاً. تتمايل في أصيل مبكر من أصائل شهر كانون. تنقّل وقفتها من ساق إلى ساق. ترتجف من البرد، ويتصاعد من خرطومها البخار.

شعرت فجأة أني فيلة شتوية مثلها. أقف وأتمايل معها. كيف وصلت إلى هنا؟ لماذا أشعر بكل هذا البرد؟ ما الذي أفعله في هذا المكان؟ يجب أن أعود إلى البيت! أنا بحاجة إلى الدفء!

للخلاص من الوحدة، اقتنت ماما بعد رحيل أبي، قطة، كانت تنجب بانتظام في كل عام، فتعطي أمي القطط الصغيرة مجاناً إلى البائعين في سوق الطيور، وذلك فقط كي لا تقتلها. لقد شاخت كثيراً في الأعوام الأخيرة، وكانت في كل مرة أزورها فيها لا تتحدث إلا عن القطة والقطط الصغار. كانت في كل مرة تحاول إقناعي بأخذ واحدة منها، وكنت أرفض دائماً. ولكن، بعد الفيلة، وافقت. أنا، على كل حال، أسكن قبالة حديقة الحيوانات، وسيبدو بيتي فرعاً تابعاً لها.

تحيّرت طويلاً في انتقاء إحداها، وأخيراً أخذت تلك التي زحفت إليّ. أسميناها كنوبكا ـ بسبب أنفها الأفطس.

أخذت القطة الصغيرة وخبأتها في صدري، ولكنها كانت تحاول الخروج من مخبئها باستمرار. نفخت في وجهها، فعبست وعادت إلى الاختباء.

كنوبكا كانت تلعب باستمرار، وكانت مراقبتها وهي تلعب ممتعة للغاية. حين رأت صورتها في المرآة راحت تهاجمها وقد انتصب الشعر الذي يغطي جلدها، وبرزت أظافرها. ارتطم أنفها بالمرآة عدة مرات ثم

تخلّت إلى الأبد عن كل اهتمام بها. غير أنها كانت تستطيع مطاردة الحبل لساعات. وكانت، بعد أن تنال قسطاً وافياً من النوم، تركض مسرعة في أرجاء الغرفة ـ من السرير إلى الأريكة، ومن هناك إلى الستارة، ومنها إلى ظهر الخزانة، ثم إلى الأريكة، وتظل تدور هكذا كالدولاب، إلى أن توقع شيئاً ما أرضاً. حينذاك كانت تختبئ تحت الأريكة، ويحتاج إغراؤها بالخروج من مخبئها إلى قطعة ورقية تتحرك وتقفز أمامها.

قررت أن أعلّم كنوبكا استخدام المرحاض، فسقطت فيه، وصارت منذ ذلك الحين تخاف الماء خوفاً عظيماً.

ولم تكن، لسبب لا أدريه، ترغب في التبرّز في الرمل، لكنها أحبت فعل ذلك في علبة من الورق المقوى في قاعها قطع تخشخش من ورق الجرائد.

لم تكن بنت الطبيعة هذه تخجل من شيء. كان بمقدورها أن تجلس على المائدة أمامي وأنا آكل، فتنقلب على جنبها، وترفع عالياً باتجاه السقف قائمتها الخلفية، وتشرع في لحس ثقب التبول الزهري في مؤخرتها. من الغريب، على كل حال، أن لقطّتي مكانة إلهية عند المصريين القدماء.

كانت تقطّع خيوط قماش الأريكة قبل أن أفطن فأحضر لها قطعة كبيرة من القماش الخشن تشحذ بها أظافرها. وكان من الصعب عليّ أن أتصور أن كنوبكتي وحش، وأنها تستطيع أن تمزق أحدهم بهذه المخالب.

وهكذا نَمَت كنوبكا بشكل غير لافت للنظر فصارت كنوبا.

لقد سمعت في مكان ما أن القطط لا تهتم بوجود صاحب لها، أو عدم وجوده. كلام فارغ، كنوبا كانت تفرح دائماً بقدومي. حين تراني تنهض، تقوّس ظهرها، وتتمطى بمتعة ثم تندفع نحوي لأدللها. أدهن وجهي بالكريم وأتمدد في السرير، في يدي كتاب وعلى قدميّ تتمدد القطة، تدفئهما. أقرأ وأداعب كنوبكا بقدمي، فتهرّ هريراً لذيذاً.

لم يكن في حياة كنوبـا ما تعاني منه، إلا في موسـم التـزاوج. كانت المسـكينة تتمسـح بالأثاث، وتتقلب علـى الأرض، وتزحف علـى بطنها، وتصـرخ بصـوت يائـس. نصحتنـي مامـا بأخذهـا إلـى الطبيـب البيطـري وتعقيمها. ولكني أشفقت عليها.

كنوبا تعيسـة، أحاول مواسـاتها، تدليلها، ولكن، ما إن أمسّد جسدها حتى تتخذ وضعيـة التـزاوج. إنها تحـاول الهرب إلى الشـارع باسـتمرار، الأمر الذي يضطرني إلى حبسها.

كان النوم يستعصي عليّ وأنا أراها تتألم وتصرخ بيأس. السرير بارد، أتمـدد مفتوحة العينين فـي وجه القمر، وأقـول لنفسـي: إن قطتي جزء من آلة عملاقة يدخل فيهـا القمر والربيع والمد والجـزر، والنهارات والليالي، والفيلة الشـتوية، وعموماً، كل القطـط التي ولدت والتي لـم تولد، وما هو غير القطـط أيضاً. وهكذا بدأت أشـعر معهـا أني جزء من هـذه الآلة، هذه المنظومـة التـي لا يعـرف أحد كيـف يتم تشـغيلها والتـي تتطلب اللمسـة الحانية. وشعرت فجأة برغبة في العويل. فكم كائناً مثلي ومثل كنوبا وجد عبر ملايين السـنين، يسـهر في ضوء القمر، يغطي أو لا يغطي جلده الشعر والوبر، وهو يتألم مثلنا في الليالي ولا يسـتطيع أن يفكر إلا في أمر واحد ـ أن يجد من يحنو عليه ويداعبه.

أنا أسـاعد الطبيعـة فـي النهـار، فأتعامـل مع أجهـزة الإنجـاب عند الإنسان، أما في الليل فنتكوّر أنا وكنوبكا، حتى نكاد نكون جسداً واحداً.

أظن أن الليالي المقمرة موجودة عمداً كي نتعذب.

زد علـى ذلـك، أن أحدهـم راح يصـرخ وراء النافـذة بصـوت يملأ الكون:

ـ هيّا! هيّا! هيا!

اختفت كنوبكا بعد ذلك. لقد نفد صبرها.

قفـزت إلـى الشـارع مـن دون معطـف، فتشـت الباحـات والأزقـة

المحيطة، ناديت، صرخت، سـألت المارة الذين صادفتهـم، دون جدوى. لصقت بعد ذلك إعلانات علـى أعمدة المصابيح في الشـوارع. كنت آمل أن تقضي شـهوتها وتعود. لم تعد. قد يكون أحدهم أخذها إلى بيته، أو قد تكون وقعت تحت عجلات سيارة. يا لكنوبكتي الصغيرة.

رويت في المشـفى ما حدث، فواسـوني بقولهم إنهم يعرفون أناسـاً يقتنـون القطط دائماً. يربّـون قطة فتهـرب، فيأتون بغيرها جديـدة، يطلقون عليها الاسـم نفسـه، وهكذا تعود إليهم «موركا» ولكن في جلد جديد. إنه خلود القطط.

ماما اقترحت عليّ أيضاً أن أقتني قطاً جديداً.

ولكني لم أرغب بالمزيد. تألفه ثم تعاني فراقـه المؤلم. وقررت أن أقتني فيلة شتوية، ذلك أفضل، فهي لا تهرب.

أوافـق دائمـاً علـى المناوبة فـي أيام الأعيـاد، كـي أقلل مـن أوقات بقائي وحيـدة. النهار يمكن احتماله، أما في المسـاء، حيـن أعود إلى ذلك المكان الغامض، حيث سريري، فأشرب كأسـاً من العنبرية كي أنام سريعاً فأتخلص من ذاتي.

أبتهج حين تدعوني يانكا في أيام السبت كي أجلس مع طفليها.

أحب أن أزورها. كوسـتيك، ابنها البكر، لا ينتظر حتى أخلع معطفي في المدخل، يشدني من يدي إلى غرفته، يشيل من سلة كبيرة ألعاباً يقدمها لي كهدايا. وهكـذا أقف ممـدودة الذراعين وقـد امتلأت يـداي بجبل من السيارات والحيوانات الصغيرة التي بدأت تتساقط على الأرض، ولكنه لا يتوقف عن تكديس الألعاب فوق ذلك الجبل.

ذات يوم حادثته من خلال كسّـارة البندق ـ فصـار الطفل الآن يدسّ في يدي كسّـارة البندق ويطلـب مني في كل مـرة أزورهم فيهـا أن أجلعها تحادثه.

أما الآن فقد ولد لهما إيغوريوك.

لم تـرد يانـكا أن تعـرف جنـس المولود قبـل ولادتـه. كانـت تتوقع إنجاب بنت ولكنها ولدت طفلاً ذكراً. اكتأبت، فقالـت لها القابلة مداعبة، وهي تطقطق بالمقص الذي قصت به الحبل السري:

ـ ما رأيك، أنقطعه له؟

بعد الـولادة، تحولت الشـقة مـن جديد إلى ورشـة أطفال، الأشـياء مبعثرة فـي كل مكان، علـى طاولة المكتب ميـزان أطفال، وفـي كل مكان أكوام من المناشـف وفـوط الأطفـال النظيفة، تفـوح منها رائحـة المعقم. جـوّ المطبخ خانق مـن كثافة البخـار، ـ في القـدر يجري تعقيـم زجاجات الحليب.

يانكا في رداء منزلـي فوق قميص النـوم المبلل بالحليـب، تحادثني وهي تحـوك جورباً صغيـراً جـداً، وكأنه جـورب دميـة. حاكت فـردة منه بسـرعة فائقة، وشـرعت في حياكة الفردة الثانية. نظر إليهـا زوجها ـ ألبس إصبعه فـردة الجورب وراح يمشـي ويقفـز بها علـى الطاولة، ثـم قفز إلى زوجته، راح ينطّ على يدها، وكتفها، ورأسـها. ضحكت يانكا ونزعت عن إصبعه فردة الجورب، وأبعدته عنها، كما لو كانت تقـول: هيّا، ابتعد، أنت تعطّل حديثنا.

يانا تعاني مـن فقدان رشـاقة قوامهـا، وبدانتها، وتبـدل منظر وجهها نحو الأسـوأ بعد الـولادة. ثدياهـا محتقنان بالحليـب، تملؤهمـا العقابيل، وتملأ حلمتيهما الشقوق.

قالت إن الحمل أفرحها فقط لأنه جعلها قادرة على السـماح لنفسها بما يخطـر في بالها من نـزوات. كانت تختلـق رغبات، ويسـرّها، مثلاً، أن ترى زوجها يمضي في قلب الليل ليبحث لها عن الأناناس.

إنها تديره كيفما تشاء. والجميع كانوا يسمونه ـ زوج يانكا.

ولكن، إذا كان من الضروري فعل شـيء مهم في المنـزل، فإن يانكا كانت تقوم بـه كله بنفسـها، فزوجهـا يعمل في مخبر أسـنان، وهـو لذلك

يهتم بسلامة يديه. كانت لديه عادة سيئة، يقلب شفته السفلى وينقر عليها بأطراف أصابعه.

إنه، عموماً، أب رائع، يهتم بأولاده طول الوقت. ولكنه كان مضحكاً. كان يخاطب الطفل الأكبر مذ كان في المهد، مكرراً كلمة واحدة:

ـ بابا! بابا!

وكان كل همه أن يجعل الكلمة الأولى التي ينطق بها ابنه «بابا»، وليس «ماما».

أما الطفل فنطق لأول مرة بصوت ممطوط قائلاً:

ـ هات!

ولادة يانكا الأولى كانت صعبة جداً. أذكر كيف أنها قالت يومذاك:

ـ لن أعيدها أبداً! ساشكا، لا تلدي!

ولكنها قالت شيئاً آخر تماماً، بعد أن حملت للمرة الثانية. قالت: الخوف المقترن بآلام المخاض تنسينه، وتجدين نفسك راغبة من جديد بالحياة والإنجاب.

ـ ما أجمل هذا الذي ابتكرته الطبيعة ـ النسيان! أتفهم؟! أنت تستطيع أن تنسى الرعب، ولكن هل تستطيع أن تنسى كيف تحمل جنيناً بيديك؟ ظهره كله على راحة كفك، جلده مخملي الملمس، وكرشه يندلق على خاصرتيه.

ذات يوم، ونحن ثلاثتنا نتنزه دافعين أمامنا عربة الطفل، أوضح زوج يانكا بلهجة توحي بالأهمية، أن آلام المخاض ضرورية لظهور غريزة الأمومة. فقد قرأ في مكان ما أنهم أجروا تجارب على قرود أنجبت مولودها وهي مخدرة، فقضمت الحبل السري للمولود والتهمت البقايا الخارجة من الرحم، ورفضت إرضاع الوليد.

ـ وهكذا يتضح أن الألم ضروري، مبرهن علمياً، فمن دون ألم لن

تكون حياة.

أنا أرتاح للعلاقة بيني وبين يانوتشكتي فنحن دائماً نتذكّر شيئاً ما.

مرة، أمضت يانكا الليل عندنا في البيت الريفي. كم كان لنا من العمر؟ ثلاث عشرة؟ أربع عشرة؟ أرسلتنا ماما لتعليق ملابسنا الداخلية على حبل الغسيل، بين أشجار البتولا، فرحنا، على سبيل المداعبة، نتبادل الضربات على سيقاننا العارية بالمناشف المبتلة... في البداية كان ذلك مزاحاً، ثم تحول إلى ضرب غاضب ـ أبكانا.

يا لسعادتي بوجود يانا إلى جانبي! ووجود كوستيك، والآن، إيغوريوك أيضاً.

حجم صدر الطفل أكبر بسانتمترين من حجم الرأس ـ هذا علامة الصحة الجيدة ـ وهو يرضع بشراهة.

الحليب متوفر بغزارة. هذا يؤلم يانكا، وهي لا تعرف ماذا تفعل بالفائض منه، لذا تطلب من زوجها أن يرضعه.

يانكا تحلب من ثدييها ما يملأ زجاجة في زمن بقائي بصحبة الطفلين في المساء.

إنها تحشو حمالة صدرها بالقطن قبل أن تخرج من البيت.

ـ يا له من كابوس! أنا مبللة دائماً. لماذا لا يمكن خلق امرأة لثدييها صنبور؟

تخرج برفقة زوجها فأستمتع كثيراً بإطعام الطفل الوليد. أخوه الأكبر يلعب بالمكعبات على أرض الغرفة، وأنا أسخّن زجاجة الحليب الباردة بالماء الحار، فوق السخانة. أجلس في وضع مريح على الأريكة وبين يدي المعجزة الجائعة. أرش بضع نقاط من الحليب على ذراعي، ألعقها بلساني ثم أبدأ إرضاعه بحذر. تتقلص عضلات وجهه تعبيراً عن اللهفة، وتقرقع فقاعات الحليب في الزجاجة، فأشعر بأني سعيدة سعادة كاملة. يحدث ما ليس متوقعاً، يطلق صرخة باكية. الحليب لا يسيل من

الرضّاعة بشكل جيد. أذهب إلى المطبخ، أحاول توسيع فتحات الرضّاعة بإبرة محماة. الحليب صار الآن يسيل بغزارة أكثر من اللازم. لذا لا بد من تبديل الرضّاعة. أمضي وأنا أحمله على كتفي إلى الغرفة. أربّت على ظهره كي يتجشأ. أداعب بحنان هذا الكائن الصغير الذي تفوح منه بحدة رائحة الحليب والبول.

ثم، بعد ذلك، أرافق كوستيك إلى سريره. أقرأ له قبل النوم.

في آخر مرة، تمددت إلى جانبه وأنا أقرأ، ثم عانقته فشعرت أنه يتحرك مبتعداً عني.

ـ ما الأمر؟

ـ رائحة فمك كريهة.

أنا أعرف أن معدتي تعاني من خلل ما. يجب أن أجري بعض الفحوص والتحاليل. ولكني أخاف. ألا يمكن أن يكتشفوا فجأة أني مصابة بمرض ما؟

فيما بعد، أعود ليلاً إلى البيت. أرسل عبر النافذة تحية للفيلة الشتوية التي لا أراها، وأندس في السرير البارد.

في الصباح، أستيقظ قبل أن يرن جرس المنبه بدقائق، أتأمل السقف. إنه ممتلئ بشقوق صفراء، تجعله شبيهاً بحفوضة الطفل الوليد.

لا حياة بلا ألم.

ما أروع هذا الذي ابتكرته الطبيعة ـ النسيان.

نمت في يوم الأحد الماضي نوماً لذيذاً، وأيقظني ضوء الشمس الساطع. عبر طاقة التهوية تتناهى إلى سمعي أصوات الحيوانات عبر الشارع: زقزقة، خوار، زئير. إنها صرخة الحياة.

أتمطى بمتعة مصغية إلى الأصوات غير المفهومة، صراخ حاد، صوت ابتهاج يطلقه أحدهم. لعله صوت طيور الجنة! أشعر، كما لو أني استيقظت في غابة استوائية، أو في الجنة. إنها كلها تصرخ معجبة بهذا

الصباح المشمس. هي لا تستطيع كبت مشاعرها. أما تلك التي لم تتمكن من الصراخ ابتهاجاً بالسعادة، فجمدت، ببساطة، وقد خدّرها الإعجاب ـ الشجرة، النافذة، بريق الشمس في سقف الغرفة.

■

ساشينكا!

مزاجي اليوم سيئ لسبب لا أدريه.

هنا يطغى الزحار على كل شيء، وقد انضاف إليه البارحة التيفوئيد.

يا للفظاعة! ـ منعونا من شرب الماء، فامتنع الجنود عن شربه، ولكنهم ظلوا يغسلون به القدور والأواني. لقد بدأت هنا جائحة حقيقية ـ الجنود يكادون لا يخرجون من المراحيض.

غير أن الأمر الأبشع، هو الإسهال عند الجرحى، يزيد من بشاعته استحالة الحصول على التبن أو القش من أي مكان.

الحر هنا مازال سائداً كالمعتاد. رأسي يؤلمني. وأفكاري يختلط بعضها ببعض. أتعرفين؟! من زمن لم أكتب شيئاً حقيقياً ذا معنى، ولذا تسود الفوضى في رسائلي. المهم هو أن البقاء وحيداً أمر غير ممكن أبداً. وهو أكثر الأمور مدعاة للتوتر.

الحر مرهق طبعاً ـ الفترة الماضية كلها لم تشهد أي يوم ممطر، أو حتى غائم. طنين في الرأس، والأفكار مشتتة يستحيل ترتيبها، وأنا بحاجة لأن أفكر، لو أحياناً، بشيء حقيقي غير الإسهال وقوائم الخسائر. قضيت الصباح كله في كتابة الحروف والأرقام ـ فهذا ما يتحول إليه الناس بالفعل.

أحتاج إلى الهدوء والوحدة، ولكن ما يسود في كل مكان هنا هو الفوضى والضجيج، والدعابات البذيئة، والقهقهة الغبية، والشتائم، والأحاديث الحمقاء، والوشايات، والأوامر.

أريد الهرب والابتعاد عن كل هذا، والهيام وحيداً. إن استحالة الانفراد أمر يشعرك بالاضطهاد.

تشاجرت اليوم مع غلازيناب ـ كان يلاحقني بأحاديثه دون أن يفهم أني، ببساطة، أحتاج أحياناً إلى تقليب أفكاري، والإصغاء إلى السكون، والانفراد بنفسي. وها هو ذا الآن يجول عابساً في الغرفة كرقاص الساعة. يصادف أحياناً أن أكتب كثيراً ـ كالبارحة مثلاً. يدي تتعب، تؤلمني، أئن من وخز الوجع في مفاصلي. أحاول الكتابة بأحرف صغيرة كي أخفف من تعبي، ولكنهم يصرخون في وجهي ويطالبونني بالكتابة بأحرف كبيرة. وبسبب الحرّ تتساقط نقط العرق من وجهي على الورق، فتمحو الحروف. الأوراق تلتصق، تعلق بيدي، يسيل حبر الحروف فتتداخل، وأضطر إلى البدء من جديد. وتعود فتنطلق الشتائم.

من الأمور المزعجة أيضاً، أن الكتابة في العتمة، وأنا أضطر إلى الكتابة في المساء حين يحل الظلام، تتسبب للعين بكثير من الآلام. أكتب في ضوء السراج، أجهد بصري، فيبدأ كل شيء في اللمعان والانطفاء فأرى الواحد اثنين. سأذهب، حين أعود من هنا، إلى الطبيب الذي أعتقد أنه سيصف لي نظّارة.

من المستحيل، في كل الأحوال، أن أعتاد كتابة هذه القوائم. أنقل كُناهم على الورق وأتخيل أسرهم وأمهاتهم، اللواتي لا يستطيع أحد أن يبين لهن سبب حدوث ذلك كله.

لا يبقى من الحروب، على كل حال، إلا أسماء الجنرالات. أما هؤلاء الذين أدوّن أسماءهم فلن يذكرهم أحد أبداً.

قرأت، في وقت ما، مراسلات آبيليار وإيلويزا، وقد أدهشني آنذاك ولأول مرة، وجود ضحايا معروفين، وضحايا غير معروفين. لقد حلّت بآبيليار كارثة، سلخ جلده رجال قساة أجلاف. والعالم كله يتعاطف معه منذ ذلك الحين، وسيظل يتعاطف معه مئات أخرى من السنين. وفي تلك

الرسالة نفسها يقول آبيليار أنهم ألقوا القبض على أولئك الذي سلخوا جلده، ومن بينهم خادم له عاش عنده أعواماً. ترى، هل يستطيع أحد أن يتخيل الوحشية التي عومل بهذا ذلك الخادم، الذي أقدم على الثأر لنفسه بتلك الطريقة؟ إنهم لم يكتفوا بسلخ جلد المقبوض عليهم ثأراً له، بل اقتلعوا أعينهم أيضاً. وما من أحد يتعاطف معهم أو يتذكّرهم، رغم أنهم تألموا أكثر منه.

أدوّن هذه الأسماء في قوائم وأقول لنفسي: هؤلاء أيضاً لن يحزن عليهم أحد.

أتذكرين الاسم الذي أطلقه آبيليار وإيلويزا على ابنهما؟

آسترولياب.

ما الذي حلّ بهذا الآسترولياب فيما بعد؟ أظن أن ما حصل له يكفي لكتابة "هاملت" كاملة. ولكن أحداً لن يفعل ذلك. فمن يحتاج إليه؟ من سيتذكّره؟

ولكن هأنذا أتذكّره وأشفق عليه، رغم أنه قد يكون مات دون ألم.

تذكّرت الآن جدتي. إنها كانت أيضاً تشفق على الموتى. ما إن يتحدث أحدهم عن موت شخص ما، تعرفه أو لا تعرفه، حتى تشرع في الاستفسار عن كيفية موته ـ ترجو أن يكون الموت قد جاءه خفيفاً ومن دون ألم، وتتمنى ألاّ يكون قد عانى كثيراً. بدا لي هذا مضحكاً وغبياً آنذاك، فالإنسان مات، والله وحده يعلم من الذي سيطلق في إثره الأماني بأن يكون موته سهلاً، ومتى سيفعل ذلك.

اليوم أخرجني غلازيناب عن طوري. أليس مضحكاً أن يفكر المرء في الخلود وهو يغرق في حفرة من الزحار، يمكن أن يقطعوا فيها رأسه في أية لحظة؟

ها هو ذا جالس يحاول إقناع نفسه:

ـ أنا، لم أكن موجوداً ـ ولكن ذلك لم يكن موتاً، بل شيئاً آخر. وفي

وقت ما لن أكون موجوداً. هذا أيضاً لـن يكون موتاً، بل هو ذلك الشـيء الآخر نفسه.

قلت له:

ـ تستحق صفعة على الأذنين!

لم يفهم كلامي طبعـاً، وأنا لم أحاول شـرحه له. إنه لـن يفهمه على كل حال.

هو لا يفهم أن كل ما في العالم من أديان وفلسـفات ليس، ببسـاطة، إلا محاولات للتغلـب على الموت بالسـحر، كمحاولات النسـاء العجائز التغلب على ألم الإنسان بالأدعية.

أظن أن المسـألة علـى النحـو التالي: الجسـد يقاوم المـوت بالألـم، والوعي يقاومه بالفكر. ولكن، لا هذا ولا ذاك ينقذ منه.

الأمر الأهـم هو أنـي أعـرف الآن أن أفـواه الحكمـاء تظـل مفتوحة عند الموت كأفواه سـائر الأمـوات. أنا أتخيل الآن بوضـوح كيف يرقدون ميتين، وأتخيل جيداً الذباب يطنّ حول وجوههـم. لقد ظلوا طول حياتهم يزعمـون أن الموت غيـر موجـود، وأن ثمة قيامة مـن الموت وعـودة إلى الحياة بصور أخـرى، فتلقّى كل منهـم صفعة علـى أذنيـه! إنّ غاوتاما فنِي كسائر الناس ولـم يصبح إنساناً آخر ـ لم يصبح أي بوذا! وهو لم يكن أحداً آخر فـي أي وقت مضـى. العالم ـ ليـس حلماً، والأنا ليسـت وهمـاً. الأنا موجودة، ويجب أن نجعل وجودها سعيداً.

وقفَـت اليوم عنـد المطبخ فـرس هزيلة ـ سـيطبخون لحمهـا. كانت تنتظر اللحظة التي سـتذبح فيها، تلوّح بذيلها وتهز برأسها. عيناها يغطيهما الذباب. إن هذا الحيوان المربوط إلى باب المطبخ لا يعرف كم بقي له من الحياة. هذا هو الفارق الذي يجعل الإنسـان إنسـاناً: نحـن ـ الكائن الحي الوحيـد الذي يدرك حتميـة الموت. ولـذا لا يجوز أن نؤجل السـعادة إلى زمن قادم، يجب أن نكون سعداء الآن.

وكيف يمكن أن أكون سعيداً يا حبيبتي ساشينكا؟

يجب عليّ الآن أن أكون مستعداً للتوقف عن الكتابة في أية لحظة ـ سنذهب للاستطلاع، فخطط الهجوم على تيانتسزين قد غُيّرت مرة أخرى. إنهم هنا يغيّرون دائماً كل شيء، ولا يستطيع المرء أن يكون متأكداً من أي شيء. ولكن، مادام الهجوم قد أُجّل، فمعنى ذلك أن أحداً ما سيسعد بالعيش يوماً آخر أو يومين. ليتني أعرف من هذا السعيد الحظ. لا يهم، سنعرفه قريباً. ما بال الآخرين يستمتعون بيومين من الحياة يمنحان لهما؟ إنه لمن الصعب أن يكون لديهم أي أمل.

لقد وصل الطبيب ومعاونه. سيذهبان معنا أيضاً. إنهما يريدان استطلاع المكان الذي سينقل منه الجرحى. أسمع كيف يروي زاريمبا حكايات مضحكة فيقهقه الجميع.

هأنتذي ترين أن لا وقت لديّ للتفكير بهدوء، وأنا أرغب كثيراً في التفكير بشيء ما، بعيد عن كل هذا!

عمّ أتحدث؟ عن انعدام الوقت.

نعم، هناك ساعات ودقائق، ولكن الزمن ليس إلا نحن. ترى هل يوجد زمن من دوننا؟ أعني. أننا لسنا سوى شكل وجود الزمن، حامله، محرّكه. وإذن، الزمن ـ مرض الفضاء. يتغلّب الفضاء علينا، فنختفي، فيغدو صحيحاً. الزمن يزول كما يزول التهاب اللوزتين.

إن الموت صراع بين الفضاء، والزمن، أي نحن. ولكن ما الفضاء؟ إنه يعني باللغة اليونانية النظام والجمال والانسجام. والموت فقر في الجمال والانسجام سببه نحن، الفوضى التي نخلقها.

نحن نقاوم.

الزمن مرضٌ للفضاء، وهو لنا ـ شجرة الحياة.

من الغريب أنهم أطلقوا الاسم اليوناني "كوسموس" على زهور أرضية جداً، ولا تتميز بأية خصوصية.

أشعر بمغص في بطني، اغفري لي ذكري لهذا الحدث التفصيلي.
أخشى أن أكون أصبت بالتيفوئيد. رأسي يتصدع.

إنهم ينادونني. سأكمل الرسالة في المساء.

ساشا!

لقد عدت. الوقت الآن ليلاً.

يداي ترتجفان. أرجو عفوك، أنا لا أستطيع أن أتمالك نفسي. مازال طنين الانفجارات يملأ أذني.

يجب ألاّ أحدثك عن هذا كلّه، ولكني لا أستطيع ان أمنع نفسي. لقد عشت الكثير جداً حتى الآن، ولا أستطيع أن أكتم ذلك كله في داخلي.

كان في المكان قائد كتيبتنا الجديد ستانكيفيتش، وأوبري الأصم؛ الذي حدثتك عنه سابقاً، وطبيبنا زاريمبا، ومعاونه، وضابط آخر هو أوسبينسكي، إنه شاب صغير السن، اليوم فقط، وصل أمر ترفيعه إلى رتبة ملازم أول، وكان أيضاً بعض الجنود من قيادة الأركان.

أوسبينسكي كان يثرثر دون توقف، ولكنه يتأتئ طول الوقت. ثرثار، تأتاء. إنه يتفجر سعادة بقرار ترفيعه. وقد اضطر ستانكيفيتش نفسه إلى أمره بالصمت.

شعرت بحاجة إلى التبرّز ـ ابتعدت عنهم إلى جرف صغير، أقعيت، وفي اللحظة نفسها بدأ إطلاق النار. سقطت قذيفة حيث كانوا يقفون تماماً.

هرعت إليهم. أنا عاجز عن وصف ما رأيت.

عفوك، لقد عاودتني الرعشة.

أنظر، فأرى أوبري ممدداً على بعد عشر خطوات تقريباً. إنه أقربهم إلى مكان وقوفي. أطرافه مقتلعة. لا وجود لها! حذاؤه مع بقية من قدمه مرميّ بقربه على الأرض. وجهه يغطيه غشاء رمادي. انحنيت فوقه، فبدا لي أنه حي. فمه مفتوح، وأمام ناظريّ، انسدلت منسابة على حدقتيه

غشاوة أخفتهما. لقد مات في لحظة انحنائي فوقه. لست أدري ما الذي جعلني أعرف ما يجب عليّ فعله ـ أن أمد يدي فأغمض عينيه. مددتها، ولكني لم أستطع لمسه.

أتقدم أكثر. الجميع يصرخون، يئنون، يتخبطون في دمائهم.

أرى ستانكيفيتش، قائدنا. إنه ممدد على العشب. منظره يوحي بأنه تعب، فقرر، ببساطة، أن يتمدد. هرعت إليه. وجهه هادئ، عيناه نصف مغمضتين، وكأنه يسترق النظر. أمسك كتفيه وأحاول إنهاضه. جسده يستجيب لمحاولتي بسهولة، ولكن نقرته تبقى على العشب.

بالقرب منه فرس جريحة تحرّك قائمتيها الخلفيتين حركات تنم على الألم، ووراءها طبيبنا المساعد ميخال ميخاليتش ـ وجهه انمحى، صار كتلة من اللحم والأسنان والعظام والغضاريف.

أسمع أنيناً، أركض نحو مصدر الصوت ـ هناك الطبيب زاريمبا. إنه مايزال حياً، ينظر إليّ... لم يفقد وعيه، يجأر بشيء ما ويبصق دماً. لقد تمزّق بطنه، وعلى الطريق، فوق التراب تكوّمت أحشاؤه. كان زاريمبا ممدداً في بركة من الدم الأسود. إنه يئن، ولكني لا أستطيع أن أفهم لماذا بقي حياً، وما الذي يجب أن أفعله من أجله. صرخت، أسأله:

ـ ماذا، ماذا يجب أن أفعل؟

إنه يجأر فقط، ولكني فهمت في نهاية المطاف ما الذي يريده. إنه يريد مني أن أقتله.

أسمع المزيد من الصرخات، أنهض بسرعة وأتابع سيري.

أرى أحد الجنود العاملين في الأركان ـ كان ميتاً. ساقاه مطويتان وكأنه لاعب في السيرك. وفمه ـ مثل أفواه الجميع، مفتوح. عيناه تنظران ولكنهما لا تريان شيئاً. وعلى ذقنه كتل من اللحم المتخثر.

أخيراً، وجدت أحدهم حياً ـ إنه التأتاء أوسبينسكي. لم يكن موضع إصابته واضحاً، ولكن الدم كان ينفر من حنجرته. ملابسه يتصاعد منها

الدخان، حاجباه ورموشه وشعره، كلها محترقة، ومن خلال واقيتي ساقيه الممزقتين، برزت كدمات على ساقيه يسيل منها الدم.

استولى عليّ الاضطراب تماماً ولم أعرف ما الذي يجب أن أفعله. جلست بقربه ورحت أحاول تهدئته:

ـ تماسك، سينقضي كل شيء على خير!

هرع إلينا جنود آخرون ورجال إسعاف. حملت معهم أوسبينسكي إلى المستشفى الميداني. في الطريق، بدأ يغص بدمه، فمدّ الممرض أصابعه داخل فمه كي يتيح للدم السيلان خارجاً دون إعاقة.

في المستشفى الميداني جلست إلى جانبه ساعة كاملة، لا أستطيع الابتعاد عنه. كان محتفظاً بوعيه، وكنت أكرر باستمرار:

ـ تماسك، سينقضي كل شيء على خير!

كان الجو في الخيمة حاراً جداً، خانقاً، تحوم فيه أسراب من الذباب وتفوح رائحة القيح. رحت أطرد الذباب عنه، ولم يكن باستطاعتي أن أفعل من أجله أي شيء آخر.

حين مات، مددت يدي ومررت على وجهه براحة كفي، ثم أغمضت عينيه. وقد تبين لي أن ذلك ليس مخيفاً.

كان من الضروري نقله إلى مكان آخر، فساعدت في حمله. الميت أثقل كثيراً منه وهو حي. لقد سمعت الآخرين يتحدثون عن ذلك قبل اليوم.

ساشا، أحتاج كثيراً لأن أكون الآن معك!

تعبت كثيراً.

أحتاج أن آتي فأضع رأسي على ركبتيك، فتمسدين شعري وتقولين:

ـ لا بأس يا حبيبي، كل شيء على ما يرام الآن! ما مضى قد مضى. كل شيء سيكون على ما يرام، فأنا الآن معك!

●

تهيأت منذ الصباح، كنت أعرف أني سأبقى عند هذا الفلكي. رائحة عطره عالقة بخياشيمي.

نظرت إلى نفسي في المرآة. أطلّ عليّ وجه لا أعرفه، وجه شاحب، ودوائر سوداء تحت العينين.

الجسد آخذ في الذبول.

تفحصت شعري واقتلعت عدة شعرات بيضاء.

عيناي على حالهما: اليسرى ـ زرقاء، واليمنى ـ شهلاء، ولكن لون حاجبي صار باهتاً نوعاً ما.

بشرة عنقي بدأت بالتجعد.

انحنيت فوق المغسلة ـ غسلت ثديي بالماء البارد، ظلاّ متهدلين، رخوين، كئيبين، تنتشر تحت بشرتهما العروق الزرقاء.

نزعت بملقط الشعر الشعيرات النامية حول الحلمتين.

أصابع قدميّ تمتلئ بالعقد.

شرعت أحف أظافري بالمبرد وأنا أشرب القهوة. الحقيقة هي أن حياتي هي التي تحتاج إلى حفّ بالمبرد.

التقينا في مدخل الحديقة الذي غطاه الوبر المتطاير من أشجار الحور. هناك كانت تقف عجوز تعزف على الأكورديون.

تمشينا قليلاً، ثم قادني إلى بيته.

في الطريق، توقفت لحظة أمام مرآة في واجهة أحد المحلاّت. أصلحت تسريحة شعري ـ وفجأة، التقطت عيناي نظرة فتاة صغيرة مرّت بجانبي. قرأت في عينيها الساخرتين من أنا في نظرها ـ عجوز ذابلة لن تنفعها أي تسريحة في العالم.

بالقرب من النافذة منظار فلكي على حامل ثلاثي القوائم.

عشاء في ضوء الشموع. موسيقا. "دون جيوفاني".

يعدد لي أسماء أقمار زُحل:

ـ تيتان، إيابيتوس، ريا! ديونا، مايماس! هايبيريون! فيبي!

أبتسم معجبة، رغم أنه نسي تيثيس وإنثيلادوس.

يعبّر عن أسفه لأن المطر هطل في أثناء الكسوف الأخير للقمر.

أغلق النافذة كي لا يدخل البعوض والوبر المتطاير من شجر الحور. وراحت فراشة تدق برأسها زجاج النافذة دون توقف.

راح يحدثني عن منظاره الفلكي وهو يربت على ظهره.

ـ إنه، بالمناسبة، آلة الزمن الحقيقية الوحيدة. منظاري أقوى بست مرات من منظار غاليله!

بعد ذلك، بدأ الاستعراض الموعود ـ حمل المنظار الفلكي ومضينا نصعد إلى سطح المبنى.

في أثناء صعودنا على الدرج، انحنى ليشدّ رباط حذائه، فرأيت فجأة أن له صلعة.

في الطابق الأخير باب يؤدي إلى غرفة على السطح ـ عالج بمفتاح معه قفلاً ضخماً على الباب، وولجنا إلى السطح.

الهواء دافئ، تغمره أضواء منسكبة إلى أسفل، وتتناثر فيه نجوم متجهة إلى الأعلى. الوبر متكدس في أكوام صغيرة حتى على السطح.

ـ هنا، لي سمائي الخاصة.

راح يريني المجموعات النجمية.

ـ انظري! هذه الثريا. وهناك ـ طوّق خصري بذراعه ـ ألديباران. الجو رطب. هل تشعرين بالبرد؟

شدّد تطويقه لخصري.

ـ غير أن المجموعات النجمية كلها ـ هراء، فهي لا تقول شيئاً إنها تسميات لتشكيلات لحظية، تشبه إطلاق اسم مجموعة على جماعات

مصادفة من المارة أو سرب عابر من الطيور. إن إطلاق الأسماء على النجوم يشبه تدوين ذؤابات أمواج البحر في سجل للذاتية.

ويشرح فكرته قائلاً: القضية كلها تكمن في عدم تطابق الأزمنة. الزمن عند النجوم العابرة مختلف عن زمننا.

ـ أتفهمين؟

ـ أفهم.

ـ إن هذه التكتلات الكروية والتشكيلات الضبابية غير المتناسقة كلها، هي بالنسبة إلينا كالصورة الفوتوغرافية، تشيك ـ وتثبت الصورة إلى الأبد. ها قد حدث في زمنٍ ما انفجار هائل. با ـ باخ! ويتناثر كل شيء. لكنه يتناثر بالنسبة إلينا. أما في الواقع فهو يتناثر ثم يتجمّع بسرعة. با ـ باخ مرة أخرى، ومرة أخرى يتناثر ثم يتجمّع من جديد. با ـ باخ، مرة ثالثة. كيف أشرح لك ذلك بشكل أكثر بساطة؟ حسناً، تصوري طفلاً يأخذ قطعة معجون، يصنع منها حيوانات وأشخاصاً وأشجاراً وبيوتاً صغيرة، ثم يخرّب كل ذلك ويعيد تجميعه في كتلة واحدة. وهو، غداً، سيعود إلى صنع أشكال جديدة من المعجون نفسه. أو، وهذا أرجح: تذكرين تلك العجوز في مدخل الحديقة. إنها أبدية في نظرنا، ولكنها في الواقع مجرّد جملة موسيقية في الأكورديون ـ بسط ذراعيه، ثم جمعهما، بسطهما وجمعهما. أتفهمين؟

ـ أفهم.

في أثناء تثبيته للمنظار الفلكي على حامله الثلاثي القوائم، تراكضت في السماء نتف من الغيوم. وحين انحنيت لأنظر إلى القمر عبر عدسة المنظار، راح يمسّد شعري:

ـ الوبر عالق بشعرك.

عدنا إلى الشقة. باب الخزانة في غرفة النوم مفتوح، وقد أدهشتني كثرة ما فيها من ملابس وأحذية.

على الجدار صور طفليه، صبي وبنت، توأمان: صور لهما في عربة الأطفال، وأخرى وهما يذهبان إلى المدرسة، وثالثة لحفل تخرجهما في المدرسة.

في أرجاء الشقة آثار نساء أخريات. أظن أنهن تركنها عمداً كعلامات على امتلاكهن للمكان. على الرف، في الحمام مجموعة من المآزر. ومثبت للشعر. وبين زجاجات الكولونيا أحمر شفاه. في سلّة النفايات كتلة من الشعر الأسود، وقد لفتت نظري، من قبلُ، شعرة شقراء على غطاء الأريكة الكحلي في الغرفة.

سألته:

- هل عندك نساء كثيرات؟

ضحك وقال:

- واحدة. وهي تحبني. هل سمعت بما وراء الروح؟ المرأة العاشقة - كائن واحد. إنها تموت، تتحول إلى غير عاشقة، أما روحها فتنتقل إلى أخرى عاشقة. إنها امرأة عاشقة واحدة في أجساد مختلفة.

ظننت أنه سيخلع عني ملابسي، كما يحدث في مثل هذه الحالات، ولكنه سبقني وخلع ملابسه بنشاط، ثم تمدد على الأريكة واضعاً يديه تحت رأسه. كان الممر مضاء، وكل شيء كان مرئياً في الغرفة نصف المظلمة. خجلت من صدري فلم أخلع حمالة الصدر.

كان يدبي فوقي، وكنت أطرح على نفسي سؤالاً لا أعرف له جواباً: ما الذي يجعلني أضاجع رجلاً لا أحبه؟

تذكرت حكاية ذات مغزى عن حكيم طلب من مرافقيه أن يقوموا بعمل غريب وغير مفهوم. فيما بعد، ظهر في أفعالهم الغبية معنى عميق لم يدركوه ولكن الحكيم كان يعرفه: في البداية أمر أن يُثقب زورق صيادين فقراء فغرق الزورق، ثم أمر بقتل أول عابر للطريق، وأخيراً أعاد تشييد جدار دون أن يأخذ أجراً، في قرية حرمه أهلها من المأوى والطعام. ثم قام

بعد ذلك بشرح معنى هذه الأفعال: لقد أغرقوا الزورق كي لا يستولي عليه الملك الطاغية الذي يطاردهم ويستولي على السفن كلها، أما عابر الطريق فكان ذاهباً ليقتل ابنه، وأما الجدار فهو لبيتِ أيتامٍ فيه كنز سيجدونه فيما بعد.

أذكر أني رأيت في الشارع، ذات يوم، رجلاً يحمل دلواً فيه ثلج، فدهشت، ولم أفهم إلى أين ينقل الثلج الموجود أكواماً في كل مكان. ولكن الحكيم الذي أمر بنقله، كان، بالتأكيد، يعرف السبب. وأنا أعتقد أن الحكيم نفسه أرسلني إلى هذا السرير المتسخ، ولم يكشف لي معنى ذلك بعد.

كان الفلكي ما يزال يبذل جهده وقد غطى العرق جسده كله.

ثم انقلب فجأة على ظهره، أشعل سيجارة وسأل بلهجة المعجب بنفسه:

ـ كيف حالك؟

ـ كحال دونا إيلفيرا التي عرفت أن الذي يضاجعها هو ليبيريللو.

ـ ماذا؟

إنه حتى لم يفهم.

أغلق فوهة الواقي البلاستيكي، عقدها بمهارة قبل أن يرميه في سلة القمامة. أطلق ضحكة ساخرة وهو يتثاءب:

ـ ملعقة صغيرة من هذا السائل تتحكم بالإنسان ـ تجعله يفعل ما تشاء هي أن يفعل! يا لها من عبودية مذلة!

ثم أغفى في اللحظة نفسها تقريباً.

حاولت النوم ـ لم أستطع. السرير غير مريح، رخو، تقعّر من كثرة الاستعمال، فصار أشبه بكومة من الريش. ترى ماذا تخفي هذه الملاءات؟ من نام قبلي هنا؟

لم تغادر رأسي تلك النظرة الساخرة التي لمحتها في المرآة. عينا

تلك البنت الصغيرة تكرران مرة بعد أخرى قولها: ما من تسريحة في العالم يمكن أن تسعفني. أعتقد أن هذه هي صورتي الحقيقية مادام الآخرون يرونني كذلك.

ظلت الفراشة تنقر زجاج النافذة طول الليل.

شعرت بالخوف من رؤية هذا الرجل في الصباح. وزاد خوفي حين تخيلت منظري إلى جانبه. ارتديت ملابسي بهدوء، ورفعت عن الأرض حوائجه، وسراويله وقميصه، طويتها بعناية ووضعتها على الكرسي، ثم خرجت.

الفجر بدأ يبزغ. المدينة هادئة، خالية، يدوّي فيها الفراغ بصوت خافت. حتى وبر الحور استقر على الأرصفة وفي شقوق الطريق.

مررت بالتراموايات التي قضت ليلتها قرب المرآب.

حين اقتربتُ من حديقة الحيوانات انكشفت أمامي لوحة كأنها من عالم الخيال. كانوا يقودون فيلتي فوق سكة الترامواي. كانت تسير إلى مكان ما، ببطء، تتمايل، تخفق بأذنيها، وتتشمم بخرطومها بلاط الطريق وسكة الترامواي، فيتطاير وبر الحور ويتناثر. الحكيم يعرف لماذا وإلى أين يقودونها.

عدت إلى البيت، وأحسست برغبة عارمة في الاغتسال. وقفت في البداية تحت رشاش الماء، ثم ملأت حوض الاستحمام وتمددت فيه.

تمددت ورحت أنظر إلى الزغب النامي على بشرتي كلها، تغطيه فقاعات الصابون.

رغبت فجأة في أن أغطس كلّي، بما في ذلك رأسي، تحت الماء، أن أصير قردة مائية.

أخذت من الخزانة الصغيرة أنبوب الغطس الذي اشتريته ذات يوم ولم أستخدمه قَط. غطست تحت الماء، وسكنت تماماً.

تحت الماء يسود هدوء غريب، أقرب إلى الضجيج. كل شيء

مسموع، حتى تلك الأصوات التي لا تُسـمع عادة. ولكن كل شيء يتناهى إلى السمع عبر حاجز كثيف. إن أعلى صوت يسـمعه المرء هنا هو صوت دقات القلب.

قلت لنفسي: أظن أن الحال كانت كذلك حين كنت في بطن أمي.

لا أعرف كم بقيـتُ تحت الماء وأنبـوب الغطس بين أسـناني. لعلي بقيت عشر دقائق، أو سـاعة. بقيت حتى برد الماء وسرى البرد في جسدي كله.

خرجت مـن الحـوض وتدثرت بثـوب الاسـتحمام، ثـم اقتربت من المرآة وتأملت طويلاً صورتي فيها.

بعد ذلك، ظللت أتقيأ طول الصباح.

■

ساشينكا!

لقد تم الاستيلاء على تيانتسزين.

انتهيت لتوي من كتابة التقرير.

القتلى، عندنا فقط، مئة وخمسون رجلاً. الجرحى ثلاثة أضعاف هذا العدد. بين الجرحى كان قائـد فوجنا الجنرال ـ ميجر ستيسـيل، ولكنه عاد إلى مكتبه في القيادة بعد تضميد جرحه.

مجمـوع خسـائر الحلفـاء يفـوق الثمانمئة إنسـان. أكثـر المتضررين اليابانيون. لقـد اندفعوا فـي المقدمـة وفجروا بوابـة المدينـة. الأمريكيون فقدوا الجنرال بوتلر.

هاجم الحلفاء المدينة الصينيـة من الغرب، أما فصيلنـا فهاجمها من الشرق بمحاذاة قناة لوتاي، واجتاح تحصينات ليخون تشجان. فرّ قسم من القوات الصينية، وانسحب القسم الآخر إلى يانتسون وبيتسان.

لقد طلبوا مني أن أكتب تقريراً عن النصر. الناس جميعاً فرحون هنا.

والقادة يتجولون كما لو كان الفرح احتفاء بهم.

أظن أن الفرح عنـد من صاروا حروفـاً وأرقاماً في كتابتـي كان فرحاً متميزاً.

هذا مـا كان يوم أمس، أمـا اليوم فذهبنـا لتفقّد المدينة التي اسـتولينا عليها.

هذا، يا ساشينكا، ما كتبته عن انتصارنا في ذلك التقرير.

في الطريق، مررنا أولاً بالتحصينات التـي اجتاحتها قواتنا يوم أمس. لقد ترك الصينيون معسكرهم بكل ما فيه. رأيت رزمة من الخرائط الصينية مرمية على الأرض، أردت الاحتفاظ بها للذكرى، ولكني غيّرت رأيي. عن أية ذكرى يمكن الحديث هنا؟ جثث الجنود الصينيين مازالت ممددة على الأرض بالقرب منا، وقد نهشها الذباب والكلاب.

كان الفلاحـون يجمعون الجثث تحـت المراقبـة، يعلّقونها بكلاّبات ويجرّونها إلى حفر كبيرة. ارتفعت الشـمس، واشتد الحر، وصارت رائحة الموتى لا تطاق. الفلاحون يعملون وقد سدّوا فتحات أنوفهم بالأعشاب.

استمر الحريق فـي المدينة مشـتعلاً طول الليـل، أمـا الآن فالدخان يتصاعد من الركام... مـن الصعب على المـرء أن يصدق أن هـذه المدينة ذات المليـون سـاكن كانت حية. فـي كل مـكان تتناثـر العربـات بأنواعها والحيوانـات النافقـة والنـاس الموتـى، وتنتشـر رائحـة الدخـان والدهـن المحترق.

الموتى في كل مكان، بعضهم مايزال مرتدياً ملابسه، ولكن معظمهم كان عارياً لسبب غير مفهوم. ثمة عجوز ممددة على ظهرها، وعلى جانبي صدرهـا انـداح ثدياهـا حتـى إبطيهـا. بعـض الجثث تـم جمعه فـي أكوام تناثرت هنا وهناك؛ وقد شـرعوا في نقلها إلى مكان مجهول. وانتشرت في كل مكان أسـراب من الذباب المسـعور الذي لا يميز الموتى ممن لايزال على قيد الحياة.

كنا نضطر أحياناً إلى اجتياز أكوام من الحطام والجثث تقطع الطريق. وفي أحد الأماكن انزلقت قدمي فوق شيء ما فكدت أقع ـ رأيت بين الحطام وجهاً مشوهاً محترقاً.

ثمة كلب يعرُّ في وجه المارين جميعاً، ساقاه الأماميتان ماتزالان سليمتين، أما الخلفيتان فمحطمتان، وفي خاصرته جرح يعجّ بالديدان والذباب. إنه لم يعد قادراً على العواء، ولكنه كان يحاول الزحف على قائمتيه الأماميتين. وقد عرّ في وجهنا أيضاً.

تجاوزه الجميع، أما أنا فتوقفت عنده وأرديته برصاصة. كانت هذه أول عملية قتل أقوم بها. أنا محارب رديء.

فوق المحرقة الهائلة، تحت الركام الذي يتصاعد منه الدخان انهمكَتْ بالنبش خنازير انطلت جلودها بالهباب الأسود. كانت تنبش أشلاء وقطعاً محترقة، لم أدرك للوهلة الأولى أنها جثث متفحمة. كانت هناك يد متفحمة سوداء، رأيت كيف تساقطت أصابعها حين نبشتها الخنازير. وكانت رائحة فظيعة تنبعث من كل ذلك. في هذه الأثناء اجتاح رأسي سؤال: هأنذا أرى كيف تلتهم الخنازير البشر المشويين، ولكن، لماذا أضطر لرؤية ذلك؟

إحدى الجثث المحترقة أذهلتني ـ لم يكن واضحاً أهي جثة رجل قزّمته النار إلى هذا الحد، أم هي جثة لطفل.

لقد التقيت مجدداً بذلك الأمريكي الذي يحمل آلة تصوير.

شغل اليابانيون القسم غير المهدّم من المدينة. الأعلام اليابانية معلقة على البيوت والمخازن. اليابانيون المتّصفون ببعد النظر، أحضروا معهم كمية كبيرة من الأعلام وزعوها على السكان فور احتلال تيانتسزين.

المدينة الصينية نفسها ـ مشوهة. الصينيون يرتبون وينظفون باحات بيوتهم، أما الشوارع فهي، بالنسبة إليهم، حفر للقمامة. الشوارع ضيقة ومغبرّة، ستتحول، في ظني، إلى مفازات موحلة حين يهطل المطر. مشينا

في الأزقة الملتوية التي خلت أحياناً من الناس، الأمر الذي يثير القلق. أبواب المنازل محطمة والشارع ممتلئ بالأشياء التي رماها الناس.

كان الصينيون يفرّون هاربين أو يختبئون، أما أولئك الذين كنا نلقاهم فكانوا يجثون على ركبهم حين يرون الأوروبيين. كانوا يلوحون بقطع مفرودة من القماش الأبيض أو الورق الأبيض كتبت عليها بعض الهيروغليفات. كانت تلك الهيروغليفات نفسها مكتوبة على الجدران. وقد أفهمني كيريل أنها "شون مان" ـ ومعناها "أناس مسالمون".

البنوك والمخازن والدكاكين منهوبة. تحت الأقدام أكوام من الحطام. كنا نرى باستمرار جنود القوات الحليفة وضباطها محمّلين بالخيرات المنهوبة. في المدينة حملة نهب وتخريب حقيقية. ما لا يستطيعون حمله ـ يمزقونه، يدوسونه بأقدامهم، يهشمونه.

رأينا جماعتنا أيضاً ـ رأينا جندياً يمشي حاملاً صرّة محشوة بالفرو والحرير والتماثيل الصغيرة. يدخل داراً مجاورة فيجد فيها ما هو أفضل بكثير مما لديه. يرمي كل ما حمله في الغبار ويشرع في ملء صرّته بالأشياء الجديدة.

الصرخات تتعالى في كل مكان.

ارتفع صراخ امرأة في مكان قريب جداً، كان صراخاً حاداً وحشياً. اندفعنا إلى ذلك المكان فالتقينا بالسيباهيين يخرجون محملين بالأكياس، وقد انهمك أحدهم بتبكيل أزرار سراويله. أفهمونا بالإشارة أن دخول ذلك المنزل لم يعد ضرورياً، كما أن أحداً لم يعد يصرخ.

حين رآنا فقير عاجز كان يجلس في وسط الشارع انحنى قائلاً:

ـ كاثوليكي ـ شانغا، كاثوليكي ـ شانغا!

قادة الحلفاء يبحثون عن الإيخيتوانيين والجنود الصينيين الذين بدلوا ملابسهم واندسوا بين السكان، وكان مصير من يجدونه منهم الإعدام بعد تحقيق يقتصر على نزع ملابس الرجل ـ والبحث عن أثر

أخمص السلاح على كتفه نتيجة الارتداد الذي يسببه إطلاق النار. ذلك كان كافياً للحكم بالإعدام. أما الإعدام فكان ميدانياً، وقد أعدموا أمامنا عدداً من الصينيين: في البداية يقصون ضفائرهم، ثم يضربونهم بأخمص البنادق حتى الإدماء، بعد ذلك فقط يقومون بقتلهم.

قرأت ما كتبت وسألت نفسي: لماذا أصف هذه الفظائع كلها؟

الشيء الوحيد الذي أريده حقاً هو أن أنسى بأقصى سرعة. ولكني مع ذلك سأصف كل ما يحدث هنا. أعتقد أن أحداً ما، يجب أن يحفظ ذلك. ولعلّي لم أوجد هنا إلا لكي أرى وأصف كل شيء.

إذا أنا لم أسجّل ما أراه اليوم ـ فلن يبقى شيء، سينمحي كل شيء.

ولكن، قد لا يكون تدوين كل شيء ضرورياً. لماذا أدونه؟ من يحتاجه؟

أشعر الآن بآلام فظيعة في رأسي، رأسي يتصدع.

ساشينكا، لم أعد أفهم من أنا، وماذا أفعل في هذا المكان.

●

رأيت حلماً. أنا وماما وبابا على شاطئ البحر. في مسبح. ماما تذهب للسباحة. تضع طاقيتها المطاطية على رأسها، تخفي فيها شعرها. أدرك فجأة أنها عارية، فأصرخ:

ـ ماما!

تضحك:

ـ لا تجزعي، ما من أحد يرانا!

تأملت المكان حولي. المسبح خال فعلاً، لا أحد غيرنا فيه. تخوض في البحر، وتدعونا إلى التوغل في عمق الشاطئ. أنا وبابا نبقى على الشط. إنها تعوم بسهولة، تزيح الماء أمامها بضربات قوية، وتتقافز طاقيتها الصغيرة البيضاء فوق الأمواج.

أيقظني صوت جاف غريب. أظل راقدة أغالب بقايا النوم، ولا أستطيع إدراك ما حدث. إنه كرة زجاجية سقطت عن غصن شجرة الميلاد الذابلة.

أسترد وعيي وأتذكر ـ ماما ماتت منذ زمن.

كل شيء هادئ في الليل ـ كل شيء مسموع حتى صوت تساقط إبر شجرة الميلاد الجافة على الأرض.

حرقة في الحلق. إنها بداية المرض. أشعر بألم عند البلع. الأنف مسدود، لا أستطيع الشم. أشعر بعجينة حامضة في رأسي.

إنها المرة الثالثة في هذا الشتاء.

تعبت من الاستيقاظ قبل الفجر.

بل تعبت عموماً.

كانت ماما تحتفل بعيد ميلادها. مررت بها لدقيقة، عندها ضيوف، لذا لم أشأ البقاء طويلاً. في الأعوام الأخيرة كانت تعمل مساء في دار الأوبرا، تبيع كتيبات البرامج، وقد ظهرت لها صديقات جديدات لا أعرفهن. طلبت مني أن أرافقها إلى الحمام.

ـ انظري ما عندي هنا. أتشعرين بالورم؟ ساشينكا، بنيتي، أنا خائفة!

كانت عندها سماكة في الثدي.

ـ ماما، أورام شتى تظهر عند الكثير من الناس.

ـ في البداية، كان الورم صغيراً، حبة صغيرة. وهو الآن ينمو، أم تراني أتخيل ذلك؟ لقد تورمت الغدد تحت إبطيّ أيضاً. أتشعرين بالورم؟ هناك أورام أيضاً في رأسي ووراء أذني.

ـ ماما، أورام كثيرة عندنا جميعاً، بعضها منذ الولادة. ليس هناك ما يخيف! مثل هذا موجود عند النساء كلهن. عليك فقط أن تجري الفحوص اللازمة. هل تشعرين بألم؟

ـ لا.

ـ لا تخافي، سيمرّ كل شيء بسلام!

لم يمرّ الأمر بسلام. بيّنت الفحوص أنها مصابة بورم خبيث أتلف المبيض. عموماً، كان المرض ينتشر بسرعة كبيرة.

بدأت زيارة ماما للمشافي وتعرضها للعمليات الجراحية.

صرت أزورها في كل يوم تقريباً.

كانت تعاني في المستشفى، وترغب في العودة إلى البيت، تقول: إن جدران غرف المشفى تغطّيها الأمراض، كما يغطي الهباب جدران المطبخ.

في أول مشفى كانت جارتها في الغرفة عجوزاً هزيلة تماماً، تنبق من جمجمتها خصلات متناثرة من الشعر. كانت تتزين طول الوقت. وكان ماكياجها يزداد كثافة، كلما ازدادت حالتها سوءاً. شفتاها زالتا تقريباً، ومع ذلك، كانت ترسم، بأحمر الشفاه دوائر كثيفة كبيرة حول فمها المتهدل. ولم تكن ماما تستطيع النوم بسبب أنين تلك العجوز المستمر طول الليل. حين زرتها رجتني باكية:

ـ ساشينكا! خذيني من هنا! البارحة لم تغمض لي عين. لم أعد أستطيع الاحتمال!

ـ ماموتشكا! يجب أن تصبري! إنهم يعالجونك هنا!

راحت تصرخ في وجهي قائلة أني لا أهتم بها، ولا أعبأ بما تعانيه، وأنها في هذا المكان تفقد عقلها. لقد كانت ماما تتمالك نفسها دائماً، ولكن المرض غيّرها تماماً. صارت تارة ترى الأطباء اختصاصيين رديئين، وتارة تزعم أنهم يخطئون في تحديد التحاليل التي تجريها، أو الأطعمة التي تتناولها. كان غضبها ينصب بشكل خاص على الممرضات، تشتكي من أنهن لا يستجبن للنداء، ولا يكترثن بآلام المرضى. وكانت تحتج بصوت عال كي يُسمع من في الممر احتجاجها:

ـ إنهن لا يفعلن شيئاً غير قبض النقود! ولا يفكّرن إلا بالهرب سريعاً

إلى البيت والتمتع بالحياة!

كانت الممرضات يشتكين لي من سلوك ماما، يقلن إنها تعرقل عملهن فهي، ما إن يخرجن من غرفتها، حتى تسارع فتضغط زر الجرس من جديد، تستدعيهن، وحين يجئن إليها تنسى ما كانت تريده منهن، وتشتمهن لأنهن يحرمنها من الراحة لو لدقيقة واحدة.

وكنت في كل مرة أتألم وأخجل وأنا أستمع إلى ذلك كله.

لقد انصبّ توترها وغضبها عليّ، فبدا لي أنها كانت تنتظر مجيئي، فتقذف في وجهي كل ما لديها من حزن وألم، وكأني أنا المسؤولة عن إصابتها بالسرطان، بدلاً من إصابة الممرضات به، أو إصابة أي عابر للطريق وراء النافذة، أو، حتى إصابتي أنا نفسي.

تهدأ بعد ذلك، فنجلس صامتتين، أدلّك يدها، فتشرع في البكاء فجأة:

ـ أتمدد هنا وأقول لنفسي: ها هي ذي عاملة التنظيف تمسح الأرض. إنها عجوز معروقة الجسد، قوية، تستطيع أن تستمر في مسح الأرض عشرين سنة أخرى. لماذا أصبت أنا؟ لماذا لم تكن هي المصابة؟ وأدهش: من أين جاءتني هذه الأفكار؟ سامحيني! يبدو لي أحياناً أن أنا ـ لم تعد أنا. إنني، هنا، أتحول إلى إنسان آخر.

صارت ماما تعاني من آلام شديدة، وراحت تطالب باستمرار بالحقن المهدئة للألم.

ـ إنهم لا يحسنون حتى إعطاء الحقن. لم يتركوا في جسدي مكاناً سليماً.

تريني آثار الإبر على ذراعيها وساقيها.

أقوم أنا نفسي بإعطائها الحقنة الدورية، فتهدأ.

ـ ساشينكا، أنت تجيدين إعطاء الحقن، أنا لا أشعر بأي ألم.

وتغيب عن الوعي.

تعبتُ إلى حد فظيع ـ كنت آتي بعد العمل لأعتني بأمي، أساعدها في الاغتسال، أسرّح شعرها، أقلّم أظافر قدميها، أدلّك ظهرها الذي يبّسه الرقاد الطويل، أدهن قدميها بالكريم، أقرّب سريرها من النافذة كي تستطيع النظر إلى الأشجار. ولكن ما كان يتعبني أكثر من هذه الأعمال ـ صعوبة الوجود طول الوقت في أجواء أفكارها وأحاديثها وصمتها، وخوفها من النهاية القادمة.

قال لي الجراح بعد العملية الأولى:

ـ لم نستأصل الورم كله.

أما أنا فرحت أقنعها بأنها تتماثل للشفاء.

كنت أحياناً، أقضي الوقت مع ولدَي يانكا بدلاً من مستشفى أمي. وكان هذا متنفساً لي، أسترد من خلاله نفسي، وأرمم ما خرّبته فيها ماما وسرطانها.

كنت أسميهما هكذا ـ ولدَي يانكا. وكان هذا يعجبهما.

وكنت دائمة الاندهاش من سرعة نموّهما ـ لقد كان كوستيك، إلى زمن قريب، يقف وراء الطاولة الصغيرة المقلوبة، محاولاً طول الوقت عبور الجسر المنصوب فوق السكة الحديدية ناظراً إلى التشيك ـ تشيك. أما الآن فهو يذهب إلى المدرسة! فظاعة! هرعت أشتري له دفاتر ومسطرة وأقلاماً وأقلام رصاص، وحقيبة مدرسية. يانكا كانت سعيدة لتخلصها من ذلك كله.

إنهما يحبانني. ذات مرة، أهداني كوستيك علبة كبريت.

ـ افتحيها بحذر!

ـ ماذا فيها؟

ـ قرّبها من أذني، في داخلها حرطقة. لقد اصطاد لي زيزاً.

ـ خالتي ساشا، خذيه إلى بيتك، سيعيش عندك، فلا تبقين وحيدة، يصيبك الضجر!

ما أروعه! إنه يخاف عليّ من الوحدة.

معهما، كنت أنسى كل شيء: مرض أمي والمشفى، ووجود السرطان في هذا العالم. أُخرج من حقيبتي المأكولات وأضعها فوق الطاولة: حليب، عصير، بسكوت، فيصرخان:

ـ هورا! حليب! هورا، عصير! هورا، بسكوت!

وأشرع، أنا أيضاً، بالصراخ معهما:

هورا! لبن! هورا! حليب مكثف! هورا! كعك!

كنا سعداء، بلا سبب، هكذا ببساطة.

في الحمام، أعددت للأخ الأكبر طاولة صغيرة كي لا يبول في (نونية) الأطفال، كان شديد الفخر بقدرته على التبول في حوض المرحاض كالكبار يقف على رؤوس أصابعه، فيغرق ببوله أرض الحمام.

انتقلت الطاولة الصغيرة الآن بالوراثة إلى الأخ الأصغر، الذي كان بالإضافة إلى سائر أمراض الأطفال يشكو من البواسير. وقد ظللت فترة طويلة آمل أن يشفى من دون جراحة، ولكن رؤية الطفل وهو يتألم في كل مرة، أمر في غاية الصعوبة.

أحب أن أحممهما بيدي ـ لاسيما في الصيف حين يعودان مسرعين من الشارع وقد كلّلهما العرق... أغسلهما في حوض الاستحمام، وأقشط بالليفة ما علق بأقدامهما من أوساخ. كانت أقدامهما سمراء تتقاطع فوق سمرتها شرائط بيضاء من آثار صندليهما... كانا يقومان بأعمال صبيانية، يبددان رغوة الصابون في حوض الاستحمام، ويتراشقان بالماء، أتبلّل كلّي. نضحك بصوت مرتفع. أدعك رأسيهما بالشامبو، يصرخان بحدة. شعرهما كالحرير بين أصابعي، أغسلهما تحت رشاش الماء.

أجففهما بالمنشفة بعد الحمام، ونضحك معاً من زقزقة شعرهما النظيف تحت أصابعي.

أشعر بالتعب، فأتمدد لأرتاح. يجلس إيغوريوك إلى جانبي ويشرع

بتسيير سياراته الصغيرة فوق جسدي ـ وكأنه يجتاز بها طريقاً جبلياً. يهدر مقلّداً صوت المحرّك. أشعر بمتعة غامرة.

من الطبيعي أن الأمر لم يكن يخلو من الشجار والدموع والصراخ. إنهما يتشاجران لأتفه الأسباب. وينتهي الشجار دائماً لصالح الأخ الأكبر سناً. اختلفا يوماً حول إحدى الدمى، طلبت إعطاءها للأخ الأصغر، الذي هرع إليّ بعد دقيقة والدموع تبلل وجهه.

ـ إيغوريوك، ما الذي حدث؟

يشهق ولا يستطيع أن يقول شيئاً.

أنادي كوستيك، فيبسط ذراعيه مندهشاً:

ـ أنتِ طلبت أن أعطيها له، ففعلت!

يصرح إيغوريوك محتجاً:

ـ صحيح. ولكن بعد أن غطّسها في حوض المرحاض!

فاجأتهما ذات يوم وهما يلعبان لعبة الطبيب والمريض. كان كل منهما يقيس حرارة الآخر غارساً إصبعه في مؤخرته. ترى، ما الذي أستطيع فعله تجاه ذلك!

في هذه الفترة حملت يانكا من جديد. لم تكن تريد أن تلد مرة أخرى، فراحت تشكو:

ـ ما هذا الثدي؟ لقد صار كبيضة لم تسلق جيداً، بعد أن كان صلباً كبيضة جيدة السلق! وبشرة الساقين التي صارت أشبه بخريطة! انظري إلى مجاري الأنهار المرسومة عليها!

تأملت ثدييها ـ كانا شفافين تتخللهما عروق زرقاء، حلمتاهما بنيتان غامقتان، إنهما ثديان، حيّان، عاملان، ضروريان ـ فشعرت نحوها بالحسد.

لقد فكّرت يانكا جدياً بربط المبيضين:

ـ ألا يكفيني ما عانيت؟

تذكّرتُ كيف حدثتني يانكا عن ردّة فعل كوستيك حين أخبروه أنه سيحصل على أخ ـ أصابه ذعر طفلي لأنه لن يكون الوحيد في هذا الكون.

ـ ما حاجتكم إلى صبي؟ عندكم صبي!

ولكن، حين ولد إيغوريوك أعجب كوستيك إعجاباً شديداً بظهور طفل في المنزل، حتى أنه لم يشعر بالغيرة. وقد طلب مني ذات يوم أن ألفّه بغطاء وأحمله كطفل وليد. لففته ورحت أجول به في الغرفة. تظاهر بالنوم، واضعاً إبهامه في فمه، مغمضاً عينيه، ثم راح يقهقه وهو يحاول الإفلات من بين ذراعي:

ـ اتركيني! اتركيني!

ولكني لم أكن راغبة في تركه.

كان كل شيء في أسرة يانكا يتهدم، فبدا لي أن الطفل الجديد سيساعد في تقارب أعضائها.

قبل هذا الحمل سمعتها تشكو:

ـ إنه يتمدد في صمت مديراً وجهه نحو الحائط، ثم ينهض، يذهب إلى المطبخ ويرمي طعام العشاء على الأرض!

كانت تشكو من زوجها، تقول إنه كان في طفولته وحيداً لأمه، وهو الآن يتصرف كطفل مدلل ـ يشاكس، يصرخ، يطلب السماح، تنتابه الهستيريا.

ـ لا يغسل الصحون أبداً!

أحاول تهدئتها:

ـ ولكن، عندك ولدان رائعان!

تجيبني:

ـ ساشكا، صدقيني، الأولاد ـ ليسوا بديلاً للحب.

ذات يوم، قالت لي بأسى:

ـ أخيراً فهمت المعنى الحقيقي للأسرة ـ أن يتعلم المرء العيش في

الجحيم، ويخفي ذلك حرصاً على الأولاد.

إنهما يتشاجران منذ زمن بعيد. مرة هرعت إليّ يانكا مع طفليها بعد إحدى المشاجرات، وقضت الليل عندي. في الصباح، جاء الزوج يطلب الصفح، قرع الجرس، طرق الباب، هدّد بخلعه ـ يانكا لم ترد إدخاله، ولكن الطفلين شرعا في النحيب. فتحت الباب، كان هائجاً لأننا لم نرد فتحه. يرتفع الصراخ من جديد. الطفلان المسكينان يندفعان بقبضاتهما الصغيرة يضربان الأب تارة، والأم تارة أخرى. ثم ينتهي كل شيء بمصالحة تشبه تماماً كوميديا ساخرة، وتمضي الأسرة في حال سبيلها، أما أنا فأبقى ممددة أعاني من الصداع الشقيقي.

فيما بعد صارت يانكا تعطف عليّ:

ـ ساشكا! سأجد لك عريساً! أنت بحاجة للزواج.

ـ لماذا؟

ـ ألا تعرفين لماذا يتزوج الناس؟

ـ لا.

ـ لكي يلمؤوا الفراغ. ها نحن نتشاجر، حتى أمام الآخرين، نصرخ، نصفق الأبواب، نحطّم الأواني، هو يلوّح بقبضتيه، وأنا تسيل دموعي. ولكن بعد تفريغ انفعالاتنا، يعود كل منا إلى حب الآخر. ما كان باستطاعتي الاستمرار لولا هذا الهياج.

الآن، حين حملت يانكا من جديد، بدا عليهما الهدوء. أزورهما، فأراه يعانق زوجته واضعاً يده على بطنها المنتفخ، وعلى وجهه ابتسامة طفلية:

ـ وأخيراً، ستكون لنا الآن بنت. لقد بذلنا كل ما نستطيع من جهد، ما رأيك

تتلمس يانكا بطنها أمام المرآة، رافعة ذيل قميصها إلى أعلى، ونحن جميعاً ـ أنا والطفلان وزوج يانكا ـ نتأمله، وكل منا يرغب في أن يتلمس

بإصبعه ذلك الخط البني الممتد شاقولياً، فيضغط على السّرة النافرة وكأنه يضغط على جرس صغير. كنا نقوم بذلك بالدور:

ـ بيب! بيب! نحن في انتظارك!

حين هطل الثلج لأول مرة، وغمر المدينة كلها، خرجنا إلى فناء الدار لنصنع امرأة الثلج. صنعنا من الثلج كتلاً كبيرة. وحين تم صنع امرأة الثلج، اقترب إيغوريوك منها، ومسّد بقفازه بطنها الثلجي النافر وقال:

ـ إنها تشبه أمي!

قضت ماما شهراً في المنزل قبل العملية الثانية. واضطررتُ إلى أخذ إجازة من العمل كي أعتني بها.

كنت أعدّ لها من الأعشاب أنواعاً من الشراب والحساء.

اكتشفتُ فجأة أني أخاف أن أشرب من كأس شربت منها ـ على الرغم من أني أدرك أن السرطان ليس مرضاً معدياً، فتذوقت الحساء بملعقتها معاندة ذلك الخوف.

لقد تحولت ماما بشكل غير ملحوظ إلى عجوز هدها المرض. كنت أتألم وأنا أراها تنهض من السرير، فتبحث طويلاً بقدميها الضامرتين العاريتين عن حذائها المنزلي، ثم تجرجر ساقيها ببطء متجهة إلى المرحاض، مستندة إلى الجدار بيدها الناحلة المعروقة. حتى صوتها وهي تتكلم صار ناحلاً وجافاً.

أذكر كيف وقفَتْ مرة أمام المرآة تمشط شعرها، وتنزع عن الفرشاة ما علق بها من الشعر الهارب، وتنهّدَت قائلة:

ـ ترى، ما الذي تبقى مني؟

كنت أحممها في حوض الاستحمام وأتساءل مندهشة ـ أهذه ماما حقاً؟

لقد كفّت منذ زمن بعيد عن صبغ شعرها... ذؤاباته كستنائية أما جذوره فيغطيها الشيب تماماً. في صدرها تجويفان كبيران بشعان بدل

الثديين. في الأسفل، ما بين ساقيها، نتف متهدلة لا حياة فيها. وعلى ساقيها شرايين وأوردة نافرة ـ سلسلة من العقد الزرقاء والحمراء.

صارت الآن تتذكر كثيراً أحداثاً من طفولتها وصباها، لم تكن تتحدث عنها من قبل.

قالت إنها، كانت وهي صبية، تحلم باقتناء قفازات طويلة العنق كتلك التي ترتديها النساء في حفلات الرقص الرسمية.

هل تتصورين قفازات ضيقة تغطي الذراع حتى المرفق؟

لقد ظل حلمها حلماً ولم يتحقق.

ذات مرة، حين بدأ بابا يخطب ودها، كانا يتجولان في الشوارع حتى وقت متأخر. يمرّ بهما الترامواي الذي يجب أن يستقلاّه في طريق العودة، فيقول كل منهما للآخر بالتناوب:

ـ لندع هذا الترامواي يمرّ، سيأتي غيره!

وهكذا فاتهما الترامواي الأخير، واضطرا إلى اجتياز نصف المدينة سيراً على الأقدام.

قالت ماما بحسرة:

ـ من كان باستطاعته أن يدرك آنذاك أن الحياة تنزلق وتذهب كما ذهبت تلك الترامورايات التي لم نستقلها؟

إنها لم تكن من قبل تقول لي شيئاً عن والديها، ولكنها صارت الآن تحدثني عنهما، تقول: «جدّكِ» أو «جدّتك»، رغم أني لم أرهما في حياتي، فقد ماتا قبل ولادتي بزمن طويل.

صارت ماما تتذكر كثيراً مولودها الأول، أخي الأكبر. ظهرت فجأة على الطاولة صورة لم أرها من قبل أبداً ـ طفل بدين مؤخرته مبتلة، يضحك بفم خال من الأسنان.

ذات يوم نادت ماما بصوت ساهم:

ـ ساشا! ساشينكا!

اقتربت منها:

ـ ماما، أنا هنا.

فتحت عينيها وألقت عليّ نظرة غريبة.

فهمت أنها لم تكن تقصدني بالنداء.

صارت الحياة تضيق بالنسبة إليها، وصارت الأحداث التي عاشتها في الماضي شفافة، ينفذ أحدها عبر الآخر.

نشّفتها بعد الاستحمام، فتذكّرْتُ أني، حين كنت صغيرة ألعب بالدمى، قلت لها:

ـ سأنمو، فأصبح كبيرة، أما أنت ـ فستصيرين صغيرة!

ابتسمت وكأنها تعتذر عن شيء ما:

ـ وهذا كله هو ما حصل. لقد تبادلنا الأوضاع.

كان من الضروري لي بين حين وآخر، أن أتحرر من مرضها، وكانت ماما تفهم ذلك، فتطالبني، هي نفسها، بالذهاب إلى مكان ما، للترويح عن نفسي، بدلاً من البقاء معها طول الوقت.

ـ ولكن ستضجرين يا ماما. ماذا ستفعلين في غيابي؟

ـ أنت لا تعرفين كم من الأعمال عندي! سأستعيد ذكرياتي!

كنت أذهب في الأماسي لزيارة يانكا، أتأمل هناك كيف يضع زوجها يده على بطنها ويغمز بعينه:

ـ هه، ستكون لنا الآن ابنة! هذا ما أوصيت به!

ولكني كنت أعرف ما لا يعرفه.

كنت كاتمة أسرار يانكا، أعرف أسرارها كلها، رغم أن الجهل بها كان أفضل في بعض الأحيان.

لقد اتضح ليانكا أنها حامل. كان زوجها مسافراً حين ضاجعت عشيقها دون أن تتخذ الاحتياطات اللازمة. فيما بعد، أدركت أنها أخطأت في حساب الوقت، وأن حملها حدث بالضبط في أثناء غياب الزوج. يانكا

تخون زوجها منذ بداية زواجهما تقريباً، فكثيراً ما كانت تتركني أجالس طفليها وتذهب إلى سرير هذا الرجل أو ذاك. وكان عليّ أن أخدع زوجها إذا سأل، ولكنه لم يكن يسأل.

كانت يانكا تتخذ العشيق الثاني كي تنسى الأول، وتتخذ الثالث كي تنسى الثاني.

يبدو لي أنها كانت هكذا دائماً، حتى في صباها ـ لا تحب أحداً ولكنها تحب أن يقع الآخرون في حبها، تستولي على عقولهم، ثم تتأمل كيف يستشيطون غضباً ويتشاجرون بسببها.

عشيقها الأخير ـ موسيقي. كانا، عدا لقاءاتهما السرية، يلتقيان أحياناً في زيارة بعض المعارف المشتركين.

ـ تصوري! كنا جالسين على الأريكة متجاورين. نسيت نفسي في أثناء الحديث، فرحت أداعب شعره! من حسن الحظ أن أحداً لم يلحظ ذلك!

إنها تضحك من عشيقها لأنه يغار عليها من زوجها، كالأطفال تماماً.

ذات يوم تركت لي طفليها وراحت تحضّر نفسها للذهاب إلى عشيقها الموسيقي، تطلي شفتيها أمام المرآة:

ـ زوجي لا يفهم من جسدي شيئاً، أما هو فيفهم!

كانت تشكو آنذاك من زكام، وحساسية في الشفة، وسعال.

سألتها:

ـ يانكا، إلى أين تذهبين وأنفك يسيل باستمرار؟ انتظري حتى يزول مرضك!

ضحكت وقالت:

ـ يعجبه أن أسعل وهو والج فيّ. يقول إن كل ما في داخلي يتقلص بحدة حين أسعل!

سألت يانكا: كيف تستطيعين أن تضاجعي رجلين في يوم واحد؟

أجابت، أن هـذا كان يعذبهـا، إلـى أن تعلمت كيـف تفصل بيـن الحالتين فترسـم بينهما خطاً رمزياً فاصلاً ـ تغتسل، تغسل شـعرها بشامبو مختلف، تحلق شعر ساقيها، وتستخدم عطراً آخر.

ـ أنا لا أعـرف كيف أشـرح لك ذلك. افهمي يا ساشـكا، الأسـرة لا تصمـد إلا بذلك. هأنذي أعـود إلى البيت مـن عند العشـيق هادئة النفس. بعد الخيانة أكون، مـن جديد، رقيقة مـع زوجي. ومن جديـد تظهر عندي القدرة على العناية بالبيت والأطفال وطبقه المفضل من الفليفلة المحشـوة باللحم. أما زوجي فيقول في سره: «ما أروع المرأة التي عندي!»

منذ البداية، لم أهضم صاحبها الموسـيقي. لم أفهـم ما الذي وجدته فيه، ـ رائحة العرق تفوح منه باستمرار تخالطها رائحة العفن، ولم تعجبني الطريقـة التـي كان ينظـر بها إلـيّ. ذات يـوم، في الصيـف الماضـي، جاءا لزيارتي مساء في وقت متأخر، كان الاثنان جائعين، ولم يكن على مائدتي ما يؤكل. توجهت يانـكا إلى المطبخ لتحضر شـيئاً، أما هو فـأدار لحناً من ألحانه، وراح يلحّ عليّ كي أراقصه. يشـدني إليه، يحف جسـدي بجسده، وتنزلق يداه إلى أسـفل وهو ينظر بطـرف عينه إلى المطبخ خشـية أن تعود يانكا فجأة.

سـحبته إلى الشـرفة، وهناك، في العتمة، طوّقت عنقـه بيديّ ورحت أقبل شفتيه. شخر، وشدني إليه بقوة دون أن يزايله الحذر ـ أين يانكا؟ هل ترانا؟

دفعته عني، وقهقهت ضاحكة.

سألني خائفاً:

ـ ماذا بك؟

ـ لا شـيء، أنا، ببسـاطة، أحب كل ما هو ممتع، مـرح، لذيذ الطعم، وجميل. لقد ولدت لأكون كذلك! أما أنت، فأنفك طويل أكثر من اللازم، وعينـاك متقاربتان، وأسـنانك متباعـدة وبطنك نافـر، كما لو كان مشـدوداً

بحزام!

لم أقل له شيئاً عن رائحته.

لا بد أنه الآن يكرهني.

عدت من عند يانكا إلى أمي وسرطانها.

ترددت طويلاً، وأخيراً سألتها:

ـ ماما، لماذا كنت تخونين أبي؟

ـ ألا تستطيعين أن تغفري لي ذلك؟

ـ ليس ذلك ما يهمني. لقد فهمت منذ زمن بعيد أنني لا أملك أي حق في لومك على أي شيء. كما أني لا أملك حق الصفح عنك. أنا أسأل نفسي ببساطة، كم كان ذلك صعباً عليك، أن تضطري دائماً إلى المراوغة والكذب.

ـ أنا لم أكذب. ذلك لم يكن كذباً. بمجرد عودتك إلى البيت تنسين حقيقة، وتتذكرين أخرى. تتحولين من امرأة إلى امرأة أخرى.

ـ هل كنت تحبين عشاقك؟ كما تحبين بابا؟

ـ لقد عشقت قبل الزواج، وبعد الزواج أيضاً ـ لا علاقة أبداً لهذا الأمر بالزواج. يمكن أن تعشقي رجلاً لليلة. تستيقظين فتدركين أنك لم تعشقيه إلا حين كنت تنامين إلى جانبه. أما الزوج، فتحبينه بشكل مختلف تماماً.

ـ هل كنت تخفين عنه كل شيء؟

ـ ولماذا أسبب له الألم وأجعله يعاني؟ إنه قريب إلى قلبي، لماذا أجعل شخصاً قريباً إلى قلبي يعاني الألم؟

أرادت بعد ذلك أن تواصل الحديث، وبدا لي أنها تريد أن تسوغ أمامي سلوكها، فقاطعتها:

ـ ماما، لست مضطرة إلى تسويغ أي شيء.

ـ لا، اسمعيني. الرجل يجعل المرأة امرأة أخرى. لقد كنت دائماً،

أرى نفسي بعيونهم، وأشعر بوجودي من خلال مشاعرهم. مع أحدهم ـ أرى نفسي متعبة، ذابلة، لا شيء. ومع آخر ـ أجد نفسي حقيقية، مشتهاة. في المرأة احتياج لأن تكون معطاء ـ وإذا لم تُمنح لك القدرة على أن تكوني كذلك، فسيبحث العطاء عن منفذ آخر.

قالت ماما مرة، بعد صمت طويل ظننت معه أنها نامت، ولكنها كانت هناك، في الماضي:

ـ أنت تعرفين أني كنت أقص شعر بابا بنفسي. وحين قصصت شعر أحدهم لأول مرة، حينذاك فقط شعرت شعوراً حقيقياً بأني خنت زوجي.

انتظرت مني أن أقول شيئاً، ولكني لم أفعل.

ـ عموماً، ما أغبى هذه الكلمة ـ «خيانة». أنت لا تأخذين شيئاً من أي إنسان. إنها، ببساطة، فعل مختلف، ولكنه ضروري. لولا ذلك لما شغل الآخر ذلك المكان. إن هذا الآخر لم يكن موجوداً في الحياة، لقد وجد ليملأ الفراغ الذي كان سيبقى فراغاً لولاه. من دون ذلك، ستعيشين وكأن قطعة حيّة من وجودك قد انتزعت. إنه يساعدك على الإحساس بوجودك وجوداً كاملاً، حقيقياً، حياً. لقد كنتُ سعيدة مع الآخرين بوصفي أنثى، هل تفهمين ذلك؟ كانوا يقولون لي أشياء ما كان أبوك ليقولها أبداً.

ثم أضافت مرتبكة:

ـ أنا ـ عجوز حمقاء، أليس كذلك؟ أليس الأفضل لي أن أصمت؟

ـ ماما، حدثيني عن كل شيء. أنت لم تتحدثي معي عن هذا الأمر أبداً من قبل. لا تخجلي!

ـ أنا لست خجلة. ولا أسوغ أي شيء. ليس لديّ ما أخجل منه، أو أسوغه. إن الفظيع حقاً ليس كون هذا الأمر قد حصل، إن الفظيع هو استحالة أن تبوحي إلى أقرب الناس إليك ـ الزوج والابنة ـ بأعمق أسرارك، بالسر الذي يعذبك كل هذا العذاب، بالأمر الذي يجعلك سعيدة.

بعد ذلك انتقلَتْ دون أي سبب، إلى الحديث عن أمر رأت أنه بالغ الأهمية، هو كيف سرقت في طفولتها ثوب إحدى الدمى من صديقتها. أجهشت صديقتها الصغيرة بالبكاء، خافت ماما ورغبت في إعادة الثوب الذي سرقته، ولكنها كانت تعرف أن إعادته باتت مستحيلة، فراحت تبحث معها عن ذلك الثوب الذي خبأته في سراويلها، ثم رمته بعد ذلك بين نباتات القريص حين لم يكن هناك من يراها.

ـ ماما، هل حملت هذا السر في داخلك طول السنين الماضية كي تحدثيني به الآن؟

ـ فيما بعد، لم آخذ أبداً في حياتي ما ليس لي.

ـ كم أحبك يا ماما الغالية!

في مثل هذه الدقائق كان يعاودني إحساس كبير بالراحة، وبرشاقة التعامل معها، ذلك الإحساس الذي كنت أشعر به في زمن بعيد جداً، حين كنا نصعد فوق الأريكة، فنجلس مطويتي السيقان، ونتحادث حول كل شيء في العالم.

لولا سرطان أمي لما عاودني أبداً ذلك الإحساس بالحميمية.

كانت ماما في المنزل، حين انتقلت يانكا إلى المشفى في أواخر الخريف. كانت تسير في الممر في مدرستها، في أثناء الفرصة، وكان التلاميذ الصغار يتراكضون، فصدم أحدهم برأسه بطنها صدمة قوية. خافت في البداية، ولكن بدا لها، فيما بعد، أن الأمر انقضى على خير.

بعد فترة قالت لي يانكا أنها لم تعد تشعر بأية حركة في بطنها. نقلها زوجها إلى المشفى وبقيتُ مع الطفلين. عاد وحده من المشفى وقد بدا منهاراً:

ـ أسأل الطبيب:

هل الحالة خطرة؟» فيجيبني: «لا، إذا كان الجنين حياً ـ أما إذا كان ميتاً متفسخاً، فالأمر خطير. ولكن لا تقلق!».

لم يكن باستطاعته أن يفهم كيف أن البنت التي انتظرها طويلاً يمكن أن تسمى جنيناً متفسخاً.

فقدت يانكا جنينها، وتعقدت حالتها، فاضطر إلى إبقائها في المشفى.

تمزقتُ في تلك الأيام بين ماما ويانكا وطفليها. أدركت ماما أن الحاجة إليّ أكبر هناك، وقد اضطررت عموماً إلى الذهاب إلى بيت يانا لأرعى الطفلين، فأخذت إجازة بلا راتب.

لقد كانت تلك الأيام القليلة التي عشتها معهم قاسية ورائعة في الوقت نفسه. الممتع كان إحساسي بأن الآخرين بحاجة إليّ. كنت أنام على سرير نقال في غرفة الأطفال. أستيقظ صباحاً قبل الجميع كي أرتب نفسي فلا أمشي في الشقة بوجه يطل منه النعاس والشعر المهوّش. أعدّ الفطور، ثم يذهب زوج يانكا إلى العمل. آخذ الولد الأكبر إلى المدرسة والصغير إلى روضة الأطفال. أتجول بعد ذلك في المخازن. أعود إلى البيت فأنهمك بترتيبه والغسيل وإعداد الطعام. أقوم بكل تلك الأعمال التي أكره القيام بها في بيتي كرهاً كبيراً. لقد صار كل شيء هنا مبهجاً في نظري. أستقبل الطفلين، أطعمهما، ألهو معهما، أحضّر مع كوستيك وظائفه. ثم يأتي زوج يانكا، أقدم له طعام الغداء. كان يمتدح كل شيء أحضّره، وكان ذلك يسرني.

صار زوج يانكا ينظر إليّ نظرة مختلفة، شعرت بذلك. في الماضي بدا وكأنه لا يراني. أما الآن فهو يساعدني في أعمال المنزل، يجلي الصحون ببساطة. رآني مرة أجلس محنية الظهر فدلّك لي ظهري. يداه رقيقتان جداً. وفي مرة ثانية أهداني زهوراً من دون أية مناسبة. عانقني وقبلني مرتبكاً.

ـ شكراً لك! ماذا كنا سنفعل لولاك؟

كنت كمن يلهو بلعبة ـ هذه أسرتي، هذا بيتي، وهذا زوجي، وهذان

ولداي. وكانوا جميعاً يشاركونني لعبتي.

في كل يوم تقريباً كنا رغم كل ذلك، نجد الوقت الكافي لزيارة يانكا في المشفى. المشفى قريبة جداً.

نحن الأربعة، نمشي في الشارع متشابكي الأيدي، فيبدو للناظر إلينا أننا جميعاً ننتمي إلى بعضنا بعضاً.

حالة يانا كانت سيئة، خداها متهدلان، عيناها محمرتان من البكاء وحرارتها مرتفعة.

قالت لزوجها:

ـ لا تنظر إليّ فمنظري مخيف!

كانت مخيفة بالفعل، بشفتها العليا المشقوقة، وأذنيها الكبيرتين وشعرها المتسخ المدهن.

وقالت لي:

ـ ساشكا، أنت متألقة فعلاً!

أفهموها أنها لن تستطيع الإنجاب في المستقبل.

لم أعرف ما الذي أقوله بهذا الشأن.

ـ طيّب، ألم تريدي، أنت نفسك، ذلك؟

ـ بلى، أردت.

وعادت يانا إلى البكاء من جديد.

كنا نجلس إلى جانب سريرها، وكانت ترى الطفلين يتجنبانها بسبب مظهرها المخيف، الباكي، المريض، ويلتصقان بي منكمشين.

وكانت تلاحظ كيف أن تصرف زوجها معي يختلف تماماً عن سلوكه تجاهها. سألتني، مرّة، وهي تبتسم ابتسامة مُرّة ساخرة:

ـ قولي: ألستما أفضل حالاً من دوني؟

فيما بعد خرجت يانكا من المشفى، وانتهت لعبتي، فعدت إلى بيتي.

أُجريتْ لماما العملية الثانية.

أذكر الحديث الذي دار بيني وبين الطبيب آنذاك فانتزع من نفسي آخر أمل بشفائها.

سألته:

ـ قل لي: كم بقي لها من الوقت؟ سنة؟

ـ لا، هذا كثير! الآن، ستسير الأمور بسرعة.

ـ أليس بالإمكان فعل شيء ما؟

ـ لا.

اعتذر بكونه مضطراً إلى الذهاب، وأضاف:

ـ أخبريها أنت. أنا أعتقد أن قيام المقرّبين بنقل الخبر إلى المريض أفضل دائماً من قيام الطبيب بذلك.

عدت إلى الغرفة وأنا أعرف أن ماما في انتظاري. سألتني:

ـ هيه؟ ماذا قال؟

قبل أن أذهب إليها نزلتُ إلى ساحة المشفى كي أستجمع قواي. أردت ابتلاع هواء طازج غير هواء المشافي. الثلج يتساقط خفيفاً بندف صغيرة، يجمعها عامل التنظيفات برفشه في كومات هنا وهناك. مرقت قطة، فبدا لي لدقيقة أنها قطتي كنوبكا، ناديتها، لقد كانت كنوبكا ولكن بجلد جديد.

أذكر أني فكرت بالطبيب الذي أبلغني ذلك الخبر.

خبر ونذير.

كان بإمكانه أن يطلب مني الجلوس، ويقول لي الشيء نفسه ولكن بلهجة أخرى، أشعر من خلالها بشيء من التعاطف.

قد تكون هذه اللهجة الباردة الجافة وسيلته لحماية نفسه من تلك الأخبار.

ابتسم لي عامل التنظيفات ثم تمخط وكأنه أراد أن يتفاخر فيريني كم من المخاط في هذا الخيشوم، وكم في الخيشوم الآخر!

زوج من العجائز مرّ بجانبي. كانا يتحادثان:

ـ بهذا المعنى سرطان الكبد أفضل من الأنواع الأخرى...

لست أدري لماذا رسخت هذه الانطباعات كلها في ذاكرتي.

حين عدت إلى الغرفة سألتني ماما:

ـ هيه؟ ماذا قال؟

ـ كل شيء سيكون على ما يرام.

غفت ماما بعد حقنة مسكّن الألم.

جلست إلى جانبها، نظرت عبر النافذة إلى ندف الثلج، بدت غامقة على أرضية السماء الفاتحة اللون. ما إن غفت ماما حتى أصابتها رعشة ففتحت عينيها. جالت بعينيها في أرجاء الغرفة، وحين رأتني قالت:

ـ لقد كنت أؤمن طول الوقت أن معجزة ستقع، يبدو أن المعجزة حدثت الآن، أنا مستعدة لاستقبال ذلك، لم أعد أخاف شيئاً.

بدأت مرحلة جديدة في مرض ماما. صارت هادئة مستسلمة بشكل مفاجئ. من قبل، كانت تخاف البقاء وحيدة، أما الآن، فعلى العكس من ذلك، تتوق إلى الوحدة. من قبل، كانت تطلب مني أن أقرأ لها الصحف كي تسلو، أما الآن فتبدو خائفة من أي اختراق لعالمها الذي بات ضيقاً.

من قبل، كانت تطلب مني أن أهتف لمعارفها فأدعوهم إلى الإكثار من عيادتها في المشفى، وتشكو من ابتعاد الناس وتهربهم من زيارة الإنسان حين يمرض.

ـ إذا صرت عاجزة عن تقديم أي شيء، فإن الناس ينصرفون عنك.

أما الآن فهي تطلب مني تخفيض عدد الزوار. وكانت، إذا ما زارها أحد، تجلس صامتة وتترقب لحظة ذهابه.

في الأيام الأخيرة صرنا نقضي الوقت صامتتين، لا نتبادل سوى بضع كلمات لا قيمة لها.

مدّت يدها إليّ مرة بمغلف مغلق وقالت أنها قررت كل ما يجب

فعله لدفنها ودوّنته لي.

ـ عليك فقط أن تعديني بألاّ تنفقي أي شيء زائد! يجب ألاّ تبددي مالك بالإنفاق عليّ. هل تعدينني بذلك؟

هززت رأسي بالموافقة.

لقد تغير مظهرها كثيراً. كان السرطان يأكل ماما. جفّ جسدها وتقلص حجمها. صار سهلاً عليها أن تتقلب في السرير. جفونها اسودّت وتهدلت.

كان الجوع يعذبها، ولكنها لم تعد قادرة على أكل أي شيء، كان جسدها يرفض كل طعام تتناوله، فتتقيؤه. في البداية، كانت ماما تخجل من نوبات الإقياء هذه، ولا تريدني أن أراها في هذه الحال، غير أنها، فيما بعد، فقدت القدرة على الخجل. صرت أجلس إلى جانبها، أدلّك كتفها وهي تئن متألمة من تقلصات نوبة الإقياء التي انتهت لتوّها، وخائفة من العودة إلى الإقياء من جديد.

كنت، طول الوقت، أحرص على دعم أملها في الحياة، وأؤكد لها أن كل شيء سيكون على ما يرام، وقد بدا لي أنها كانت تتشبث بذلك الأمل. غير أن إحدى صديقاتها استوقفتني في أحد ممرات المشفى وقالت لي:

ـ ساشا، ماما تعرف كل شيء عن حالتها، وتعرف أنها لن تعيش طويلاً، وقد طلبت مني أن أخبرك بذلك نيابة عنها كي لا تسبب لك ألماً.

وأجهشت بالبكاء وهي تقول:

ـ يا للمسكينة، يا لشدة ما تعاني من ألم! ليت ذلك يحدث بسرعة!

كانت ماما تشكو:

ـ إذا كان الموت يصيب الجميع، فلماذا هو مؤلم لي إلى هذا الحد؟ لماذا يجب عليّ أن أتألم؟ أريد أن أعيش أيامي الأخيرة بجدارة، ولكن عن أي جدارة يمكن الحديث مع وجود كل هذا الألم! الفظاعة ليست في

فقدان المرء لشكله الإنساني، الفظاعة في إحساسه بأن الأمور كلها سواء.

صارت تخاف الليـل وتطلب حقنـة مضاعفة من المسـكّن. وكانت، أحياناً، تطلب الدواء بعد مرور نصف ساعة على تلقيها الجرعة الدورية.

وكنت أتمنى كثيراً أن أسـاعدها، ولكني لم أكن أسـتطيع أن أقدّم لها سوى مساعدات بسـيطة، كأن أعدّل لها وضع الوسادة دون أن تكون هناك ضرورة حقيقيـة لذلـك، أو أدفّئ لها وعـاء التبرز قبـل أن أدسـه تحتها في الفراش.

بعد ذلك، كنت أذهب إلى البيت وأتركها وحيدة.

ذات يوم، قبل النهاية بزمن قصير، طلبت منـي ماما أن أبقى معها في الليل. لقد سـمعَتْ حديثاً يـدور في الممر، فبـدا لها أنهـم يتحدثون عنها، وأنّها لن تظل حيّة هذه الليلة. اسـتولى الذعر على ماما. ورجتني أن أطلب من الطبيب المنـاوب إبقائي معها، علـى الرغم من أني كنـت مضطرة إلى الاسـتيقاظ باكراً والذهاب إلى العمل. أعدّوا لي السـرير الفارغ المجاور. كان سريراً متهالكاً، يصرّ عند كل حركة، لا يستطيع حتى الصحيح أن يغفو فيه، ناهيك عن المريض.

كانت ماما ممددة قلقة، وكنت طول الوقت أضع لها كمّادات باردة.

ماما تتعذب، وأنا أشـد على يدها وأتذكر كيف خدّرنـا قطتها. القطة عانت فترة طويلة من المـرض. وحين أخذناها إلى الطبيـب البيطري، نظر إلينا وقال:

ـ لماذا تعذبان هذا الحيوان؟

كان الأمل في شـفائها معدومـاً، فقررنـا تخديرها. حملتهـا ماما بين يديها. وحقنّاهـا. انقلبت القطة علـى ظهرها وأطلقت هريـراً. كان واضحاً أنهـا مرتاحة فـي هـذا الوضـع، وراضية عـن تخديرهـا وهي بيـن ذراعين يحبانها.

حينذاك قلت لنفسي، ما أعجب سلوكنا! نشفق على القطة فنساعدها

على التخلص سريعاً من الألم، أما البشر، فنشفق عليهم ونفعل كل شيء من أجل إطالة معاناتهم.

بدا لي أن علينا، أنا وأمي، أن نتحدث في تلك الليلة في أمور مهمة، ولكننا تحدثنا بأمور عادية.

شعرت برغبة شديدة في النوم.

وهكذا لم نتكلم على أي شيء مهم.

حقنوها بجرعة كبيرة من المنوّم. ولكن الحقن لم تعد تجدي.

فقدت صوتها وصارت تتكلم همساً:

ـ حين أحسّ بهذه الآلام، أكفّ عن كوني بشراً.

الممرضات يحاولن فهم ما تقول، فينحنين فوقها، ولكنهن كن يبتعدن عن أنفاسها، وكأن السرطان مرض يمكن استنشاقه.

راحت ماما تكرر بتواتر متزايد:

ـ ليته يأتي بسرعة.

في آخر مرة رأيتها فيها كانت في حال سيئة جداً، تئن، في فمها جفاف، وعلى جبينها تجمعت حبات العرق. تتقيأ حتى من جرعة شاي. نَفَسها متحشرج متعثر. كانت الأورام تطردها من جسدها.

هتفوا لي وأنا في العمل، يطلبون مني أن آتي لأن ماما تحتضر. هتفت لأبي.

مضى وقت طويل قبل أن يرفع السماعة. وحين ردّ على الهاتف أدركت فوراً أنه ثمل، على الرغم من أن الوقت كان منتصف النهار.

ـ أرنبتي الصغيرة، احزري ما الذي حصّلته البارحة.

ـ بابا، اسمعني، هذا مهم!

ـ حصّلت حذاء من اللباد! وحذاء مطاطياً واقياً! جديدين تقريباً!

ـ بابا، ماما ماتت.

قلت له أن يذهب إلى المشفى. فدمدم بكلمات لم أفهمها.

انتظرت الترامواي طويلاً، واضطررت للصعود إلى حافلة مكتظة بالركاب.

في موقف قريب من المحطة صعد إلى الترامواي والدي. لم يلحظ وجودي. أردت أن أناديه، ولكنه في هذه الأثناء اشتبك مع أحدهم في شجار. شعرت بالخجل. ولم أشأ أن يعرف الجميع أن هذا ـ هو أبي.

يبدو لي أنه تناول المزيد من الشراب بعد حديثنا الهاتفي.

لم أره منذ زمن بعيد، فأذهلني أنه صار هرِماً متداعياً إلى هذا الحد: ذقنه غير حليقة، نبقت فوقها شعيرات لحية شيباء. رأسه غاطس في قبعة حمقاء منسوجة من الصوف. معطفه قذر مقطع الأزرار. كان يصيح بصوت مرتفع يتردد في أرجاء الحافلة، وكأنه يقف على خشبة مسرح:

ـ انتبهوا، إنها تموت! هل معنى ذلك أننا، نحن، لا نموت؟ نسافر بالترامواي! ولكن، إلى أين نسافر؟ إننا، إلى هناك نسافر! هي تموت، وماذا في ذلك؟! أرنبتي ـ الطباخة تموت!

واشتبك مع أحدهم:

ـ لماذا تنظر إليّ هكذا؟ أبسبب الحذاء اللباد ذي الواقية؟ إنه حذاء عمليّ جداً! قديم، طبعاً، ولكن يمنع تسرّب الروائح منه.

ثم راح يهلوس بشيء ما عن الحذاء المطاطي الواقي والشوكولا.

قررت عدم الاقتراب منه، فلم يلحظني إلا لحظة نزولنا من الحافلة عند المشفى. هرع إليّ وحاول تقبيلي. دفعته بعيداً عني:

ـ انظر إلى نفسك!

مشى ورائي مستسلماً وهو يدمدم تحت أنفه بكلمات تنم على الزعل.

لقد تأخرنا، ماما ماتت قبل أن نصل.

كنت أشعر بأن شيئاً ما قد حصل ولا يمكن إصلاحه. ليس لأن ماما رحلت عنا، فأنا استعددت لهذا في أثناء مرضها، كنت كل تلك

الشـهور أعاني من الشـعور بالذنب أمامهـا، دون أن أعرف، أنا نفسـي، ما هو ذلك الذنب. لعله إحساسـي بأنها ترحل وأنا باقية. وقد بدا لي أن ذلك الإحسـاس سـيزول إذا كنت إلى جانبها في لحظة الموت. أردت أن أكون بجانبها ممسكة بيدها، ولكني تأخرت.

كانت معي طول فترة مرضها ولكنها ماتت وحيدة. لعلّ هذا بالضبط هو سبب حسرتي الشديدة.

بدا وجههـا، لأول مرة بعد شـهور كثيـرة، هادئاً، راضياً. لقد شـبعت ألماً.

كان أبـي يقف عند رأسـها، يبكي مغطيـاً وجهه بيديـه، فلفتت نظري بقع غامقة اللون غطتهما، فقلت في سري: إنه يعاني مرضاً في الكبد.

خفّف عني أني انشـغلت في إعداد الأوراق وإجـراءات الدفن، ـ كل هذه الأعمال المتعلقة بالموت تساعد على السلوان.

جلست في المساء إلى جانب الهاتف وفي يدي مفكّرة ماما، ورحت أهتف إلى معارفها، أبلغهم أنها ماتت. تملكني شعور غريب ـ بدا لي حين كنت أهتف لـكل منهـم، أن ماما تعود إلـى الحيـاة ولا تمـوت إلا بعد أن أقول:

ـ ماما ماتت.

كل شيء كان غريباً. الإكليل، والأشرطة، والتابوت، والجسد الهامد الذي خرجتُ منه إلـى الوجود. لقد كنت فـي داخلها ذات يـوم، ولـم أكن موجودة في أي مـكان آخر. أمـا الآن فهي فـي داخلي. وهي أيضاً ليسـت موجودة في أي مكان آخر.

حين حضّـرتُ ماما للدفن عطّرتُ جسـدها ووضعـتُ زجاجة العطر إلى جانبها في التابوت.

لقد دفعت ماما سلفاً تكاليف الدفن كاملة. وكان لها مكان مخصص في المقبرة، هو قبر أمها، الذي دفنوا فيه من قبل طفلها البكر ـ لست أدري

لماذا لـم تكن تصطحبني معهـا أبداً لزيارة قبـره ـ وهي الآن تريـد أن ترقد إلى جانبه، وقـد انتقت صورةً قديمـة تبدو فيها فتية وجميلـة لوضعها على شـاهدة القبر. ميزة الآباء أنهم لا يرون أبناءهم هرمين. فماما لن تراني أبداً عجوزاً كثيرة التأفف والشكوى، كما رأيتها أنا.

تذكرت كيـف كنا نتشـاجر، فأغـدو بنتاً حاقدة قاسـية القلب، أشـعر نحوها بالكره، حتى أني ذات مرة تمنيت لها الموت ـ وها قد حصل ذلك.

في يوم الدفـن، هطل الثلـج غزيراً منذ الصبـاح، فحـوّل المقبرة إلى عالـم مـن التماثيل الثلجيـة ـ الأشـجار والشـجيرات، وأحـواض الزهور، وشواهد القبور، كل شيء كفّ عن أن يكون هو ذاته.

الحاضرون جميعهـم ينفضون عـن معاطفهم وقبعاتهم نـدف الثلج، وبابا يمسح حاجبيه الكثّين بطرف شاله.

في الطريق، عند مدخل المقبرة، التقينا بجنازة أخرى، فاضطررنا إلى الانتظار. ثمة لحية برزت من التابوت ـ غطاها الثلـج تماماً، فكفّت عن أن تكون لحية، وتحوّلت إلى تمثـال ثلجي صغير. كانت ترافـق تلك الجنازة فرقة موسـيقية. الموسـيقيون ينفضون الثلج عن آلاتهم، ويزيلـون اللعاب عن فوهاتها، وقد تقلصت وجوههم دلالة على عدم الرضا، وهم يراوحون بأقدامهم تحت الثلج المسـتمر بالهطـول. وكان أحدهم يرشـف الكونياك خفية من زجاجة صغيرة.

كانوا، في مكان ما، يشعلون النيران كي يدفئوا الأرض، فتتصاعد بين ندف الثلج المتساقطة أعمدة الدخان.

اسـتولى عليّ إحسـاس غريب بأننا لا ندفـن أمي وحدهـا، بل ندفن معها شخصاً آخر أيضاً.

كنت أعرف أن هذه ليسـت هي، بل جسـد في تابوت ـ جسـد فارغ، فـمامـا لا يمكـن أن تكـون هـذه الجثـة الممـددة التـي يغطيهـا الثلـج في صندوق بـارد، غير مريـح، وقد انعقـدت يداهـا العاريتـان المزرقّتان على

صدر منخسف، ولكن الشبه بين هذه المرأة الميتة التي في التابوت وبين أمي، بلغ في بعض اللحظات حدّاً لا يطاق، فانهمرت دموعي، لاسيما حين رأيت أن الثلج المتراكم على ذراعيها ووجهها لا يذوب، فرحت أزيله بقفازي.

حين انحنيت فوقها قبل أن يغلقوا التابوت شممتُها لآخر مرة ـ رائحة العطر اختلطت بروائح خشب التابوت، والثلج، والنار، والزهور، والجسد الميت. ولكن ذلك كله لم يكن رائحة أمي.

انحنى أبي ولامس بجبينه جبينها، ثم اقترب مني وقد علقت على شعيرات أنفه حبيبات الدمع. أراد أن يقول لي شيئاً ما ولكنه اكتفى بهز رأسه كمن استحم فتسلل الماء إلى أذنيه فراح يحاول إخراجه. مسحت بمنديلي قطرات الدمع تحت أنفه، وعانقته ضاغطة برأسي رأسه المبتل.

ـ بابا، ضع القبعة على رأسك كي لا تصاب بنزلة برد!

ربط عاملٌ التابوت بحبل استعداداً لإنزال ماما في اللحد، ثم ضمه بين ذراعيه، ـ فبدا لي أن الجميع يريد عناقها في تلك اللحظة.

أدهشني مجيء أناس لا أعرفهم أبداً لحضور الجنازة إلى جانب صديقاتها المقربات. قالت لي إحداهن وهي تقبلني:

ـ ساشا! كم صرت شبيهة بأمك!

مشينا عائدين في درب بين القبور الداثرة التي لم يعودوا يدفنون فيها أحداً، وبين قبورنا نحن الأحياء، وفي رأسي فكرة مفادها أني لن أستطيع عناق أمي بعد اليوم، وأن شجرةً ما تستطيع ذلك ـ تستطيع أن تضمها وتشدها إليها بجذورها.

يانكا لم تحضر الجنازة، رغم أني كنت أتوقع حضورها. إنها، عموماً، قد تغيرت بعد المستشفى حين كنت أقيم في منزلها. كنا قبل ذلك أفضل صديقتين، أما الآن فهي لا تهتف لي، لا تزورني، ولا تدعوني لأجلس مع طفليها. في عيد رأس السنة حملتُ إلى بيتي شجرة ميلاد،

زيّنتُها، واشتريت هدايا للطفلين، أردت أن أعيش معهما فرحة العيد. ولكن يانا منعتهما من زيارتي زاعمة أنهما مريضان، مع أني كنت أسمع عبر سماعة الهاتف صوتهما وهما يصرخان أنهما يريدان زيارة الخالة ساشا.

بعد موت ماما جمعت أشياءها، ووثائقها وصورها والتقيت بأبي كي أعطيه بعضها، لكنه أعلن أنه بدأ يكتب مذكراته وأنه قد يحتاج إليها كلها. رجوته أن يسمح لي بقراءة بعض الأوراق فرفض:

ـ كل شيء في أوانه.

تحدثنا عن ماما وما عانته عند موتها.

ـ أنت، يا أرنبتي الصغيرة، مازلت صغيرة ولا تعرفين شيئاً في هذه الحياة! الأمراض ضرورية ـ إنها تساعدنا! حين يعاني المرء كل هذه الآلام يضعف خوفه من الرحيل.

شرب قليلاً، فثمل بسرعة وراح يقول محتجاً:

ـ يضعون في فم الميت خرقة كي ينتفخ خداه وكأنه طفل صغير، ويدهنون شفتيه، يرسمون عليهما ابتسامة سعيدة! حين أتصور أنهم سيضعون لي هذا الماكياج التهريجي، يصيبني الغثيان! أنا، عموماً، لا أستطيع أن أتصور نفسي في التراب. لا أريد ذلك! أريد أن يرموني في المحيط ـ كالبحّار!

ـ بابا، يجب أن تتزوج!

انتهت الرحلات المرهقة إلى المشفى، وكان من المنطقي أن تصبح الحياة أكثر سهولة من دون السرطان، والحقن، والخلافات، والتقيؤ، والأنين، ورائحة الجسد المتعفن، ولكنني اكتشفت فجأة أني اعتدت زيارة ماما، والتفكير، في الطريق إليها، بما سأقوله لها مساء عن يومي بحلوه ومره: كيف كانت حالي، كم قضيت من الوقت واقفة على قدمي، وكم عانيت، وكيف تغلّبت على ذلك كله في نهاية المطاف.

تأملت أشياء ماما: أمشاط للشعر، علب وأنابيب معدنية صغيرة، كريمات، علب للبودرة، مرآة صغيرة، زجاجات عطر، بكلات، ملقط شعر، مقص صغير، فرشاة ملابس ـ كل الأشياء التي لا يمكن أن توجد من دون المرأة، إلا في سلّة القمامة.

عثرت في الخزانة على ملابسها القديمة، قلّبتها وأنا أحاول أن أتذكر أين ومتى رأيتها في هذا الثوب أو ذاك. كنت أحياناً لا أتذكّر شيئاً، وأحياناً تنبعث صورتها حية أمامي: ها هي ذي ماما ترتدي ثوبها المخملي الأزرق، تستعد للذهاب إلى المسرح، تسرّح شعرها، وتتكلم بالهاتف أمام المرآة، فتؤكّد للسماعة أنه ما من امرأة تقبل اليوم الظهور بمثل هذين الحاجبين. بعد قليل عثرت على ذلك الثوب المنزلي الصيني ذي الدراكونات الزرقاء ـ كوّرته ودسست وجهي في حريره المتماوج، لم تكن تنبعث منه غير رائحة غسيل قديم.

مغلفات ورقية. عليها كلّها ملاحظات مكتوبة بعناية:

«سنّ ساشا الأول».

تساءلت: أهو سني أم سنه؟

«شعر ساشا ـ سنة وثلاثة أشهر».

لم أفهم أيضاً ـ أهو شعري؟

عثرت على مروحة من الورق المقوى صنعتها لها وأنا طفلة في البيت الريفي كي تطرد بها الزلاقط. لقد احتفظَت بها لسبب لا أدريه.

تأملت الصور ودُهشت ـ ماما كانت في صباها تشبهني إلى حد كبير. أتراني سأعيش حتى أهرم، وسأصبح كما كانت في مرضها؟

على قفا بعض الصور كتبت ماما بخط يدها تاريخ التقاطها. في إحداها كان بابا يضم ماما إلى صدره في مكان ما بين أكوام الثلج. استغربت وجود أكوام من الثلج في تشرين الأول. كان الاثنان في بزتي تزلج من الطراز القديم، ولكن الزلاجات لم تكن ظاهرة في الصورة.

اهتممت بالتاريخ المكتوب على قفاها. فتبين لي أنها التقطت في الأيام الأولى من حملها بي. كانت ماما تبتسم، ولكن عينيها كانتا تنظران بجدية. أما بابا فكان يضحك ملء فمه ـ لم يكن آنذاك يعرف أي شيء عن ذاته أو عن ماما أو عني. لا أحد، عموماً، يعرف في الصور القديمة أي شيء عن نفسه.

ذات يوم، حدثتني ماما كيف كانت النساء تحترس من الحبل: كنّ يغلقن عنق الرحم بسدادة معدنية مدهونة بالفازيلين ينزعنها في فترة الحيض. لم تكن ماما تستخدم السدادة دائماً، بل كانت أحياناً تحمي نفسها من الحمل بسدادة قطنية مبللة بحمض الليمون ـ تذيب قليلاً من حمض الليمون وتبلل بالسائل قطعة من القطن، ثم تدسها في ذلك المكان قبل أن يضاجعها أبي.

في إحدى الليالي أرادا إنجابي.

لست أدري لماذا أتصور جيداً تلك الليلة، ليلتي.

عادا إلى البيت في وقت متأخر. الثلج يتساقط، كما تساقط يوم دفن ماما. علّقت معطفها الأسود المصنوع من جلد الخروف على المشجب كي يجف.

أرى كيف حاول بابا نزع جواربها وهي تقول همساً:

ـ حاذر! قد يعلق خيط بأظافرك فينقطع!

لقد حدثتني ماما عن محلّ متخصص برفو الجوارب في مكان قريب من محطة القطار، يتجمع أمامه باستمرار طابور من النساء. أتخيل بابا يقبّلها بنفاد صبر، أما هي فتطوي جوربها بعناية وتدسه في شق بين نهاية الفراش وظهر السرير. بعد ذلك كان عليها أن تستلقي على ظهرها وتقوسه لتنزع عن خصرها الحزام المطاطي الذي تُعلّق به الجورب، أم تراها تتخلى عن عنايتها الأصولية بملابسها في حالات الحب؟

أنا لا أعرف عنها شيئاً.

أعرف فقط، أن بابا، بعد أن بدأ وجودي، أشعل سيجارة وفتح طاقة التهوية التي لم تكن قد ثبتت حوافها باللاصق الشفاف استعداداً للشتاء.

ـ انظري، الثلج عاد إلى الهطول! تعالي!

ألقت ماما على جسدها العاري معطفها من فرو الخروف، ومشت حافية إليه ضامة طرفي ياقة المعطف على رقبتها. مدّت جذعها الذي مازال دافئاً بعد المضاجعة، من النافذة. أخذت حفنة من الثلج الرطب عن حافة النافذة وراحت تمضغها. ها هما يقفان في العتمة أمام النافذة المفتوحة يتأملان هطول الثلج. يضمها بابا بإحدى يديه، ويحمل بالأخرى سيجارته محاولاً إبعادها جانباً، ومرسلاً جدول دخان من زاوية فمه. تضغط ماما بجسدها الملفوف بالمعطف الرطب جسد بابا وتمرر حفنة الثلج التي في يدها على جلد رقبته الملتهب، فيبدو ذراعها العاري حتى المرفق في الضوء القادم من وراء النافذة، أبيض ـ أبيض، وكأنه في قفاز الباليه الطويل العنق.

■

حبيبتي ساشينكا!

المطر أصبح هنا متواصلاً. يندلق دون توقف تقريباً.

نحن في الخيام من جديد. ها قد عاد المطر الآن يدق طبوله فوق رأسي، على سقف الخيمة. أنظر، فأرى الطين الأصفر يزحف كأنه في طريق مرسوم، وفوق الحفر المملوءة بالماء تتطاير الفقاعات.

في الخيمة كل شيء رطب ووسخ إلى حد غير معقول، أما سطحها الخارجي، فعلى العكس من ذلك، يبدو أبيض نظيفاً نظافة شراع السفينة، وقد انغسل عنه الغبار كله.

لقد ابتهج الجميع حين بدأ المطر يهطل، جمعوا ماءه في القدور والدلاء، خلعوا ملابسهم واستحموا، ركضوا عراة، غسلوا بزاتهم الرسمية

وملابسهم الداخلية... الأمطار هنا جنوبية، دافئة، غزيرة.

غسلوا ثيابهم، ولكن لا مكان لتجفيفها ـ كلها الآن معلقة في الخيام تفوح منها رائحة العفن.

هذا القرع على قماش الخيمة يفقدني القدرة على التفكير.

أنا أرتعش منذ الصباح، قد أكون مصاباً بالحمى. أحس إحساساً غريباً، كما لو كنت أرى وأسمع كل شيء ولكن في مكان آخر.

ينقطع التواصل فجأة في بعض الأحيان، فأكف عن فهم الأشياء الواضحة جداً. هأنذا لا أفهم، مثلاً، من أين جاء إلى حياتي هؤلاء الناس المحيطون بي، ولمَ أنا الآن معهم في هذه الخيمة الرطبة العابقة بدخان التبغ ـ إنهم يضجون، يخلعون الأقمطة القماشية عن سيقانهم فتفوح منها رائحة كريهة، أحدهم نفخ من خيشوميه كتلتين من المخاط الملوّن بالتبغ، وآخر ارتسم على جبينه خط أحمر من أثر القبعة، وثالث خلا رأسه تماماً من الشعر فالتمعت جلدة رأسه كالتماع ورقة سجائر شفافة. ها هم الآن يتشاتمون وهم يناقشون تأثير قذائف الميلينيت.

أيكون ذلك كله نتيجة ارتفاع حرارتي؟ لا بد أني مريض، وهذا ما يجعل مجرى حياتي يتحول إلى خبيصة.

الطباخ ساخط بسبب فقدان السمن البقري، الأمر الذي يضطره إلى قلي كل شيء بزيت الذرة.

مشيت بالقرب من مطبخ الأدميرالية، رأيت أقفاصاً فيها دجاج تبلل تحت المطر. أمر غير مفهوم!

ترى، ما هذا الغير مفهوم؟ دجاج، أقفاص، مطر، مطبخ، أدميرال ـ ومع ذلك لا أفهم شيئاً.

عشية قدوم الأدميرال أليكسييف، نظّموا تفتيشاً ـ استعد الجنود، نظّفوا أنفسهم وملابسهم، انهمكوا في تنظيف القبعات وتلميع الحراب، واصطفوا في وقت مبكّر تحت المطر، انتظروا ساعتين، ثم وصل

الأدميرال قائد المجموعة، حيّاهم، تفحّص بندقية أحد الرماة، لم تكن نظيفة، فأقام للجميع حفلة من الشتائم والتقريع. ولكن، ما علاقتي، أنا، بكل ذلك؟

أنا لا أفهم من نحن، ولماذا نحن مجتمعون. لا تفسير لهذا المطر، ولأصوات إطلاق النار الآتية من بعيد. لا معنى لهذه الأوراق التي يجب أن أخطّها بلا نهاية. لا يمكن أن تكون اليد التي تكتب لك هذه الرسائل عن حبّي، هي نفسها التي تخط حروفاً تحمل الألم والحزن إلى بيتٍ ما، وكأنها نذير شؤم، أنا لست نذيراً.

لقد وجد كيريل ورقة صفراء في كيس صغير مربوط بحبل حول رقبة أحد الإيخيتوانيين القتلى. في الورقة تعويذة مكتوبة بحبر أحمر، يفترض أن تحمي القتيل الذي علّقها على رقبته من كل أذى. أمر غير مفهوم.

أنا وكيريل متخاصمان. وهذا أشد استعصاء على الفهم.

الجنود ـ لم يقرؤوا في حياتهم شكسبير، ولن يقرؤوه، ولكنهم يعرفون، أن المقاتل يجب ألا يأكل كثيراً قبل المعركة لأن ذلك يعقّد حالته إذا ما أصيب بجرح في البطن. ويعرفون أن الجرح المتسخ يمكن غسله بالبول، أو تعقيمه بالحرق ـ وفي أصعب الحالات يصلح لهذا الغرض البارود المأخوذ من الطلقات. ماذا يعني لهم مونولوج الأمير الدانيماركي؟ نكون أو لا نكون؟ هذا مضحك وغير مفهوم أيضاً.

تجمّع الماء بركاً على سطح الخيمة، فراح كيريل يزيحه برفع قماش السقف الذي تقعّر تحت ثقل الماء بواسطة عصا من القصب. لماذا أكتب عن ذلك؟ لست أدري.

في المدينة نهبٌ نهِمٌ لا رادع له. ينهبون كل شيء. عيّنوا النقيب الإنكليزي بايلي حاكماً، فقام على الفور بإعدام جندي إنكليزي ـ سيباهيّ رمياً بالرصاص أمام الجميع، في محاولة منه لإيقاف العنف. وقررت

قيادتنا، كـي لا يتلطخ وجهها بالوحل، إعدام جنديين روسـيين. أمسـكوا بأول اثنيـن وقعا في أيديهـم، وأعدموهما. وحين علم الجنرال فوكوسـيما بذلك أمر بقتل ثلاثة يابانيين.

كتبـت نعوتين لذينـك الجنديين. فاسـيلي أليكسـاندروفيتش زيمين، وأليكسـاندر ميخايلوفيتـش لوكتيـف. الأول فـي العشـرين، والثانـي فـي الحادية والعشرين، التي، بالمناسبة، لم يكملها إلا قبل ثلاثة أيام.

لقد رأيـت كيف قامـت فصيلـة الإعـدام بتنظيـف بنادقهـا بقطع من القماش الثمين. أنا، عموماً، لا أفهـم شيئاً.

هذا المطر يُفقد المرء صوابه.

كنت أعرف ذلك الـ "لوكتيف" ـ عينان فاتحتا اللون، وشـعر أبيض، ووجه بلا حاجبين تقريباً.

فـي أثنـاء كتابتـي لهـذه الأسـطر، ركـض غلازينـاب تحـت المطـر لإحضار الماء المغلـي، وفي طريق العـودة زلّت قدمه فـي الوحل، فحرق يده اليسـرى. إنه يجلس الآن هادئاً يئن بصوت خافت وقد انتفخت بشـرة يده بفقاعات حمراء، وراح الجميع يقدمون لـه النصائح حول ما يجب أن يفعله. أما هو فانطلق مسرعاً إلى المشفى.

بعد غـد سـنتجه إلى بكيـن، رغـم المطـر. اليـوم قمت بنسـخ خطة الحملـة علـى ورق نظيف. نقـط الماء ترشـح من سـقف الخيمـة، وكنت باستمرار أحاول تفادي الماء المتساقط من أعلى.

ما هي هذه الـ"بكين"؟ هل هي موجودة عموماً في هذا العالـم؟

وكيف يمكن أن نسـير إلى أي مكان عبر هذا الوحل الذي يسـتحيل اجتيازه؟

أجد صعوبة فـي التركيز. معدتـي مصابة بخلل غريـب. حين لا آكل شيئاً، يكون الحال مقبولاً. ولكن، حين آكل أي شيء يصيبني الإسهال في الحال وأشعر برغبة في التقيؤ. أعطوني في المشـفى مسحوقاً ولكنه عديم

الجدوى.

أشعر بالجوع دائماً.

من حسن الحظ أنك لا ترينني الآن، فأنا هزيل وغير حليق. الجميع هنا مثلي، ملطخون بالوحل. الطين الأصفر يلطخ كل شيء، الخيام، والأسرّة والملابس. يبدو لي أني كتبت لك عن ذلك من قبل. لا أفهم، هل كتبت أو لا؟ المهم، لماذا كتبت؟

لماذا يكتب الناس؟ إنهم يكتبون، معنى ذلك أنهم ما يزالون أحياء. وأنت تقرئين هذه الأسطر ـ ذلك يعني أن الموت قد ابتعد. بمَ أختلف عن شهرزاد وحكاياتها؟ الفارق الوحيد هو أنها أغنى مني. ألف ليلة ـ ياه، إنها دهر كامل! ترى كم بقي لي من الليالي؟ إن هذا رقم موجود في مكان ما، موجود وينتظرني وكأنه أمريكا قبل أن تكتشف.

أنا أحياناً أفقد نفسي، وأحتاج إليك يا حبيبتي، كي أجدها من جديد، أستردها. أحتاج إلى شيء أتشبث به، أنا أتشبث بك.

أنا أكتب، معنى ذلك أن كل شيء بخير، وأنا مازلت حياً. أكتب ـ أحيا. ما أغرب هذا! لقد أردت الهرب من الكتابة بالذات. لم أنجح في ذلك.

يبدو لي أحياناً أن ما يحدث حلم لا يمكن تفسير أي شيء فيه، ولا يدرك، ولكنه حقيقي بآلامه وأصواته وروائحه. لا بد، ببساطة، من الاستيقاظ والعودة إلى الواقع، ولكن إلى أي واقع أعود من هذه النقاط غير المنتظمة التي تتساقط من سقف الخيمة ومن رائحة العفن التي تنبعث من الملابس الرطبة أبداً؟

حاولت، عكس ذلك، أن أغفو مادمت لا أستطيع الاستيقاظ. أخفقت. رأسي ثقيل ومشوش.

شربت ماء ـ الرمل يصرّ تحت أسناني.

غلازيناب عاد مضمد اليد. جلس على سريره، وتأمل ضماده

الطازج الأبيض ثم قال بلهجة ساهمة:

ـ لكل شيء في هذا العالم مغزى يشير إليه. لكل شيء معنى، إنه يشير إلى أمر ما. أيكون ما حدث لي إشارة إلى أن الأمور ستنقضي على خير؟

من حسن الحظ أن أحداً غيري لم يسمعه.

ما أسخف أن نصدّق اعتقاد غلازيناب الغبي بأننا سنغفو ثم نسيتقظ في عالم آخر وفي زمن آخر، ونحيا وقد نسينا كل هذا كحلم رديء!

وأخيراً، أنا لا أفهم أبداً ما الموت. ولعلي لن أفهم ذلك في أي وقت من الأوقات.

أبداً لن أفهم أي شيء!

لعلي، مع ذلك، أنام وأرى أحلاماً. وسأستيقظ في يوم ما. أنا سأستيقظ. لا أريد شيئاً غير أن أستيقظ!

لم أعد أستطيع الاحتمال.

حولي الآن أناس لا أعرفهم يشربون الشاي.

أنا لا أعرف من هؤلاء الناس المحيطون بي. لا أفهم ما يقولونه لي.

أنا لا أفهم ماذا أفعل هنا، ولماذا لا أكون معك؟

ساشينكا يا حبيبتي! أظن أني قد فهمت الآن كل ما كان يجب أن أفهمه. هذا يكفي. أريد العودة إلى البيت. أريد العودة إليك.

أما هم فيسوقوننا في دروب وعرة موحلة.

ساشا، ليس لكل خطوة أخطوها هنا معنى، إلا لأني أخطوها في الطريق إليك. حبيبتي، كيفما سرت، فأنا أسير إليك.

أسمع قرع المطر على سطح الخيمة. إنه يخترق رأسي ويمزق دماغي. وأتذكر كيف كان صوت المطر في البيت الريفي في يوم ما ـ كم كان صوت ذلك المطر الصيفي لذيذاً وهو يهسهس فوق سطح الشرفة من الصباح!

لشد ما أحببت تلك النهارات الماطرة، حين كنت أتمدد على الأريكة، أستمع عبر النافذة المفتوحة إلى هسيس أوراق الأشجار الرطبة، وأقرأ.

يدهشني الآن أني كنت عاجزاً عن الإحساس بالسعادة آنذاك.

أنا كنت سعيداً طبعاً، ولكني لم أكن أعرف ذلك، على الرغم من اعتقادي أني أعرف كل شيء، وأفهم كل شيء.

أذكر أني كنت أقرأ في "هاملت": "تفككت روابط الزمن".

وكان كل شيء واضحاً بالنسبة إليّ. ما الذي لا يمكن فهمه في هذه العبارة!

لكني لم أفهم ذلك فهماً حقيقياً إلا هنا. أنا أعرف الآن ما الذي كانت تعنيه.

أتعرفين ما الذي كان شكسبير يقوله في تلك العبارة؟ إنه كان يقول أن تلك الروابط ستعود حين نلتقي من جديد فأضع رأسي على ركبتيك.

●

حبيبي، وحيدي!

لم أكتب لك منذ وقت طويل.

أحوالي جيدة.

غير أني أتعب كثيراً.

لا تقلق، فأنا لا أشكو. أنا قوية. الأصح أن القوية هي، قرينتي، أما أنا فيمكن أن أبكي دون أي سبب. أنت تعرف أن هذا لا يكلفني جهداً.

هأنذي أختلق من جديد، قرينة لنفسي.

لا أستطيع التآلف مع نفسي بأي حال من الأحوال. أحاول طول حياتي أن أعتاد ذلك، ولكني أعجز دائماً. لا أستطيع اعتياد حياتي رغم أن وقت الاعتياد قد حان منذ زمن بعيد.

من الصعب جداً أن أرفع يديّ مستسلمة أمام الإعدام، وأطلب الرحمة. أعرف كل شيء، وأفهم كل شيء، ولكن الأمر صعب.

صعب أن أستيقظ كل يوم في العتمة، ثم أعود إلى البيت وحيدة في العتمة أيضاً.

أما هي فتستقبل كل شيء بسهولة، وتنظر إلى كل شيء نظرة مختلفة وتحس به إحساساً مختلفاً. لا أستطيع شرح ذلك لأحد، ولكنك تفهمني.
أنا، مثلاً، أذهب في الصباح إلى العمل. أنتظر الترامواي، وقد تبللت عيناي بالدموع والتهب خدّاي بفعل الريح الباردة. الحشد الذي جمّده البرد على الموقف عابس صامت. أتساءل: أهم بشر أم أشباح؟ الترامواي لا يأتي. وقد لا يأتي أبداً. الناس يرقّصون أقدامهم برداً، يبصقون بصوت مرتفع كالشخير، يكملون نومهم واقفين. وأنا أغمض عيني كي لا أرى كل هذا.

أما هي فتنظر، ولكنها ترى شيئاً آخر.

تقف في وضع المتأمل. على الثلج نجوم صغيرة. الأشجار والأسلاك، نسج الجليد خواتم على أصابعها في أثناء الليل. حتى حاوية النفايات تبرّجت كالعروس.

القطع الكثيفة من الضباب حول الجمع في الموقف ـ روح تتناثر كحبات البذار. يقترب الترامواي صاخباً، مقرقعاً، مدندناً. يقحط بشفرته الشرر المتطاير عن الأسلاك.

الأشباح التي على الموقف تضطرب ثم تندفع نحو الحافلة.

أندسّ بينهم بصعوبة. الجابية تشتم، تلوّح بحقيبتها الجلدية الملأى بالقطع النقدية المعدنية. تضع نظارة ـ النظارة عرقى.

أمسكُ بإحدى الحلقات الجلدية المتدلية من السقف، أتمايل. رائحة حمضية تنبعث من الحلقة الجلدية. الترامواي يُحرّك ويخلط توابله البشرية عند المنعطفات.

«جريدة المساء» الصادرة يوم أمس تتخبط كالغريق في ضوء الترامواي الخافت. صفحتها الأولى عن الحرب، وفي صفحتها الأخيرة كلمات متقاطعة. شنّت مملكة الأب إيفان علينا هجوماً غادراً. نقطة اختراق الخطوط المحتملة سُرّة العالم، كومة من الحروف.

الأخبار هي نفسها. بعضهم ذُبح وبعضهم سُحق بالأقدام. المقابر نهبت قبل موت الموتى. أوكوت يتنبأ بانتهاء الشتاء. أنتم ابتهجتم ونحن اكتأبنا. ها هو ذا قائد الجندول الآن، في هذه اللحظة، يدفع قاربه بساقه مبتعداً عن الجدار الزلق الذي غطّاه العفن والحشائش المائية.

العلماء يسمّوننا ذوات الدم الحار. كثرت أنفاسنا فغدا الجو في الحافلة دافئاً ورطباً. ولكن الصقيع كان يتسلل من الباب إلى ما تحت تنورتي عند كل موقف.

الزمن لا يمنح الباحثين أبداً فرصة للهدوء. منذ زمن بعيد ثبتَ عن طريق التجربة أن الزمن يملأ الفراغ، ولكنه لا يملؤه حتى الحافة كما يملأ الحساء القدر، بل على شكل كومة صغيرة من الحبوب المطبوخة. هذا ما خلق الآن مشكلة تتعلق بكيفية حفظه. وتفيد آخر المعطيات أن حفظه لا يستطيعه إلا المدوّنون، وبشكل متتابع، قضية بعد قضية، في خطّ يذهب إلى حيث تذهب سكة الترامواي، وهناك تلتقي الخطوط، ولكن يتم، لتسهيل التعامل، تقطيع هذا الزمن الخطّي إلى سطور على شكل قضيب من المعكرونة ممتد إلى اللانهاية.

رسائل القراء: توجد لعبة طفلية للصغار جداً ـ لوح حُفر عليه دائرة، ومربع، وبيت صغير، وأشياء مختلفة، والمطلوب أن نضع كلاً من هذه الأشكال في مكانه الصحيح. إذا أضاع اللاعب أحد الأشكال ظَلّ مكانه ثقباً خالياً. إذا أضاع البيت الصغير، مثلاً، ظل مكانُه ثقباً بلا قعر. عندي إحساس بأن حياتي مجموعة من هذه الثقوب: البيت، الزوج، الحب، هذا المساء ـ وما من شيء يملؤها. في بناء العالم ثقوب تنفخ فيها الريح،

ثقوب تزداد عاماً بعد عام ـ الناس يرحلون.

الطقس ما وراء البحار: مشمس، دافئ.

غداً، بحسب كتاب النبوءات، متقلب.

أتأمل نفسي.

امرأة وحيدة، سعيدة رغم كل شيء، عيناها مريضتان، حمراوان، لم تستطع النوم ليلاً، تشعر بالاختناق دائماً ـ أنفها مسدود، لذا تنام بفم مفتوح، يوقظها شخيرها الشخصي من وقت لآخر، تمشي أياماً بطولها وهي تشعر بسيلان في أنفها وثقل في الرأس. تنفّ حتى تكاد تمزق خيشوميها، تجفف منديلها على مشعّ التدفئة، وفي كل مرة يزداد المنديل خشونة، تأخذه عن المشعّ فيطقطق. إنها ترى كل شيء وتعرف كل شيء عن الجميع. لقد نالت قسطها من السعادة، وهي تطلب المزيد.

حالفني الحظ، فهأنذي بالقرب من النافذة، أعض قفازي بأسناني، أنفخ على الزجاج، وأفتح في الجليد الذي غطّاه طاقة أرى العالم الخارجي عبرها.

العربة تتمايل عند المنعطف، وتقرقع فوق الجسر.

ألصق وجهي بالنافذة، وأنظر إلى النهر الغارق في ضوء الفجر، وقد ارتسمت على صفحته خطوط سطّرتها الزلاّجات. لقد تلقينا نحن أيضاً دروساً في الرياضة البدنية هنا ـ تذكرت ذلك الإحساس الغريب الذي كان يتملكني حين كنت أعبر بزلاجتيّ القديمتين الفضاءَ تحت الجسر ـ فوقي ترتفع هياكل من الحديد الصدئ، ويقرقع الترامواي الذي لا أراه، وأنا أندفع فوق فراغ الأعماق الذي تحت الزلاجات. لقد كان رائعاً جداً أن أنزلق متعثرة فوق الماء، مستعينة بعصوي التزلّج.

كنت في كل مرة يعلو فيها الضجيج فوق الجسر، أتذكّر صراخ ذلك الطفل فوق قطعة الجليد. أيمكن أن يكون هذا النهر ذاك النهر نفسه؟

أنظر عبر الطاقة، القمر ثابت فوقها في السماء. والبخار الشتوي

يرتفع فوق المصنع كرأس حلزونية الشكل. تتلامح أمام عيني طويلاً المداخن العالية المتوّجة بمصابيح الإنذار الحمراء، بعد ذلك موقف المدرسة ـ هناك، وراء النوافذ بدأ الدرس الأول، يعلّمون التلاميذ الذين يتثاءبون وهم يغالبون النعاس، أن النظر طويلاً إلى القمر يؤذي الإنسان، وأن الأولاد جنود المستقبل، والبنات ـ ممرضاته، وأن وجودي في نظر الدودة ووجودي في نظر الفراشة وجهان مختلفان تماماً لشيء واحد.

محطتي عند آخر الخط تقريباً. الترامواي يكاد يخلو من الركّاب، وقد راح يمتلئ بالصقيع من جديد.

أنزلُ، الصقيع كالإبر فوق الشجيرات، وعلى الطريق، بالقرب من السور، خطوط من النقاط الذهبية المحفورة في الثلج. أتراها آثار تبوّل الكلاب؟ أم البشر؟ أنا لا أكف عن الاندهاش: ترى ما هذه الأفكار التي تتسلل إلى رأسي؟

على الدرج، في مدخل المستوصف، امرأة عرجاء تنتعل حذاء طبياً، تنزل على السلّم درجة، درجة، وهي في كل خطوة تحمل ساقها العرجاء وتجرها إلى بقية جسدها. إنها تعمل في المكتبة، ولكنها لا تحبّ القرّاء، لأنهم كانوا في كل مرّة يستعيرون فيها كتاباً، يعيدونه كومة من الورق المملّح بالعرق، وقد انفرطت صفحاته، لذا كانت تنتقم منهم فتكتب بالقلم الرصاص على الصفحة الأولى من كل رواية بوليسية اسم القاتل.

في الاستعلامات، خلف طاقة في حاجز زجاجي، تختفي عاملة، ترش كلامها في رشقات صغيرة وكأنها تقضم الكلمات كما يقضم الأرنب الصغير جزرة.

أصعد إلى غرفتي في الطابق الثاني على اليمين. هناك على باب الغرفة لوحة: فلانة، آمرة الحياة، سيدة النساء. أما النسوة فيجلسن، كل منهن تنتظر دورها، لدى كل منهن ما تشكو منه أو تطلبه، أحاديث عن عكر في البول، رغبة في إنجاب طفل ـ فقدان أحد الأسنان، إذا كان البطن

كالبطيخة الصفراء ـ فالجنين ذكر، وإذا كان كالبطيخة الحمراء ـ فالجنين أنثى.

أعرف عنهن كل شيء.

هذه، لياليها لا تنتهي، والسنوات تتراكم، والحياة تتلوى كأنها قشرة حبة بطاطا لا نهاية لها.

أما تلك فتريد أن يكون كل شيء إنسانياً، الزوج والولد، وأن يتناول جميع أفراد الأسرة إفطار الصباح معاً، ولكنها لا تعرف كيف تُحقق ذلك. في العام الماضي حصلتُ على بطاقة اشتراك في رحلة نهرية، فقررت عدم التراجع: سأسافر وحيدة على متن السفينة ولكني سأعود سعيدة بعد الإجازة. وها هي ذي في مساء اليوم الأخير تجلس على سطح السفينة، تتأمل طيرة نورس تقف على حافة السور. تبادلها النظرات وهي تقول في سرها: «نحن، على كل حال، أخوات. أنت وأنا وهذه الميناء التي لا يرسو فيها أحد».

وأما هذه ـ ذات العينين المتثاقلتين كعيني الغنمة ـ فهي ـ واحسرتاه ـ رسامة تهدي معارفها جميعاً لوحاتها في أعياد ميلادهم، فيعاني أولئك عذاب البحث عن أمكنة يعلقون فيها تلك اللوحات. في العام الماضي أهدت لوحة لأسرة، الزوج فيها ضخم الجثة، متهدل الشفتين، ومحظوظ ـ يحزر دائماً حين تسأله في أي يدٍ تخفي القطعة النقدية، أما الزوجة فتعمل في صالون حلاقة للكلاب، تغسلها وتقص شعرها، المكان شديد الحرارة، كل المنافذ مغلقة، فالجرو قد يصاب بالبرد بعد الاستحمام، لذا تخرج من حين لآخر لتدخن سيجارة وهي تتصبب عرقاً، وثوبها تغطيه شعيرات من الوبر الكلبي.

في حضور الرسّامة علّق الزوجان اللوحة على الجدار في غرفة الطعام. ولكنهما نزعاها فيما بعد، ونسيا إعادتها إلى مكانها حين زارتهما مرّة ثانية. جاءت، فرأت ساعة جدارية في المكان الذي كانت فيه اللوحة.

إنها تجلس الآن على مقعد طويل قرب النافذة، شاردة الذهن، تحصي شيئاً ما مستخدمة أصابع يديها.

أدخل الغرفة، أنزع ثوبي وأعلقه على مشجب وراء الباب. أرتدي المريول الأبيض المنشّى.

ويبدأ العمل:

ـ التالية!

تدخل، تنزع سروالها القطني الطويل وسروالها الداخلي، وهي تمسح بذراعها العارية أنفها الذي يسيل مخاطه، ثم تجلس على المقعد البارد. جلدها كجلد الإوزة، يتهدّل على فلقتي مقعدها الناحلتين المزرقّتين اللتين يطوّقهما خطّان أحمران من أثر المطاط، ويغطيهما زغب أشهب اللون.

الإعدام ممنوع العفو.

اليوم صباحاً، حين كان الثلج يهطل والعتمة مازالت كتلة واحدة، كانت في موقف الترامواي تنشق بأنفها مصابة بالزكام. أنفها يسيل باستمرار.

كنت أقف إلى جانبها. الترامواي تأخر كثيراً.

أخيراً صرخ أحدهم:

ـ إنه قادم!

ضجّ الموقف بالحركة، فحدّقت في العتمة محاولة قراءة رقم الترامواي.

ـ أهو رقم خمسة؟ أم رقم اثني عشر؟

ـ رقم خمسة!

اقترب الترامواي أكثر فأكثر، ولكنها فجأة ابتعدت عنه ركضاً، قفزت وراء الموقف، وانثنت نصفين وهي تكاد تختنق بالقيء الذي اندفع من جوفها. الخيار المخلل الذي أعدته الجدة رأى النور من جديد مختلطاً

بقطع شتى من عناصر سلطة الشوندر.

وبينما كانت تلتقط أنفاسها وتبصق ما علق في فمها، اختفى أثر الترامواي.

أنا أيضاً رحلت.

أنا بقيت.

أسافر بالترامواي وأظلّ في الموقف.

فوق القيء ـ بخار. حطّ غراب واقترب منه بقفزات جانبية، ثم راح ينقر الوجبة الساخنة.

اقتربتُ منها كثيراً، تشابك البخار المتصاعد من أنفاسنا واتّحد. سألتها:

ـ هل أنت بخير؟

مسحت شفتيها بحفنة من الثلج ونظرت إليّ بطرف عينها وكأنها تقول: دعيني وشأني.

أنا:

ـ كم عمرك؟

هي:

ـ وما شأنك أنت؟

أنا:

ـ لا شيء. أنا، ببساطة، لم أستطع إنجاب ابنة في الماضي. نظرت إليك وتخيّلت فجأة أنها كان يمكن، لو أنجبتها، أن تكون في مثل حالتك الآن.

هي:

ـ ماذا تريدين مني؟ من أنت؟

أنا:

ـ ما الفرق! أنا، ببساطة، أنتظر الترامواي... باختصار: أنا آمرة

الحياة.

خبر ونذير. ليس هذا مهماً. لا تخافي مني.

هي:

ـ أنا لست خائفة.

أنا:

ـ أنا أعرف كل شيء.

هي:

ـ أنت لا تعرفين شيئاً.

أنا:

ـ هل حملتِ من دون دنس، ولا أحد يصدّقك؟

هي:

ـ هذا لا يعنيك!

أنا:

ـ ولكن، من أين لك هذا؟ هل سبحت في بركة فحدث ما حدث؟

هي:

ـ أنا لم أفعل أي شيء من ذلك! أقسم بشرفي!

أنا:

ـ حسناً يا بنيتي، كل شيء ممكن. لعلّك بلّلت إصبعك ثم دسسته حيث يجب. حتى الطيور اخترعت طريقة للتلاقح في أثناء الطيران.

هي:

ـ ما علاقة الطيور بهذا الأمر؟

أنا:

ـ لا علاقة للطيور بذلك. ولكن الإنسان وحيد عموماً، هذا ما لم تعرفيه بعد. حالة واحدة لا يكون فيها الإنسان وحيداً، هي حين تنتظر المرأة مولوداً. افرحي يا حمقاء! هل تظنين أنك وحيدة في هذه الحالة؟

يا لك من جاهلة! ما من شـيء يسـتحيل حدوثه في هذا العالم. أنت لست الأولى ولسـت الأخيرة. الأولاد لا ينبتون من البـذور، حتى لو كان الحبل بلا دنس.

هي:

ـ أنا خائفة.

أنا:

ـ كل شـيء سـيكون على ما يرام. سـترين. لا تقلقي كل هذا القلق! أنـت صحيحـة الجسـم وجميلـة وسـتنجحين! سـتلدين طفـلاً صحيحـاً وجميلاً.

هي:

ـ أنا لا أريد. لقد قررت ألاّ ألد.

أنا:

ـ هذا بالضبط ما لا تستطيعين أن تقرريه. من يسألك إن كنت تريدين أو لا تريديـن؟ فكّـري الآن ببطنـك. إذا كان كالبطيخة الحمـراء فالمولود ذكر، وإذا كان كالبطيخة الصفراء فالمولود أنثى. سيكون ما يكون على كل حال.

هي:

ـ كلاّ.

أنا:

ـ اهدئي، كونـي «شـاطرة!» اذهبي إلى تلـك البركة واشـكريها على هديّتهـا، واطلبـي منها كمـا طلبت ألونوشـكا مـن البئـر، أن يجـيء الولد طبيعيـاً، وذا عينين واسـعتين قدر الإمـكان، وأن يكون كل شـيء عنده في مكانه ـ اليدان والساقان والرأس، فلا أحد يعرف ما يمكن أن يحدث!

هي:

ـ لن ألد مهما كان الثمن!

أنا:

ـ ستلدين!

هي:

ـ كلاّ!

أنا:

ـ ستلدين! تمالكي نفسك! هاكِ، خذي هذا المنديل، نظّفي أنفك، واسمعيني. كان يا ما كان، كانت هناك بنيّة تشبهك تماماً. كانت مثلك مصابة بالزكام، ومثلك تنشق بأنفها، ومثلك حبلى من دون دنس. لم يصدقها أحد. كان في رأسها المدعبل ما في رأسك الآن. كان ذلك في وقت ذوبان الجليد أيضاً. جاءت ليلاً إلى النهر ووضعت جنينها على قطعة من الجليد. عامَ الوليد منحدراً مع التيار. أما هي فابتعدت عن الضفة وهي تبكي بمرارة، ذهبت إلى بيتها الذي ليس بيتاً، ولكنها فهمت أن الحياة هناك لن تكون حياة. هامت في الشوارع حتى الصباح... كان الحليب يسيل من ثدييها، لأن الله خلق المرأة من دون صنبور للثديين. في أذنيها تتردد باستمرار صرخة الطفل. انهارت عزيمتها أخيراً فعادت من جديد إلى النهر. الصراخ يعلو أكثر فأكثر. اقتربَت من الضفة، البكاء الطفلي يزداد قرباً. هنا رأت جنينها فوق قطعة الجليد التي كانت تنزلق ببطء عن الضفة الأخرى، في اتجاه التيار. رمت نفسها في النهر، ركضت فوق قطع الجليد، سقطت في الماء، أمسكت بالطفل، وتسلّقت معه الضفة وهي تكاد تفارق الحياة. جلست فوق تلة صغيرة، ودست ثديها الساخن في فمه. رضعه وهو يهمهم. وبدأت الحياة، صائتة، عطرة، متقدة.

■

ساشينكا يا حبيبتي!

نحن في المسير منذ أيام.

ليس في رأسي سوى أفكار ممزقة، وهأنذا أكتب لك ما فيه.

لقد توقف المطر الآن، فأشعلنا النيران بصعوبة. الليل من حولنا كثيف، لا شيء يُرى سوى الوجوه المضاءة بلهب النار.

الناس كلهم يبدون في الليل مختلفين، غرباء. كلهم متعبون متوترون. تتوهج النار حيناً ـ فأرى المقود وسحنة الحصان، ثم يسود الظلام من جديد، يهجم من كل الجهات.

أنا، على الأرجح، محموم. رأسي، تارة تضيئه الأنوار، ويلفّه الظلام تارة أخرى. وتتسلل إليه أفكار قديمة جداً في تارة ثالثة.

أتذكرين؟! لقد سألتني يوماً عن رأيي في الجوكندا. أنا الآن أعرف بالضبط سرّ ابتسامتها. إنها تبتسم لأنها الآن هناك، أما نحن فمانزال هنا. إنها تبتسم لنا من هناك. بل إن هذه الابتسامة ليست ابتسامة مطلقاً: هي تعرف الآن ما لا نعرفه نحن. نحن مازلنا نأمل أن نجد فجأة شيئاً ما في ذلك العالم، أما هي فتعرف أن لا شيء هناك، ولذا تسخر منا نحن الحمقى.

حرارتي مرتفعة، وكل الأمور تختلط في رأسي! لقد مضى النهار، وعاد المطر تصحبه الريح. إنه ينهمر بقوة، أطراف الخيمة تصطفق. رأسي ساخن وقدماي باردتان.

الجميع يسيرون طول اليوم مبللين، ولا مكان يجففون فيه أنفسهم.

شيء ما غير سليم يحدث لي. أنا، من جديد، لا أفهم أين أنا، وماذا حلّ بي؟ وهل أنا أنا؟

الظلام يلف المكان تارة، وتارة يخترقه الضوء.

قماش الخيمة الرطب تلهو به الريح، وأنا لا أملك القوة لفعل أي شيء تجاه ذلك.

لقد تسببت الأمطار بظهور البعوض من جديد. المقص ورّم وجهي وذراعيّ. وهأنذا، الآن، أضطر لأن أغمض عيني نصف إغماض، وأهز

رأسي باستمرار، وأنا أكتب.

الأمطار جرّفت الطرق، أرجل الجنود تغوص حتى الركب في الماء، والطين اللزج يَعلَق بأقدامهم كالأثقال في أقدام السجناء، ويلتصق بدواليب العربات فيجعل عمل الجياد غاية في الصعوبة.

أشعر بعطش لا يحتمل. لقد شربتُ من ماء الحفر مرات عديدة، على الرغم من أني أعرف أن ذلك سيزيد من مرض معدتي المريضة أصلاً. ولكن معاناتي من العطش فظيعة.

حقول الأرز غارقة في الماء، وهي ملأى بالحيّات التي تتلوى على سطحه، تاركة عليه آثارها لفترات طويلة.

يمشي المرء وهو يشعر بالعشب يتحرك بقربه باستمرار، ويسمع خشخشته.

البارحة منحونا استراحة في النهار، الجميع كانوا تعبين جداً، فارتمى كل منا متمدداً حيث كان يقف. فيما بعد، أرى أحدُ الرماة الموجودين جميعاً حيّة ميتة، تبيّن أنه كان ينام فوقها:

- كنت أفكّر، ما هذا الحبل المزعج تحت خاصرتي!

فوضى كاملة، القطعات تتخلّف وتختلط. صار الجنود يطلقون النار بعضهم على بعض من الخوف. البارحة ظن المدفعيون الإنكليز الرماةَ الروس الذين احتلوا قرية على جانب الطريق، جنوداً صينيين فشرعوا يقصفونهم بالقنابل الحارقة. أصابوا عدداً منهم بجراح، ومات واحد في الطريق إلى المشفى الميداني بسبب فقدانه كمية كبيرة من الدم.

خُطط الهجوم تتبدل باستمرار. اليابانيون الآن في المقدمة، ونحن خلفهم، وخلفنا الأمريكيون.

اجتزنا اليوم عدداً من القرى التي هجرها سكانها ونهبها اليابانيون.

من إحدى القرى أطلقوا النار على طابورنا الممتد طويلاً، فأمر الجنرال ستيسِّل بتوجيه المدافع نحوهم، وبعد دقائق معدودة لم يبق لتلك

القرية أي أثر.

نحن نسير على الضفة اليمنى لنهر بيي ـ خو. الجيش الصيني يتراجع في فوضى عارمة. تُصادفنا في أثناء عبورنا للقرى، أماكن عسكروا فيها ثم غادروها كيفما اتفق، تاركين كل شيء ـ صناديق القنابل والطلقات والأسلحة.

القرى التي مرّ بها اليابانيون منهوبة تماماً. إنهم يأخذون كل ما يؤكل، ويرغمون من تبقى من الصينيين على مرافقتهم كحمّالين. وهم يقتلون من يتلكّأ من أولئك الصينيين الذين رأينا الكثير من جثثهم المرمية هنا وهناك في تلك القرى.

جنودنا يواصلون النهب، رغم قلة ما يمكن حمله. يغطسون في القرى، ويعودون منها بالبطيخ الأحمر والأصفر، والخضار، والدجاج.

لا خبز عند الصينيين ـ يأكلون بدلاً منه الأرز المسلوق، يصنعون منه أرغفة لا ملحَ فيها.

لقد كفّ الجنود عن أكل الخنازير التي تنتشر بأعداد كبيرة في كل مكان ـ إنها تأكل الجثث المنتشرة الآن في أرجاء القرى وليس هناك من يدفنها.

المتخلفون كثر، ومن جميع الفصائل. نحن نصادف الكثير من اليابانيين الذين يجرجرون أنفسهم في سلسلة لا نهاية لها وراء قواتهم، أو يمشون عائدين إلى تيانتسزين. الجميع، بغض النظر عن قومياتهم، يشكون من الزحار. في كل مكان على جانبي الطريق يجثو رجال روس ويابانيون وقد أنزلوا سراويلهم وبدت على وجوههم آلام الزحار. جنودنا يجمعون اليابانيين الأكثر ضعفاً، ويحمّلونهم في العربات الثنائية العجلات أو في عربات المشفى الميداني أو على عجلات المدافع.

الطقس حارّ اليوم. ما من نسمة هواء، ولكن الطرقات لا تجفّ، مع أنها مردومة ببقايا أسوار الحقول التي بناها الصينيون كمصدّات لفيضانات

نهر بيي ـ خو. في كل مكان بركٌ من الماء الآسن، تنبعث منها روائح فظيعة، وفي كل مكان تنتشر بقايا ما أفرزته مِعَدُ الجنود المريضة.

الجميع يخافون الكمائن، فكثيراً ما تدوّي الطلقات من بين الأعشاب. النباتات والأعشاب الطفيلية كثيفة يصعب اجتيازها، وهي مرتفعة يمكن أن تخفي بسهولة فارساً على ظهر جواده. والجنود يفقدون أعصابهم أحياناً، يطلقون الرصاص على الحشائش النامية هكذا، بلا هدف. إنهم يتخيلون دائماً أن أحدهم يختبئ خلفها.

هأنذا أعود لكتابة بضع كلمات. القرى على حالها والأعشاب الطفيلية على حالها. الحشائش كثيفة، يختفي فيها الإنسان بعد خطوات قليلة، وقد مُنع الجنود من اللجوء إليها لقضاء حاجتهم، فثمة حالات عثرنا فيها على جنود بُقرت بطونهم هناك.

عذراً يا حبيبتي الغالية ساشكا، فأنا فقدت منذ زمن بعيد، القدرة على كتابة رسائل حقيقية وجميلة. أكتب لك ما يخطر في بالي في فترات الاستراحة.

أنا الآن أتمنى أن أختبئ بعيداً عن كل ما يحدث هنا، ومع ذلك أدوّن كل شيء ـ ألا يمكن أن يحتاج إنسان في يوم من الأيام إلى ما أكتبه؟

قد يريد أحدهم أن يعرف شيئاً ما عنّا، عمّا رأيته اليوم، عن حالنا ونحن نمشي حتى وقت متأخر من الليل، ثم ننام ما يتبقى منه على الأرض المبتلة دون أن ننصب الخيام. كلّنا ننام كيفما اتفق. الأمطار حولت الطريق الترابية إلى كتلة من الطين اللزج. عربات المؤن وعجلات المدافع تغرق في كل خطوة فيحملها الجنود على أيديهم. اليوم، سحبت ساقي من الطين اللزج تاركاً فيه حذائي.

من ذا الذي سيهتم بحذائي؟

ولكني، على الرغم من ذلك، سأكتب.

حلّ الليل من جديد. أقمنا مبيتنا في قرية مدمَّرة. ثيابنا وقبعاتنا مبتلة

يمكن عصرها... لا مجال لتجفيف أقمطة سيقاننا. أشعلنا بقايا شمعة في قنديل صيني من الورق. الضوء خافت جداً، ونحن نزدرد سائلاً عكراً ذا رائحة عطرية ـ شاياً صينياً أعددناه في قصعة من القصعات التي يحملها الجنود في المسير. أجبرت نفسي على أكل ثلاث بيضات. بعوض وجوّ خانق، وأبخرة تكتم الأنفاس، تتصاعد من البرك والأقنية.

إنهم يخافون شرب مياه الآبار، يرغمون الصينيين على الشرب منها أولاً ـ الصينيين الكبار السن الذين لم يهربوا من القرية المهجورة. الماء رمادي، كثيف، يشبه شوربة العدس.

سبق أن كتبت لك أنّ اليابانيين يسيرون أمامنا ـ لقد مررنا قبل قليل بشجرة بعضهم مشنوقون على أغصانها بجدائلهم المعقودة حول رقابهم.

في النهار، إما قيظ حارق يتساقط الناس بسببه مصابين بضربة شمس، وإما مطر استوائي يُغرِق المكان كله في أقل من ساعة. الماء لا يتسرب عبر التربة الطينية، بل يشكّل بحيرات حقيقية في المنخفضات، ويحوّل الأقنية والسواقي إلى نهر لا يمكن اجتيازه.

يوزع الرئيس الآن سريته على سلسلة من مراكز الحراسة. المطر ينهمر، والحراس يضطرون إلى الوقوف غارقين حتى رقابهم في الماء. مراكز الحراسة توضع خصيصاً في الأماكن المنخفضة ـ الرؤية في الليل تكون أفضل من أسفل إلى أعلى.

كتل الأشجار المرتفعة فوق الأعشاب الطفيلية ـ إما مقابر وإما قرى.

نبيت تحت السماء المكشوفة... نتجمع في كومة يسيطر علينا الحذر. حفيف الأعشاب الطفيلية يشبه الخشخشة الموحية بأن أحدهم يتسلل بين الأعشاب.

ما إن تحين الاستراحة حتى يتمدّد الطابور كله. الناس مرهقون إلى حدّ يجعلهم ينامون على الأرض العارية في أوضاع شتى.

كنا نسير في الليل، القرى المجاورة تحترق من حولنا! اللهيب

يمكّننا من رؤية كل شيء. وحين يتجدد هطول المطر، يخترقه وهج الحرائق فيتساقط مطراً أحمر لم أرَ مثله من قبل.

الطريق، كالعادة، لا يُحتمل، ونحن نضطر إلى مساعدة الخيول من حين لآخر في سحب العربات العالقة في الطين.

كنت مرهقاً فارتميت ممدداً كالقتيل، ـ نمت هكذا بملابسي وحذائي المغطى بالطين. تكوّمنا في أحد البيوت، نام الجنود على الأرض متوسدين أجساد بعضهم بعضاً، تفوح من الجميع رائحة العفن والعرق والطين الملتصق بأجسادهم.

لا أطيق رائحة جسدي نفسه.

كل شيء يبدو في الظاهر هادئاً. ولكن ما لبثت الصيحات أن تعالت في الحقول، فسأل كيريل:

ـ هل هذا صوت طائر؟

ـ لا، قد يكون صوت جرحى لم يتم إجلاؤهم.

لم نستطع النوم بسبب الصراخ ـ قُبيل الفجر، بدا للحرس أن أحدهم يتسلل في الضباب ففتحوا النار، ثم تبين أن ذلك كان كلباً. الأعصاب مشدودة، والناس يثورون لأتفه الأسباب فيصرخ بعضهم في وجه بعض.

الجميع غاضبون إلى حد التوحش. الوحشية في كل مكان.

الجنود الصينيون يطلقون النار من كمائنهم بين الأعشاب الطفيلية النامية، وفي حال الخطر، يخلعون ستراتهم ويرمون أسلحتهم ويخرجون من بين الأعشاب، وهم ينحنون تحية، ويقدمون أنفسهم كسكان مسالمين.

واليابانيون والإنكليز وجماعتنا يقتلون الآن كل من يصادفونه.

لقد قطّع القوزاق في حضوري عدداً من الأشخاص الذين صادفناهم في الحقل. قد يكون هؤلاء فلاحين اختبؤوا خوفاً من القوات القادمة، من يعرف حقيقتهم الآن؟ بل من يهتم بهم؟ لن يعرف أحد شيئاً عن موت هؤلاء الناس، أو حياتهم.

أنا رأيت كيف كانوا يطعنون رجلاً بالحربة، وكيف كان يمسك تلك الحربة بيديه محاولاً إبعادها عن جسده.

في إحدى القرى أمسكوا بفتى وحققوا معه أمامي. كان كيريل يقوم بالترجمة. وكان الأسير يجلس على الأرض شاداً رأسه إلى الخلف، لأن يديه كانتا مقيدتين خلف ظهره بجديلته. عيناه ممتلئتان حقداً ورعباً. وجهه مرهق متسخ. وهو يجيب على الأسئلة كلها بكلمة "مي يو"، التي تعني "لا". أطلقوا النار على قدمه فزعق وتلوى على الأرض والدم ينفر من قدمه، ولكنه مع ذلك قال "مي يو". جرّوه إلى الفناء وألقوه في الجب.

ساشينكا، لقد تعبت، تعبت حتى الموت.

لا شيء يمنحني القوة سوى أنك في انتظاري.

أكتب إليك في اليوم التالي. قُتل كيريل.

إليك كيف حدث ذلك: أرسلوا عدداً من جنودنا إلى القرية المجاورة، وذهب معهم كيريل. غابوا طويلاً. أرسلنا رجالاً آخرين، فعادوا وأخبرونا أن في القرية كميناً. هرعنا جميعاً إلى هناك.

لأول وهلة، لم أفهم ما أرى.

بل الأصح أني فهمت فوراً ولكني لم أرد أن أفهم. قتلوا الجميع. غير أنهم عذبوهم في البداية. كانت أجسادهم مشوهة. لا أريد أن أصف لك ما شاهدته.

شرع جنودنا في حرق البيوت، إلا أن المطر حال دون اشتعالها.

وجدوا في الطرف الآخر من القرية عجوزاً فسحلوه سحلاً، ممسكين برقبته. كان كله مطلياً بالطين الأصفر. حين تركوه ظلّ ممدداً على حاله ووجهه غاطس في الوحل. ولكنه كان حياً. قلبوه على ظهره بأحذيتهم.

كان العجوز ذا جديلة طويلة شيباء معقودة حول رقبته.

ضربوه بأحذيتهم وأخامص البنادق.

تدخلت، محاولاً إيقافهم، فدفعوني بعيداً بقوة فزلّت قدمي وسقطت في الطين اللزج.

داسوا على حلقه بكعابهم فسمعت طقطقة حنجرته وهي تنسحق.

نحن، الآن، نشرب الشاي. تناول الشراب الساخن أمر جيد.

ترى، أي معنى في هذا اليوم الذي انقضى؟ ما أغبى هذا السؤال! لقد أمضيت عمري وأنا أطرح على نفسي أسئلة غبية. لعلّ معنى هذا اليوم، إذا كان له معنى، هو أنه مضى وحسب.

انقضى يوم آخر فقرّب بانتهائه موعد لقائنا.

●

فولودينكا!

أحتاج إليك كثيراً لأني لا أكون حقيقية إلا معك!

أنت تفهم كل شيء في داخلي، حتى تلك الأشياء التي لا أستطيع فهمها.

كم أود أن أروي لك الأشياء الجميلة فقط، ولكن، من المهم لي جداً أن أقول لك كل شيء!

ليس في نيتي مطلقاً أن أشكو، على العكس من ذلك، أريد أن أحدثك عن سعادتي.

أنا أشعر بالسعادة في حالة يشعر فيها الجميع بالشقاء.

لا أستطيع ان أشرح هذا الأمر لأحد، إلا أنت. أنت تفهمني.

لقد فهمت أخيراً ما هو اليجافيو: ما إن تسلمت بيدي شهادة وفاة ماما، حتى شرعت في إعداد وثائق موت أبي. الأوراق نفسها، والكلمات نفسها. مشاغل الدفن نفسها. طقوس غريبة لا لزوم لها، شعائر مزيفة ـ لا علاقة لها بأي حال من الأحوال، بماما أو بابا.

بابا مات في البيت. هذا ما أراده.

الجنازة بدت لي بلا معنى.

المصعد صغير، والدرج ضيق، والحمالون تعذبوا كثيراً وهم ينزلون بابا من الطابق الخامس. حوافّ التابوت تحتكّ بالجدران وواقية الدرج.

الحمّالون يتصايحون. والجيران فتحوا أبوابهم وأطلّوا منها يستطلعون سبب الضجة. في المدخل وقفت نسوة غطّين أفواههن بأيديهن.

الأولاد يلعبون كرة القدم في الفناء وتتعالى صيحاتهم، لكنهم ما لبثوا أن هرعوا يتفرجون على الجنازة. الكرة قفزت ثم حطّت فوق التابوت تماماً.

ذهبنا إلى المحرقة.

بابا ممدد في التابوت ويداه معقودتان على صدره كيَدَي الدمية النائمة. مسّدت له صدره الساكن وقد كفّ عن خفقانه السريع في الدقائق الأخيرة التي سبقت موته.

لملمت عن جبينه خصلة من شعره، فرأيت دموعاً على خدّيه اللذين حلقتهما دون دراية ـ تلك كانت دموعي.

الطقس حار، والذباب يحط على جسد بابا فأقوم بطرده.

في المحرقة، ونحن ننتظر جالسين على مقعد طويل، لم أكن أرى غير عُظيمات أصابعه. بطن بابا انتفخ من كثرة الحبوب التي تناولها، وارتفع فوق حواف التابوت. قارنت بنظري، عن غير قصد، بين يديه المعقودتين على صدره، وبين قضبان النافذة وراءه، وفجأة، بدا لي أن بابا يتنفس.

كان بين الحاضرين بعض النسوة اللواتي لا أعرفهن. هل هنّ عشيقات؟ مساكِنات؟ محبوبات؟ عاشقات؟ لا أعرف عنهن شيئاً.

حين قبّلت بابا قبلة الوداع، رأيت زيزاً حطّ على كتفه. أبعدته لئلا يحترق هو أيضاً.

تناهى إلى سمعي صوت أحدهم يسأل عن درجة حرارة الفرن.

حين أغلقوا بوابة الفرن رأيت بابا يبتسم.

أجلس الآن وأقرأ دفتراً كان في آخر أيامه يدوّن فيه أشياء لم يطلعني عليها.

لقد قال أبي منذ زمن أنه ينوي كتابة مذكرات. لعلّه أراد ذلك فعلاً. ولكن ما أنجزه كان دفتراً ناحلاً، الصفحات المنزوعة منه أكثر من المكتوبة.

كان يمزح فيقول إنه يكتب كتاب حياته.

ـ هذا، يا أرنبتي الصغيرة، كتيّب حياتي. حين أكتبه حتى آخره، حتى آخر نقطة فيه، سأدعك تقرئينه.

بعد إصابته بالجلطة، قضيت أوقاتاً طويلة بالقرب منه. الشلل أصاب جنبه الأيمن. انحرفت زاوية فمه وعيناه. كلماته باتت خليطاً من الأصوات، ولكني تعلمت كيف أفهمه. لم يكن بعد، قادراً على الوقوف، حين عاد إلى الكتابة في دفتره مستخدماً يده اليسرى. اقترحت عليه أن أقوم أنا بالكتابة فرفض ذلك.

لقد تعافى بسرعة على كل حال ـ لم يرد أن يبقى طويلاً في المستشفى. كان يقول: الممرضات قبيحات، لا يأتين إلا نادراً، ولا يفعلن إلا ما يجب عليهن فعله للمرضى المخطرين.

الممرضة المكلفة برعايته، التي كانت تأتي إلى البيت لتجري له التمارين العلاجية، أخبرتني غاضبة أنه يمسك بيده السليمة كل شيء بارز في جسدها.

أجبتها:

ـ هذا يعني أنه في طريقه إلى الشفاء.

ـ ولكني لا أستطيع فعل شيء لأن أباك يمسك صدري!

ـ اضربيه على يده! إنها سليمة.

وقلت لأبي:

ـ ما الذي تفعله! ألا تستطيع أن تصبر قليلاً؟

فتمتم بكلمات غير مفهومة عبر فمه المعوج.

هأنذي أتصفح الآن ما كتب، فلا أجد شيئاً ـ بل الأدق، أني لم أجد شيئاً مما كنت أريده. لم أجد ذكراً لي تقريباً، لم أجد شيئاً عن طفولتي... لقد ذكرني، في الواقع، مرة واحدة فقط:

"أتأمل حياتي فأرى، أحياناً، أن كل شيء تَبدد عبثاً، ولكني، في أحيان أخرى، أقول: لا، لقد أنجبت ساشكا. هي التي ستنقذني. بفضلها سأنال الغفران عن حياتي الموبوءة كلها".

لعلّي كنت أتوقع أن أعرف شيئاً عن ذاتي، عن ذلك الجانب من الحياة، الذي كان مخفياً عن نظر الأطفال. غير أني وجدت، بدلاً من ذلك، شذرات عن كل شيء في العالم وعن لا شيء.

"أصغي إلى دقات الساعة في الليل ـ أسمع كيف تقضم حياتي. الوحدة ـ هي حين يكون لديك كل شيء كي لا تكون وحيداً، ولكن لا شيء لديك في الواقع. هأنتذا تقف أمام المرآة عارياً في حوض الاستحمام يغالبك النعاس وأنت تشيخ. تنظر إلى جسدك ـ إنه يخونك. تحت العينين اللتين فقدتا لونهما كيسان نافران وعلى الأذنين نبتت شعيرات كالأشواك. تحفّ بفرشاة الأسنان ما بين لوحي الكتف وتقول في سرّك: الموت قريب. كيف حدث ذلك؟"

"يجب أن نتعامل مع الموت بسهولة: نضجت ـ يقتلعك، كما يقتلعون الجزرة من التربة لأنها لا تخرج من تلقاء نفسها".

"بدَّلوا التوقيت مرة أخرى. يبدو لي أنه لم يمض وقت طويل على تبديله آخر مرة. يجب أن أسرع فأكتب شيئاً ما، وإلا سينقضي الوقت في طرفة عين، أو سيلغى عموماً".

"حين كنت فتى، حلمت بكتابة مذكراتي حين أشيخ، ولذا كنت

أدوّن في مفكرتي ما أظن أنني سأحتاجه فيما بعد. وهأنذا الآن في الطرف الآخر من الحياة، أتذكّر بعد أعوام كثيرة مفكرتي التي يجب أن تساعدني الآن على تذكّر الأحداث والأحاسيس المهمة في حياتي. ولكن، يتبين لي أن ما بدا لي مهماً آنذاك ليس سوى هراء. أما ما كان آنذاك مهماً فعلاً فلم أهتم به. وإذن، عليّ الآن أن أكتب عن ذلك كله أنه كذب".

"هأنذا أذكر كيف اشترى لي أبي في طفولتي سلحفاة من مخزن لبيع الحيوانات... كنت سعيداً بذلك. كان يوماً شتوياً بارداً، فأسرعت إلى البيت لأني خفت أن تتجمد سلحفاتي. مخزن بيع الحيوانات مايزال في مكانه حتى الآن، بعد مضي نصف قرن. مررت به فدخلته لدقيقة. ماذا أردت بذلك؟ هل أردت أن أضبط نفسي سعيداً؟ ما الذي يجمع ذلك الطفل الذي أراد أبوه أن يقنعه أن آخيليس لن يسبق أبداً سلحفاة تخشخش في العلبة الكرتونية التي كانت تحوي من قبل حذاء، ما الذي يجمعه بهذا الرجل العابس الثمل الماشي في الطريق؟ لا شيء طبعاً!"

"قرأت عن التقمص، ثم قررت أن أحلق ذقني. أنظر إلى لحيتي الشيباء، فأدرك أن تناسخ الأرواح يحدث باستمرار، وأن أرواحنا، ببساطة، تتناسخ في ذواتنا. يكون المرء طفلاً ثم يصبح عجوزاً، الروح تنتقل من جسد إلى جسد مراراً لا حصر لها ـ في كل صباح. الجسد يتغيّر في الليل دون أن يكون ذلك ملحوظاً".

أتذكّر أبي شاباً، قوياً، يقوم بتمارين الصباح الرياضية. كنا نلعب لعبة الأرجوحة ـ يبسط يده، فأتعلق بذراعه وأتأرجح. أما الآن، بعد إصابته بالجلطة، فالنظر إليه يبعث الخوف في النفس. إنه لا يستطيع النطق بكلمة تامة، يده اليمنى لا تعمل، صار هزيلاً، وقد تهدّل جلد رقبته.

لقد مرض أبي من قبل، ولكنه لم يخبرني بمرضه قَط. لعلّه كان يخشى أن يبدو أمامي ضعيفاً. بل إنه ذات يوم رقد في المشفى مصاباً بقرحة في معدته، ولكنه لم يقل لي شيئاً عن العملية التي أجراها. لم يهتف

لي، ولم يخبرني أنه كان مريضاً، إلا بعد شفائه.

غير أنه اضطر في هذه المرة إلى الإقرار بضعفه.

بدا الأمر صعباً عليّ لاسيما في الأيام الأولى، فأنا لم أكد أنتهي من عذابي مع أمي، حتى وجدت نفسي مضطرة إلى زيارة أبي كل يوم.

كان يعيش مهمَلاً دون أية وسائل للعيش. يضع المقلاة فوق صحن السجائر بسبب عدم وجود مسند خشبي، ويمسح يديه بالستائر. اضطررت لشراء ما يحتاجه البيت أو جلبه من بيتي.

عدت من جديد إلى تنظيف أوعية التبرّز، والتدليك، والتمديد في السرير، والإطعام بالملعقة. بعد الجلطة مباشرة فقد القدرة على ضبط البراز والبول. فكنت أمدُّ تحته قطع المشمّع كما لو كان طفلاً صغيراً.

بعد فترة حدث العكس، بدأت عنده حالات الإمساك، فكان عليّ أن أعالج ذلك بالحقن بشكل منتظم.

ذات مرة راح، وأنا أنظف الشرشف من برازه وأبدّل غطاء السرير مقطّبة بسبب الرائحة الكريهة، يدمدم بكلام لم أفهمه.

ـ ما بك يا بابا؟ ماذا تريد؟

لقد كان يطلب السماح.

ـ ما هذا الهراء يا بابا! ألم تكن تنظف لي مؤخرتي فيما مضى؟

كان، في ذلك كله، يتصرف كالأطفال. أغسل جسده فيشاكسني ـ يزعم تارة أن الماء ساخن، وتارة يزعم أنه بارد. أدلّك جسده بالليفة وصابون الأطفال ـ يتوجع زاعماً أن الليفة تخرّش جلده، فأضطر إلى استخدام راحتيّ بدلاً منهما. جلده ذابل متهدّل وكأنه ينزلق عن جسده. أغسل ثنيّات جلده وتجاعيده كلها.

أدلّك يده المشلولة وأتساءل في سري: أين اختفت تلك اليد القوية ذات العضلات التي كنت في زمن ما أتعلق بها وأتأرجح كالقردة؟ أظن أن الأيدي تتناسخ أيضاً، مادامت يده قد تحولت إلى هذا العود الهزيل

المغطى بخيوط من الأعصاب الذابلة والبقع الرمادية.

أقص لـه شـعره وأظافـره. أنقـع قدميـه فـي المـاء السـاخن، أطرّي عقابيلهما والأظافـر الصفراء النامية على أصابعهمـا، والجلد المتقرّن على كعبيه كالحراشـف. الإصبعان الثانـي والثالث في قدمه اليسـرى صارا، مع تقدمه في السن، متصالبين. وكان يمزح قائلاً: إن هذا فأل حسن.

أغسل كل مكان في جسده ـ بطتي ساقيه الهزيلتين، وفلقتي مؤخرته، وعضوه الذكري. أتراني كنـت حقاً هنا في يوم من الأيـام ـ في هذا العضو المتجعد، المتدلي، الضائع بين تجاعيد الشعر الأشيب؟

كان يخاف أن يكون مصاباً بسـرطان البروسـتات أيضاً. أتلمس غدة البروستات وأقول له:

ـ بابا! ستشفى وستنجب لي إخوة وأخوات أيضاً!

صار أبـي يقرأ كتباً طبية، يناقش الأطباء ويشـرح لهـم كيف يجب أن يعالجوه.

منعوه من التدخين ـ ولكنه واصل تدخينه وكأن شيئاً لم يكن. يئست فغضضت الطرف عن تدخينه.

أطبخ له الحبـوب ـ لا يرضيه ذلك، يقرقع بالملعقـة، ينفخ، يقلّب ما في الصحن بفتور، يتأفف، ويقطّب.

ـ ليته كان سمكاً مملحاً مع البصل!

ـ كلْ، وإلا دلقت الصحن على رأسك!

تذكّرَ كيف دلق على رأسي اللبن ذات يوم، ثم راح يأكل في خضوع.

كنت أجلس إلى جانب سـريره، وأسـتمتع وأنا أسـتعيد معه ذكريات الطفولة. الغريب أن بعض الأشـياء السـاطعة جداً في ذاكرتـي كانت غائبة تماماً عن ذاكرته.

غير أننا تذكّرنا كيف يرقص أهل هاواي وأيديهم في جيوبهم.

وكيف تعلّمت عقد ربطة العنق وحللتُ محلّ ماما ـ كنت دائماً أعقد

له ربطة عنقه.

وكيف أهداني ذات يوم لوحة يابانية، رأتها ماما فهاتجت وانتزعتها من يدي حتى قبل أن أرى ما المرسوم فيها. تذكرتُ رائحة الجلد الرائعة التي انبعثت من خوذته التي وضعها على رأسي حين كان طيّاراً قطبياً، والنظارة الكبيرة، وكيف دسست نفسي في حذائه العالي الساق.

وتذكرت كيف شاهدت فيما بعد ذلك الفيلم فدهشت، بل الأدق، شعرت بالخيبة، ليس لأن الفيلم كان رديئاً، بل لأني أدركت لأول مرة أن بابا كان ممثلاً سيئاً، مزيّفاً.

وكيف عقدت عمامة على رأسي وجلست على الطريقة التركية، تحيط بي، على مدى البصر، مملكة الأب إيفان ـ آنذاك كان ممثلاً حقيقياً.

تذكرت تلك الأسود البيضاء، والحمراء، وثمار الغريفون، والغزلان والحيوانات الأسطورية.

كما تذكرت كيف شرحت له ما كان عاجزاً عن معرفته:

ـ دخلت غرفتكما، كنت نائماً. تكوّرتَ كالكعكة كما ينام الأطفال.

أدهشني آنذاك أن بابا ينام كالأطفال!

طلبت منه أيضاً أن يغفر لي سلوكي في تلك الأعوام حين كنت أخبّطه بقدميّ محاولة تدميره وكأني أثأر منه لشيء ما. ترى ما الذي كنت أثأر له؟ هل لأنه لم يكن سيد السادات، ملك ذوي السيقان الذكية، سلطان السلاطين كلهم؟ هل لأنه لم يكن يقيم في عاصمة العواصم، المدينة الأهم في كل البلاد المأهولة وغير المأهولة؟ ولأنه لم يتجول في أملاكه في هودج على ظهر فيلة؟

ـ بابا، اغفر لي أني كنت أتصرف على ذلك النحو! اغفر لي كل تلك الكلمات التي كانت تسبب لك الألم. لقد كنت سأطلب الغفران من ماما أيضاً لو أني فطنت إلى ذلك في حياتها. ولكن، لم يعد هناك الآن من أطلب منه الغفران.

أجاب بابا:

- لا داعي لهذا الكلام يا ساشـكا! لقد غفرت لك ذلك في حينه. إنه مجرّد وسيلة عند الناس للنمو.

أخـذت عـن الـرفّ كتيّبـاً أتصفحـه، فتحته، فوجـدت علـى صفحة الغلاف الداخلية قصاصات شعر. استنتجت أن ماما كانت في يوم من أيام سنيّ الماضي البعيد تقصّ شعره وهو يقرأ هذا الكتاب.

فوق الخزانة، وجدت شطرنجاً بين كومة من الأشياء المهملة.

- أتريـد أن نلعـب الشـطرنج، كمـا فـي الماضـي؟ نحـن لـم نلعـب الشطرنج منذ ألف عام!

صرنا نلعب، وفجأة، خسر اللعبة.

- هل تعمّدت الخسارة؟

ابتسـم، ولكني فهمت أنه لـم يتعمّد ذلك، بل خسـر فعـلاً. لقد كان لاعباً سيئاً حتى في الشطرنج.

"هأنذا صرت، منذ زمن، أكتشـف أبي في ذاتي. أشـعر فـيَّ بحركاته وابتساماته الساخرة، وإشارات يديه. كيف عشّش في داخلي؟! في زمن ما رغبت فـي أن أكون مختلفـاً عنه أكثر من أي شـيء آخر، ولكنـه كان، فيما يتعلق بك، أكثر دهاء مني، فخسرت أمامه".

لم يقل لي بابا أي شـيء عن والديه. قال فقط أنهما سافرا إلى مكان بعيد وماتا هناك. وهكذا كبرت بلا جد أو جدة.

وقال لي ذات يوم:

- لم يعـرف أحد ما الـذي حدث فعلاً آنـذاك، حين وقعـت الحادثة. الحادثة لا تصبـح حادثة إلا حين يدوّنهـا أحدهم في مذكّراتـه. أتعرفين ما الأمر الأكثر أهمية في المذكّرات؟ إنه الصمت.

لقد هدّد خصومه والمسيئين إليه بأنه سـيثأر منهم بإغفالهم تماماً في مذكراته.

لن أكتب عنهم أية كلمة، وكأنهم لم يوجدوا! سأحذفهم من حياتي! ساشكا، ما رأيك، أليس هذا قتلاً مثالياً؟

في اليوم الذي خرجنا فيه أول مرة إلى الشارع، ومشينا ببطء، خطوة، خطوة، طائفين حول البيت، كتب في دفتره:

"ما أشدّ تقلّص حجمي! ياقة القميص واسعة جداً حول رقبتي السلحفاتية. لم أستطع أن أفهم في حينه حكاية آخيليس والسلحفاة. الآن فهمتها. السلحفاة هي أنا. وآخيليس لن يستطيع اللحاق بي أبداً".

وفيما يلي بعض كتاباته القديمة:

"السنون التي عشتها تستوجب مراكمة الحكمة، ولكني عجوز أحمق. ترى ما الذي راكمته؟ لقد راكمت إجابات عن كل الأسئلة التي بدت لي آنذاك مهمة جداً، ولكنها تبدو لي الآن عديمة الأهمية تماماً. حتى زوالي القريب من الوجود، وهو أمر مؤكد، أراه أمراً تافهاً".

"تحدثوا في الراديو عن النباتات والحيوانات المعرضة للانقراض. بعض الحيوانات البائسة يجب أن تنقرض قريباً. بلى، هذا أنا، أنا هو ذلك الحيوان الذي يجب أن يختفي قريباً!"

وقد كتب، بعد أن صار قادراً على الخروج بمفرده إلى الشارع، ما يلي:

"خرجت أتمشى مساء حول البيت. ما أجمل أن تتمشى وحيداً في الشارع! تسمع دقات نبضك ـ فتصبح، في الحال، أكثر ذكاء، وتشرع في تأمل ما هو جميل. توقفت لالتقاط أنفاسي ـ نظرت، فرأيت شيئاً ما يلتمع على الإسفلت. وجهت ضوء مصباحي اليدوي نحوه، فإذا هو دودة تزحف أو بزّاقة تركت أثرها في الحياة، ولكن، ليس في حياتها، بل في حياتي. فذلك الأثر وقع حتى في هذه الصفحة. إنها لن تعرف ذلك أبداً. شعرت بفرح لا أعرف له سبباً. أردت أن أقفز فوق المقعد وأرقص رقصة التشيشكا، كما في الماضي. ترى، كم كان عمري، أنا الأهبل، آنذاك؟"

لقد توقعت أن أجد في دفتره شيئاً ما عن ماما، ولكني لم أجد شيئاً عنها، لم أجد عن الأسرة سوى عبارة واحدة يبدو أنه نقلها من كتاب ما:

"الأسرة هي كراهية الناس الذين لا يستطيع أي منهم العيش مستقلاً عن الآخرين".

سألته مرة في سياق الحديث إن كان نادماً على هَجره لأمي آنذاك.

فأجاب بابا:

ـ كلاّ. لولا ذلك لغرس كل منا أظافره في جسد الآخر كالوحوش، ومزّق بعضنا بعضاً... حين يفقد الزوجان الكرامة الإنسانية يجب أن يفترقا. تصوري. كانت بَعد أحد شجاراتنا تقف قرب النافذة تستعيد أنفاسها، مررت بالقرب منها ذاهباً إلى المطبخ، فراودتها رغبة في أن تمسك بساقيّ وتقذف بي من النافذة!

سأل أبي ذات مرة:

ـ هل تريدين أن تعرفي لماذا افترقت عن أمك؟

ـ كلاّ.

وفي مرة أخرى راح يحكي من تلقاء نفسه كيف أكّد لها ذات يوم أن كل شيء انتهى بينه وبين المرأة الأخرى، فصدّقته، رغم أن ذلك كان كذباً.

ـ نظرتُ في عينيها فأحسست أني قبيح، حيوان جلاّد!

ـ لماذا تقول لي هذا الكلام؟ كان عليك أن تقوله لماما.

ـ لذا بالضبط أحكيه لك، فأنا لم أقله لها.

ـ وماذا تريد الآن؟

ـ أنا نفسي لا أعرف. هل أريد منها أن تسامحني مثلاً؟

ـ عن هذه الفعلة؟

ـ عن هذه الفعلة وغيرها، ولكن عن هذه الفعلة أكثر من كل شيء آخر.

ـ حسناً، حسناً، لو كانت حية لغفرَت لك ذلك. ولغفرَت كل شيء

آخر أيضاً. ما أغباكما يا والديّ، ألا تستطيعان التوافق من دوني حتى بعد الموت؟!

"استيقظت صباحاً ـ لا أدري لماذا. لكنني تذكرت بعد ذلك. سألت نفسي: ترى، كيف يبدو الموت على كل حال؟ أهو، حقاً، هيكل عظمي مضفور الشعر؟ لقد سألت أبي يوماً عما يجعله يكذب، فأجابني: "سنتحدث عن ذلك حين تكبر". وهأنذا كبرت منذ زمن، بل شرعت، الآن أكبر في الاتجاه المعاكس، وأتمنى لو أسأله سؤالاً مختلفاً عن ذاك تماماً: "أبي، كيف يبدو الموت؟ أجبني، أنت تعرف ذلك!" أعتقد أن مظهر الموت بسيط جداً ـ سقف أو نافذة. رسوم على ورق الجدران. وجه هو آخر ما تراه".

كان يمازحني ويحرص على أن يبدو مرحاً معي. أما في الدفتر، فكان يهيئ نفسه للموت.

أعتقد أن الناس يعودون بعد الموت، ويصيرون، ببساطة، ما كانوه دائماً ـ لا شيء".

"قرأت في أحد الكتب، كيف يحرق الهنود الإنسان الميت في النار، فتنفلق جمجمته كحبة الكستناء. لا أكاد أصدق. لقد روى لي أحد معارفي كيف أحرقوا أمه في المحرقة الجديدة التي افتتحوها للتوّ. آنذاك، كان باستطاعة الأقارب أن يروا عبر زجاج البوابة كيف تحترق الجثة، لماذا؟ ـ ألكي يتأكدوا من أن العاملين لم يستبدلوا غيرها بها؟ ـ وقال إنه رأى أمه تنهض في النار".

كان بابا يتحدث كثيراً عن رغبته في عدم دفنه في التراب.

ـ ما المبهج في أن تعرف أنك لم تختف أبداً، بل ترقد في مكان ما تحت مترين من التراب وجسدك يتفسخ ببطء؟ بل تحت الأحجار أيضاً! إنهم يضعون الأحجار فوق القبور كي لا يهرب الأموات!

لم يذهب معي أبداً لزيارة قبر أمي. قال إنه لا يطيق المقابر، ولكني

عرفت من دفتره أنه كان هناك في الربيع الماضي.

"أردت شراء زهور لأرنبتي الطباخة ـ إنهم يبيعون الزنبق في كل مكان وأنا لم أُهدها طاقة ورد في حياتي. ولكني قلت لنفسي: سيسرقون الزهور عن القبر على كل حال. الشاهدة الغبية أوصت بها ابنتي. أظن أن الشواهد الذكية لا وجود لها فوق القبور. جلست أتذكّر. شعرتُ بالراحة. كان الجو هادئاً وحزيناً. الثلج زال كله تقريباً، وانتشرت رائحة أوراق الشجر الذابلة التي كانت راقدة تحته منذ الخريف الماضي. يجب أن نبني سوراً حول القبر، ولكن ذلك مكلف جداً في الوقت الحاضر. وصلت إلى المقبرة متأخراً وكنت آخر من غادرها. أغلقوا البوابة خلفي. سرت بمحاذاة السور فرأيت امرأة ورجلاً عجوزين يتسللان عبر السور. منظر طريف ـ هاربان من المقبرة".

لقد طلب أن تُحرق جثته، ويُنثر رمادها في الطبيعة.

ـ بابا، ما هذا الذي تقوله؟

ـ وما الغريب في قولي؟ أنا لا أطلب أن أدفن واقفاً مثلما فعل نوستراداموس! إنني، ببساطة، أريد أن تحرق جثتي وينثر رمادها. أريد أن أختفي، أن أتبدد! طيب، انثري رمادي في حديقة البيت! أتعدين بذلك؟

ـ أعدك.

"أي المتذاكين قال إن الآلام تسمو بالنفس؟ هذا هراء كلاب. الآلام تدمّر".

كثيراً ما كان يقول لي أنه يريد أن يتعذب مثل ماما. لقد أراد هو نفسه أن يرحل.

"كم من المرات فكّرت بهذا الأمر من قبل. ما الغريب في ذلك؟ كل ما أريده ألا يحدث ذلك في الشقّة ـ الشقة سيظل يعيش فيها الآخرون، ولن يكون الأمر ساراً لهم. ما أتمناه هو أن أقول للجارة ببساطة في أحد الأيام، أنني ذاهب لأرتاح ـ ثم أختفي. ما يستوقفني هو فقط ضرورة أن

أقول شيئاً ما لابنتي. ولكن ماذا أقول لها؟"

كان يتمسّك بي، أما أنا فكنت أقضي شهوراً دون أن أشعر برغبة في الحديث معه، لو بالهاتف.

بعد إصابته بالجلطة رجاني قائلاً:

ـ هل تعدينني يا ساشكا أن تحقنيني بسمّ ما، إذا ساءت حالتي كثيراً؟

ـ هل أنت بكامل عقلك؟

عاد إلى الشراب من جديد، كان يقرّب نهايته عن وعي، ولم يعد بمقدوري أن أفعل شيئاً. كان يسكر في غيابي، ثم يتألم بعد ذلك، زاعماً أن الحرقة هي سبب الألم، يعبّ عدداً من كؤوس الماء والصودا. حاولت عدة مرّات أن أبصّره بالأمر، ولكنه كان يردّ عليّ بالتطويح بكل الزجاجات وعلب الدواء التي فوق ظهر الخزانة الصغيرة.

في أواخر أيار أصابته جلطة ثانية لم يشف منها.

لقد كتب في الدفتر ذات يوم:

"ما يحزنني هو فقط أن لا شيء سيتغير في يوم موتي، ولن يحدث أي شيء غير عادي. سيواصلون في المحطة بيع البذر المحمّص، يُخرجون من الكيس كأساً صغيرة مترعة به، يصبون ما فيها في الجيوب المفتوحة. وسيستمرون بشرب البيرة في زاوية الشارع وهم يمصمصون رغوتها العالقة بشواربهم. وستقف امرأة على حافة النافذة تغسل إطارها. الأمر الأكثر طرافة هو أن هذا اليوم موجود ويمرّ في الروزنامة في كل عام، ويمكن الاحتفال به. إنه موجود الآن، ولكنه لم ينكشف لي بعد، وكأنه جزيرة أو قانون من قوانين الطبيعة".

قرأت الآن هذا المقطع وفكّرت ـ مات بابا في أوائل حزيران، في الخامس منه، هذا هو الآن يوم موته. ولكن هذا اليوم الخامس كان موجوداً من قبل. معنى ذلك أن يوم موته كان موجوداً دائماً. اليوم كان، ولكن الموت لم يكن. غير أني لا أستطيع أن أتذكر ما الذي حدث في

نفس اليوم من العام الماضي. أتراه كان أيضاً ـ بذوراً، وبيرة، وامرأة تغسل إطار النافذة؟!

مسّدت يديه الصفراوين، الميتتين، الداكنتي الأظافر.

في الأيام الأخيرة لم نكن نتحادث إلا لماماً، نتبادل كلمات لا أهمية لها، تماماً كما حدث مع ماما.

أعود من المطبخ فيسألني:

ـ هل شربت القهوة؟

لقد اشتمّ الرائحة.

أنكش بأظافري بعض البثور الناتئة على جلده، فلا يعجبه ذلك:

ـ كفّي عن هذا!

اشتهى التين الإفرنجي، ذهبت إلى السوق، قسمت الثمرة نصفين، حاولت إطعامه إياها بالملعقة، فرفض:

ـ لا أريد.

الجو حار، أفتح النافذة، يتدفق قيظ أكثر سخونة. طلب مني أن أضع يديّ الباردتين على جبينه الساخن ورقبته. وضعت يديّ تحت صنبور الماء شبه المتجمد، كي تكونا أكثر برودة.

البارحة شعر بكل شيء. همس فسمعته بصعوبة:

ـ أنا أموت يا ابنتي.

ـ يموت هو! وهل نحن لا نموت؟ هل نحن مسافرون في الترامواي؟

تقلص وجهه. كان ذلك ابتسامة، همس:

ـ كم أحبك يا ساشكا!

ماتت ماما وأنا بعيدة عنها. وكان من المهم جداً بالنسبة إليّ، لسبب لا أستطيع تفسيره، أن أكون ممسكة بيد بابا عندما يحدث ذلك.

رجوته:

ـ بابا، أريد أن أكون ممسكة بيدك حين تموت. أتعدني ألاّ تموت من دوني؟

أغمض أجفانه.

فيما بعد حلّت دقائقه الأخيرة. كان بابا يتنفس بعنف يجعل السرير يرتجّ. لقد فقد القدرة على الكلام ولكن بصره لم يحد عني. وكنت أعرف ما يريد.

أردت معانقته، فتمددت إلى جانبه في السرير وضممته إلى جسدي وأنا أنظر إلى عينيه باستمرار... كانت عيناه قد كفّتا عن طلب أي شيء وقد لاحت فيهما الدهشة.

رحل أبي. إنه مايزال معي، ولكن كان ينظر إلى مكان ما هناك. لقد توقّف قليلاً، تباطأ للحظة. رأى ما لم أكن أراه عبر هذه الغرفة.

بذل بابا جهداً ليقول شيئاً.

ـ ماذا تريد، بابا قلْ! ماذا تريد؟

تدفقت من حنجرته حشرجة غير مفهومة.

وفجأة فهمت ما الذي أراد أن يقوله لي وهو ينظر إلى هناك.

لقد أراد أن يقول: هناك يعيش فعلاً أناس خالدون وزيزان خرساء.

في مناسبات عدّة قال لي والدي أنه يعرف سلفاً العبارة الأخيرة التي سيكتبها في مذكراته. لقد وجد في مكان ما، الخاتمة التي كان الكتبة ينهون بها كتبهم ـ عن السفينة والعاصفة البحرية. ولكن آخر عبارة في كُتيّبه عن الوجود كانت شيئاً مختلفاً تماماً.

"أظهرت المعطيات الأخيرة أن الميت يمكن أن يسمع بعد موته، فوظيفة السمع هي آخر الوظائف التي تزول. ساشا، بنيّتي، قولي لي شيئاً!"

أنا أكتب ذلك كله من أجل أن أفسّر ذلك الإحساس المدهش: لقد أمسكت بيده في تلك الدقيقة التي أعتقد أنها أهم الدقائق في حياة الإنسان، فأحسست أني سعيدة.

■

ساشينكا!

حبيبتي!

قولي أيمكن أن يختفي كل شيء من حولنا فعلاً؟

المطر يهطل من جديد. إنه يهطل طول اليوم.

هل يمكن أن يكون ذلك كله حقيقة، بل حقيقتي أنا؟ بالطبع لا، لا يمكن.

طيب، هذا مطر. حسناً، ولكنّ هذا قد يكون مطراً آخر تماماً. أنواع الأمطار كثيرة. ولكن، ليس كل واحد منها مطراً حقيقياً.

قد يكون هذا هو نفس ذلك المطر الصيفي في الريف. إنه يهطل منذ الصباح. هناك كل شيء حقيقي... البعوض يطن في الشرفة. والسقف يدلف ـ قطرات الماء تسقط في الطست. الزجاج كله نقط ماء. خشخشة أشجار الحديقة تتسلل عبر النافذة نصف المفتوحة. شجيرات السيرين المبتلة تضوع منها رائحة خاصة، رائحة مطرية. الدرب أمام المدخل تحول إلى برك حية.

أجلس على الأريكة. على ركبتيّ جزء من مؤلفات شكسبير، وأنا أكتب في هذا الدفتر. أؤلف. ما أجمل أن يؤلف المرء! عن الحب، والموت، وكل شيء في العالم. إنه يستطيع، فيما بعد، أن يحمل كل ما كتبه ويحرقه. ما أروع ذلك!

تمددت لتوّي وفي يدي الدفتر. صرت أفكّر، عضضت القلم الرصاص، نظرت إلى الساعة، إنها الثانية إلا عشر دقائق! أنت تنتظرينني! سأدس قدمي في الحال في حذائي المطاطي، وأرتدي معطفي المطري القديم، وأمضي ـ في دربنا. أمشي في البداية حتى زاوية الدرب، حيث يزرع جارنا نبتات الشاي على سور بيته، ثم أعبر الغابة نحو الجسر الذي

فوق الجرف، ومن هناك أرى سقف بيتكم الريفي. أحب حباً خاصاً ذلك الدرب عبر غابتنا. أحب كثيراً اندهاشك في كل مرة من كوني أعرف أسماء النباتات. ولكن ما المدهش في ذلك؟ إن أي إنسان يستطيع أن يعرفها.

حبيبتي! انتظري قليلاً!

أنا قادم!

●

حبيبي، شقيق روحي، وحيدي!

استيقظت باكراً، ظللت راقدة في السرير، ورحت أفكّر فيك.

يا من تحبه نفسي، هذه الرسالة ستكون بهيجة جداً.

ولكن، لا بد في البداية من أن أروي كل شيء بالترتيب ـ أن أقول، قبل كل شيء، أن الثلج غطى المدينة أخيراً.

استيقظتُ في الليل وتذكّرت أني لن أذهب في اليوم التالي إلى العمل، أستطيع أن أبقى فترة أطول راقدة في السرير. عندها فقط، شعرت كم أتعبتني هذه الأيام والأسابيع والأعوام. ثمة سناء يتسلل من وراء النافذة. نظرت ـ الثلج يغطي كل شيء. عدت إلى السرير، تكوّرت دمية، كما أنت تحب، وتأملت من خلال فتحة في النافذة، هطول الثلج. أحسست بمتعة كبيرة وغفوت من جديد!

استيقظت في الفجر كالعادة ـ الظلام مازال مخيماً، أسمع كيف يجرفون الثلج بالرفوش في الشارع، تذكّرت أن الثلج يهطل، فغمرتني سعادة عارمة مرة أخرى! ومرة أخرى غفوت، نمت حتى منتصف النهار. شبعت نوماً.

جلست أتناول الفطور قبالة الثلج المستمر في الهطول.

بعد ذلك بقيت جالسة هكذا، ببساطة، في مواجهة النافذة، وكأني

أمام خشبة مسرح، أتأمل ندف الثلج الرطبة وهي تصطدم بالزجاج ثم تنزلق عنه ببطء.

أعددت لنفسي شاياً ثقيلاً. لا يستعجلني شيء، كم هذا جميل!

الشاي في الكأس يبدو في النور الشتوي المنسكب من النافذة أقل كثافة.

لم أستطع منع نفسي، خرجت للنزهة، غطست في الثلج المتساقط.

أمشي فأشعر بالخدر وأنا أستنشق الرائحة النقية الطازجة.

النهار أيضاً، أصابه الخدر الذي تسببه هذه الرائحة، فكأنه نسي دوره وراح يتصرف على هواه.

المدينة كلها مصابة بخدر غريب.

على زوايا الفم حُبيبات ثلج، تهسهس بكلام غير مفهوم.

التمثال الذي كان كامد اللون، صار الآن أبيض، ألبينوسياً.

يتساءل الناس عن المكان الذي يعيش فيه رجل الثلج، إنه هنا، في هذه الساحة.

أغصان الأشجار ثقيلة، انحنت تحاول أن تمسك بياقات المارة. الجميع يضطر إلى الانحناء تحية.

ما أروع حلول الشتاء والثلج! لاسيما الثلج! لقد جاء ليعيد تكوين كل شيء.

نصف فصل الشتاء انقضى والحديقة جسدٌ فارغ خاوٍ. أما الآن، فصارت عمارة ملكية ـ أقواس، وأبراج، وقباب. الأشجار تنحني فوق الطريق، فتبدو السيارات كما لو كانت تعبر بوابات ثلجية.

هطول الثلج، عموماً، يحوّل جميع الأشياء إلى كلٍّ موحّد. قبله كان كل شيء يعيش مستقلاً بذاته، أما الآن فكل مقعد في الحديقة، وكل تبّة، ناهيك عن صندوق البريد، يدرك اكتمال الوجود ووحدته، وحدة لا شقوق فيها.

أحد المارة يختبئ من الثلج تحت مظلته. يظن أنه الذكي الأوحد. الآخرون ينفضون، ببساطة، ندف الثلج بقفازاتهم، في حين تنمو كتل الثلج على أكتافهم وقبعاتهم كالفطور.

في كل باحة من باحات الدُّور يدحرج الأولاد كتل الثلج، يصنعون بها عرائس الثلج.

الثلج رطب لزج، أخذت حفنة، لم أستطع كبت رغبتي، التهمت بعضها.

هطول الثلج نشيط، سريع، مشاغب. إنه يصيب المدينة كلها بالعدوى، ولاسيما الأولاد والكلاب. في باحة المدرسة يتراشق طلاب الصفوف العليا بكرات الثلج، يمرّغ بعضهم وجوه بعض بما امتلأت به راحاتهم من الثلج أو يمرّغون به رقاب بعضهم بعضاً من خلال ياقات معاطفهم. يندفع كلب الحراسة وهو ينبح، يلتقط ندف الثلج ويعضّها.

وقفت أراقب كيف يركض الكلب جيئة وذهاباً، تغمره البهجة، ويتناثر اللعاب من شدقيه. توقف أمامي فجأة، نظر إليّ مندهشاً، وكأنه يقول لي: لمَ تقفين ساكنة، هيا، انضمي إلينا! ـ تثاءب، ثم أغلق فمه بقوة فطقطقت عظام فكّيه، ومضى في طريقه مسرعاً، يهشّم بذيله ندف الثلج وينبح نباحاً رناناً معبّراً عن سعادته.

أتابع المشي على غير هدى. ما الفرق، مادام الثلج يغطي كل شيء؟

آثار نعال المشاة على الرصيف كأغصان شجيرات السرو.

وأخاديد سوداء تحيط بفوهات تصريف المياه.

اللوحات الصغيرة التي تحمل أسماء الشوارع مغطاة بالثلج.

والثلج يتناثر من دون تناظر، منحرفاً، ويستقر على حواف النوافذ، مائلاً، غير مستوٍ.

الثلج الرطب يلتصق من جهة واحدة، بأغصان الأشجار فتبدو كالفوانيس.

مـن فتحة فـي الغطـاء الثلجـي تنبـق أمامـي شـجيرة أغصانهـا بلون الشوندر. أنت تعرف اسم هذه الشجيرة.

ها هو ذا درّاج ـ يعاند الشـتاء. عجلات درّاجته غطّاهـا الثلج اللزج. قفز عن الدرّاجة وراح يجرها جرّاً.

أمرّ بالقرب من ورشـة بناء ـ تحت شـبكة الوقاية جسـيرات خشـبية مبتلة، موحلة، تهتز اهتزازاً لذيذاً عند السـير فوقها، مرتفعـة إلى أعلى عند كل خطوة.

الحلاّقـة خرجـت مـن صالتهـا لتدخّـن، تلتقـط بـرأس سـيجارتها المشـتعل ذرات الثلج، وقـد غطّت ندفه شـعرها. يخرج أحدهـم من باب الصالة، فتنبعث روائح مختلفـة كريهة من داخلها. كيف يسـتطيع المرء أن يستنشق ذلك طول اليوم؟

مررت بعـد ذلـك بروضة الأطفـال ونظرت إلـى الداخـل من خلال إحدى نوافذها.

أقف وأتأمـل الأمهـات والجـدات وهـن ينتقيـن الملابس ويُلبسـن الأطفال ـ أرانـب صغيرة، عرائس ثلج، ثعالب، دببـة. أحد الأطفال يرتدي قناع ذئـب، ويخيـف الجميع. وتنتعـل طفلة حـذاء أبيض ثم تنطلـق، تقفز على سـاق واحدة. رأيت عبـر نافذة أخرى شـجرة ميلاد ضخمة ـ تشـتعل أنوارها تارة، وتخمد تـارة أخرى. وفي إحـدى الزوايا يملأ بعضهم كيسـاً بالهدايا.

ورأيت من خلال النافـذة الأخيرة بابا نويل يسـاعد عروس الثلج في تبكيل أزرار ثوبها من الخلف، وهي تطلي شـفاهها بالأحمر مستعينة بمرآة صغيرة. إنها حية، رغم أنهم صنعوها من الثلج، ولا أحد يستغرب ذلك.

عدت إلى البيت.

جمعـت أوراقـي ورحـت أفكّـر. ارتطمـت رزمـة الأوراق بشـفتيّ، فحـدث أمـر غبـيّ ـ جرحـت شـفتي بحافـة إحـدى الأوراق. كان الجرح

مزعجاً جداً، تألمت كثيراً.

في المساء قررت الذهاب إلى حفل موسيقي. أنا لا أحب الإسكندنافيين كثيراً، ولكن لا بأس.

لا أستطيع العيش بلا موسيقا. كل ما هو عَرَضي وغير ضروري يتبدد هباءً، ولا يبقى إلا ما هو حقيقي.

لكني، ولسبب لا أدريه، لم أستطع التركيز هذه المرة، فكل ما حولي كان يشتت انتباهي ويزعجني.

كانوا، في غرفة المعاطف، يخبطون الأرض بأقدامهم، ينفضون الثلج عن معاطفهم، ويمسحون ما علق منه على نظاراتهم.

دخلت غرفة ملابس السيدات، هناك كنّ يطلين وجوههن بالكريم، ويتبودرن، وسط ضجيج يملأ الآذان. وبرفقة هذا الضجيج دخلت إلى الصالة.

أحاول أن أغوص في الموسيقا، أن أنفرد بذاتي، فلا أستطيع، وكأن للموسيقا بثوراً ناتئة:

أجلس فتلفت نظري ستائر المسرح التي تساقَط الطلاء الذهبي عن أطرافها، ومخملها الذي بهت لونه، أحدهم وهو يخشخش، بغلاف حبة كاراميل، رنين لوحة معدنية تحمل رقم معطف في الأمانات تسقط فترتطم بالأرض، أصوات أبواق سيارات الإطفاء حيناً، وسيارات الإسعاف حيناً آخر وهي تدوي في الشارع.

أتلمس طول الوقت جرح شفتي بطرف لساني.

أفكّر بالموسيقا ولكن فكري مشتت تماماً.

لسبب ما تذكّرت كيف قلبتَ الدرّاجة على ظهرها في البيت الريفي ورحتَ تصلحها بأدوات مصفوفة على جريدة، وكيف احتكّ ردفي مصادفة بالدوّاسة فدار دولاب الدراجة مرسلاً هسيساً خافتاً.

المرأة الجالسة أمامي ظلت طول زمن القسم الأول من الحفل تعبث

بطوق من الكهرمان حول رقبتها. وحين نهضَت من مقعدها للاستراحة، لم يتحملها المقعد، وكاد ينزع عنها تنورتها.

لم أبق لأحضر القسم الثاني.

هطول الثلج يزداد كثافة. يلتهم الأشياء بنهم.

السيارات تنزلق عبر الثلج المتساقط بلا ضجيج. وتدور حول الساحة ـ كدولاب بلا صوت في مدينة الملاهي.

تحت كل مصباح في الشارع ـ تدور ندف الثلج كخلية نحل، فتظهر لها ظلال.

لا حاجة للمصابيح، فضوء بياض الثلج ينير كل مكان.

يستطيع المرء اجتياز الشارع في ضوء الثلج عند تقاطع الطرق.

توقفت عند واجهة أحد المحلاّت ـ حذاء منزلي طفلي شتوي على شكل فيلين صغيرين أتأمله فيحدّق فيّ هو أيضاً.

ركبت الترامواي عائدة إلى البيت.

رقدت في الفراش، ثم نهضت فارتديت ملابسي من جديد وخرجت إلى الفناء.

هدوء، فراغ، لا شيء غير الثلج. أتنفس بسهولة ومتعة.

قررت أن أصنع من الثلج بنتاً.

ستكون لي بنت.

آخُذُ الثلج، إنه مرن، لزج. يتشكل كيف أشاء ـ يدين صغيرتين، ساقين طفليّتين أيضاً.

تتجمد أصابعي برداً. أدفئها في جيبيّ، ثم أعود إلى العمل:

خدّين، أنفاً صغيراً. أذنين صغيرتين، أصابع دقيقة، أرداف صغيرة ملساء، صلبة الملمس، سُرّة.

صنعت بنتاً رائعة!

حملتها إلى المنزل بحذر.

مددتها في السرير وغطيتها باللحاف.

تلمستُ ساقيها ـ باردتان كالثلج. صرت أدفئهما بأنفاسي، أدلكهما، أقبلهما.

وضعت إبريق الشاي على النار كي أسقيها مغليَّ الكرز.

أدفّئ ساقيها وأحكي لها عن بلاد يعيش فيها بشر بساق واحدة يمشون قفزاً، تفوق سرعتهم سرعة البشر ذوي الساقين، أقدامهم كبيرة جداً حتى أنهم يستظلون بها من حرّ الشمس. وعن أناس آخرين يعيشون على روائح الثمار، فإذا رحلوا إلى مكان بعيد، حملوها معهم ليشمّوها.

أحكي لها، أدلّك كعبيها، وأنا أنظر في المرآة التي تنعكس فيها صورة النافذة، فأرى كيف يتساقط الثلج.

دبَّت الحرارة في الساقين، وبدا لي أنها استسلمت للنوم.

انحنيت فوقها لأقبلها قبلة المساء، فإذا بها تسألني:

ـ ماما، ما هذا؟

ـ جرحت شفتي بحافة ورقة، لا شيء مخيف، نامي!

لفتها باللحاف، دسست أطرافه كلها تحت الفراش، وهممت بالانصراف فسألتني مرة ثانية:

ـ ماما!

ـ ماذا تريدين أيضاً؟

ـ هل ستشترين لي ذلك الحذاء المنزلي، الفيلين الصغيرين؟

ـ نعم، نعم، سأشتريه! نامي!

■

ساشينكا!

حبيبتي!

لا يوجد هنا شيء.

أين النعناع البري؟ أين الحميضة؟

لا وجود لنبتة الدجاجة العمياء، ولا للقريض، ولا لنبات الأوسوتا السام.

لا وجود للوبيستيكا ولا للكانوبير.

أين كروشينا؟ واليابريشنيك؟ أين الكوروستافنيك؟

لماذا لا يوجد هنا نبات الإيفان شاي الطبي؟

أين التولوكنيانكا؟ والدروك؟

والطيور؟ أين الطيور؟

أين العصفور الدوري؟ أين القبّرة؟ أين الألوشا؟

وعصفورة الشوك؟ أين عصفورة الشوك؟

●

حبيبي!

فولودينكا، يا أنت لي!

كل يوم يزداد قربك مني.

هذا اليوم ككل الأيام.

أوقِظُها، فتتذمّر، تخفي رأسها تحت اللحاف.

ـ أرنبتي الصغيرة، حان الوقت!

تدمدم في الجواب:

ـ لا حان الوقت، ولا شيء، الوقت مازال ليلاً. أنا أراك في الحلم.

ماذا أفعل بها! إنها هكذا دائماً.

أذهب للنوم متأخرة جداً، أغفو فور ملامسة رأسي للوسادة، قد يبدو لي أحياناً أني أغفو وأنا ذاهبة إلى السرير. لذا أجد الاستيقاظ صعباً لا يطاق. ومع ذلك أضبط جرس المنبّه على زمن أبكر قليلاً. من المهم جداً أن أنهض من الفراش وعندي بضع دقائق أعتني فيها بنفسي.

في الخارج ـ عتمة. شتاء لا ينتهي. جوّ جليدي.

أغلي القهوة وأفكر بالنهار الذي ابتدأ لتوه. وأفكر بنفسي وبكل شيء في العالم.

أركض إلى الحمام، وفي طريقي أوقظ أرنبتي الصغيرة. طقس كامل. أبدأ باللعب معها لعبة الأميرة النائمة، تلتفّ باللحاف، أبحث عنها ـ هذه لعبة الغابة والجبل اللذين يجتازهما الأمير على ظهر جواده باحثاً عن حبيبته، هأنذي، أعني ها هو ذا ـ وصل إليها وراح يقبّلها وهي تهمهم في رضا، من الواضح أنها استيقظت، ولكنها لا تريد أن تعترف بذلك. ما ألذّ رائحة رأسها قبل أن تختلط بروائح النهار الأخرى!

وحين لا يجدي نفعاً حتى الأمير، يتسلل إليها القنفذ تحت اللحاف. فتقفز أرنبتي الصغيرة مطلقة صيحة يشوبها الفرح، وتتعلق برقبتي. تلك هي بداية النهار.

أخرج من الحمّام وهي ماتزال ترتدي ملابسها. تحاول رفع جواربها فلا تنجح ـ لقد لبست الجوارب مقلوبة، الكعبان في الأعلى. تشعر بالبرد، ترتعش، ولكنها لا تفعل شيئاً، لا تسرع في ارتداء ملابسها ـ تفضل أن تظل جالسة تتأفف.

لديها، فوق ذلك، سنّ يتخلخل ـ تتلمسه بإصبعها طول الوقت. ضربتُها على يدها ـ بكت.

أطهو (المامونية) في المطبخ ـ نحن الاثنتان نحب رؤية السميد وهو يبقبق في القدر. أناديها:

ـ هيه، أين ذهبتِ؟

تأتي وهي ترتدي كنزتها، تلوح بالكمّ الفارغ في الهواء، مقلّدة شخصاً مبتور اليد... تسخسخ بضحك مكبوت.

ـ كفّي عن الشيطنة! اجلسي وكلي!

تبدأ لعبة جديدة ـ تدهن أطراف الصحن (بالمامونية) محاولة رسم

شيء ما.

ـ أرنبتي الصغيرة، الوقت صار كثيراً!

تعترض بعقلانية:

ـ كيف يمكن أن يصير الوقت كثيراً والصباح مازال في أوله؟

تنفخ في صحن (المامونية)، ولكن ما إن أشرد بفكري وأنا أتأمل الجليد الذي يغطي النافذة، حتى أتلقى ضربة على يدي.

ـ ماما! لا تعضي أصابعك! كم مرة نبَّهتك إلى ذلك!

أذهب إلى الغرفة، أرتدي ثوبي على عجل وأعود ـ رسمَت في القشدة الرقيقة التي تغطي (المامونية) شكلاً ما، وصاحت تخبرني بفرح:

ـ ماما، انظري، القشدة تبتسم!

تهتاج كعجل صغير.

تأخرنا، نرتدي بسرعة معطفينا ونبحث عن بقية الأشياء المهيأة منذ مساء البارحة. لكن الأشياء تلاعبنا لعبة (الاستغماية) فتختفي دائماً هنا أو هناك ـ القفازات، القبعة، الشال. أُلبسها ثيابها كاملة، أما أنا فأبكّل أزرار معطفي على الدّرَج. في المدخل نحبس أنفاسنا من شدة البرد. نلقي بأنفسنا في العتمة الجليدية.

نسير مسرعتين نحو الموقف. ضباب كثيف. خطوات رنانة صاخبة على الأرصفة التي غطاها الجليد. الجليد في كل مكان ـ المهم ألا تنزلق أقدامنا!

الأرنبة الصغيرة تحاول أن تحلّ بعض المسائل المهمة في أثناء سيرنا، ولكني لا أسمع شيئاً مما تقول، أرى فقط، كيف تنطلق كتل من البخار الأبيض من بين شفتيها.

السماء ملأى بالنجوم، لكن العيون تدمع من شدة الصقيع، فتظهر حول النجوم هالات من الوبر.

لحقنا بالتراموای في الوقت المناسب. وحالفنا الحظ، فوجدنا

مقعديـن متجاوريـن خاليـن. وجناتنـا تجمـدت في أثنـاء ركضنـا للحاق بالترامواي، فسـرى فيها الخدر. على الفور شـرعت أرنبتـي الصغيرة تنفخ أنفاسها في الجليد الذي يغطي النافذة لتحدث ثقباً فيه.

الترامـواي ترامـواي. يرتـج بصخـب، يتطايـر الشـرر مـن عجلاتـه. الركّاب يكملون نومهم، يلتفّون بشالاتهم، يهمهمون من البرد.

الجابية التي صادفتنا ثرثارة:

ـ ما بالكـم يـا ذوي الـدم الحـار، هـل جمّدكـم الصقيـع؟ لا بأس، ستدفئ أنفاسكم الجو بسرعة!

يفـرد أحدهـم جريدته فـوق رأسـي. علـى صفحتهـا الأولـى أخبار الحرب وعلى الأخيرة كلمات متقاطعة.

ـ ماما، ماما، فيل!

ـ أي فيل؟

ـ هناك فيل! لقد تجاوزنا فيلاً!

ـ لا وجود للأفيال في الشتاء.

انزعجت، أدارت لي ظهرهـا. وعادت تنظر عبر الثقـب الذي حفرته في الجليد.

ـ بل كان هناك فيل! رأيته بنفسي!

لا تستطيع أن تهدأ:

ـ صدقيني! كانوا يقودونه إلى مكان ما، ونحن تجاوزناه!

أزحت عن رأسها قبعة المعطف وقبلت نقرتها.

قلت لنفسـي: يجب أن تسـتحم اليوم. هذا الأمر يبهجني دائماً. هي، أيضاً، تحـب الحمام، تسـتطيع أن تلعب سـاعات هنـاك. تختلق أشـياء لا نهاية لها ـ فهي، مثلاً، تبدأ ترسم أشـكالاً على بورسيلان الجدار المتعرّق، أو تطلـق المصابـنَ سـفناً في حـوض الاسـتحمام، أو تلعـب لعبـة الجُزُر المهجورة غامرةً ركبتيها في الماء.

أُحب المجيء إليها وهي في الحمّام وقد تكاثف في جوّه البخار. أسرع في إغلاق الباب كي لا يتسلل إليه الهواء البارد. خلاّط الماء يرسل صوتاً كالهدير، ورشاش الماء الساخن يخزها كالإبر الدقيقة، وهي تصرخ وترش الماء من حولها.

أغسل شعرها حتى يزقزق.

هي دائماً تسحب بنفسها سدّادة مصرف الماء في حوض الاستحمام ثم تساعد بإصبعها دوامة الماء التي تتشكل فوقه.

أتناول المنشفة الساخنة من فوق مشع التدفئة، ألفّها بها، ثم أجلس على كرسي المرحاض وأجلسها على ركبتي. أجفف ظهرها وبطنها وساقيها. نحن، الاثنتين، نحب صوت انسياب بقايا الماء من حوض الاستحمام في المصرف، ـ ننتظر هذه اللحظة الصاخبة.

تتأمل أطراف أصابعها المتجعدة، ـ تحاول أن ترى كيف تتحول فتعود ملساء كما كانت. أذكر كيف خافت حين انتبهت إلى ذلك لأول مرة، لأن يديها صارتا يدي عجوز وهي ماتزال صغيرة. لم أستطع تهدئتها إلا حين رأت أصابعها تعود إلى حالها بعد خمس دقائق.

أنظر إليها أحياناً فأرى فيها نفسي حين كنت طفلة. أنا، أيضاً، كنت مثلها بالضبط، أقضم التفاحة بالطريقة ذاتها، وأسير جيئة وذهاباً فوق الخط الذي يرسمه على أرض الغرفة شعاع الشمس المتسلل من بين شقّي الستارة. مثلها تماماً كنت أحب الطبق الذي تعدّه لي ماما: أنا نفسي أقطّع لها الآن الخبز مكعبات أُلقيها في صحن من الحليب الساخن وأرش فوقها السكر الناعم بملعقة الشاي. لقد علمتني ماما في حينه كيف أرتّب السرير ـ أَريتُ أرنبتي الصغيرة مرة واحدة ماذا يجب أن تفعل كي تظهر أذنا الوسادة من تحت اللحاف، وسريرها الآن مرتّب دائماً.

ثمة أشياء خاصة بها وحدها. هي، مثلاً، تلاعب وحشاً خفياً لم يستطع أحد غيرها أن يراه. إنه يعيش عندها في الكوخ الصغير، ذلك

الكوخ نفسه الذي كان لنا في يوم من الأيام، ثم صار الآن بيتاً له.

أنا أحب أن أراقبها وهي تلاعب الكائن الخفي، تطعمه، تسقيه الشاي. أنا لا أعرف ما هو هذا الوحش الصغير. أرنبتي الصغيرة تنفخ له في الصحن كي يبرد الطعام فلا يحرق فمه، تنبهه لئلا يمضمض فمه بالشاي قبل ابتلاعه. تبلل منديلاً بلعابها وتمسح الوسخ عن وجهه، توبخه مستخدمة اللهجة التي أستخدمها في توبيخها. أما حين يمرض فتعالجه بدواء خاص ـ له رائحة الشوكولاتة، وهو محفوظ عندها في علبة كبيرة كانت للشوكولاتة في عيد رأس السنة.

لا أستطيع في بعض الأحيان تمالك نفسي، فأحضنها وأقبّلها دون تحديد ـ أقبل رقبتها، خدّيها، رأسها، أما هي فتتملص من بين ذراعي وكأنها تقول: كفى، ماما، اتركيني!

سألتني فجأة ذات يوم وأنا أمددها في السرير:

ـ ماما، من أين جئت بي؟

ـ صنعتك من الثلج.

ـ كذب! أنا أعرف من أين يأتي الأولاد!

بنت مضحكة.

في المحطة دخل أبي الحافلة، تكاثر عدد الركّاب، نحن نجلس في مؤخرة العربة، أما هو فدخل من الباب الأمامي، مرتفع، وكأنه على خشبة المسرح، ـ لقد سكر منذ الصباح ـ إنه يروي لكل من في الحافلة كيف اشتروا له في طفولته حذاء مطّاطياً.

ـ لم يكن ذلك حذاء مطّاطياً، بل عيداً! داخله مبطّن بقماش عنابي اللون، لطيف الملمس! تفوح منه رائحة مطّاط لذيذة جداً! تملكتني رغبة شديدة في انتعاله والخروج إلى الشارع بأسرع ما يمكن، في الشارع هطل ثلج خفيف طازج، آثار الحذاء الواقي الجديد متميزة تماماً ـ تشبه ألواح الشوكولاتة! زعمنا في لعبنا أن ألواح الشوكولاتة هذه لنا. نخلع قفازاتنا،

نحمل بأصابعنا بعناية تلك الألواح ونقضمها. وهكذا شبعنا من هذه الشوكولاتة الثلجية!

ـ ماما، هل مازال الطريق طويلاً؟

ـ لا، سنصل سريعاً.

تعرّقت نظّارة الجابية، رفعتها فوق جبينها وراحت تعدّ النقود التي في حقيبتها، تتفحص القطع النقدية المعدنية التي انمسح نقشُها.

ـ ماما، أمازال الطريق طويلاً؟

ضممتها إليّ، وهمست في أذنها:

ـ اسمعي، يجب أن أقول لك شيئاً. سنلتقي هناك برجل، سيضع رأسه على ركبتي، فلا تندهشي.

ـ لماذا؟ هل يحبك؟

ـ يحبني.

ـ أنا أيضاً أحبك، كثيراً ـ كثيراً!

ووضعت رأسها على ركبتي.

■

ساشينكا!

حبيبتي! شقيقة روحي!

أنا قادم إليك. لم يبق إلا القليل القليل.

لقد وقع لي حادث مدهش.

أسمع فجأة:

ـ هيّا، أرني عضلاتك!

لم أفهم شيئاً، سألته:

ـ من أنت؟

فأجاب:

ـ من أنا؟ ألا ترى؟ أنـا ـ الأب إيفان، وكل ما تـراه حولك مملكتي، العالية الصوت، الطيبة الرائحة، الخالدة. أنا ـ سـيد السادات، وسلطان كل السـلاطين. كل من في مملكتي يعـرف مسـتقبله ومع ذلك يعيـش حياته، المحبـون يقعون فـي الحب حتـى قبـل أن يعرف بعضهـم بعضـاً، قبل أن يتعارفوا ويتحادثوا، والأنهار تجري نهاراً فـي اتجاه، وليلاً، في اتجاه آخر. هل تعبت؟

أنا:

ـ نعم تعبت.

هو:

ـ اجلس. سأحضّر الشاي.

أنا:

ـ لا أستطيع، يجب أن أذهب.

هو:

ـ أنا أعرف.

أنا:

ـ يجب أن أسرع. المشكلة هي أن...

هو:

ـ أنا أعرف، أنا أعرف كل شيء. هي تنتظرك، تنتظرك بلهفة.

أنا:

ـ ليس لديّ وقت. يجب أن أذهب إليها. أنا ذاهب.

هو:

ـ انتظر، أنـت لن تجدها من دوني. أنا سـأقودك إليهـا. اجلس قليلاً، خذ نَفَسـاً. يجـب أن أكمـل العمل الـذي في يـدي ثـم ـ ننطلق. سـأنتهي سريعاً.

أنا:

ـ قل لي، وهذه الصورة التي على الجدار...

هو:

ـ حسناً، تكلّم، تكلّم! لا تهتم بانشغالي في الكتابة. يجب أن أنهي ما أكتب، لم يبق إلا القليل جداً. أنا أسمعك.

أنا:

ـ من أين لك هذا؟

هو:

ـ ماذا؟

أنا:

ـ هذا المخطط. مخطط السفينة المقسومة إلى نصفين، إنها السفينة ذاتها التي رسمت على مرساتها صورة بحار، ها هو ذا، يحمل دلواً وفرشاة دهان.

هو:

ـ يجب أن تأخذه معك. انزع المسامير، ولفّه على شكل أسطوانة. بالمناسبة، أحقاً لا تعرف أن المرساة ـ هي الجزء الوحيد الذي لا يدهنونه؟ لا بأس، هذا ليس مهماً. يجب أن تأخذ معك كل ما هو مهم، لا تنس شيئاً. فكر، ركّزْ انتباهك!

أنا:

ـ ليس عندي شيء، ولا أحتاج شيئاً.

هو:

ـ أنسيت حقاً؟ أنت نفسك قلت إنك فهمت: ما يبدو غير لازم ـ هو الأكثر ضرورة. انتبه، هل تسمع؟

أنا:

ـ هل يدق أحدهم الشبكة بقضيب؟

ـ صحيح. إنهم يمشون، وجميع من لا يمنعه الكسل يقرقع بعصا

أو مظلة. والآن، هل تسمع الزيزان ـ صوتها كصوت نابض ساعة يشده أحدهم. أما هذا فضجيج تراموای بعيد على السكة.

أنا:

ـ وما هذا؟

هو:

ـ كيف (ما هذا)؟ إنه أشواك. لقد ألقيتَها في شعرها، ثم رحت أنت نفسك تحاول انتزاعها، ولكنها كانت تقاومك. هذا كله يجب أن تأخذه أيضاً. والروائح! أيمكن أن تنسى الروائح! أتذكُر الرائحة اللذيذة في مخزن الحلويات؟ الفانيل والقرفة والشوكولاتة وقطع الكاتو الأثيرة لديك، المدعبلة كالبطاطا.

أنا:

ـ انظر، ومجموعة النباتات المجففة هذه، التي كتب عليها بخط طفلي متأنٍّ: "بودوروجنيك ـ بلانتاغو" هل نأخذها أيضاً؟

هو:

ـ طبعاً. وكتلة الكتب المكدسة في أرض غرفتك. وخاتم ماما الذي مازال يدور على حافة النافذة، ويقفز ككرة ذهبية صغيرة شفافة رنانة. وكذلك كيف كان أحدهم يمسح نظارته بربطة عنقه.

أنا:

ـ وقطعة الجريدة التي التصقت بالجرح الذي سبّبَته حلاقة الذقن؟

هو:

ـ نعم بالطبع، فلكل قطعة جريدة كهذه إنسان لا يشبه أحداً آخر، وهو يتلمّس بأصابعه عقارب ساعته التي لا زجاج يغطي لوحة أرقامها.

أنا:

ـ أزِف وقتنا!

هو:

ـ طيّب، طيّب. سننطلق الآن. لكن، انتظر قليلاً أيضاً!

أنا:

ـ وأين تلك الحصاة المستديرة التي هي "الأبدية"؟

هو:

ـ تخلصت منها. دسستها في جيبي وذهبت للنزهة. كان هناك مستنقع. قفزت الأبدية فوق الماء مرتين ثم غرقت، لم يبق منها غير دوائر على السطح. حتى هذه لم تبق طويلاً.

أنا:

ـ هيّا بنا!

ـ حالاً! حالاً! لقد أردت أن أقول لك شيئاً لكني نسيته الآن. ها، تذكّرت ـ لا تصغ لديموقريط! الأجساد تستطيع أن تتلامس، ولا فجوة بين الأرواح. الناس يصبحون ما كانوه دائماً ـ دفئاً ونوراً. لنذهب الآن، فقد حان الوقت. انظر، هل نسينا شيئاً؟ أنا أنهيت عملي. هذا كل شيء. الريشة ترسِل، وهي تحتك بالورق، صريراً يشبه زقزقة الشعر المغسول تحت الأصابع. اليد المتعبة تسرع وتبطئ لتكتب في النهاية: سعيدةً تكون السفينة حين تجتاز العاصفة، كذلك يكون الكاتب حين ينهي كتابه.

سيرة ذاتية

الدكتور فؤاد المرعي

- كاتب ومترجم سوري
- مواليد عام 1938
- دكتوراه في الآداب من جامعة لومانوسوف الحكومية في موسكو 1973
- أستاذ علم الجمال والنقد والأدب الحديث والعالمي في قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة حلب

من مؤلفاته:

- المدخل إلى علم الأدب ـ 1978
- الوعي الجمالي عند العرب قبل الإسلام ـ 1989
- الجمال والجلال ـ دراسة في المقولات الجمالية ـ 1991
- في اللغة والتفكير ـ 2002
- محاضرات في الأدب المقارن ـ 2009

من ترجماته عن اللغة الروسية:

- الانعكاس والفعل ـ هورست ريديكر ـ 1977
- علم الجمال البرجوازي المعاصر ـ 1978
- الممارسة النقدية ـ بيلينسكي ـ 1982
- بطل هذا الزمان ـ رواية ـ ميخائيل ليرمانتوف ـ 2002
- التوازن الاستراتيجي المفقود في القرن الحادي والعشرين ـ ألكسندر

بانارين ـ 2006

- القرية ـ رواية ـ إيفان بونين ـ 2010
- أكثر من ستين عملاً مترجماً في موضوعات تشمل الفلسفة وعلم الجمال وعلم الأخلاق وعلم الاقتصاد والعلوم العسكرية وعلم الأدب وأدب الأطفال

«كتاب الرسائل» رواية تحاور إمكانات الحبّ والتاريخ. إنها ترصد رسائل عاشقين فرّقتهما الحرب. كل منهما يحدّث الآخر عما فاتهما قوله حينما كانا معاً، حيث نجد حديثهما عن الحرب، وعن نشأتهما، ووالديهما، وعن مخاوف الطفولة وآمال المستقبل. كل منهما يبثّ الآخر أشواقه، دون أن يكون من الواضح متى بدأت هذه الرسائل.

الشاب فلاديمير يتم استدعاؤه ليلتحق بالجيش الذاهب إلى الحرب، أما الفتاة ساشا فتنهي دراستها للطب، وتعمل طبيبة نسائية.

كل شيء في هذه الرواية نسبي، حتى الزمن. إذ ليس من المهم ما يجري، بل كيف هي الساعات والأيام والسنوات في وعي العاشقين، منذ أن أبصرا النور حتى الموت.

يسترجع فلاديمير ذكريات حبه مع ساشا، فكأنها تولد من جديد. ومع الرسائل لكل شيء وجوده الخاص، فهي تحكي له عن حياتها التي بدأت تكتسب معنى وجدوى، وهو في الجبهة يكتب لها عن المشفى العسكري وعن معاناة الجرحى، وعن حقيقة أن كل الكلمات مخاتلة ليس بوسعها نقل الأحاسيس.

يموت فلاديمير بينما تتواصل رسائله، وتستمر ساشا في الكتابة إليه، عن زواجها، وعن فقدان جنينها، وعن رحيل والديها عن الحياة.

عبر كتاب الرسائل، تتضح البراعة الفائقة لدى ميخائيل شيشكين في الإحاطة بعالم العواطف والزمن، وفي تصوير المدى الواسع للشخصيات وحميمية تفاصيلها، الأمر الذي يجعله رائداً بين كتّاب جيله.

ولد **ميخائيل شيشكين** عام 1961 وهو أحد أشهر الكتّاب الروس المعاصرين، وأعمقهم أثراً في إبداع القرن الحادي والعشرين، وهو يمثّل الاتجاهات الجديدة في الرواية، ويمتزج لديه الطابع الكلاسيكي بالأساليب الحديثة.

يقيم حالياً ما بين روسيا وسويسرا، وهو ضيف محاضر في عدد من الجامعات والبرامج الإذاعية والتلفزيونية. بدأ الكتابة في عام 1993، وألّف روايات عديدة من أهمها: «إسماعيل المحتجَز»، و«شعر فينوس»، وروايته هذه التي استُقبلت بترحيب كبير من القرّاء والنقّاد.







Author photo: Yvonne Boehler

تصميم الغلاف: سامح خلف